أحلام وكوابيس

الجزء الثاني

صالح والحاج سعيد

الغلاف

لوحة بأسلوب "هيرونيموس بوس" الفنان المغمور العبقري، تُصوّر شابا في العشرين تقريبا يرتدي كوفية وقميصا أبيض، وسروالا أسود، يتأبط كتابا بيمناه ويحمل دفترا بيسراه، وعلى خصره غمدٌ فيه سيف كالقلم أو قلمٌ كالسيف، الشاب يرتقي درجا معلّقا يختفي في السّحاب، ويصل الأرض بالسماء، الدرج يُشِعُّ بنور ساطع في قمته، كأن الشمس منتهاه.
حول السُّلم في أعلاه حدائق بهيجة معلّقة، تزغرد في أطرافها العصافير من كل لون وشكل، أما قاعدته فغارقة في مستنقع قذر راكد يعجُّ بالبعوض والذباب والقرود والخنازير والشياطين، بعضها يشبه السحالي وبعضها على صورة بشر، بعضها ينفخ في مزمار، وبعضها حسنوات تبدو عليهن البراءة وهن ندّاهات في الحقيقة.
بعض الشياطين تزحف على الدرج تلحق بالشاب، وبعضها وصلت له وقبضت على كاحليه، وتعلّقت بظهره وهي تحاول إسقاطه إلى الحضيض، وهو ينفضها عنه ويطعنها بسيفه فتفحُّ وتفلت لتحلّ محلّها أخرى، فيصارعها ويجاهد ليحافظ على موطئ قدمه، ويواصل سيره بعسر ولكن بإصرار.

ملاحظة : للرسّام الإبداع في تصوير الشياطين كيفما شاء، فليرسُمها على ألف صورة مختلفة إن تفتقت مخيلته عن هذا، أما أنا فلم تبدُ لي سوى مسوخا على هيئة قردة وخنازير وسحالٍ.

أحلام وكوابيس

- الجزء الثاني -

إهداء :

- إلى روح صديقي العزيز : محمد بوكراع

أدعو الله أن يرحمك ويُسكنك فسيح جنانه، آمين.

- إلى جميع الأصدقاء الذين شجعوني ودعموني.
- وإلى جامعتي الحبيبة، سأكتب عنكِ في المرة القادمة، فاستعدي لتلقي قبلة الديمينتور.

المقدمة

الليلة الأولى، إن شاء الله سأكتب الكثير الليلة، ستكون ليلة تاريخية، أرجو من الله أن تكون كذلك.

الليلة الثانية، بسم الله، اللهم اجعلني ملك القلم.

قال تعالى : "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

الليلة الثالثة، **أسألك إلهي أن تؤتيني سحر القلم، إنك أنت الوهاب**

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله على هذه النعمة، رب زدني.

بسم الله الرحمن الرحيم، فلنبدأ على بركة الله

ملاحظةٌ قبل أن نبدأ: إن كنتَ تكره المقدمات الطويلة مثلي فلك أن تتجاوزها، ولكني لا أنصحك، فقد أفرغتُ فيها روحي وقلبي، وأنا أراها قصة بحد ذاتها.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

ندوة للكاتب صالح والحاج سعيد

أنهيتُ مداخلتي وأنا أرتجف، ساقاي ترتعشان، على وشك السقوط في أية لحظة، كأني على دراجة ذات عجلة واحدة. العرق يُغرق وجهي، فيبدو كمكعب جليدي يذوب.

كان توتري في أقصاه، ورهابي الاجتماعي يناطح السحاب، ويجعلني أتمنى لو ألقيتُ بنفسي من ناطحة سحاب بدل إلقاء هذا.

غفر لي معظم قرائي الذين طالعوا الجزء الأول ذلك، وتأكد لديهم ظنهم؛ إنه يتحدث عن نفسه، ليس كل ما يكتبه خيالا، لا سيما إن كانت القصة/الرواية تتضمن عقدا نفسية، صراعات داخلية، أو أحلاما مجنونة.

شكرني منظم الندوة الذي قدّمني "لقمان" على المداخلة المرصّعة بالفوائد والمعلومات والنصائح، ورجا أن يكون الحضور قد استفادوا – أُرجُ أن يكونوا قد سمعوا، وإن سمعوا أن يفهموا – ثم أعلن بعد الإطراء عن افتتاح فترة الأسئلة.

"سؤال للإناث، وآخر للذكور، هكذا بالتعاقب، ولا تعقيب بعد تلقي الإجابة رجاء"، التفتُّ حين قال "الإناث" إلى الخلف حيث وقفن آخر القاعة؛ التي كانت تغصُّ بالفتيات والنساء من مختلف الأعمار، آه، يا لتعسي، ثم التفتُّ إلى الذكور، فإذا هم معدودون على الأصابع، أصابع سلاحف النينجا.

"لنبدأ بال... "، وألقى عملة عاليا ثم قبض عليها بخفة، وكشف فإذا هي..

وقفتْ أمام الميكروفون وقالت : "روايتك الأولى "فكرة قاتلة" كانت مثيرة مشوقة رغم سوداويتها، أنا أحب الرعب، وقد قدّمتَ لي طبقا شهيا –

أقصد مريعا – لقد ارتجفتُ وأنا أتخيلها، أنت حقا كاتب مبدع وموهوب، وأتمنى لك النجاح من أعماق.."

أعماق البحار، تحتها ادفنوني رجاء، وسأكون شاكرا لكم، سأقبِّل أقدامكم، هيا، اطرحي سؤالك وابتعدي عن المنصة، كُفِّي عن المجاملة، أتريدين أن تريني خجِلًا محمرا، وتحرجيني أمام الناس أيتها المعتوهة، ألا فاعلمي أنه لن يحدث، أنا بارد المشاعر، حتى البيج فوت تصتك أسنانه وتؤلمه حين يعضُّ علي، ومتحجر القلب، قلبي سيجعل ميدوسا تلين.

ابتسمت وتابعت قائلة بسوط ناعم : "سؤالي هو : لماذا تفرط من استخدام "اللعنة" و"تبا"؟ لا تسئ فهمي القصة جميلة، ولكن تلك الألفاظ تترك لطخة عليها، وشكرا"

تبّا لكِ، أخيرا طرحتِ سؤالك اللعين أيتها الملعونة، تستحقين التباب والتتبيب والمبيت في التبت إلى جوار... تبا، هذا تابو فلن أبوح به. (في الحقيقة لا يوجد أي تابو، أعجبني الجناس وانجرفتُ معه ولكن جملتي لم تحمل أي معنى لذا قطعتها كأن هناك معنى محذوفا لم أشأ البوح به لأتستّر على عجزي، شكرا على تفهمكم).

نقَّبتُ عن الصوت في حلقي حتى اجتثثته وأجبتها باخلا بكلماتي عليها : "انظري سورة المسد".

الملعونة كانت تسحب عباءتها وتضمها في قبضة أمامها تحضُّرا للجلوس على الكرسي، ولكنها سمعت جوابي فرجعت للمنصة وقالت باستياء : "ماذا تقصد؟"

نظرتُ لصديقي "لقمان" المقدِّم مستنجدا، ولكنه كان منشغلا بأحد الفتية في الصف الأمامي، كان يثير الجلبة بنقاشه مع رفيقه، ألم تخبرهم " لا تعقيب"؟

الآن علي أن أبرر وأنفق الكلمات بلا حساب عليها : "آه، قصدتُ أن المسد..آه، تبدأ ب..."تبّت"، وتعالى الله عن أن يقول ف-ف-فحشا في القرآن، ف"تبا" تعني الدعوة بالهلاك، و"اللعنة" تعني الطرد من الرحمة ولذا ليستا سبابا مقذعا أو.."

فردَّت مقاطعة : "الله أدرى بمن يستحق اللعن، وله أن يفعل ما يريد، فهو الرحيم وله أن ينبذ من يشاء، ثم إن القرآن ليس كله لعنا، فهذه الألفاظ فيه قليلة، أما أنت فروايتك ومجموعتك القصصية زاخرة بها".

زاخرة؟ تعالي واقرئي مسودتي الأولى لرواية "ثورة لعينة"، قد يتغير مقياسك ل"زاخرة" بعدها، الحمد لله أني لم أنشرها.. بعدُ، هههههه.

"وأنت مؤمن والرسول صلى الله عليه وسلم قال : "ليس المؤمن بالطّعان ولا اللّعان"

تناقشني؟ لقد أضحت هذه مناظرة إذن، قلتُ لها : "أيتها الصمّاء البلهاء اخرسي واجلسي، ألم تسمعي القواعد؟ لقد قال : "لا تعقيب"، أنا لا ألعن سوى الشخصيات أمثالك"، مهلا، لا، هذا ما جال بخاطري، إجابتي كانت : " أتفهم اعتراضك يا آنسة، ولكن أرجوكِ أن تضعي في حسبانك أن الكلام على لسان الشخصيات، والشخصيات بعضها شرير، وأنا لم أر بعدُ شريرا يتكلم بلباقة، كما أن "تبا لك" عبارة..." توقفتُ عن الكلام فما سأقوله تاليا

سيزيد غضب هذه الحمقاء، وربما يدفعها لمجادلتي أكثر، وكل ما أرغب فيه الآن هو أن تخرس وتدعني.

ولكنني لمحتُ في عينيها نظرة فضولية متسائلة ملحة، فواصلتُ متلعثما : "هي عبارةٌ مخفَّفة".

- مخففة؟

- أجل، أتشاهدين الأفلام المترجمة حين تقول الشخصيات بالإنجليزية كلمة "F" فيترجمونها "تبًّا"، غير مدركين أن هذا يهوِّن من بشاعة السّبّة، ويساعد على انتشارها، حواراتي كذلك تماما، لذا حين تقرئين مجرما يقول : "تبا" فاعلمي أنه يقول... أظن أنكِ فهمتني بالفعل لذا لا داعي للأمثلة".

احمرّ وجهها غضبا واحتدّت : "مهلا، إذًا أنت تقول أن "تبّا" في الحقيقة كلمة لطيفة ويجب أن أرضى وأمتن لأنك لا تكتب بدلها الشتائم الفاحشة البذيئة؟ هذا حقا..".

قال لقمان : "يا آنسة، لقد تكلمتِ طويلا، وقد سبق واتفقنا على عدم التعقيب، الكثير من القراء يريدون أن يسألوا أيضا وهذا حقهم"، ولم ينتظر ردّها بل تابع : "والآن سؤال من الذكور".

آه، يا لقمان، ليت لي سرعة بديهتك، وفصاحة لسانك، أرأيتم كيف أخرسها بأدب ولم ينتظر حتى إجابتها؟ هذا ما يعنيه أن يكون الناس دمى يتلاعب بها لسانك، تهزهم كلماتك، وتحركهم أينما وكيفما ووقتما شئت، مهارة خطيرة فعلا.

وقف الفتى الثرثار، وجرجر قدميه نحو المنصة، كان خجلا، ربما من غزارة الفتيات في القاعة، قال بصوت خافت رغم جرأته الظاهرة : "لدي سؤال، لِمَ..لِم.. لِم.."

ابتسمتُ له مشجعا، إنه مثلي، يختنق بلسانه فلا تسعفه الكلمات، تلاعب لفظي، يختنق، تسعف، فهمتها؟ المهم أنه قذف بالسؤال خارجا أخيرا : "لم تنهي كل قصصك بقتل البطل؟"

تجمدتُ في مقعدي، أخيرا أدرك أحدهم سري، ها هو سؤال أحفل به، إنه ينمُّ عن دقة في الملاحظة، لقد كشف نقطة ضعفي وأطلق على وتر أخيل، الآن هل أحاول الإتيان بجواب مقنع كاذب يدفع عني وطأة الاعتراف، أم أصارحه وأعترف له بعجزي؟

ضميري نطق : "الحق أني...".

قاطعتني الفتاة التي سألت قبله بوقاحة : "ولكن قصصك لا تنتهي كلها بموت البطل، بل على العكس، قليلا ما لجأت إلى ذلك، دعني أتذكر، رواية "فكرة قاتلة" مات البطل جورج ميتة يستحقها، بالمناسبة لم يستغرق اكتشاف قاتله مني سوى ثلاث ثوان" قالت متفاخرة وواصلت : "ثم قصة "أنا مسلم"، أُذكر لي قصة أخرى له أو رواية ختمها بالموت، أنا أتحداك، إذن السؤال تافه مبني على افتراض خاطئ يدل على أن صاحبه يقرأ بسطحية ولا يركز و.. ".

تجلى الغضب والخجل على وجه الفتى، كيف تجرؤ على اتهامه بهذا في حضرة كاتبه المفضل؟ وتجلى غضب يماثله على وجهي ممزوج بالعار،

كيف لتلك المأفونة أن تعرف عن كتاباتي أكثر مني شخصيا أنا الكاتب؟ هذا أشبه بأمير يدلُّ مهندس قصره وبنّاءه عبر الممرات السرية فيه، أشبه بناقد يكشف لفنان تفاصيل خفية في لوحته، ما تقوله صحيح تماما ما عدا شيء واحد... إنها لا تعرف عن "لسانها مشقوق".

هتف لقمان مجددا : "أدعوكِ ثانية للالتزام بالقواعد، وإلا فسنضطر إلى أن نطلب منكِ المغادرة، ونحن لا نريد أن نطرد أحدا".

طبعا، نريد أن نطرد، تلك بالذات تستحق الطرد، فكرتُ، ثم استأنفتُ إجابتي : " كما أشارت ال.. الأخت، قصصي لا تنتهي كلها بالموت، وإن كان بعضها ينتهي بالموت فذاك لعجزي عن تخيل نهاية تامة".

- تامة؟ ماذا تقصد؟

- أقصد أن كل النهايات ليست نهايات حقا إلا الموت، لو أنهيتُ القصة بمشهد البطل وهو يتناول فطوره مع بزوغ الفجر، ستسألني "وماذا أكل في الغداء؟" و"بماذا تعشى؟" و"ماذا عمل في يومه ذاك؟"، ولذا أقتله لتخرس، و"ماذا فعل بعد ذلك؟" أصبح وليمة للديدان ثم استحال ترابا، ويوم القيامة؟ أنا لا أعرف الغيب فلا تسألني ماذا حل به، إذن، كما ترى، الموت هو النهاية الفاصلة، آه، أقصد نقطة النهاية.

لاحظ الفتى التورية فابتسم ثم قال : "إجابة وافية، لدي طلب، هل يمكنك .. أيمكنك أن.. أن توقع.. توقع على.. على جبهتي؟"

- ماذا؟

- أريد أن أتذكرك كل صباح وليلة، حين أغسل أسناني قبل أن آوي للفراش، وحين أغسل عيناي بعد أن أبرح الفراش.

إنه معتوه، مهووس بي، stan، يريدني أن أوقع اسمي على جبهته، أسمه كالحيوان، إنه يرغب بالعبودية، لابد أنه يقدس كلماتي، ويحفظ اقتباساتي، ويجعل من أغلفة كتبي صورا لمكتب حاسوبه، ومن أسماء شخصياتي كلمة مروره، الأسوأ أني لو رفضته... ابتلعتُ ريقي وأذني تسترد لحن أغنية معروفة تتحدث عن هذا الهوس، نهايتها... الموت.

عقدت الصدمة لساني، كان لقمان على وشك أن يجيبه، حين هوى شخص من سقف القاعة محدثا فجوة كبيرة، تدلت من السقف الأسلاك الكهربائية كالمجسات، فيما جثم هو على الأرض وسط سحابة من الغبار وأكوام من الطوب المهشم والبلاستر، حانيا رقبته لينسدل شعره الأحمر الدموي على وجهه، فتغيب عيناه وتحضر نظرته المخيفة مع ذلك، كان يمدُّ ذراعه اليسرى قابضا بها على المطرقة الفولاذية الثقيلة، حركها مزيحا ستار الغبار، بعد لحظات انحسرت الصدمة عنهم فدوّت الصيحات الهستيرية كأنهن تذكَّرْنَ سمات الأنوثة، وراحت الفتيات يتنافسن أيهن أعلى صوتا، صرختُ واقفا : "أنت؟ لماذا جئت؟ أتريد أن تفسد علي الندوة أيضا؟ لقد اتفقنا، قلتَ أنك ستتركني وشأني إن كتبتُ لك أقتم قصة رعب سطرها بشر.

- حين قرأتها ثانية أدركتُ أنها ليست بقاتمة على الإطلاق، إنها فقط تجميعة لأبشع التصرفات البشرية، لم تبدع في شيء، كل ما فعلته هو أنك كررت نفس تيمات الرعب الشهيرة، أكل لحم البشر، مص

الدماء... إلخ، إنك لا تستحق لقب كاتب الرعب الذي توشح به نفسك.
وقف نذير وقال ذلك مستهزئا ثم أكمل وهو يزيح شعره الغزير عن عينيه : "ولكني ما لهذا جئت، لقد راودني إحساس بأنك ستواجه أسئلة محرجة فأتيتُ لأنقذك"
ثم توجه صوب لقمان الذي كان راكعا تحت المكتب فقد سقط السقف جواره مباشرة، خرج لقمان حين سمع خطواته تقترب، قال له نذير : "تزحزح، أنا سأتولى تنظيم اللقاء من الآن"
لم يذعن لقمان، بل وقف أمامه مبادلا إياه نظرة نارية، غير حافل بمرأى مطرقة ثور، رغم ملاحظته لسلامة نذير التامة كأنه لم يقع من السقف للتو، ثم كيف حطمه؟ بالمطرقة أم أنه وثب عليه وثبة خفيفة فإذا هو ينهار تحته غير متحمل لطاقته الطاغية .
ابتسم نذير والتفت نحوي وهو يدير مطرقته : "لم آت لأُدَوْكِرَ مسرح جريمة، ولكن يا سعيد إن لم ينزح صديقك فورا، فسأقتله وأنت تعرف أني حين أبدأ لا أتوقف"
ثم طفح به الكيل من صياح النساء المتواصل، كان بعضهن قد أغمي عليهن، وأخريات يصارعن نوبة صرع على الأرضية، صرخ فيهن وهو يهشم بالمطرقة المكتب : "اخرسن وإلا" ساد الصمت، رغم الرجفات والدموع والنظرات المرتعبة التي أرادت وكادت أن تصيح.
"سنواصل الأسئلة، ولكن fire style، ما معنى هذا؟ معناه أسئلة سريعة مختصرة وإجابات أسرع وأكثر إيجازا، ها هو العدّاد هنا، إن تجاوز سؤالك نصف دقيقة ف.."

وأكمل التهديد بتربيتة على مطرقته.
وقفتْ السائلة الأولى واستجمعت رباطة جأشها وقالت : "الشرطة ستقبض عليك، لن تفلت بجريمتك"، ثم التفتت نحوي وسألتني : "سعيد، أأنتما شريكان؟" (لا) " ظننتُ نذير شخصية خيالية حين قرأتُ الخاتمة، كيف سمح لك ضميرك بالتحالف مع مجرم والاعتراف بذلك في رواية، أتستغفلنا نحن معشر القراء؟" ثم عادت ببصرها تجاه نذير : "أتعرف أن مكالمة واحدة من هاتف..." ورفعت هاتفها الذكي وهي تتحدث، ثم بُهتت فسكتت إذ رأت نذير يحمله في يده ثم يلقي به في الهواء ويلوح بمطرقته كأنها مضرب بيسبول فيقذف حُطامه نحو الحائط ليتهشم أكثر.
توعّد نذير : "هذا ما سيحل بيد أي شخص يحاول الاتصال بالشرطة، إنهم أكثر إزعاجا من الذباب، والآن إلى الأسئلة، بعد أن أسمع خمس أسئلة جادة وإجاباتها سأطلق سراحكم، هيا، افدُوا حياتكم، وتذكروا أن الشرط هو "جادّة".
ثم تركهم يجمعون شتات أسئلتهم التي تفرقت حين هبط النيزك، وعاد ينقل نظراته بيني ولقمان، توسلتُ : "لقمان، ابتعد، الأمر لا يستحق، إنه بطّاش، ولا يمكننا صده"
فخطا لقمان تجاهي وعبر بجانب نذير، قريبا للغاية حتى كاد كتفاهما يتلامسان، كانت جرأة لقمان شيئا معهودا ولكن أن يداني الموت هكذا ثم يتجاوزه، هذه درجة من الجراءة لا أعظم منها، لعله لا يدرك خطورة نذير، لم يدرك أنه قارب خشبي صغير طفا على حافة دوامة

قطرها وعمقها كالحفرة في "made In abyss"، أفلتته اليوم ولكنها ستبلعه غدا.
كان فمي فاغرا، عانقتُ صاحبي وعيناي مغرورقتان، كدت تموت يا لقمان، ولم تدرك ذلك حتى، لا تفعل هذا بي مجددا أرجوك.
نطق الغلام المهووس، كانت عيناه تلتمعان من فرط الحماس : "يا إلهي، نذير، أنت حقيقي، كيف هذا؟ أوه، أذكر أنك أخبرتنا في خاتمة "فكرة قاتلة" أن الخيال يقتل ولكن ظننتك تمزح ولم أعرف أنك تقصد ما تقول".
نقر نذير بإصبعه على العدّاد، فتوقف الفتى عن الكلام لحظة ثم واصل : " كيف لهذا أن يحدث؟ هل كان خيال سعيد مكثفا مركزا للغاية حتى تجسّدت في الواقع كالتولپا أم ربما نحن شخصيات خيالية في إحدى رواياته؟"
قاطعته الفتاة صارخة فيه : "أأنت مجنون لعين؟ حيواتنا على المحك، وأنت تشارك نظرياتك كمعجب هنا، ألق سؤالا جادا بحق اللعنة كي يحررنا؟" (من يلعن الآن؟)
ولكنه انغمس في اللحظة، لحظة لقائه بكاتبه الأعظم وشريره المفضل في مك-آن واحد، واصل كلامه بفم واسع ينثر اللعاب على شفتيه وذقنه، وقد كحّل عينيه الجنون : "هل لي بطلب؟"
قال نذير وهو ينظر إلى العداد ينزل السلالم الأخيرة.. 10.. 9.. 8 : "ما هو؟"

- هل يمكنك أن تضربني بمطرقتك؟

فرفع نذير سبابته (لحظة واحدة رجاء)، ثم خفضها وقال لي : "قراءك مجانين مثلك".

فرددتُ متوسلا : "لا، لا، لا تقتله بالله عليك لا ت..."
غطت كلماتي صيحات المهووس المتعالية المحرضة : "افعلها، افعلها، افعلها"

كان جاثيا على ركبتيه أمامه، يتطلع نحوه بتبجيل وإجلال، التفت نذير إلى اليمين وقال حائرا : "ما ذاك الشيء هناك؟"

أدار المهووس رأسه معي ومن في القاعة جميعا – ما عدا فاقدات الوعي – لم يكن هناك شيء سوى الجدار المطلي بالأزرق، سمعوا طقطقة صارخة وارتطام شيء، التفتتُ والفتيات، كانت البقعة حيث جثا المهووس فارغة، وكان الجدار على اليسار مصطبغا بالدم القاني الذي راح يسيل من جثة المهووس المستندة عليه، عنقه يتدلى بزاوية غريبة بشعة، عيناه هامدتان، وفمه منفرجٌ في نصف ابتسامة، نصف وجهه الأيمن كان معجونا من اللحم والجلد والدم.

نفض نذير مطرقته لينثر الدم من عليها، ثم قال وهو يلتفت نحوهم ليقابل أعينهم المصدومة بنظرة مستمتعة متلذذة : "لقد تمنى علي، وأنا لستُ جنيا يخرج من مصباح لعين حتى ألبي أماني البشر الضعاف الحقراء، لذا قتلته قبل أن يتوقع حتى، والآن إلى السؤال التالي رجاء، سأضع عدّادا آخر لفترة إلقاء السؤال، إن لم تطرحوا سؤالا قبل مضي دقيقة فسأبيدكم"

أخذت ساقا الفتاة الجريئة ترتعدان، كانت نفسها تصرخ بها أن تهرب، وعقلها يقسم لها أن هذا مستحيل، وقلبها غائب في مكان ما يكاد يفقد وعيه، التفتت حولها تبحث عن منقذ، النساء والفتيات إما فاقدات الوعي أو العقل يصرخن بلا انقطاع، الفتيان أحدهما جاثٍ على ركبتيه يحدق في الفراغ، والآخر يحضن جثة صاحبه ويغسِّلها بدموعه.

كنتُ أحتجز لقمان بين قبضتيَّ حتى لا ينقض في هجوم انتحاري على نذير، ولكن لم يبدُ أن لقمان ينوي ذلك، ربما أدرك حقيقة هذا العفريت وخطورته، من سينقذني؟ (العداد.. 60.. 59... 58) من سينجدني؟ (العداد.. 57.. 56... 55) إلهي، أنقذني، أرسل لي من ينقذني، (54.. 53.. 52)

صرختُ فيهن من الهلع : "ألقين سؤالا واحدا، أي سؤال".

كانت عيناي تمشطان (.. 30 .. 29 .. 28) عن فتاة أو امرأة حافظت على رباطة جأشها (20 .. 19.. 18..) اخترقتا المقاعد، وتجاوزتا الأجساد المنطرحة أرضا، وأخيرا وقعتا عليها.

استجدتها نظراتي، هزتها كلماتي، تلفتت حولها، لا خيار آخر، لا بطل قادم، عليها أن تقدم وتنقذ نفسها، فتحت فمها إذ جاوز العد الخمسة، وصاحت : "لماذا نظرة الشخصيات الرئيسية إلى النساء عنصرية وعدائية؟ أنا أقصد إيثان وجورج وتوم، ثم لماذا كان من اللازم حين وصفت خروج آمي من الحمام خائفة أن تضيف تفصيلة أنها كانت "عارية"، أليس هذا مخلا بالحياء؟ ثم لماذا جعلتها طماعة وجشعة؟ ثم إنك فشلت في الهجوم على الإلحاد، لم يصبه منك سوى الخدش، تسعون بالمئة من الرواية

طرح للأفكار الإلحادية وعشرة فقط رد عليها، حشرت كل الأجوبة في الصفحات الأخيرة، فإذا توقف قارئ في منتصفها وتركها سيحسبك ملحدا كافرا، وأخيرا هل هناك جزء ثانٍ؟ النهاية خاطفة غير متوقعة ولابد لها من تكملة".

توقفت عن قذف الأسئلة وراحت تلتقط أنفاسها في لهاث مسموع، قالت فجأة وهي تغطي فمها : "يا إلهي، لقد أفرغتُ كل ما حضّرتُ من أسئلتي بلا شعور"

ذُهلتُ فبعض ما قالته أصابني في الصميم، ولكن البعض الآخر كان أسئلة تافهة مكررة، ثم تذكرتُ الموقف الخطير الذي أواجهه فابتسمتُ في ارتياح، وتنفستُ الصعداء، لقد أنقذتنا تلك الفتاة المتحذلقة المتعجرفة، لم أشكر فتاة في حياتي ولكني حينها كنتُ مستعدا لخلع قبعتي لها، التفتت لنذير مطالبا، فقال لي ولها : "واو، واو، واو، لقد طرحت الأسئلة الخمسة كلها دفعة واحدة، وحرمتنا متعة عظيمة، متعة الترقب، متعة الإثارة، متعة الأنفاس المحبوسة مع العد التنازلي" ثم سكت وراح يبادلنا النظر، كانت عيوننا تنظر الوفاء بالعهد، ابتسم كأنما أدرك ذاك أخيرا وضحك ضحكة خفيفة وقال مندهشا : "مهلا، مهلا، لا تقولوا لي أنكما تنتظران وفائي بوعدي؟ لأني لن أفعل"

تملّكتنا الصدمة، لقمان راح يرتجف من الغضب، فيما كان يتصارع علي الغيظ والقنوط، أما الفتاة فكانت على وشك أن تصرخ به حين تابع كلامه : "آه، كم يزعجني في الإنسان نسيانه، ذكرني، ما هي القواعد يا لقمان؟"

لم يجب لقمان، لقد كان يكز أسنانه بشدة.

لم يكترث له نذير : "سؤال واحد ثم جوابه ثم سؤال آخر وهكذا، وهي ماذا فعلت ألقت بحقيبة أسئلة ممتلئة على حجورنا، لقد خالفت القواعد، ولذا سأحتسب كل هذا سؤالا واحدا كبيرا أو إشكالية".

أيها الوغد، لم يفشل نذير أبدا في ابتداع طرق جديدة كل مرة للتلاعب بي وتعذيبي، ها هو يصفِق باب النجاة في وجوهنا، بعد أن فتحته الفتاة على مصراعه وخطونا على عتبته.

ولكنه قال فجأة : "ولكن ولأني رحيم عطوف على غير ما تظنون سأعفو عن جهلكم هذه المرة"

ثم التفت نحوي وقال : "هيا، أجب"، وأشار للنساء المستفيقات والمغشيات فإذا هن يحلقن وينقذفن خارج القاعة بسرعة.

أخذت الفتاة تجري صوب الباب ولكنه صرخ فيها : "مهلا"، التفتت خائفة فقال مبتسما بلطف : "تسألين ثم تغادرين دون أن تسمعي الجواب؟ هذا ليس من الأدب".

رجعت تجلس على مقعدها مرغمة، وهي تكاد تنفجر من السخط ممزوجا بالخوف من مزاج نذير النزواني المتقلب.

ثم أشار لي : "والآن يا سعيد، تفضل"

صعدتُ إلى المنصة وقلتُ للكراسي الفارغة متفاديا النظر إليها : "أولا، شخصياتي عدائية تجاه المرأة.."

قاطعني نذير : " لأنني أكرههن"

آه، تبا لك! أنا في نظرك مخلوق لعبثك وسخريتك، سيظل يقاطعني بإجاباته المختلة المسيئة كلما حاولتُ التبرير والتفسير.

تجاهلتُ نظرته اللعوبة وبسمته الشيطانية : "بدل أن نجمع كل الشخصيات هكذا تحت مظلة واحدة، فلنعدِل ولننظر لكل واحدة على حدة كما نفعل – أو يجدر بنا أن نفعل – مع الناس في الواقع، فلكل شخصية نفسيتها وظروفها ودوافعها، أولا، جورج، جورج ملحد عدمي مؤمن بأن الأخلاق مصطنعة لا تهم، وأن الخليقة كلها عبث لا قيمة له، ويعتقد كذلك بما قالته تلك الفيلسوفة الأمريكية عن أن الأبناء لا يدينون لوالديهم بشيء، ولذا لا يبالي بأمه تطبيقا لمعتقداته، ولا يهتم إلا بإرضاء نفسه، ولذا نجده يُعجب بهارونا أو بعقلها فهو يحب العقل وحده... "

علّق نذير : "يحب العقل وحده، أعرف شخصا آخر مثله، ما اسمه يا ترى؟"

- أما عن تلك الفتاة التي أطلّت من النافذة (فنالت جزاءها لأنها فضولية) فقد وقعت ضحية لخجل جورج وانطوائيته وعدم ثقته بما يكتبه، فهو لا يحب لأحد أن يطلع على كتاباته حتى يشعر بأنها ترقى لتوقعاته، وحتى حينئذ لا يأذن سوى لمن يأتمنهم بقراءتها، ولذا الفضول البريء بنظرك كان جريمة تجسس وتلصص منكرة بنظره هو" (للتقريب فقط، ما شعر به هو ما تشعر به الفتاة لو تلصص عليها أحد وهي تغيّر...) "

حينها لم أعد أحتمل، قلتُ لنذير محمر الوجه مغتاظا : "ألا تستحي أيها المخلوق الحقير القذر؟"، هتف لقمان بشيء مماثل.

فقال نذير مدافعا عن نفسه : "كتبتَ ما هو أسوأ"

- الكتابة شيء والجهر بذلك علنا شيء آخر تماما
- يجب عليك ألا تكتب ما تخجل من قراءته علنا.

تبا له، شيء داخلي يخبرني أنه محق، الشيطان يعظ، ولكن أنا أكتب سرا، وأريد للناس أن يقرؤوا سرا كذلك، القراءة والكتابة هوايتان يمارسهما الفرد بمفرده، ثم إني لم أسمع بإمام يجرؤ ويقرأ "تحفة العروس" على المنبر، ولم أسمع كذلك بمسلم يندد بذاك الكتاب لأنهم اتفقوا جميعا سرًّا على الجمهور المستهدف، والوقت والمكان المناسب لقراءته كما أن... "

صاحت الفتاة بهستيرية مقاطعة : "ماذا عن إيثان؟ لماذا يكره النساء؟"

ولكن تحت السؤال كانت تختبئ صرخة استغاثة : أسرعوا وأطلقوا سراحي بحق اللعنة!

أجبتُها : "إيثان هو النقيض الكلي للنسوية، يكره النسويات بشكل خاص لأن زوجته التي هجرته منهن، لهذا نجده يحتقر آمي، لأن جراءتها وسلاطتها تذكرانه بزوجته التي تخلت عنه وعن ابنيها، ولكنه كذلك غاضب طيلة الوقت لأنه لا يستطيع التنفيس والتصريح بمشاعره المكبوتة هذه لها، فنسمعه يسبُّها ويشتمها في سريرته بلا توقف، أما عن كونه يكره النساء عموما فلا، شيء يجدر بي ذكره أيضا لحظة بعينها أردتُ أن أبرز فيها معضلة الرجل، وهي مجسدة في هذا السطر :

"وانطلقت تمشي من جديد في ثقة بينما تنورتها... اللعنة!... أغلق الباب وهو يغلي من الغضب"

تناست الفتاة تعجلها الخروج وسألت : "آه، نعم، ذلك السطر، ماذا يعني؟ لقد ظللتُ أتأمله طويلا فلم أجد فيه غير اللعن، حتى المشاعر والخواطر تترجمها باللعن، ثم تتوقع من قارئك أن يفهمها ويتفهم استعمالك له".

تدخل نذير : "كان يريد تقليد "بيل برر"، الكوميدي المشهور المعروف بكرهه للنسوية ومشاكله مع النساء، يا للمفارقة، القصة باختصار: ذات مرة حكى بيل برر عن قصة أعجبته لملاكم يروي تلقيه للكمة وما خطر له لحظتها، فكرة واحدة راودته : أوه، اللعنة. أعجبت بيل برر واقعيته كثيرا، أعجبه أنه لم يستغرق في حديث نفسي سرمدي قبل أن تصيبه الضربة كما يحدث في الأفلام والأنمي، وما يعجب بيل برر يعجب سعيد"

راحت الفتاة تعصر عقلها لتستوعب ما علاقة هذا بذاك ولماذا الآن بالذات؟ الجواب الوحيد أنهما يمططان الإجابات عمدا لإطالة عذابها، تبا لهما!

فيما نظرتُ لنذير شزرا وقلتُ : "نعم، السطر مستوحى من بيل برر، ولكن نذير لم يشرح القصة جيدا، المهم، ذاك السطر يصور لنا إيثان إذ ي..ي..ي.. (اختنقْههه، هذا ما يحدث حين تكتب ما لا تقول) ي.. يشتهي آمي ولكنه يمقتها في الآن ذاته، فيخوض في صراع داخلي، ينظر لها فيُفتتن، ثم يسحب عينيه حانقا على نفسه الخوّانة.

اعتلى محيا الفتاة الاشمئزاز، فقلتُ في سري : تبا لها! إنها الحقيقة، أتريدُ مني أن أكتمها؟ كيف يقع الاغتصاب إن لم يكن بنفس النمط الذي ذكرته، رجال يكرهون المرأة ويشتهونها، فليكن، لننتقل إلى موضوع آخر.

قلتُ لها : "ذكريني بسؤالك التالي..."

- مهلا، مهلا، بدأتُ أملُّ، وإن كنتُ قد مللتُ بالفعل فلابد أن القارئ مات ضجرا (أي قارئ؟ عم تتحدث؟) دعنا نفعل هذا بطريقة أخرى أكثر إمتاعا.

صاحت الفتاة ملتاعة : "لا، لا تقل لي أنا سنستغرق وقتا أطول".

كانت تحدِّق في الجثة قبل ذلك، جثة المهووس ما زالت متكئة على الجدار مسترخية، لم تختف، رغم أنها رجَت ودعَت وتمنَّت أن تختفي فتطئمن إلى أن هذا حلم، ولكن لا، الذبابات التي تطِنُّ وتنطُّ على حدقتيه الساكنتين تؤكد لها : "هذا ليس حلما، هذا كابوس حقيقي".

تحطمت أعصابها فجأة، وتهانفت وتهاوت جاثية على ركبتيها فإذا هي في الهواء على ارتفاع شاهق، سقووووووووووووووط حر.

صرختُ، وصحتُ مناديا أمِّي لاإراديا من الفزع، وهتف لقمان : "يا رب".

قال نذير ضاحكا بجنون : "سقوط حر، رائع، أليس كذلك؟"

كانوا يقعون بسرعة جنونية، ولكنهم رأوا أن الأرض تتحرك، تندفع مرتفعة نحوهم كالصاروخ، كأنها في الحقيقة سفينة فضائية تغادر، أذاهبة إلى المريخ؟ لا، بل قادمة لأقدامكم، قدِّموها لي، سأدقُّها لكم.

على الأرض افترشت غابة كثيفة ونهر جار، على حافتهما بيوت صغيرة متراصة، كل هذا ينقضُّ عليهم بسرعة.

- آه، نحن موتى

أخذ لقمان يتلو الشهادة ما دام هناك وقت، كان قريبا للغاية مني، نظرتُ له فإذا خدوده ترجرج، وعيناه متسعتان على أقصاهما تفيضان دمعا، كان سرواله قد شكل شبه منطاد، آه، ليت تلك النكتة عن سروال مزاب حقيقية، طاقيته اختطفها الهواء، أمسك بكتفي وصاح : "أيها الأحمق، لم لم تخبرني أن وراءك شيطان؟ كيف لا تخبرني وأنا أصدق أصدقائك، الآن سنموت جميعا، لأننا لم نتحضر له، كيف استحضرته؟ أكنتَ تقرؤ كتب السحر سرا؟"

- لا، أقسم لك، كلا.
- لماذا لم تخبرني أن أحضر مظلة هواء؟
- أنتما، أأنتما معتوهان؟ نحن نسقط وأنتما تتجادلان.

قطعتْ أحاديثَ ما قبل الوفاة الدافئة الحميمة هذه ضحكةُ نذير المجلجلة، كان قد استلقى على قفاه في الهواء وراح يركل برجليه ويتدحرج على جنبيه وقد أمسك بطنه منفجرا ضحكا.

أدركنا فجأة أننا قد توقفنا عن السقوط، رجمناه باللعنات من كل الجهات، لكن هذا لم يزده سوى بهجة وسرورا، رد علينا : "كيف تلعنونني وأنتم الساقطون؟"

فهمنا بعد لحظات فصببنا عليه وابلا آخر من اللعنات، قال لنا : "اهدؤوا، اهدؤوا، إنه مجرد مقلب، والآن إلى وجهتنا الحقيقية"

فرقع بإصبعه فإذا نحن في موقع تصوير فيلم، أدركتُ ذلك من خلال الكاميرات العديدة، والمخرج الذي أعلن : “action”، وهو يغلق ذلك المربع الملون بالأبيض والأسود، ما اسمه؟ أيا كان اسمه، بالإضافة إلى جهاز الإضاءة، كانت الكاميرات تتبع امرأة قصيرة الشعر في معطف حمام، إلى أين؟ إلى الحمام طبعا.
راحوا يصورون غير آبهين بظهورنا الفجائي، رغم أنني أنا ولقمان والفتاة كنا مُقعين – فقد وقعنا – على الأرض تحت أنوفهم مباشرة، حتى أني رأيتُ بعض الممثلين والمصورين ينظرون نحونا ولا يروننا فكأن نظراتهم جان ونحن جدران، وثب لقمان واقفا وانقض على رقبة نذير من خلف، ولكن الأخير خطا جانبا ببساطة وتفاداه واضعا قدمه في طريقه ليتعثر ويسقط على ساعديه حابيًا، شعرتُ بالأسى على لقمان، لابد أنه يحس الآن بعجز مقيت، عجز الرضيع أمام البالغين، شعوري الدائم حيال نذير.
ضحك عليه : "محاولة جيدة، حاول مجددا"
ثم التفت نحوي وتقدم ووضع ذراعه حول كتفي، وجذبني نحوه، ووسوس في أذني بإثارة : "أتعرف أين نحن؟"
نفرتُ منه مشمئزا تلقائيا نفورك من السكير أو المدخن، ولكنه شدني إليه ثانية : "نحن هنا لنجيب على أهم سؤال : لماذا اخترت "عارية" من بين كل الأوصاف؟"
أخذ عقلي الحلزوني السلحفاتي الكسلاني يعصر نفسه ليبيض إجابة "أين نحن؟"

شيئا فشيئا انقشعت غشاوة نظرتي الزجاجية الخاوية وحلَّ مكانها رعب خالص حين أعلن المخرج : "مشهد خروج آمي – action" عضضت على يد نذير بوحشية بدائية كطفل أو معتوه، وانطلقتُ هاربا عبر الصالة غير آبه لما يعترضني، كدتُ أرتطم بكرسي، وطاولة، وميكروفون، التفتتُ للخلف خائفا، الصورة تهتز بشدة لسرعتي، لم يكن هناك، لمحت لقمان والفتاة مصعوقان، ولكن هو، أين هو؟ التفتت أمامي، جدااار.

ارتطمتُ به، ولكني لم أشعر بألم بل رحت أسبح للحظة، لقد اخترقته كالجان، وخرجتُ من الجهة الأخرى، ليقابلني وجه نذير، واسعا عملاقا محيطا كأنما أزاح كل العالم جانبا واستأثر بعينيَّ، أمسك بخدي في جزء من الثانية بدت كساعة، بين ظفري أصبعيه الطويلين، وجذبني بعنف ليرجعني، حلقتُ في الهواء، وطرتُ عبر الجدار من جديد، رحتُ أتشقلب وأتدحرج على الأرضية، مخترقا الكرسي والطاولة والميكروفون، حتى توقفتُ عند قدمي لقمان، حيث كنتُ، لم أُصب بخدش، ولكن ليتني أُصبتُ بارتجاج دماغي، سمعتُ نذير يصرخ عبر الصالة : "شاهد، شاهد ما صوّرت يداك"

لكن الصوت الذي أرعبني فعلا كان صرير الباب وارتطامه بالحائط، أغمضتُ عيناي وأحكمتُ إطباقهما، أعرف ما سيحدث تاليا، أعرفه لأني أنا من تخيل هذا المشهد، من أوجده، أنّى لي أن أعلم أنهم سيحولون روايتي لفيلم؟ لو عرفتُ لحذفتُ كل الكلمات المخلة، لو عرفتُ لغيرتُ كثيرا فيها، آمي لم تكن لترتدي تنورة قصيرة ولا لتخرج من الحمام عارية من الفزع.

أغمضتُ عيني ولكنني شعرتُ بأصبع غليظ حاد يقشر جفوني ليكشف عن المقلتين قسرا، إصبع نذير، راح يردد : "شاهد، قلتُ شاهد"

- كلا، كلا، لا أريد.

راح المشهد يجري أمامي بالحركة البطيئة، رأيتُ مقدمة شبشبها تطلُّ أولا، بدا وكأنها تمتد امتداد اللحظة إلى ما لا نهاية، أخيرا ظهر إبهام قدمها المصبوغُ الظفرِ، أخذت اللقطات تتسارع الآن، البوع ثم الأخمص المفلطح ثم الكعب والعرقوب والعقب.

ظهرت القدم الثانية لتكمل العد، راحت تنكشف صعودا حتى طلائع الربلة.

"كلا، كلا" صرختُ بعذاب حقيقي.

"أأنت خجل؟ أتشعر بالعار؟ بالذنب مما كتبت؟ الفتاة معها حق"

رحتُ أتوسل : " لم أعرف أنهم سيحولونها لفيلم، لم أتوقع أن أشتهر لذاك الحد، أرجوك، أرجوك يا نذيير"

- تتذرع بالجهل، الآن انظر ما قدّمت يداك.

قفزت المرأة خارجة بشكل كامل في تسريع مباغت، انفتح فمي في صرخة عاتية، ولكني فجأة أدركتُ مع ضحكة نذير الساديّة أنها تلبس معطف الحمام، خرجت راكضة في هلع وهي تتعثر، ومرت بكلينا دون شعور، وانعرجت متوجهة نحو غرفتها لتصطدم بزوجها وترتمي في حضنه، أطلق صيحة فقد كان يمشي عبر الرواق شاردا حين فاجأته، راحت تبكي، أخذتُ أبكي أيضا بشدة.

ربت نذير على ظهري : "آمل أن تكون قد تعلمتَ درسك، والآن اعترف للآنسة بأنها محقة، هيا"

سحبني من ياقة قميصي وجرني إليها كما جرّ نيغان ريك، اندفع لقمان مهتاجا يدافع عني، ولكن ما كانت إلا لمسة من نذير حتى قذفه إلى مكان آخر كليا، محيط ربما أو دغل، أو ربما أرجعه لبيته، لا أعرف، لم أهتم حتى، كانت نفسيتي هشيما، هيروشيما بعد القنبلة.

تحت القصف المتوالي منذ اقتحم نذير حياتي، منذ اقتحمها وأنا فأر في قبضته يُجري عليه ما عنّ له من تجارب، لا مهرب، لا ملاذ، كم من الوقت ظللتُ أردد لنفسي أني سأقتله ولم أستطع، أني سأختبئ ووجدني، أني سأهرب ولحقني، أني سأعتاد العذاب ولكن جلد قلبي الهش ظل يتجدد.

قال نذير : "مرحبا بكما في القسم"

كنا في قاعة اصطفت فيها الطاولات والكراسي، في المقدمة عُلِّقت سبورة بيضاء، وفي آخر القسم اتكأت خزانة على الحائط. قادني نذير بلطف وأجلسني على طاولة قبالة السبورة، وطلب من الفتاة أن تجلس حيثما شاءت، بلعت ريقها وقالت لنفسها : سينتهي الأمر قريبا، سينتهي قريبا، ولن أرى هذا الشيطان مجددا أبدا لأني لن أدنو خطوة من هذا الكاتب الممسوس في المستقبل، أعوذ بالله منه.

وضع حقيبة أدواته التي استحضرها من الهواء على مكتبه. أخرج مئزره الأبيض وارتداه وزرّره على مهل وهو يصفر، عدّل ياقته، وراح يبعثر شعره

الغزير ويسرِّحه بيده متأملا مرآة يد صغيرة على رأسها جمجمة، ابتسم للفتاة ابتسامة واسعة وقال : "كما ترين يا آنسة، سعيد منهار تماما حاليا، إنه حساس هش، ناعم بعبارة أخرى، لا أحسبه يقدر على الإجابة على سؤالَيْك المتبقيين"

قالت الفتاة : "لا بأس، سأكتفي بما نلتُ من جواب وأسأله مجددا في الندوة القادمة"

حدجها بخيبة أمل : "ظننتُ أن فضولك لا يقف عند حد، أأنتِ خائفة... مني؟ اطمئني، لن أفعل لك شيئا، ستنالين إجاباتك وافية شافية لأني فتى مؤدب مهذب، علمتني والدتي ألّا أنكث بالعهد أبدا، لذا استمعي بانتباه لشرحي، انسي سعيد (أشار له، نظرت فإذا هو زائغ العينين لعابه يسيل على صدره) وانسي جثة ذاك المهووس (خطرت ببالها صورته، فاقشعرت، الذباب يجري على عينيه) انسي لقمان (أين هو؟) انسي كل شيء وركزي معي"

ثم سأل نفسه بصوت عال : "هل سيكون هناك جزء ثان ل"فكرة قاتلة"؟"، وخطّ على السبورة "HELL NOO".

لم تكن الفتاة تعرف الإنجليزية جيدا، ولكنها فهمت "no" طبعا.

سأل مجددا : " إذن، لماذا انتهت الرواية فجأة في موقف صادم، البطل مات وقاتله لم يُكشف عنه حتى، بل لُمِّح إليه، أيُّ نهاية هذه؟ سؤال جميل أيتها الأخت".

قال العبارة الأخيرة بلهجة ذاكر نايك ثم كتب بخط كبير : "cliff hanger".

واستدار نحوها وشرح : "هذا أسلوب قصصي حديث مشهور، وهو حين ينهي الكاتب الفصل أو الرواية أو الحلقة أو الموسم بموقف يحبس الأنفاس، ليترك المشاهدين أو القراء يجلسون على حافة مقاعدهم أو يقفزون مصدومين أو متحمسين متلهفين للقادم، إنها حيلة عبقرية لجعلهم يشاهدون الحلقة تلو الحلقة والموسم تلو الموسم بلا انقطاع، فيصبح المشاهد أو القارئ أسيرا في يدك، وهذا ما يرغبون به، أليس كذلك؟ لتحقيق أرباح لا تقل بل تستمر وتزيد، مهلا، أنا أظلمهم، هناك بعض الكتّاب لا يفعلونها لأجل المال، المهم، هناك قلة قليلة من الكتاب المخابيل أمثال سعيد هذا يجعلونها النهاية القاطعة لرواياتهم، لا لغرض سوى صدم القراء، وربما لتخييب أملهم، وتعذيبهم بتركهم متجوعين للمزيد عالمين أنهم لن ينالوه أبدا، سعيد هذا ساديٌّ مثلي ولكن بطريقة خفية شرعية لا يحاسبه عليها أحد، لذا لا ترثي له، فهو يستحق".

ابتسم بعدها وقال : أكل شيء مفهوم؟"

- مفهوم.
- أنا حقا أستاذ رائع، والآن، إلى سؤالك الأخير، أأنتِ متلهفة؟ مستعجلة؟ أستطيع أن أشم التوتر، والذعر، والأمل الخافت، والرغبة الملحة في الهرب، ولكني كما قلتُ لن أقتلك، لذا لم لا تسترخين

وتطمئنين؟ والآن سؤالك كان : لماذا كان الرد على الإلحاد في "فكرة قاتلة" ضعيفا شحيحا ولم يكن الطاغي في الرواية؟

استدار للسبورة مجددا وخطّ : "perspective"، ثم قال : "الرواية في معظمها مكتوبة من منظور ملحد فجورج هو الشخصية الرئيسية، وليس من المعقول أن نسمعه يدحض كل آراءه الخاطئة بنفسه، وإلا لما كان ملحدا إذن، الأقرب للواقع أن نجده أحيانا قليلة يصارع نفسه ويشك في قناعاته، ويشيح عن الإجابات المنطقية التي تنطق بها فطرته وضميره وينكرها، ستسألين الآن، إذن، لماذا لا يعلق الراوي بنفسه على تجديف جورج، الجواب أن القصة لم تُكتب من منظور الراوي العليم "omniscient narrator perspective" وهو الأسلوب الكلاسيكي حين يكشف الراوي كل شيء، خواطر ومشاعر جميع الشخصيات، ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها، سعيد لم يستخدم هذا الأسلوب بل روى القصة من منظور الشخصيات المحدود، ولهذا لم يتدخل ولم يعلق، بل حاول أن يدحض الإلحاد ويفضح صورته القبيحة عبر حوارات الشخصيات نفسها، حين يعترف جورج بعقوقه لوالدته ويبرر ذلك، حين يصرح بأنه يعتقد بالعدمية، تلك الفلسفة التي تبرر للدمار الشامل لأنه لا قيمة لأي شيء، المشكلة أن بعض القراء لم ينتبهوا لذاك بل ضايقهم أن جورج يجدِّف ويتجرؤ على الدين، أما الإجابة الصريحة على كل حجج جورج، فقد كانت في أواخر الرواية عبر خواطره هو نفسه، وقد ورد فيها عدة ردود على معضلة الشر، هناك أيضا رد وجيز ومفحم في الصفحات الأولى على فكرة "الصدفة" التي يعتقد الملحدون أنها خالقة الكون، ولكن مع ذلك، لابد أن القراء يشكُّون في سعيد الآن، لربما يظنون أن له

أفكارا إلحادية، ربما يعتقدونه مؤيدا للنسوية، وراغبا في انقراض البشرية، ربما يحسبون أن جورج في الحقيقة تجسيد له هو لأنه اختاره بطلا لروايته، كل هذه تفسيرات خاطئة قادت إليها القراءة السريعة السطحية"

حملقت فيه الفتاة متفاجئة، إنه يدافع عن سعيد؟ ظننته يكره سعيد، إنه يشرح كيف أن الرواية تهاجم الإلحاد، أليس شيطانا مريدا؟

لابد أنه قرأ أفكارها لأنه قال فجأة وهو يخبط بيديه على طاولة سعيد السارح المحطّم، وينحني حتى تكاد تتلامس الجبهتان : "ولكن الخطأ خطؤ هذا الأحمق، إن سالت قطرة عسل في دورق من القيء فهل سيغير هذا طعمه؟ وهل سيرغب في شربه أحد؟ كلا، إذن، كيف تتوقع من القراء أن يستحسنوا قصتك لمجرد أنك حشوت كل الردود على الإلحاد في صفحة واحدة منها؟ هاه، أجبني أيها الغبي الأحمق"

وصفعه صفعة قوية ردّت له وعيه دفعة واحدة، ألقيتُ نظرة واحدة أمامي ثم صحتُ في رعب : "آه، يا إلهي، ظننتُ أني أفلتتُ من الجحيم"

ضحك نذير باستمتاع وقرص خدي بمخالبه القذرة، ثم التفت إلى الفتاة وقال : "قد أجبتُ عن كل أسئلتك، هل أنت راضية؟"

كانت تحدق فيَّ إذ راحت ساقي ترتجف تحت الطاولة كأنها ناب حفّارة، حدّقت في أنيابي إذ أنشبتها في ذراعي، واستمعت إلى صرخاتي المكتومة.

"دعيك منه، إنه يعاني نوبة أخرى"، سألها نذير مجددا، "أأنتِ راضية بالإجابات؟ أوه، مهلا، نسيتُ الإجابة على "عارية"، لماذا اختار شاب

حيي خجول مثله هذه الكلمة؟ الجواب لأنه منافق فاجر يدعي العفة أمام الناس ويخفي... أنا أمزح، الحقيقة أنه أراد التعبير عن هلعها بصورة قوية، ولم يجد أكثر من خروجها عارية – ذاك السلوك الشاذ عن المعتاد والمخالف للياقة – لينقل إلى قارئه مقدار خوفها، ولو كان يريد فحشا لوصفها وأمعن في وصفها"

نظر لي ثم قال لي : "ينبغي بك أن تعينني محاميا، أرأيتَ كيف دافعتُ عنك؟ أحسن منك حتى، قلتُ لك أني سأنقذك من الأسئلة المحرجة، وقد أوفيتُ بوعدي، والآن اشكرني"

رفعتُ رأسي إليه غير مصدق، أما زال ينتظر شكرا بعد كل ما فعل؟ بل كيف تجرأ وطالب بذلك؟ إنه وغد، حقا وغد.

ألقيتُ عليه نظرة نارية، ووددتُ لو كان المجاز حقيقة، أريد أن أحرقه حيا، أريد أن أراه يُشوى وأسمع عذابه وأشم رائحة لحمه المحروق، أريد أن ألتهمه بعدها انتقاما حتى أضمن ألا يعود أبدا.

وشت عيناي بكل شيء، جذب نذير ناصيتي، وأشار للفتاة بسبابته وقال : "وداعا، الرغبة في الغدر وقتلك تراودني ولكن يبدو أني سأحظى بمتعة أكبر مع دميتي هذه"

ما إن أنهى كلامه حتى انقذفت الفتاة عبر الطاولات، وارتطمتْ بالحائط وخرقته، واختفت وهي تصرخ.

"لم يبق سوانا يا سعيد، يا فرانكشتاين"، قالها مبتسما، "لماذا تخيلتني؟ أظننتَ أنك ستتحكم بي إلى الأبد، ظننتَ أن اللجام بيدك،

ظننتني فرسا وديعة، لا، أنا سليل ثور نكح قرشا فأنجب وحشا نكح وحشا آخر نَسَبه الأفاعي والعقارب ووحدان القرن وأفراس النهر، أفراس النهر أكثر الحيوانات قتلا للبشر في جنوب أفريقيا، المظهر البريء خدّاع، أليس كذلك؟ أنا أعرف أنك تعرف هذا لأني أعرفه"

تبا، قبضته فولاذية، أخمشُ يديه، أسحبهما وأعتصرهما ولكنه لا يفلت، ثم إني لا أستطيع أن أقف، إنه يثبِّتني إلى أسفل بقبضته فلو وقفتُ ستتحطم رقبتي، قوته هائلة، أنا أمامها نملة.

لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لماذا تخيلته؟ لم يجلب لي سوى الشر، لم يجلب لي سوى النحس، لم يجلب لي سوى السوداوية، لم يجلب سوى الدم، ملأ قصصي جثثا، ملأ قصصي قتلا، ملأ قصصي تعذيبا، ملأ قصصي... إنه ينفِّر القراء، علي أن أتخلص منه بوسيلة ما، علي أن أفعل، لابد أن هناك وسيلة، فهو ليس إلها، وكل ما ليس إلها سيسقط، اليوم أو غدا أو بعد ألف قرن.

قال نذير مواصلا : "والآن، إليك ما أريده، لقد أجبتَ على أسئلة معجبيك، ونسيتني، كيف نسيتَ جارك ورفيق عمرك الأبدي؟ لدي أسئلة أيضا، أسئلة كثيرة أريد منك إجابتها"، نظر إلى ساعة يده – التي لم تكن هناك قبل لحظة – قال مصدوما : "واحدة وعشرون صفحة، يا للهول، علي أن أسرع، لقد تأخرنا"

أفلت ناصيتي، فشهقت جذور خصلاتي في خلاص، قبل أن يطبق على عنقي، ويجذبني ويحلق، طار سريعا كالبرق، كالبراق، كالبرقية، كدنا نسبق

الأفق، قطعنا غابات وأنهارا، مدنا وقرى، بحارا ومحيطات، حلَّق إلى أعلى، ما هي إلا ثوان حتى كنت أودع ببصري السحب، خرجنا للفضاء فاختنقتُ فدسَّ شيئا في عنقي، ردّ إلي أنفاسي، رحتُ أجذبها في جشع، سلّمنا على الكواكب، وتركنا يد بلوتو معلقة، قفلنا راجعين نحو الأرض مجددا، ثم انعرج بي فجأة واصطدم بالشمس.

حرارة رهيبة شعرتُ بها حين كنا ندنو، أخذت أطرافي في الذوبان، ولكنه دسَّ شيئا آخر في فمي – قرصا أو كبسولة – فإذا أنا شبح لا أشعر بشيء.

اخترقنا غلاف الشمس، وغُصنا في بحر الحمم المتلاطم، بغتة فوجئت عيناي، لقد تجاوزنا الحمم فكشفتْ عن مكان مختلف كليا، كأنها كانت تستره أو تموِّهه، أرض جديدة، أرض شاسعة لا نهاية لها.

ركل الهواء مرتين فاندفعنا كالنيزك هابطين، رأيتُ تضاريس تلك الأرض العجيبة تثب نحوي، كانت هناك فجوات هائلة متراصة على الأرض، كأن جنديا فضائيا أمسك رشاشا عملاقا وأمطرها رصاصا، اقتحم إحداها غائصا فيها، فحلّقت كائنات ضخمة فزعة وانتثرت عبر السماء، كانت تركض على الهواء بألف ساق، على ظهور تلك الكائنات كانت كائنات أخرى تستوطنها، وعلى ظهور تلك كائنات أخرى أيضا، عوالم بعضها في بعض، كانت التفاصيل كثيرة جدا وجديدة علي تماما فلم يحتملها عقلي ولا ذاكرتي وتلاشت كالحلم، كان على جانبيِّ الفجوة الضخمة جحور، توقف نذير دون سابق إنذار وقذفني في إحداها، ودخل هو ماشيا في خيلاء، رحتُ أتدحرج حتى ارتطمتُ بحائط، شُجّت رأسي

ورحتُ أنزف، نظرتُ نحوه مرعوبا : لم أر هذا العالم يوما، لم يخبرني عنه شيئا، ماذا يخفي عني أيضا؟ أكان يغامر ويستكشف خارج رواياتي وقصصي؟

عظُم حجم نذير حتى ضاهى الببر السيبيري، وبرزت عضلاته وتضخمت، استطال وجهه فزاده هذا شبها بالذئب، وبلغ شعره الأحمر الغزير خصره، نمت له لحية متشعبة مضفرة في ثلاث جدائل، ازدادت ابتسامته اتساعا، لمعت أنيابه التي تداخل بعضها في بعض فكأنها تتقاتل وتتذابح وتتشاحذ، كدتُ أغيب وسط فمه، فقد بدا بوابة لعالم آخر، عالم دموي قاتم تجوبه الوطاويط العملاقة والندّاهات والجواثيم وأكلة البشر وأكلة أكلة البشر، ومصاصوا الدماء ومصاصوا مصاصي مصاصي الدماء.

قال : "لم تتوقع ذلك، أليس كذلك؟ ظننتَ أني سأطرح عليك أسئلتي في القسم، أو أني سآخذك إلى مغارة مظلمة أركلك فيها مع كل سؤال ألقيه عليك، أما أن أسحبك إلى الشمس، العالم الذي انتويتَ جعله مسرحا لملحمة ضخمة ستكتبها في المستقبل، فهذا أبعد ما يكون عن المتوقع، إذن، بلا تضييع للوقت، ها هي أسئلتي، سأكتفي باثنين لليوم :

1 – في الجزء الأول لعبت دور الواعظ ورحتَ تلقي الخطب على رؤوس خطابك، سؤالي لك : هل تعمل بما تعظ أم أنك منافق مثل اليهود تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك؟

2 – مقدمة الجزء الأول كانت قصيرة ومع ذلك محتشدة بالمشاعر، خيبة الأمل، والإصرار، ومواجهة العقبات بالتحدي، رُحت تنطح جبلا حسبما أذكر، جبلا يجسّدُ كل العوائق التي تحول بين كلماتك وبين الناس، هل انزاح ذاك الجبل؟ هل بلغت قلوب قرائك كما كنت تأمل؟"

كنتُ ما زلت ذاهلا مشدوها، رحتُ أنظر إلى النباتات البنفسجية التي كانت تركض بخفة على جوانب الجحر، ثمارها الضفدعية الشكل تشهق وتزفر وتضحك وتبكي، رحتُ أنظر إلى الحشرات أو الطيور التي راحت تطير حولي رأسا على عقب، ما هذا العجب؟!

لم يكن نذير صبورا يوما، قذف نحوي حجرا تحول لسكين تحول لسيف تحول لمنجل حصّاد أرواح، انحنيتُ متفاديا في حين استعاد ذهني للحظة ذكرى لحظة مرعبة من حياتي، ذاك الرجل يقذف صوبي فأسا اندفعت محلقة بشبق تتشوق لشق جسدي كقرش صوب فقمة.

ركعتُ فقتل المنجل عصفورين - أو خنفساوين أيا كانا - ثم ارتد نحوي مجددا وتحول لصفعة قوية حين ارتطم بي.

صرخ نذير : "ركز معي، كيف سولت لك نفسك أن تشرد في محضري؟".

قلت له مرعوبا وأنا أجبر عقلي على غض البصر عن كل تلك الغرائب التي تزحف حولي : "أجل، لقد وصلتْ قصصي إلى قلوب القراء".

- أوه، حقا؟ كم قرؤوا لك؟ اثنان؟ ثلاثة؟ أراهنك على أني لو صورتُ فيديو لقطعة غائط من مختلف الزوايا سأنال مشاهدات أكثر منك، ثم ماذا عن السؤال الثاني؟ تجاهلته كجورج تماما حين لم تحر له جوابا".

أردتُ بشدة أن أرد على استفزازه المغيظ ولكنني لم أرد أن يلقي علي منجلا آخر، قلتُ له : "أنا لستُ منافقا، كل ما أكتبه أجتهد قدر استطاعتي للالتزام به، ولكني لم أدّع الكمال يوما، لستُ ملاكا نزل من السماء، ولا شيطانا زحف من قعر الجحيم، تراه يتنفس بشهوانية ويضحك بعربدة ويأكل بشراهة وحتى حين يبتسم يكشر مبشرا بشرّ.

أنا بشر، أنا ابن آدم، وكل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابين و..."

- كل هذا الكلام ستارة طويلة عريضة تحاول بها مواراة خطاياك، أتريدني أن أفضحك؟ كم من short شاهدت منذ كتبت "عصر التشتت"؟ هاه؟ كم من يوم ضيعت أنت الذي تشدد على قيمة الوقت؟

أخذ يدنو خطوة مع كل كلمة وراح يلوح بيده مهددا، وصوته يعلو ويعلو، جأر : "حين كتبتَ عن الذي جلس في التحيات الأخيرة ولم يذكر أسلّم أم لم يسلِّم، أكنتَ تتحدث عن نفسك؟ وهذا ليس إلا غيضا من فيض، وما خفي أعظم".

احمر وجهي وأطرقتُ برأسي، إنه محق، فجأة أغرقتني أفكاري ولم أعد أرى تلك الغرائب التي تدبُّ حولي في سعي حثيث، إنه محق، محق، فأنا لا أنفك أخطئ، حتى أني أحيانا أتساءل : يا إلهي، هل أستطيع أن أمضي يوما، يوما واحدا بلا خطأ؟ أريد أن أبلغ الكمال يوما واحدا فحسب.

بل أحيانا أدرك أخطائي وأعجز رغم ذلك عن التغير، كيف لهذا أن يكون؟ أرى الهوة السحيقة أمامي وأواصل المشي كأني منوّم مخدّر، بعض الناس

يضعون على عيونهم عصابة، وبعضهم حقا أعمى يأمل أن تعثر عصاه يوما على أحد يرشده، أما أنا فأرى كأوضح ما يكون، وأتقدم حثيثا نحو الهاوية.

سحبني نذير من بحر الأفكار المتلاطم : "ثم دعك ممن يقرؤون لك، سأخبرك عمن لا يقرؤون لك، اطرح ثلاثة أشخاص من ثمانية ملايير، كم يساوي؟ ما زالت ثمانية ملايير، هههه، لا تتعب نفسك بالفاصلة، خذ ملء يدك من البحر وانظُر تر هل سيشعر بنقصانه أحد، حتى البحر لن يفتقده.

تحلم بأن تشتهر، ستظل تحلم حتى تنام حقا.

همستُ مصححا : "لا، أنا لا أسعى خلف الشهرة، أنا أرغب في التأثير والتقدير"

تأثير؟ أي تأثير؟ تريد للناس أن يقلدوك؟ ومن أنت حتى يقتدوا بك؟ هل أنت الأغنى؟ هل أنت الأذكى؟ هل أنت الأقوى؟ هل أنت الأدرى بالعربية أو بالإنجليزية؟ هل أنت أعظم روائي حقا؟ لا تضحكني، أنت لست أيا من هذا ولستَ الأتقى أيضا.

لستَ بقدوة، فالقدوة يجب أن يكون المثل الأعلى.

التقدير، هذا ما أنت متجوع له حقا، تريد أن تثبت أن لك قيمة، تريد لهم أن يرددوا كم أنت بليغ بديع، كم أن قصصك مشوقة ومرعبة ومؤثرة، كي تجعل من كلماتهم سدّا يحجز فيضان كره الذات ونقص تقديرها، ياجوجك وماجوجك سيخربون روحك، ويهشمون نفسك الهشة، ويفتتون قلبك، ويدكّون ويدقُّون ما تبقى من عقلك، أنت ظمآن للإطراء، لا تدعي العكس.

ماذا تريد أيضا؟ المال، أعرف أنك تتحرق شهوة له أيها الزاهد الزائف، أنت لحب الخير لشديد. تكتب بغزارة كي تصنع من كلماتك حبالا وسلالمًا تخرجك من حفرة الفقر المدقع العميقة الموحلة، كلما كتبت أكثر، كلما نشرت أكثر، كلما نشرت أكثر كلما بعت أكثر، وهذا كل ما يهم في النهاية.

- كذّاب، توقف عن الافتراء علي.
- ألا ترغب بالمال؟ حسنا إذن، قدم كل أرباحك للجمعيات الخيرية وأثبت كذبي، أنا أتحداك.
- أنا... أنا أريد المال، ولكني لا أكتب لأجله فقط.
- أوه، فعلا؟ حسنا، دعنا من المال وأخبرني من تحسب نفسك؟
- ماذا تقصد؟
- أنت تخال نفسك "المخلِّص"، المسيح كبول أتريديس في روايات "كثيب"، أو ربما تظن نفسك المهدي المنتظر.
- ماذا؟
- استمعتَ إلى كندريك لامار كثيرا حتى أدمنته، وشاهدت ذاك الفيديو الكليب... الكليب؟ معك حق، كلمة الفيديو لا تستقيم في العربية مهما قلّبتها، أيا يكن، شاهدته وهو يحلِّق في الهواء، ويتشبّه بالمسيح، فانبهرت بذلك بدل أن تلعنه لادعائه النبوة، ورغبت سِرًّا بأن تكون مثله، يرنو لك قومك ويعلقون آمالهم بك، ويهتزون لكلماتك، ويحفظونها عن ظهر غيب. كندريك يمثل صوت السود الأمريكيين أو هكذا يزعم ولعله يصدِّق ذلك فعلا، أنت لا تعرف تحديدا، ولكنك تريد من عشيرتك أن يعاملوك مثله، أنا أعرف أن هذا شعورك الحقيقي المكنون في قرارة نفسك مع أنك لا تُقرّ به،

أعرف لأني داخلك يا سعيد. أنت نذل حقا، بدل أن تقتدي بالأنبياء والرسل والصالحين، تستبدل بهم وقحا يسب ويشتم، أنت الذي تعادي السب والشتم، وغدا يخون زوجته ويعترف بهذا في ألبوم فيمتدحه مهووسوه على صراحته وعلى أنه أظهر ال... Vulnerability.

- أتستبدل بالرسول شخصا كهذا؟
- من قال لك أني استبدلته؟ إنهما شخصان مختلفان كليا، بالطبع مقام الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم أرفع بألف درجة.
- كم حديثا قرأت؟ وكم أغنية سمعت؟

خرستُ، بهتت. رحتُ أفكر مليا في سؤاله الخطير، والصدمة ترجُّني رجًّا.

- أها، أُفحمت، دعني إذًا الآن أصارحك بالحقيقة، أنت لستَ مخلِّصا، ولن تكون، قومك لا يحتاجونك، وطنك لا يُفيد منك شيئا، أمة الإسلام لن تفقد شيئا بفقدك، أنت لا تصلح قائدا، تفتقر إلى الخطابة والخبرة، ولستَ خبًّا أيضا، والخبُّ خدعك مرارا.
- كلا، كلا، أنا أستطيع أن أنفع الإسلام والوطن والمجتمع، إن أشرتُ إلى مواضع الخلل والضعف فيه، فسيتقدم من الناس من يسدُّ هذه الثغرات، فيقوى بذلك الصرح ويتقوّم.
- تشير؟ هذا كل ما تعرفه، تشير، لماذا لا تتقدم أنت بدل الكلام، أرنا الأفعال واحتفظ بهرائك لنفسك، لا تجادلني فأنت لست أهلا للمناظرة، ودعني أرجع لسؤالي الأول، كما قلنا، أنت لم تبلغ القراء، ما زال العالم بأسره يجهلك، صرير قلمك دبيب نملة. حتى أنت لا تؤمن

بنفسك، كم مرة تصورت الفشل وتخوفت منه؟ كم مرة دعوت الله أن لا يوفقك لنشر "فكرة قاتلة" إن كان فيها ما لا يوافق تعاليم الإسلام؟ لماذا ذلك الدعاء إن لم تكن في شك؟

- أنت شمعة خافتة في كون مظلم مكتظٍّ بالنجوم المتألقة، هناك نور يكفي بالفعل لإرشاد التائه، أنت لا تضيف شيئا. مجرد زائدة دودية، تُركتْ أو استُأصِلت، لا فرق.
- استبشر وتفاءل، فالعالم سيسحقك يا سعيد، أقسم باسم الله الأعظم الذي لم يُطلع عليه أحدا سيسحقك، لأنك تنسحق أسهل من غُصين، أراهنك خمس سنوات على الأكثر، سيقع ذقنك على صدرك، وتبيضُّ عيناك، وتطوقهما الهالات، ويشيب شعرك وتفيض روحك بيأس خانق، و... ستنتحر، أوه، أجل، ستغرق نفسك كفرجينيا وولف، أو تملأ فمك بالمفرقعات، وتفجر رأسك، أجل، ستفعلها لأنك مجنون، لأن نفسك رقيقة، واهنة، مرهفة".

نطق الكلمة الأخيرة برِقة أنثوية، فاحتقن وجهي ورحتُ أرشقه بنظرة من لظى.

واصل : "هبة خفيفة من السَّموم تكفي لقذفك في واد سحيق، ستُسحق يا سعيد، وأنا أرتقب ذلك اليوم على أحرّ من الجمر، أريدك أن تحلم يا سعيد، أُحلم، أُحلم، أُحلم كثيرا حتى يصدمك الواقع بأقسى ما عنده، ويهشم جماجم أحلامك كقرد شامبانزي مسعورٍ واحدة تلو الأخرى أمام عينيك ثم يلقيها في حاوية القمامة.

راحت كلماته تهوي على عنقي كمقصلة فيها زر إعادة، انكسف وجهي، وانخسفت روحي، هويتُ على ركبتيّ، وقد أرسل كلامه زوابع عظيمة تلفُّ وهي تدمر كل شيء في نفسي، جعلت عاليها سافلها، فطمرت كل أحلامي وآمالي، ونبشت كل مخاوفي وهواجسي، غشت عيني نظرة قاتمة مقيتة، كالعين على غلاف الجزء الأول.

وظللتُ رابضا على هذه الحال، ولم أشعر بنذير حينها، ينظر بشبق، ووجهه مكشر في ابتسامة شر شنيعة، وقد استطال واستحال كيانا لا ماديا، صار ظلا، ظلاما، وامتد ليكسو المغارة ويحويها، ذاب فرو وجلد ولحم المخلوقات الغريبة ما إن مسّها كأنه أسيد، فلم تبق سوى هياكلها.

فجأة أومض النور في آخر النفق، بدأ خافتا ثم أخذ يشع ويشع حتى شعرتُ كأن الشمس حلّت فيّ، شعرتُ أني سأضيء كاليراعة. نظرتُ لنذير بهدوء وأنا أشعر باطمئنان سماوي، وراحة غامرة كما شعرتُ حين استلقيتُ بظهري على البحر ورحتُ أطفو متأملا السماء الصافية.

كل الهواجس والمخاوف تلاشت وتبددت في لحظة، بصيص الأمل ذلك كان ذكرى، بل سرب ذكريات وخواطر... أستاذي يحي وهو يعرض علي تصحيح روايتي، والفرحة العظيمة حين تلقيتُ تصحيحه فرحتُ أقرأه ببطء شديد محاولا أن أتمطّق حلاوته لأقصى وقت ممكن... وهو يؤكد لي أني أستطيع التفوق على كل زملائي في القصة والرواية حتى إن غلبني بعضهم في الخاطرة والمقال... طالبي قاسم وهو يقول أنه استمتع بروايتي كثيرا حتى أنه أعاد قراءتها أربع مرات... رسالة دار نشرٍ رفضت روايتي ولكن جاء في أولها "لغتك فريدة يا سعيد ولكننا لا ننشر الروايات بل الكتب الفلسفية

والتاريخية فقط، أرجو لك التوفيق و.."، اختتام الأستاذ مصطفى بوشن تصحيحه لقصة "أنا مسلم" ب : "أما فيما عدا ذلك فاللغة جيّدة وأعجبتني. أرجو لك مستقبلًا أدبيًّا زاهرًا. وفقك المولى".

لحظة وصول الطبعة الأولى من "فكرة قاتلة"، وخروجي لاستلامها جريا، وكل شعيرة على ذراعيّ، بل كل خلية في جسمي ترتجف جذلا وترقص طربا، طالبي أشرف وهو يقول لي أنه ضحك كثيرا عند قصة "مطعم"، وإلحاحه علي لأنهي الجزء الثاني سريعا، قول ابن عمي إدريس لي أنه شعر حين قرأتُ مقطعا من "عصر التشتت" في اجتماع للطلبة الجامعيين بالأُورا تتدفق وتتصاعد حولي... قول أمي لي إن الرسائل والعبر في قصصي أعجبتها، وبعض التشبيهات البديعة علقت في ذاكرتها للأبد... هؤلاء وغيرهم من المشجعين والداعمين، وأعظم منهم جميعا، إلهي، الله الذي قال : "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام"، الذي قال : "علم بالقلم"، الذي قال : "نون والقلم وما يسطرون"، الذي قال : "والشعراء يتبعهم الغاوون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظُلموا"، الله الذي سخرّ لي القلم، وألان لي اللغة أصوغها كيفما شئت، وألاعبها، وأراقصها، وأشكّل بها أبدع صورة أو أبشع مسخ. إنه معي، يرشدني، يهديني، قريبٌ يسمع دعائي ويجيب، وأنا أدعوه دائما في سجودي : "اللهم اجعلني أعظم روائي وكاتب، ووفقني لأنفع الإسلام بكلماتي". ما دام هو معي وكل هؤلاء الناس فكيف أترك لهذا الشيطان الرجيم أن يصيبني باليأس والقنوط؟ ويُفقدني ثقتي بأحد الأشياء القليلة التي أثق بها ثقة عمياء حد الإيمان حدّ اليقين، قدرتي على الكتابة، قدرتي على الإبداع، قريحتي ومخيِّلتي.

قمتُ بهدوء وأنا أنفض الغبار عن ركبتي، ونظرتُ له، كان لا يزال ينظر إلي بعربدة وتكبر ولكني لمحتُ شبح ارتباك وحيرة خاطف في عينيه، ابتسمتُ، شعرتُ خلفي بكل أولئك الأشخاص يضعون أيديهم على كتفيَّ ويدفعونني قُدُمًا، قلتُ له : "كدتَ تغلبني يا شيطان، ولكني تذكرتُ أني بشر معرض للخطأ، وأني أبعد شيء عن الكمال، أحيانا أكره نفسي، وأحيانا ألعن الدنيا، وأحيانا أضيق بالناس جميعا، وأتمنى لو أعيش في جزيرة منعزلة كحي بن يقظان، فلا أرى ظلما ولا غرورا ولا نفاقا ولا أسمع لغوا ولا كذِبا ولا سخرية، أحيانا أعاف هذا الجسد الضعيف الكريه، وأعاف هذه النفس الهشة الواهنة الكسولة، وهذا الدماغ البطيء البليد، كل هذا يراودني، أحيانا أعود لعاداتي السيئة القديمة، ولكني ما زلتُ بخير ما دمتُ أقاوم، ما دمتُ لم أستسلم، ما دمتُ متشبثا بالأحلام والطموحات، راغبا في الإنجاز والنجاح، قد لا أبلغ القمة، ولكني سأموت وأنا أتسلّق"

انقلب وجه نذير رعبا جامحا وراح يردد جزعا : "لا، لا، لا، لا تقل هذا، ألا تفهم؟ الأمل سيؤلمك فحسب، إنه خدعة، إنه وهم، الأحلام أحلام، والقصص والروايات بلا جدوى ولا فائدة محسوسة ملموسة، فهي لن تدفع البشرية قُدُمًا ولن تؤخرها، أنا أريد أن أعفيك الألم وعبارات التثبيط والإحباط التي ستتماطر عليك، ولحظات التجاهل والإهمال خلال مشوارك، طريقك ممهد بالشوك والجمر وأنت تختار أن تمشي فيه؟"

- لم أكن أعرف أنك تمتلك قلبا حنونا، هيا، كفى ثرثرة فارغة، لن تزعزعني عن يقيني مقدار ذرة، عُد إلى وكرك الضيق، عُد إلى القمقم

كان القمقم في يدي فعلا، مددته تجاهه فراح يسحبه ويبتلعه كثقب أسود، صرخ وجأر، وشتم ولعن، وبكى ونحب، ولكن قبضتي ظلت مشتدة على القمقم، استحال نذير إلى دخان أسود كثيف، وذابت أطرافه فيه كالشمع، ونطق بوجه مشوه طُمست قسماته وأخذت تنكمش وتتجعّد كالسَّعف المشتعل : "سأنتقم، سأن.."

حين شفطه القمقم كاملا، سددتُ فتحته، وأدخلته جيبي، ثم تنفستُ بعمق، أخيرا، ارتحتُ من وسوسة ذلك الصوت الكئيب السوداوي، تلفتتُ حولي، وخرجتُ من المغارة، رأيتُ الأعاجيب وقد تجسدت في كوادرليون صورة، مخلوقات وكائنات بالملايين تفوق الوصف والخيال، قلتُ لنفسي منبهرا: كأني في كون آخر، سأمضي بعض الوقت هنا وأستكشف، وأجمع المادة ل"ملحمة الشمس" التي سأكتبها، كيف سأصف هذه الأشياء، أظن أن الكتاب سيكون مصوّرا تيسيرا لي قبل القارئ، ولكني لا أعرف الرسم"، فكرتُ قليلا وهتفت وأنا أضرب راحتي بقبضتي الأخرى : "وجدتها، سأتصل بلقمان... أو زكرياء... أو معاذ، أو ثلاثتهم معا".

وخطوتُ خطوتي الأولى في هذا العالم الهائل العجيب.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

قلمي يا قلمي، أأنت عصا سحرية أم خازوق؟ أم أنك تتحوّل وتتقلّب بين هذا وذاك، وأحيانا تصير الاثنين فيتفتّق السحر من ألمي.
إن كان أحد مكونات وصفتك السحرية دمي فهاك خذ منه ما شئت.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

عذاب القلم

سجد يوسف سجدة في صلاة العشاء فأطال السجود وراح يردد دعاءه المعتاد : "اللهم وفقني لأكون أعظم كاتب وروائي في التاريخ، اللهم هب لي قلما لم ينبغ لأحد من قبلي ولن ينبغي لأحد من بعدي".

صاغه على شاكلة دعاء سليمان عليه السلام وهو مطمئن فلا نبي دعا بمثله على حد علمه، سلّم ودعا مجددا قبل أن يقوم : "اللهم سخر قلمي لنفع الأمة وخدمة الإسلام وإعلاء كلمتك، آمين".

ثم قام مسرعا وطوى سجادته، وأعد لنفسه فنجان قهوة، وودع أمه فاطمة، ووثب عبر الدرجات هبوطا لمكتبه في القبو. جلس إليه وحمل القلم وفتح الكراسة، وما إن لامس سنّه ورقتها حتى تفجرت الكلمات منهمرة كأنها كانت محتشدة على طرفه.

أخذ يكتب قصة سريالية فكرتها : ماذا لو تجسدت الشرور على هيئة بشر ثم نادى صوت في الناس : اقتلوهم تستريحوا منهم وتهنؤوا؟ القصة تروي فرار الشرور وخوفها ومعاناتها ومطاردة الناس لها واضطهادها.

أعجبته الفكرة فجعل الموت طفلا شائه الوجه، والكورونا عجوزا لا ينقطع سُعالها ولا تفتأ تبصق النخام والبلغم، والسيدا فتاة متبرجة خليعة، وراح يستحضر القصة على الورقة من عالم خياله إلى الواقع، لا يستأثر بها بل يؤثر بها غيره.

ثم خطر له هاجس، فتوقف ومزّق كل ما كتب ورماه في القمامة، وتأفف ونفخ وقد بلغ الضيق به مبلغه، جعل يحكُّ شعره بعنف، ويحرك ساقه تحت المكتب بسرعة كخياطة على ماكينة يدوية.

تصفح الفيسبوك على هاتفه ليشغَل نفسه عنها، فرأى إعلانا لفوزِ كاتب معروف ذي مشوار طويل وأعمال عديدة، يسكن نفس مدينته، وقد التقى به مرارا، حدّث نفسه بحسد وغيرة : بكم من مسابقة فاز هذا؟ أوَكلما شاركَ نال الجائزة؟ ثم ندم فطرد الشيطان : أستغفر الله.

ثم مرّر فإذا به يرى إعلانا ترويجيا لرواية شاركت في المعرض فاحتشد الناس عليها احتشاد الضباع على الجيفة، شاهده باشمئزاز؛ امرأة في الثلاثينات تستعين على الزمن بالماكياج وعمليات التجميل، تتسول الشباب المفقود، تتوسل أن يعود، فلا تظفر سوى بشبحه، ثم هي تتنهد وتتكلف الضحك وتلمس وجنتها - المنفوخة – وتزيح ناصيتها المنسدلة

– التي تعمدت سقوطها – وتتظاهر بالطيران فرحا فتتقافز كطفلة صغيرة. حتى لا تعرف أهي تبيع جسدا أم كتابا؟

يشترى الشبان روايتها اشتهاء لها، وتشتريها الفتيات لأنهن يحببن فيديوهاتها - فهي صانعة محتوى بالمقام الأول، ولم تدخل الرواية إلا بعد ضمان القاعدة الجماهيرية - ثم إنها فرصة للفتيات لإيجاد العرسان، ثم يرى شبان آخرون اجتماع الفتيات عليها فيُزاحمون، وهكذا، جمهورٌ يجذب جمهورًا، وهي الشمس قد حفُّوا بها جميعا.

وتنفد النسخ قبل أن تُصفَّ على الرفوف، فتأتي الصحافة تستطلع خبر هذه الكاتبة الجديدة الموهوبة صاحبة هذا النجاح الباهر، فيشاهدها على الأخبار أشخاص آخرون فيأتون.

ويوسف وغيره من الكُتّاب الذين أفنوا الطفولة وزهرة الشباب بين الكتب والروايات، حتى عرفوا شخصيات أكثر من الأشخاص، ولطالما كتبوا حتى آلمتهم أيديهم، وأنفقوا كل مالهم على السيالات والكراريس، ثم هم لا يقنعون بالأساليب المعهودة فيبتكرون أخرى جديدة، ويسأمون هذا أيضا فيفرضون على أنفسهم تغيير الأسلوب كل فصل، وليس للشكل وحده عندهم قيمة، فالمضمون أولا، وهم لا يكتبون إلا عن إيمان، ولا يعظون بشيء إلا بعد أن يجاهدوا أنفسهم على فعله، يستخلصون أسمى المعاني، ويكسونها بأزهى الحُلل، ثم يعرضونها على القارئ فيطرب قلبه لجمالها، ويلذُّ عقله لمنطقها.

ثم يوجبون على أنفسهم الحديث عن قضايا مجتمعهم ومشاكله، والأخطر من هذا كله، ينزفون نزفا على الأوراق، ينبشون الآلام والمخاوف والذكريات الموؤودة ليعبروا بواقعية ويكتبوا بصدق.

ثم لا يقربُ كتبهم أحد.

افتكر يوسف هذا كله، ثم مرّر فرأى إعلان كتابه الجديد وتحته أقل من عشرين لايك فأحرقته المرارة، وقام مغتما حانقا، وارتدى معطفه، قال لأمه : "أنا خارج".

- في مثل هذه الساعة من الليل

نظر للساعة فوجدها تقارب الثانية عشر، قال لها وهو يفتح الباب : "لن أتأخر، بالمناسبة، أين أبي؟".

- عمِل اليوم طويلا، فذهب مباشرة للنوم.

- حفظه الله وحفظك أيضا، إلى اللقاء.

ذرع الطرقات وهو لا يلتفت للمارة ولا للجالسين على الدكك، ترامت إليه ضحكات ماجنة من زقاق فتفكر بيت المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

بلغ حديقة عامة شبه خالية، فوجدهم هناك دائرين حول نار صغيرة أشعلوها، حيّاهم فردّوا، قال نذير بابتسامة خبيثة : "توقعتُ أنك ستأتي، شعرتُ بذلك".

نظر له منزعجا وأجابه : "لم آتِ إليك".

فلم يزد الأخير على أن ضحك بخفوت.

كانوا رفقته الدائمة، أول من عرف منهم محمد، رافقه أيام طفولته، ولا زال كما عهده مشرق الطلعة، دائم الابتسام، ساذجا وسخيفا بعض الشيء، وأهم من هذا كله، واسع الخيال.

ثم عرف نذير في المتوسطة، وعجب كيف اتخذه صديقا، وكيف لا يزال يسمع لنصحه أحيانا فهو شاب طائش، عنيف دموي، ثائر على الحكومة والمجتمع والتقاليد، دائما يأتيه بأفكار شيطانية وخطط جهنمية ثم يعيِّره بالجبن إلّم يوافقه.

ثم عرف خالدا في الثانوية، وهو فتى نحيل ضعيف هشّ نفسيا لأنه يعاني من الإسهال ودرّ البول وغازات البطن ومرض جلدي كذلك،كأن الإحراج الاجتماعي اتخذه مسكنا، ثم كُسرت رِجله في حادثة عمل فازدادت هشاشته، ولم يعد يرى لنفسه قيمة فصار ذليلا خنوعا، شعر بالشفقة نحوه فصَاحَبَه وراح يحاول دائما أن يسرّي عنه.

ثم عرف سعْدًا في الجامعة فإذا هو شاب متقلب، نحيل يزيد وزنه كل يوم، ضعيف يحاول أن يواظب على الرياضة، لا يعرف الإلقاء ولكنه يرمي

بنفسه إليه ليواجه خوفه، لا يحب الإناث ولكن شهوته إليهن تزداد اضطراما شيئا فشيئا، انطوائي ولكنه يشارك في المظاهرات، فاشل في الفرنسية منذ الصغر ولكنه يجتهد لتعلمها رغم ذلك.

أما بشير فقد عرفه منذ الصغر، وفترت علاقته به حين دخل نذير في حياته، ولكن علاقتهما تتجدد وتقوى مؤخرا، بشير ونذير عدوان لدودان، فالأول طيِّبٌ صالح، يصلي في الوقت، ويقرأ القرآن، ويكثر الذكر، ويتصدق على الفقراء، والآخر شيطان.

قالوا له : "كيف حالك يا يوسف؟"

قال لهم : "صراحة، لقد نهشني الهم".

قال له بشير وقد اهتم لهمِّه : "نعوذ بالله من الغم، ما الذي كدّر خاطرك؟".

فابتسم له بحزن وقال له : "الكتابة، لا همّ لي سواها، فيها المتعة والألم معًا".

أومأ بشير متفهما وقال : "لطالما كان هذا حالك وحال كل من حمل قلما، فما الذي استجدّ؟".

وافقه الآخرون، حتى نذير قال موافقا على مضض : "أجل، إنه محق، فمتى ستكفُّ عن الأنين وتخشوشن؟".

أجابهم : "أريد أن أصير أعظم كاتب".

علّق محمد بطفولية : "مثل لوفي" وحاول تقليده وهو يقول: "سأصير ملك القراصنة" باليابانية فهشّم حروفها جميعا.

قال يوسف : "بل مثل المتنبي أعظم شاعر، جعلتُ شعاري بيته : أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

فقال أكثر من واحد منهم : "أجل، لقد سمعتك تنشد ذلك البيت مرارا".

فيما قال نذير بابتسامة شريرة : "أجمل أبياته : لا تشتر العبد إلا والعصا معه، وذاك الشعر الذي قاله في ضبة".

فاستنكر الآخرون وقال بشير غاضبا : "بل هي أسوأ أبياته".

ولكن نذير رفع صوته غير مكترث وواصل : "ولكنه ليس أعظم الشعراء، أعظمهم مولانا وسيدنا أبو نواس".

- مولاك أنت!

- شعره في الخمر ولذتها من أجمل ما قيل، آه، ليتكم تقرؤون أشعاره، هذه المجالس كئيبة لأن الخمر غابت، وحضَرها هذا.

وأشار بوُسطاه نحو يوسف فاحتقن وجهه، وقال بشير : "بل بك فسدت، وخمرنا في الجنة ألذ من كل ما ذاق أبو نواس، يصبُّها لنا غلمانٌ كاللؤلؤ وحورٌ كالياقوت، ثم انقطِعْ عن المقاطعة فلا رغبة لأحد في سماعك، أكمل يا يوسف".

نظر له يوسف بامتنان وتابع مختصرا : "المهم أن طموحي عظيم، ولهذا ربما أعاني، أشعر أني بالمقارنة مع غيري من الكُتّاب والروائيين سواء من سبقوني أو من يعاصرونني لا زلتُ هاويا صغيرا، فهم نجوم ساطعة وأنا كوكيب لا يظهر أمامها إلا ذرة غبار".

قال له سعد محفزا : "لا تقارن نفسك مع الآخرين فتخنُقها احتقارا، بل قارنها مع نفسك سابقا لتعرف أأنت تتطور أم تتدهور".

وقال بشير : "أأنت تدعو الله في كل سجود ودُبر كل صلاة كما أوصيتك، وهل تتصدق وتقوم الليل؟".

اعترف يوسف : "أجل، أنا أدعو، ولكني أتصدق قليلا، وأقوم أقل"، ثم استأنف : "ولكن المشكلة لا تنتهي هنا".

غمغم نذير بصوت مسموع : "شكاويك لا تنتهي، مدلل لعين!".

لم يكترث له يوسف، وخاف إن جادله أن يجيبه بسبٍّ مقذع فلا يستطيع له ردّا وواصل : "أنتم تعرفون أن غايتي من الكتابة ليست المال أو الشهرة".

- هكذا تدعي

تجاهله ثانية وتابع : "بل هي التأثير والتقدير، أن أترك أثرا طيبا في نفوس قرائي، فأغرس في قلوبهم أخلاقا حسنة ومبادئ قويمة، ويعترف الناس لي، نُقادا وجمهورا، خاصة وعامة، بالنُّبوغ ويلقبوني بأعظم كاتب عن استحقاق وجدارة".

- وكيف يعترف بك الناس دون أن تنال الشهرة أولا؟

نطق خالد للمرة الأولى مدفوعا بفضوله، فأجابه يوسف : "هذه إحدى إشكالاتي، بل قل كذلك ما الذي سيدفع النُّقاد لتحليل رواياتي إلّم يذع صيتي بين العامة؟".

قال نذير متهكما : "الآن ستقول لنا أنك لا ترغب في الشهرة ولكن لا مناص من السعي لها لتحقيق غايتك "السامية".

كان بشير على وشك أن يرد عليه، ولكن نذير قام من مكانه وأخرج قارورة، وسكب منها على النار فاستعرت ومطّت ألسنتها إليهم كالحرباء، فلفحتهم حرارتها.

صرخ وهو يقف خلفها فيبدو كعفريت : "أنت منافق، ردَّدتها مرارا والحق لم يجانبني مرة، تعظ بشيء ثم ترى أن الناس كافة لا يعبؤون لمبادئك وقيمك وأحلامك وغاياتك، بل هم نصفان، أحدهما وراء فريقٍ من الكُتّاب يحسن التسويق، ويسعى خلف المال والشهرة دون استحياء، والنصف الآخر من المثقفين لا يعتبرك كذلك، فهو يقرأ لكتّابٍ أعظم منك، وأبدع تعبيرا، وأعمق تفكيرا، وأنت بين هذين مهجور، والآن ستتنازل عن بعض مبادئك وتنحط درجةً لتنال الشهرة، ستتبع التريند، وتصنع إعلانات تشابه ما تراه رائجا، وتنشئ قناة وتتوسل متابعيك أن يشتروا رواياتك".

هتف به يوسف : "دائما تنتقد وتسخر، تقول لي : "أسلوبك لا يرقى، أفكارك بسيطة، فهمك ساذج، مغمور مجهول، خجول صموت... إلخ، انتقادات وانتقادات، ولكن الحلول، لم تقدم لي يوما حلًّا".

شهق نذير ووضع يده على صدره كأن الرد حزّ في قلبه، ثم ضحك بفجور وقال : "يا ناكر الجميل، لقد قدمتُ لك ألف حل، ولكنك لا تنصت، قلتُ لك أن تكتب ما تشاء أنت، ولتذهب المسابقات والجوائز والمبيعات والنقاد والقراء والناس أجمعون إلى قعر الجحيم، قلتُ لك اكتب بعنف ودموية فالمراهقون والشباب مغرمون بالعنف، وهؤلاء جمهورك، لا تُلق للشيوخ والعجائز والكهول والأطفال بالا، فهؤلاء لن يقرؤوا لك حتى لو سايرت أهواءهم، ونصحتك بما هو أجدى وأسدى"، ثم غمز ليذكِّره، "ولكنك لم تصغ، ولهذا أنا أتشفّى وأشمت بفشلك".

نظر له يوسف بغضب، فربّت بشير على كتفه برفق وقال : "لا تسمع له، نصائحه كلها شرٌّ، إن اتبعتها خسرت دنياك وأُخراك، بل اكتب لله أولا وأخيرا، ودافع عن الإسلام، وانشره، وذكِّر الناس، فالأصل في القصص العبرة، ولا أظن هذا يحرمك المبيعات أو يمنعك من الفوز في المسابقات، الله إن سعيتَ للآخرة أعطاك الدنيا فتَضاعف ربحك".

قال له سعد : "نصيحة بشير جميلة، ولكن لا بأس بقليل من العنف والدموية لتصور واقع البشر، وإلا كانت كتاباتك أحلاما وردية ويوتوبيا، أيْ كذبٌ بمعنى آخر"، ثم أضاف، "أرى أن تكتب للخلود ولا تأبه بالمبيعات ولا بالجوائز، اكتب للخلود، اكتب مثل المتنبي والمعري وعنترة وأحمد أمين

والعقاد وهوميروس ودانتي وغوتة وديتسوفيسكي وتولسوي وديكنز وفيكتور هوجو وكافكا ".

ردّ نذير : "ماذا جنى الذين كتبوا للخلود إلا الفقر المدقع؟ ثم أيُّ خلود والقيامة وشيكة؟ بُعث الرسول وهي دانية، فلابد أننا الآن نعيش الثواني الأخيرة من فيلم البشرية البائس هذا".

ردّ بهذا عليه رغم أن سعدًا وافقه في ما قال، إلا أن نذير يبغض من يوافقه ويحبه، يبغضه أكثر ممن يختلف معه لأنه ثائر ورافض للكل، وهو إلى ذلك عابثٌ ساخرٌ، يخالفُ ليستفزَّ.

اعترض سعد : "أخالفك الرأي، عاش المتنبي على العطاء الذي يناله على جمال قصائده وقوتها، وخلد ذلك الجمال وتلك القوة حتى يومنا هذا، أما القيامة فلا ندري أبعيدة أم قريبة فيومٌ عند الله كألف سنة مما تعدون، أي أنها بعيدة بالنسبة لنا قريبة بالنسبة له، ويوم القيامة تتساوى المقاييس فيُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة".

قال خالد : "رأيي أن تكتب من أجل لذة الكتابة فحسب، بل أنا لا أفهمك إذ تبحث عن سببٍ للكتابة، ولو كنت تستمتع بها وتنتشي كعهدي بك لما طلبت سببا ولا غاية، ماذا حدث لك؟ ألا تذكر أيام الثانوية؟".

استرجع يوسف الذكريات السعيدة قبل أن ينشر أصلا، حين كان يطمح لأن يكون كاتبا وينشر روايته الأولى، ها قد نشر وزال كل ما تصوره من

سعادة، ذاك الهدف العظيم القصي كالأفق تكشَّف عن شيء عادي بل تافه، تلك الأرض البعيدة والتي تحت قدمي سواءٌ ترابها وحجرها، آه، تبا لهذه الدنيا التي تأبى دوام السعادة فإذا نحن نطارد سرابها من هدف لهدف حتى الحتف.

قال يوسف والدمع يطفر من عينه : "آه، أجل، أذكُر، كنّا نجلس معًا، وننكبُّ على كراريسنا كالمجانين، نكتب بسرعة جنونية بخط لا أسوأ منه، لا يفهمه سوانا، بل نعاني نحن أحيانا في فهمه، أنت كنتَ تكتب الشعر الحر، وأنا كنتُ أكتب القصص، ثم نتبادل فنقرأ، ثم نريها لأصدقائنا فيضحكون لها ويعجبون بها ويلقبوننا ب"شوقي" و"المنفلوطي"، ويطلبون أن نكتب عنهم، فنكتب عنهم ولكن هجاءً هههه، يا لها من أيامٍ ليتها ما تولّت!".

قال محمد في حيرة : "أنا لا أفهم شيئا مما تقولون، تعرضون ما تكتبون على الناس؟ هذا غريب، أنا أكتب لنفسي فقط، ولا أسمح لأحد أبدا أن يقرأ قصصي، وأستمتع بالكتابة لنفسي كثيرا، الحروف ألعابي ودُماي".

فتذكر يوسف أيام الصبا والطفولة حين كان يتخيل أكوانا بلا حدود ومغامرات بلا نهايات، وكان ينسى أين توقف فيعيد الحكاية من أول، فبدأ الكتابة درءًا للنسيان، أيامٌ حلوة أخرى هي. يكتبُ ولا يهمه رأي أحد، يكتب ما يعنُّ له، وما تمليه عليه قريحته وسليقته، ويستطرد دون خوف، ولا يهتم لحبكة، ولا يأبه لعقدة ولا لحل، ولا يساوره القلق حول النهاية أيجعلها سعيدة أو حزينة، فهو لا يُنهي قصصه أصلا. حرية

مطلقة في التعبير، كان يحلق عصفورا في سماء رحبة، أما الآن فقد صنع لنفسه بتوقعات القراء وسعيه للكمال قفصا ضيقا، فعجز عن الكتابة ونفر منها، ولم يعد له من هواية سوى الحسد والغيرة من الكُتّاب الآخرين.

قال له نذير : "مجدك وفرحك كله في الماضي، وما استقبلك من أيام كله غائم عاتم عاصف فلماذا تعيش؟"

فقال يوسف لنفسه وقد جثمت عليه الكآبة : أحيانا أشعر بالسُّدى، بأن ما أكتبه ليس له معنى ولا قيمة ولا تأثير، وأن ورق كُتبي طُعمة للحشرات والفطريات لا غير، أو ربما تُمزقه أيدي الأطفال، أو يُستخدم في تنظيف الزجاج أو كورق مراحيض، عبثية مطبقة وعدمية مطلقة، لا أستطيع أن أواصل العيش هكذا.

لعن بشير نذيرًا : "اخرس يا شيطان"، وقال له : "لا تسمع له، فإن مع العسر يسرا، المؤمنون حديثا وقديما قاسوا أعتى أنواع العذاب ولم يستسلموا للقنوط رغم ذلك، فكيف تسمح أنت للاكتئاب أن يسيطر عليك؟ ثم إن ما تكتبه ليس بلا قيمة، كل كلمة تُقال أو تُكتب لها تأثير، قد يكون ضئيلا لا تراه، أو لا يظهر إلا بعد حين، المهم أن التأثير لازم، لأن النتيجة تتبع السبب بالضرورة، هذا ناموس الكون".

أصغى له يوسف فتهللت أساريره ونظر له وقال : "أظنني خلصتُ لحلٍّ بعد هذا النقاش الطويل، قراري هو أن أكتب لله أولا، ثم لنفسي،

ثم للناس، وأشارك بقصصي في ما يناسبها من مسابقات، وأطبعها وأنشرها وأروِّج لها، وأشترك في المعارض وسواء ربحت أو خسرت أو بعت أو لم أبع، لن يضرني ذلك شيئا، فأنا لا أكتب للمادة، بل أكتب للخلود الأدنى هنا والأسمى هناك في الجنة، وهذا كله يتفق مع دعائي، وسأسعى لشحذ قلمي وصقل أسلوبي حتى أصير أعظم كاتب والتوفيق من الله".

تهلل وجه بشير وقبّل رأسه فاحمرّ وجهه خجلا، قال له : "هذه روح الكاتب الحقيقي".

ووقف نذير ساخطا ولعن وقال : "أنتم أسوأ رفقة رأيتها في حياتي، مجلسكم ممل ضجر مقيت لا أطيقه، أفٍّ لكم!".

ثم غادر.

سمع يوسف فرامل دراجة نارية مسرعة فالتفت فإذا بالدراجة تتجه نحوه على مهل، وإذا راكبها صاحبه سليمان، قال له غير مصدق : "يوسف؟ ظننتك مشردا فقلتُ أتصدّق عليه، ما الذي أجلسك وحدك هنا في هذه الساعة من الليل؟".

سأله يوسف وهو يصافحه بفرحة : "سليمان، كيف الحال؟ أأبدو مشردا حقا؟ كم الساعة؟ نسيتُ الهاتف في المنزل".

- إنها الواحدة.

- الواحدة؟

- أجل.. مهلا، دعني أخمن، أظنك هربت من هموم وغموم ثقيلة إلى سكون الليل وهدوئه، أليس كذلك؟ هل كنت غارقا في التأملات هنا؟

أصاب في تخمينه كما يفعل عادة، قام يوسف ثم فكر: مهلا، أقال "أجلسك وحيدا"؟ آه، هو لا يراهم أيضا، لا يرى أصدقائي.

التفت يوسف فرآهم قد قاموا ومضوا مبتعدين، كما يفعلون عادة حين يغشى مجلسهم أحد سواه، أهم هلاوس وخيالات؟ أم أشباح؟ أم كائنات من عالم آخر؟

ألهذا يخاله الناس مجنونا حين يسمعونه يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع، فيما هو يكلِّم أصحابه فمن غير المجنون يكلِّم نفسه؟

طرد يوسف كل هذه الأفكار عن ذهنه ثم خطرت له لحظة تجلٍّ : سأكتب كل هذا في قصة، وأشارك بها في مسابقة كذلك.

عرض عليه سليمان أن يوصله، فشكره، وأفصح له وهو راكب وراءه بكل خواطره، فوافقه : "نِعم القرار الذي اتخذته، ولا تهمل جانب التسويق، نحن نعيش في عصر الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وله متطلبات غير متطلبات العصور السابقة، ثم هناك ما هو أهم..".

سأل يوسف بلهفة فطالما كان رأي سليمان سديدا : "ما هو؟".

التفت له وهتف به : "تزوج، تزوج أيها الأعزب العجوز، فلو كانت عندك زوجة لما راودك شيء من هذا، بل لراودتك هي"، وغمز له ضاحكا ضحكته المجلجلة وضغط على الدواسة.

****

ملاحظة : نسي يوسف الأبله أن يسأل سليمان ما الذي يفعله هو خارجا في هذا الوقت المتأخر من الليل، تخميني أنه هو أيضا كان غارقا في هموم من نوع آخر، ربما، من يدري.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

قال تعالى ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمُّك ثم أمُّك ثم أمُّك ثم أبوك".

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

فضلها

وُلدتُ في الربيع عام 1899، واستقبلتني العصافير بزغاريدها، والرياحين بعطورها.

حين انقضى الأسبوع الأول من حياتي ذبح أبي عمر بن بابا سبع كباش عقيقةً، وأقام وليمة كبيرة، دعا لها الجيران والأصدقاء، وحتى غير المدعوين من الفقراء والمساكين حضروا وأكلوا.

كان أبي سعيدًا جدا بمولدي، فقد تحقق به رجائه الطويل، أخبرتني أمي عائشة أنها أمضت عشر سنوات دون حمل، وكان أبي يرجو بحرارة أن يرزقه الله ولدا صالحا يكون عالما من علماء الأمة، ولكن الحمل انقطع، فصبر رغم الحزن والكدر، وأخذ بالأسباب، فاستشار الأطباء، وطلب من أهل العلم والتقوى أن يدعو له بالذرية الصالحة، وكان يصلي النافلة، ويقوم الليل، ويصوم الأيام، ويبتهل هو وأمي ويدعوان الله كما دعاه إبراهيم وزكرياء - عليهما السلام - قبله وكما دعت امرأة عمران قبلها.

فجازاه الله على صبره ورزقه بي.

أمي حكت لي أني حين كنتُ رضيعا في المهد، كان أبي يتعجّل الخروج من حانوته لهفة لرؤيتي، فيرجع ويناغيني ويلاعبني ويحملني ويطلقني في الهواء فأطير لحظات وأبسط ذراعيّ كالطيور وأنا أضحك بسعادة، ثم أهوي فيمسكني ويرميني مجددا.

آباؤنا كم يحبُّوننا وكم لاعبونا صغارًا، وحرصوا علينا حرصهم على كنوز الذهب، لن نستوفي أبدا حقهم مهما حاولنا.

حين بدأتُ المشي أول مرة كنتُ ألاحق أمي، فألعب جوارها بكُبّات الخيوط كقط صغير، بينما هي تعمل خلف المنسج، كانت تغني لي هي وصاحباتها اللواتي يعملن معها، ولكني لم أكن أفهم ما تقول، لم أكن أفهم سوى

ابتسامتها فأبتسم بدوري ببراءة، كنتُ أحيانا أهبط للطابق الأرضي فأزورها في حانوتها الخاص بالنساء، الذي يعجُّ بالمشتريات من الأعرابيات والميزابيات، فألهو بالسلع، كنتُ أرى العالم كله حينها حديقة ألعاب كبيرة، فأجذب أنظار زبوناتها فيحملنني ويراقصنني وهن يغنين، بالميزابية أو العربية الدارجة، فيشرق وجهي بهجة وسرورا.

حين بلغتُ الخامسة، ونمت أسناني اللبنية صِرتُ أفهم كلمات بعض أناشيد أمي، وأحفظها وأرددها. كنتُ أجلس جوارها خلف المنسج، وأكرر خلفها الشعر الملحون إذ تُلقِّنني، كنتُ أسألها عن معانيها فتشرح لي، كانت تلك الأناشيد تتحدث عن بطولات الصحابة، جعلني سماعها أرغب في استلال السيف والجهاد في سبيل الله نصرة للمظلومين المقهورين ضد المعتدين الطاغين، كنتُ أشعر بحماس شديد، وقوة هائلة تملؤني حين أصغي لها، وأصبحتُ أعرف أسماء الصحابة والصحابيات ولما أدخل الكُتّاب بعدُ.

بلغتُ السادسة فأخذ أبي بيدي، ومشى بي إلى كُتّاب قريب، أعطاني لوحا، وتركني هناك مع بضع أطفالٍ في مثل سني، بعضهم أولاد جيران، وبعضهم أغراب، كان الشيخ يكرر على مسامعنا القرآن، فنردد وراءه، وكنا نكتب ألواحنا، ونسردها عليه ليصحح لنا، ثم نذهب لحفظها ونستظهرها، كان الشيخ ينهرنا حين نلتهي بالحديث والضحك، وكان يعاقبنا أحيانا.

لم أكن أحب ذلك، فقد كنتُ كغيري من الأطفال أحب اللعب واللهو، وأفضِّل الغمّيضة والمساكة و"تاحجورت" والمبارزة بالسيوف الخشبية على الجلوس طويلا دون حراك، أريد أن أتحرك وأركض حتى تتقطع

أنفاسي خلف القطط والفراشات، كنتُ أعرف أن القرآن عظيم، ولكن رغبتي في اللعب كانت شديدة، ولهذا لم أكن أذهب إلى الكُتّاب إلا خوفا من أبي الحازم.

أمي عائشة هي من أجلستني بجانبها في أحد الأيام وضمتني وقالت لي : "اقرأ.. اقرأ.. اقرأ القرآن يحببك الله، أتعرف ماذا يعطي الله لمن يحبه؟"

أجبتها : "سأنال الحسنات، وأدخل الجنة".

- وماذا في الجنة؟
- طعام كثير؟
- أجل، طعام شهي لا ينتهي، ولعب لا ينقطع، ومتعة بلا حد.
- أسألعب المسّاكة هناك؟
- أجل، ستلعب المسّاكة وألعابا أفضل حتى.
- أسأركب الحصان؟
- أجل، ستركب حصانا مجنحا وتحلق في السماء.
- أووه، هذا رائع، أسأجلس معك هناك يا أمي خلف المنسج، ونغني معا أناشيد البطولة والشجاعة؟
- هه، ليس هناك عمل في الجنة، سنجلس معا على الأرائك ونغني مع أطفال الجنة، ولكن تذكر، لمن يعطي الله هذا كله؟
- لقارئ القرآن؟
- أجل، للمسلم الصالح القارئ لكتاب الله. أريدك أن تزيد من حفظك للقرآن من الآن فصاعدا.

ومنذ ذلك الحين أصبحتُ أحفظ بسرعة فائقة وإتقان منقطع النظير، صرتُ أردد الآيات أكثر من الأبيات، وشيئا فشيئا بدأتُ أفهم لغة القرآن الساحرة المعجزة، وازداد حبي له ولله أكثر.

وذات ليلة خبزت أمي وطلبت مني حمل رغيف لجيراننا، كان الظلام دامسا، تخيّلتُ ألف غول وغولة يختبؤون فيه ويتربصون بي، ما إن أخرج حتى ينقضُّوا علي، قلتُ لها : "ولكني خائف يا أماه".

- مِمَّ؟
- من الظلام.
- الله خالق الليل والظلام، إنه معك، وحين يكون معك فمن سيقف في وجهك؟

حملتُ الرغيف وخرجتُ، هجمت علي الخيالات المرعبة، وحوش وأشباح وغيلان تجري نحوي جائعة، همستُ : "الله معي، الله حافظي...".

ومشيتُ حتى وصلتُ فأعطيت جارتي الخبز، ورجعتُ وأنا أقرأ المعوذتين، شعرتُ كأن الملائكة تحرسني، وملأت الطمأنينة قلبي.

تعلمتُ من أمي كيف أواجه مخاوفي وأتشجع، لقد جعلت مني رجلا جسورا لا يهاب أحدا، بقولها الدائم : "أقدم، أقدم يا ولدي".

وحين بلغتُ العشرين ازداد شغفي بعلوم الدين والقرآن، وكنتُ أضع في ذهني صورتي أنا وأمي وأبي على أريكة في الجنة، نحتسي الشاي ونتضاحك، تلك الصورة كانت تشعل حماسي فأدرُس وأدرِّس وأعظ وأخطب بلا توان ولا تراخٍ.

وحين عارضتُ الاستعمار والفساد وحاربتُ البدع والخرافات، فتعرّضتُ للتهديدات والعقوبات كان صوتٌ أمي دائما يصدع في عقلي : الله معك وما دام معك فلماذا تخاف؟

تُوفِّيت أمي عام 1968 بعد أن تحقق أملها فيّ، ورأتني عالما جليلا، مصلحا مجاهدا، كما دعت الله أن أكون. وشيّع جنازتها جمع غفير من الناس، فيهم العربي والميزابي، والعامة والخاصة، والعلماء والعمال، فألقوا تعازيهم ودعوا لها بالرحمة ولي بالبركة في العمر، ومدحوها لأنها ربّت عاملا كادحا مثابرا مثل أخي بابا، وعالما صالحا مصلحا مثلي أنا إبراهيم بيوض، ووقفتُ أنا أخيرا ودعوتُ لها بالرحمة وأعلنتُ رجائي لكل امرأة ميزابية: "ليت كل النساء يتصفن بخصال أمي، بالشجاعة وبالقناعة المطلقة، أنا مدينٌ لها كثيرا، وهذا مثال حقيقي على أن أعظم ما تخدم به المرأة الميزابية مجتمعها هي تربيتها لجيل صالح يخلف سلفه، وينهض ويحقق ثورة علمية وفكرية".

رحمة الله عليك يا أمي عائشة بنت كاسي بن بوهون، سَبَقْتِني للجنة إن شاء الله، وقريبا سيجتمع شملنا.

جعلك الله قدوة لكل بنتٍ ميزابية، أنتِ أنتِ المرأة الميزابية الكاملة.[1]

====================

وُلدتُ في الربيع عام 2004، واستقبلتني الأزهار المتفتحة، والأغصان المتبرعمة.

---

[1] هنا تنتهي القصة التي شاركتُ بها في الطبعة الحادية عشر من مسابقة "أعلام الجزائر"، وفزتُ بأحد المراكز العشر الأولى، لكني قررتُ ألا أنهي القصة هناك.

ناولتني القابلة إلى أمي فأخذتني بين يديها وضمتني، كنتُ أبكي وأصرخ معلنا أني حي، ابتسمتْ بحنان فهدأتُ فورا وارتحت لها، ثم ناولتني لأبي فبشّ وهشّ وناغاني وهو يهدهدني بين ذراعيه، ثم تناقلتني الأيدي، من جدتي لجدي، ومن عماتي لأعمامي، بعدهم أتت خالتي وحنّكتني بالتمر ودعت لي بالخير، ثم عدتُ لحضن أمي وحملتني برفق كأني دُرّة هشة كزجاج، أنا ابنها البكر.

لا أحد يذكر طفولته المبكرة، ولكني شهدتُ طفولة إخوتي واحدا واحدا، ويمكنني دون عناء كبير أن أتصور طفولتي، لابد أني أرّقتها بعويلي ليلا مرارا، ولابد أني أرهقتها بتنظيفي والعناية بي، ولكنها لم تشكُ قطُّ بل فعلت كل ذلك وهي تدندن في حب.

بدأتُ أزحف وأحبو وأستكشف أركان المنزل كسلحفاة صغيرة.

بعد فترة خطوتُ خطواتي الأولى متعثرا مترنحا، كانت تجلس على مقربة، وتبسط ذراعيها وتغني لي : "أَدَّشْ بادا بادا" ، فأندفع وأرمي نفسي في حضنها ضاحكا، لا أعرف ما معنى كلمات هذه الأغنية، ولكنها تبعث دفء ولطفا لا يُضاهى.

في الليل كانت تهدهدني وتسمعني القرآن، وحين قلتُ "ماما" أول مرة أخذت تلقنني الأدعية كل ليلة، ترددها هامسة وهي تربت على ظهري، وتلبث جواري حتى يغلبني النعاس، أحيانا أكون نشطا كهُرير متيقظا كوطواط، بينما هي مرهقة نعسانة، فتمكث مع ذلك وهي تتأرجح بين اليقظة والمنام حتى تطمئن لوصولي أرض الأحلام.

صرتُ أردد وراءها الأذكار، فأخطئ وألغو، فتصحح وتكرر بلا كلل ولا ملل : "الله معي.. الله حافظي"، وقبل نحو سنة من دخولي التحضيري أصبحت تقصُّ لي من قصص الأنبياء ومن سيرة الرسول صلى الله وعليه وسلم، وتريني كيف ينام، وماذا يقول، فأقلّد. إن انطفأ النور قبل أن يغلبني النوم، كنتُ أنظر للغرفة فأجدها ملئت أشباحا وغيلانا وأسماك بيرانا وأفاعي أناكوندا، فأصيح خائفا : "هناك وحش في الركن"، فتتبرّم وتشعل الضوء : "أي وحش؟ انظر، لا يوجد شيء"، وأنظر فأرى قميصا معلقا بريئا فحسب، وتطفئ الضوء فيستحيل عفريتا يرقص في الهواء فأصرخ مجددا.

أربع سنوات، أخذت بيدي لقسم التحضيري، قضينا أغلب الوقت في اللعب والرسم والتلوين، كنا ننثر الألوان المائية على الأوراق بالفرشاة، وحفظنا الأناشيد كذلك، وردّدناها صعودا ونزولا عبر السلالم : "يا ربنا يا واهبا يا ذا النعم هذا أبي نعم الأب من أجلنا كم يتعب أمي التي أحيا بها من مثلها في فضلها ".

كنتُ أتلعثم في كلامي، خشت أمي أن أظل كذلك للأبد، ثم سمعتني أردد هذه الأنشودة بلا تأتأة، فاطمأن خاطرها، وأيقنت من أن تلعثمي سيزول مع الزمن.

خمس سنوات، تعلمنا الحروف والأرقام، اشترت أمي كراسة وخطّت عليها الحروف نُقطا حتى أتدرّب على الكتابة، كانت تكتب لي قصصا كذلك وترسمها لألون، كيف وجدت لهذا وقتا مع الطبخ وتنظيف المنزل وغسل الملابس باليد وحرفتها الخياطة؟ ما يتبقى لها من وقت فراغ قصير كانت تعكف فيه على ذلك، كنتُ أتمرن على القراءة كذلك من كتاب أصفر،

ما زلتُ أذكر شكل غلافه، ذكرى مفعمة بنوستالجيا لذيذة. كانت تجلس بجانبي فأقرأ بشكل مقطّع : "ربح سبح ذبح نبح مرح جرح"، فتصحّح لي.

ست سنوات، ألبستني أجمل الملابس، ومشطت شعري إلى اليمين كما أحببتُ تقليدا لعصومي ووليد، وودعتني إذ ذهبتُ إلى الابتدائية أول مرة.

سبع سنوات، اعتاد أستاذنا "باعلي" أن يعطينا تمرينا للتعبير الكتابي، فكنتُ أذهب به إلى أمي، وأكتب تحت إرشادها، أنا أكتب وهي تصحح وتدقق وتوضح، ثم أعرضه على أستاذي فيقول لي : "بارك الله فيك، هناك بضعة أخطاء، مثلا، هنا كتبتَ "أوراق النخيل"، في العربية يُسمى ب"السعف"، فأعود بالتصحيح لأمي فتتعلم معي كلمة جديدة وتدعو لأستاذي بالخير، في نهاية السنة، اشترت بطاقة تهنئة، وساعدتني على كتابة رسالة شكر له، أذكر أني قدّمتها له مطرقا برأسي في خجل، لابد أنه ابتسم في سرور، ودعا في سرّه : "بارك الله في والديك".

ثمان سنوات، شُغفت بالحيوانات وأصبح حبي لها ولعا وهوسا، فاشترى لي أبي لعبة مجسّمات حيوانات مصغّرة، فكنتُ أجلس في باحة المنزل وأتخيل دغلا، وأختلق مطاردة بين نمر مرقّط وغزالة، ينقضُّ النمر على الغزالة ويقتلها، ما إن يبدأ بالأكل حتى تتقدم الضباع تسبقها ضحكتها المثيرة للاشمئزاز، كانت أمي تكرهها حقا، وكنتُ أقلّد أغلب أصوات الحيوانات، اشترى لي أبي أيضا أقراص cd نشغلها ليلة الخميس في dvd ونستمتع معا بمشاهدة أفلام الأنبياء ومسرحيات "داديك الحاج" والأفضل من هذا وثائقيات برية مذهلة لم أر أبدا مثلها بعد ذلك، وما زلتُ أبحث عنها حتى يومنا، بعض لقطاتها حُفرت في ذهني للأبد، فهد

صياد يندفع خلف ظباء على إيقاع موسيقى تتسارع وفق نبض قلبه، وتماسيح صغيرة تفقس ولكن نملا أسودا يزحف عليها ليأكلها، وحيتان أوركا تطوّح بفقمات عاليا في السماء.

اشترى لي كذلك كتبا كثيرة، قصص أنبياء وصحابة، وموسوعات حيوان مصورة، لن أنسى له هذا أبدا، كنتُ أجلس الساعات الطوال أقلّب فيها، لم تكن مشّكلة كلها فاستغرقتُ في محاولة فك شفرتها، ساعدتني أمي في هذا أيضا حتى تعلمتُ كيف أقرأ بلا حركات أسرع من جلّ أقراني.

أحبُّ حيوان إلى قلبي كان الأسد، أدركت أمي ذلك فعلّمتني كيف أرسمه، قالت وهي تمسك القلم : "نبدأ بشكل قلب هكذا ثم ترسم حوله اللبدة، ثم العينان، من العينين ينحدر خطّان يلتقيان في مثلث، على جانبيه دائرتان، واحدة لليمين والأخرى للشمال، ثم نقاط تخرج منها الشوارب، ثم الأنياب ثم الفك السفلي وها هو الأسد"

أقول لها بلهفة : "رائع، رائع، أعطني القلم، سأجرب".

عشر سنوات، بدأتُ بكتابة القصص، كانت هي قارئتي الأولى ومشجعتي، لا أعرف متى تحديدا اكتشفتُ الروايات، ولكني بدأتُ بكتابة ملحمة على الأرجح قبل ذلك، ربما استوحيتها من كرتون "الممالك الثلاث. كانت تتحدث عن خليفة يموت ويترك ثلاث إخوة، الأكبر يخلفه والثاني يصير ساعده الأيمن، ولكن الثالث يحقد على أخيه ويحسده ويتمرد عليه، وهكذا تدور الحكاية حول الصراعات بينهما ولكن ليس هذا فقط، ففي شرق البلاد يتربص الروم، وفي الغرب الفُرس، وهكذا معارك دموية لا

تنتهي، كنتُ أقرأ حينها تاريخ الفتوحات وأقرأ عن الغنائم والسبي، فأدرجتهما في ملحمتي وإن لم أفهم معنى "السبي" حقا.

كتبتُ هذه القصة في مئة صفحة أو أكثر ولم أصل لنهايتها أبدا ولم أُرد ذلك حتى، ظللتُ أبسط فيها وأبسط بلا حدّ، ولم أُرد لأمي أن تطّلع عليها لأجل العنف والدموية، بل لم أُرها لأحد تقريبا إلا بضعة من أصحابي، رجعتُ إلى منزلي يوما فقالت لي : "لقد قرأتُ بعض ما كتبت وأنا أعتقد أنّ..."

قلتُ مصدوما : "قرأتِها؟"، لا أذكر بقية المحادثة، كل ما أذكره أني ركضتُ عبر السلالم في غضب عارم، وأخذتُ الكراسة بين يديّ ومزّقتها إربا.

مرحبا بك في عالم المراهقة.

في سنتي الخامسة ابتدائي درّسنا أستاذ كان يدرّس أمي، ففرحتْ لذلك وقالت لي أن أذكر له ذلك، ولكني على الأرجح لم أفعل خجلا. كنتُ قد انتقلتُ إلى مدرسة جديدة، أذكر أول تمرين تعبير كتابي أعطانيه، قمتُ به في المنزل وقدّمته له، وبعد التصحيح ناداني في الحصة التالية، فتوترت وذعرت، هل ارتكبتُ شيئا خاطئا؟ أسيعاقبني؟ وقفتُ أمام زملائي متخوّفا، فأعلن لهم : "زميلكم هذا كتب تعبيرا من أروع ما يكون، ولا خطأ إملائي أو نحوي واحد، أحسنت، بارك الله فيك".

احمّر وجهي، وأخذتُ ورقتي فوجدتُ عليها علامة كاملة، أخبرتُ أمي بذلك فكادت تطير فرحا.

بين الحادية عشر والسادسة عشر درستُ في المتوسطة، وخلال سنواتي فيها كانت أمي لا تزال سندي، تسهر جنبي تساعدني على حل تمارين فرنسية معقّدة، نفتح الكتاب ونحملق، لا نفهم حتى معنى السؤال فنترجمه كلمة كلمة بواسطة القواميس، نُقلّب فيها ساعة لنكمل تمرينا واحدا، خلال أسبوع الامتحانات دائما تحضّني على المراجعة فأحفظ وأستظهر على يديها.

أما القرآن، فحتى يوم استظهاري إياه كاملا كنتُ أستظهر عندها قبل الذهاب للأستاذ، كم لوحا وكم صفحة استظهرتُ على يديها؟ المئات، كم من الساعات؟

في السابعة عشر، يوم استظهاري سجدتْ سجدة شكر وامتنان طويلة حين صعدت منها رأيتُ على عينيها الدموع تترقرق.

وخاطت لي سروالا جديدا للحفلة، قد خاطت قبله مئة أو أكثر ربما. لو كتبتُ قصة أو رواية كلما خاطت لباسا لكنتُ أغزر كاتب على وجه الأرض ولتفوّقتُ على أحمد خالد توفيق وأنيس منصور والشيخ اطفيش.

في التاسعة عشر، قبل سفري للجامعة أول مرة ضمّتني وودّعتني هي وأبي بقولهما : "احرص على صلاتك"، ما إن بلغتُ العاصمة حتى شرعتُ أبحث عن دار نشر لأطبع روايتي الأولى وأحقق حلمي بأن أصير روائيا، نشرتُ الأولى، ثم الثانية، وكانت أمي دائما تتصل متلهفة لسماع المستجدات، وتدعو لي بالتوفيق آخر كل مكالمة. أردتُ أن أعيد طباعتهما، ولكن جيوبي كانت خاوية كجراب كنغر ثكلى.

ثم ذات يوم رأيتها في الحلم، رأيتُها تفتح أمامي علبة من كرتون، وتريني نسخا من روايتي وهي تقول : "ما رأيكُ؟"

فتحتها فتساقطت منها خيوطٌ، استغربتُ الأمر، قلتُ لها بنظرة متفحصة : "الغلاف مختلف"، ثم أبديتُ بعض الملاحظات.

استيقظتُ وأنا حائر، يا له من حلم غريب، خيوط في كتابي؟

وإذا بأمي بعد أيام تعرض أن تعيرني المال اللازم للطبعة الثانية، هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا.

لم أخبرها بالحلم إلا مؤخرا.

أستغفر الله، ما زلتُ أحيانا أتأفف وأتضايق منها، وأحيانا أعود لمسقط رأسي بعد غياب، فأنعزل وأنزوي بركني، وأعكف على الكتابة والتعلم قائلا لنفسي : هذا أهم من أي شيء آخر، أهم حتى من صحبة البشر.

لم أفكر في أن أمي قد تكون اشتاقت لي أيمّا اشتياق، وتتمنى لو جلستُ جوارها وكلّمتها مثل الأيام الخوالي، الذنب يا لوخزه! علي أن أعوضّها، علي أن أصير أحسن، أحسن خُلقا، وأحسن أدبا، وأحسن عشرة.

ما زلتُ لا أريد لأمي أن تقرأ رواياتي، هههه، كل في الأمر أني أتعرّض فيها لمواضيع حسّاسة شائكة بصراحةٍ تجاوز الحدّ أحيانا، أعترف بهذا، وأعرف أن الشيطان يترصّد للشعراء والأدباء والفنانين ويهمس في آذانهم بوساوسه كالمسخ في لوحة "الشيخان" لجويا[2]، فهم بمثابة إذاعة،

[2] “Two Old Men”, Painting by Francisco Goya

ولو نجح في إغوائهم فسينشرون دعوته للناس إلى مشاوي جهنم بشكل مغرٍ مثير قد يجعل الناس تدمن عليها رغم علمها بحرُمتها.

كما أني أكتب الرعب والكوميديا السوداء والفانتازيا السوداوية ولا أعتقد أنها أصنافٌ مناسبة للنساء، لذا، لا تخبروا والدتي.

أفهمت الآن؟ أأدركتَ المعنى وراء كل هذا؟

لولا أبي الذي اشترى لي الكتب والقصص، وأمي التي سهرت على تعليمي القراءة والكتابة لما كتبتُ حرفا، ولما قرأتَ هذا السطر، فضلهما - بعد الله تعالى - عظيم للغاية، ما زلتُ أبعد شيء عن رد جميلهما، إن كتبتُ شيئا جيدا فبتوفيق الله ثم فضلهما علي، وإن انحرفتُ عن جادّة الطريق، وخططتُ بغباءٍ ما لا ينبغي، فأنا وحدي الملام.

أبتي، أماه، شكرا لكما، أرجو أن أكون يوما قرّة عينكما.

أرجو أن ترياني وقد أصبحتُ أعظم روائي، سأرفعكما حينها على العرش.

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

كان هناك ثلاثة مجانين في مصحة عقلية، ذات يوم أراد الطبيب أن يختبرهم فشغّل الموسيقى وأعلن لهم : "نحن في عرس"، فوقف اثنان وبدآ يرقصان، وأحيانا يدنوان من بعضهما فينفذان بعض الرقصات

الثنائية وكلهما زهو وطرب، أمسك الطبيب جبهته وقال : "كما توقعت"، ثم التفت إلى الثالث متفاجئا لجلوسه ساكنا هادئا وعلى وجهه بسمة صافية، اقترب منه وهو يحدث نفسه : الحمد لله، رجع عقله، سأله : "لم لا ترقص معهما؟"

فنظر له مستنكرا وقال : "أنا العريس"

وفي رواية أخرى : "أنا العروس".

كان هناك ثلاثة مجانين، أخذهم طبيبهم في رحلة بالطائرة ليختبرهم، في وسط الرحلة، فتح بابها وأمسك كرة في يده وأعلن : "سنلعب مباراة"، وقذف بها من الباب فوثب اثنان وراءها دون تردد، فيما وقف الثالث، ظنه الطبيب سيقفز أيضا لكنه وقف على الحافة يترقّب، قال الطبيب لنفسه : الحمد لله، ربما هذا هو عاقلهم.

وسأله، فقال : "أنا أحرس المرمى".

صفع الطبيب جبهته وقال : "مثلك مثل ذلك العريس".

فأجابه : "أنا هو ذلك العريس"

فحدّق فيه مصدوما : "أنت هو المجنون السابق؟"

- مجنون؟ ماذا تقصد؟ ثم أين زوجتي ولماذا نمتُ وحيدا ليلتها؟

يحكى أنه كان هناك أربع مجانين هذه المرة... هذه طويلة بعض الشيء، ولكنها مضحكة حقا، ستجعلكم تبكون.

ولستُ واثقا من عدد المجانين فيها، ربما أربعة والخامس عاقل، أو خمسة والسادس عاقل، أو قد لا يكون فيها عاقل، من يدري؟ كلنا نصير مجانين في لحظة واحدة على الأقل من حياتنا. أحيانا أرى شخصا قادما نحوي عبر الشارع فأخاله مجنونا وهو طبيعي، وأحيانا أسمع شخصا يتهم شخصا آخر غيبة بالخبال ثم أسمع الشخص الثاني في اليوم التالي يتهمه بذات الشيء، ماذا تستنتج؟

* * * * * * * *

المجانين الأربعة

خرجنا من الابتدائية ذلك اليوم، بعد أن شبعنا من الأكل في المقصف. كنتُ مع صديقيّ عثمان وعمّار، أمشي كالحامل من شدة انتفاخ بطني، فقد أكلتُ أربع مرات، وهذا بفضل حيلة عثمان حفظه الله.
أجابني ضاحكا حين سألته حائرا : "كيف حصلتَ على كأسي ياغورت وتفاحتين؟"

- لقد دخلتُ مرتين، حين خرجتُ من المقصف، رجعتُ من البوابة الرئيسية ووقفت في الطابور وأنا أشيح بوجهي عن الحارسة فلم تفطن لي.

فابتسمتُ وقلتُ له : "هيا عُد معي، أريد أن أجرب ذلك"
فوافق ببساطة.

كنتُ أحبّه وأجلُّه رغم كونه خائبا في الدراسة، فقد رسب مرتين أو ثلاثة، لكنه كان محنكا خبيرا بالحياة، ولطالما علمني الخدع والحيل؛ طرقٌ للدفاع عن نفسي عن طريق ليٍّ الذراع حتى شفا الكسر، أساليبٌ للتعذيب تنفع للتنمر. وكان يسلِّيني أيضا بقصصه الجنونية، ثم إني كنتُ أحب استفزازه أكثر من أي شيء، حتى يتشاجر معي وقد طفح كيله فيلوي ذراعي ويلكم ويركل، وأنا المازوخي أتفجر ضحكا في وجهه فيزيده هذا سخطا.
كان عثمان طويل الساقين، ذا وجه مثلث كهرم مقلوب، حواجبه كثيفة، وعلى طرفي جبهته الشاسعة تلّتان بارزتان كأن القرون توشك أن تخرج منهما لشيطنته.
دخلنا وولّينا الحارسة ظهرينا كي لا تتعرف علينا، انحنى عثمان الطويل يتظاهر بربط حذائه، كنتُ أدعو في سري: اللهم اطمس على عينيها، اللهم أغشها فلا تبصرنا.
جلسنا إلى مائدة الطعام أخيرا ونحن نحمد الله، سحب عمّار الكرسي قبالتنا وناداني وصافحني : "كيف حالك يا علي؟"
قالها بابتسامته المريبة التي افترّت عنها شفتاه المجعدّتان، وعيناه تلمعان بوميض ينمُّ عن جنون، قلت له : "بخير، بخير"
كان عمّار معيداً هو الآخر، في مثل سن عثمان أو أصغر منه بعام، فتى طويلٌ، أشعث الشعر، ذو عينين يلوح فيهما الخبال، وشفتين حمراوين كأنه طلاهما، وكان يتعرض للتنمر كثيرا، لكني لم أره منطويا مكتئبا أبدا، دائما مبتسم وعيناه تتقدان خبالا.

ربما كان سبب تنمر الطلبة عليه أن أباه مختلٌّ، فلا يستطيع أن يشي بهم إليه.
أبوه كان رعبا حقيقيا لنا نحن الصغار، ضممتُه في رأسي إلى النذّاهة ومصاص الدماء، شاع بيننا أنه يجول في الصباح الباكر حاملا فأسا بحثا عن الفرائس الصغيرة، نحن الأطفال طبعا، تصوّرته أقرب لرجلٍ مجنون على ملصق فيلم رأيته في مجلة العربي مرة واحدة فالتصق بذاكرتي للأبد، ملصق فيلم the shining.
فصرتُ أخافه، وأذهب للمدرسة فجرا وأنا أتلفّتُ كي لا يباغتني.
جالت الذكرى بذهني لحظات، فنفضتُها عني وأصغيتُ لعمّار الذي كان يقول لعثمان والإثارة تتقافز من عينيه، ضاحكا بعربدة : "أجل، لقد رأيتُ بنتا صغيرة عارية من قبلُ!"
- من رأيتَ؟ أختك الصغيرة؟
قصفه عثمان بلا شفقة وضحك بمجون.
فاحتقن وجه عمّار وأمطره بسيل من السِّباب.
أثار حديثهما تقزُّزي وشوبة من فضولٍ غير حميد في نفسي، وغمستُ ملعقتي في طبق الحساء أمامي متظاهرا بأني لم أسمع شيئا.
ثم شارك عثمان حيلته مع عمّار، فقال عمّار باستهانة: "أتظن هذا شيئا جديدا؟ أنا دائما أعيد الأكل".
حين خرجنا للمرة الرابعة وذهبنا لمنازلنا، رحنا نتكلم في ما يتحدث فيه الصبيان عادة : الكرتون، والأفلام، وألعاب الفيديو، ونفحة من حديث الجنس العابث المسلي بين الحين والآخر.

بلغنا منزل عمّار أولا، نظرتُ للباب فتذكرتُ أباه، بادرته قائلا : "أبوك مخيف حقا، سأحكي لك قصة لا تصدق عنه".

ورويتُ له كيف أني خرجتُ من منزلي فجرا ذات يوم، وما إن أغلقتُ الباب واستدرتُ حتى وجدته أعلى الطريق الذي أنا ماضٍ فيه، بيني وبينه أمتار ليس إلا، والشارع خالٍ ليس فيه سوانا.

انتابني هلع شديد وطرقتُ الباب كالمجنون، فلم يفتحوا لي، أبي ذهب للمسجد مبكرا ليصلي الصبح، وكل من بالبيت كانوا غارقين في النوم،

تخيلته يتقدم صوبي على مهل، كأنه يقول : أين المفر؟

تخيلته يرفع فأسه عاليا فوق رأسه ثم يهوي بها بعنف، ويخلع كتفي، ثم يفعل بي ما يفعل الجزّار.

لكنه مشى إلى طريق جانبي وسرعان ما توارى فيه.

جريتُ أمضي نحو وجهتي قبل عودته وأنا لا أصدق نجاتي.

قال لي عمّار : "هل أنت متأكد من أنه أبي؟ قد يكون عمي".

عمه أيضا مجنون، لقد نسيتُ هذا، وأنا لا أفرّق بينهما، ولكن يُقال أن أباه أكثر خطورة.

ثم أردف هامسا وهو ينقل نظره بيني وبين عثمان : "أول أمس فقط طردني من البيت في الليل، فرميتُ بابه بالحجارة حتى امتلأت العتبة، إنه حقا مجنون!"

رأيته في الليل يفعل ذلك، كنتُ مارّا بمنطقتهم فرأيته يقذف حجرا كبيرا نحو منزله فيرتطم بدكّة عتبته، كان يصيح بحماس أدنى للزهو والفرحة.

تعجبتُ وسألته عن السبب فأخبرني أن أباه في نوبة هياج.

التفت لي عثمان وهتف بإثارة : "أتذكر حين رمى أباه بالمطرقة؟ ههه، لماذا فعلتها مجددا؟"

- أيها الوغد لا تصرخ، أخبرتك سابقا أنه هنا وقد يخرج في أية لحظة لو سمعك

تملكني خوف مباغت عارم، إنه هنا؟ ظننته يخرج في الصباح ككل الآباء، كان الباب مواربا، فجأة يُفتح ببطء حتى آخره مصدرا صريرا عاليا كباب بيت مسكون ، ويخرج الأب الأصلع وهو يدخن سيجارة - أشعَلَها بالسيجارة السابقة - ينفخ الدخان في وجوهنا، ويسأل ابنه وقد ثبّت نظراته على وجوهنا كأوتاد على صليبٍ غُرست في الأيدي بمطرقة : "من ضيوفك هؤلاء يا بني؟"

- إنهم أصدقائي
- آه، كم هذا لطيف، آه، سمعتكم من خلف الباب، كنتم تتكلمون عن فأسي، لربما ترغبون بإلقاء نظرة عليها، أنا أبحث عمن يشتريها صراحة، إنها لا زالت حادة ولكن ليس بما يكفي، أعني أني حين أضرب بها أعناق الصغار لا تفصلها مباشرة كالسابق، لقد ثلمت من كثرة ما ضربتُ بها، وأنا لا أريد تعذيب أولئك الصغار المساكين، أوه، حين أسمعهم يئنون ويتأوهون على الأرض أشعر بأني أختنق، لا أحب ذلك الشعور مطلقا، ولهذا يا سادة، هيا، تفضلوا، تفضلوا

ارتعدتُ وقلتُ لعثمان : "هيا، هيا نغادر قبل أن يخرج"
فضحك وهتف : "أيها الجبان، أنت حقا جبان"

ولحقني. انضم لنا صديق آخر اسمه نصر الدين، كان تلميذا غريب الأطوار من القسم المجاور، لم أكن أعرفه جيدا، ولذا تركته يتحدث مع عثمان واكتفيتُ بالإنصات، مضينا عبر طريق محاذٍ لمنزل عمّار وصعدنا على مهل، وما زالا يتكلمان، أخذ عثمان يتشاجر مع نصر الدين لعبًا، فرحتُ أشاهد وأضحك، فجأة رفع عثمان ونصر الدين رأسيهما معا، وكانا يواجهاني، ومض في عينهما وهلةً خوف شديد، وانطلقا راكضين معا، فاستغربتُ أمرهما، ولكني جريتُ وراءهما، حين وصلتُ لأعلى الطريق، التفتتُ لأنظر حيث ينظرون فرأيتُ أبا عمّار.
انحنى وحمل حجرا من الأرض وقذفه نحونا، قفز عثمان جانبا وتفاداه، فأطلق أبو عمار سبّة ثم مشى واستدار عبر الطريق الذي جاء منه عائدا لمنزله.
صُدمت من الهول وتحجّرتُ في مكاني، من أين خرج هذا المجنون؟ ظهر فجأة كأنما انشقت عنه الأرض، مهلا، أكان ورائي حينها؟
صفعني عثمان على كتفي وهتف بي : "يا إلهي، لقد نجوت، كاد يفتك بك، ظننتُك هالكا لا محالة حين أتى من خلفك راكضا، جيد أنك انتبهت له فهربت"
أجبته وأنا أقسم : "لم أره مطلقا ولم أشعر به، رأيتكم تركضون فجريتُ خلفكم"
صاح نصر الدين ضاحكا : "ماذا؟ يا لك من محظوظ، أنت محظوظ حقا، لو أمسك بك لضربك ضربا مبرحا، عم عمّار مختل حقا"
- مهلا، أليس أباه؟

- لا، هذا هو العم

كان هو من رأيتُ ذلك الفجر، نجوتُ بجلدي منه مرتين.

ذكّرتني تلك الواقعة بحادثة أخرى مع مجنون آخر، حكيتها لعثمان لاحقا.

كنتُ ذاهبا للمدرسة أنا وأصحابي، كنا نلعب المسّاكة لتزجية الطريق، فجأة وأنا أطارد صديقي داود مصمما على إمساكه وهو يراوغني كالأرنب ضاحكا ساخرا، إذا به يتوقف وهلة، فرِحتُ لأني سأقبض عليه، وأنا لم أقبض عليه من قبلُ أبدا على ما أذكر، ولكن سرعان ما انقصمت فرحتي وحلّ محلّها ذعر بدائي مستبدّ، انطلق حجر ضخم صوبنا أنا وداود، انحنى هو فعبر الحجر محلِّقا جواري، وتدحرج على الأرض، لمحتُ من قذفه لحظة، مجنون عجوز يلقّبونه ب"سيدي بابا" كان فمه نصف مفتوح، وذقنه متدليا مرتخيا، وعلى وجهه تعبير مخيف، لا أعرف حتى أي شعور كان يحمل، أهو الغضب؟ أم الكره؟ أم الخواء؟ أم ماذا؟
لمحةٌ واحدة ثم جرينا راكضين وتشتتنا كفئران انقضّ عليها قط شوارع أسود أشعث ذو عين واحدة وأذن ممزقة، أنا نزلتُ راكضا عبر أول طريق يقودني للشارع العام، وتبعني زميلان، شعرتُ بالأرض تهتز تحت قدماي، وأنا أكاد أتعثر وأشجُّ رأسي على الإسمنت، ولكني لم أتوقف، تركتُ الأدرينالين المتفجر في عروقي يحملني لبر الأمان.
وحين وصلتُ للشارع، ترقبتُ بخوف لحاق المجنون بنا، لكنه لم يفعل، ربما كان يطارد داود المسكين الذي فرّ عبر طريق آخر.

راح زميلاي يصيحان بحماس ويقولان أشياء لم أذكرها ولم أفهمها، شعرتُ بقلبي ينبض بعنفٍ، كأنه ظمآن في صحراء يجرع قربة ماء وجدها بعد أن أوشك على الموت.
كان ذلك قبل سنتين من مواجهة عم عمّار المخيفة.

المجانين في مدينتنا "الرحيبة" عديدون، و أغلبهم معروفون، وخطرهم على الأطفال والنساء أكبر، فلم أر أحدهم يجرؤ على مهاجمة الرجال والشباب، كأنهم يستشعرون الفارق في القوة، وهم يهيمون في الشوارع طليقين دونما رقيب، كأنهم مقطوعون من شجرة، بعضهم لا يؤذيك إلا بسبابه، وبعضهم لو مررتَ جواره باغتك بلكمة أو صفعة، وليس أخطرهم من يرمي بالحجر، لا، أخطرهم هم المجانين الذين يبدون طبيعيين تماما، نجحوا في خداع المجتمع كله، ربما تجدهم أثرياء وأذكياء في مجال عملهم، ولطفاء المعشر كذلك، ولكنهم يخفون هويتهم الحقيقية بقناع مزيف متقن كباتريك باتمان، أنا أتحدث عن السايكوباثيين والسوسيوباثيين.

بعد أن انتقلتُ إلى منزلنا الجديد، وتعرفتُ على أصدقاء آخرين لا يقلّون جنونا وتهوُّرا عن صديقيّ عمّار وعثمان وقعت الواقعة.
كان رفاقي يحبون لعب كرة القدم كغيرهم من المراهقين، ولكن المشكلة هي أنه لا يوجد ملعب مخصص لذلك في المنطقة، فكنا نتخذ قواعد المباني ملاعبا، فأي قاعدة إسمنتية بلا جدران تصلح. كانت هناك اثنتان، إحداهما رديئة مليئة بالطوب والإسمنت المسلح وأكوام الرمل والغرانيت،

والأخرى أنظف وأوسع، كان الخيار واضحا، ولكن المشكلة أن الثانية لرجلٍ أخُوه يسكن بجوارها في منزل فخم من عدة طوابق أمامه حديقة صغيرة مسيّجة.
كان الأخ رجلا بين الثلاثين والأربعين، قوي البنية، طويل القامة، عريض المنكبين، وجهه غريب بعض الشيء يكتنفه برود وفتور وبلادة ظاهرة.
ولم يعجبه لعبنا هناك، لابد أنه كان يرانا نحن المراهقين عصابة من الأوباش والصعاليك، ولكني لم أفهم حتى الآن ماذا يضيره أن نلعب كرة القدم في قاعدة مبنية بالإسمنت، أستحفر الكرة الأرضية؟ أم تُسقط بيته هو لو طاشت وضربته؟ أم تُصيب كليهما بلعنة تخسف بهما الأرض؟ لا أدري حقا كيف كان يفكر ذلك ال...
دعوني أهدأ قليلا، سآخذ نفسا عميقا، حسنا، كنت أقول...

كنا نلعب رغم أنفه من العصر حتى دنو الشمس من المغيب، وكان يجيء في ذلك الوقت بسيارته الفارهة، فما إن يراه الحارس الذي نعيّنه من بيننا حتى يصفِّر فيحمل أحدنا الكرة ونتفرق هاربين كغزلان انقضّ عليها نمر.
وصلتُ إلى الملعب ذلك اليوم فوجدتُ رفاقي بالفعل هناك يتراكلون الكرة، لم أكن ألعب معهم أغلب الأحيان، فأنا لم أكن بارعا فيها، ولكن كان يحلو لي أن أشاهدهم وأشجعهم وأستفزهم، في ذلك الوقت كنتُ أشعر أن البقاء جوار أصحابي وحده يكفيني.

فجأة وأنا أهبط إليهم لاحظتُ أن الجار هناك جالس على كثب منهم، فانتابني الذعر ثم استولت علي الحيرة.
كان الرجل يعمل في حديقته، يشذِّب الأشجار، ويقتلع الأعشاب بالمعول، وإلى جواره تلعب طفلتان، على الأرجح هما ابنتاه الصغيرتان.
ذهبتُ مباشرة إلى دكّة جلس عليها صديقي آدم، فصافحته وهمستُ له : "الرجل هنا؟"
ابتسم ورد علي : "لقد سمح لنا باللعب، غريب، أليس كذلك؟"

- فعلا، عجيب، لقد هداه الله أخيرا

تقدم نحوي زميل لي اسمه رضوان أكبر سنا وأقصر قامة، ومع ذلك، كانت سمته التكبُّر والتعجرف، وكان يرفع ذقنه بنرجسية مثل ترامب، وكان أيضا كاذبا كبيرا، ومثار سخريتنا ومزاحنا، فقد كنا نضحك كثيرا على أكاذيبه المفضوحة ونتناقلها كالخرافات والأساطير.
قال لي : "هاي، علي، إن كنتَ لن تلعب فأعرني نعلك"
فأعطيته إياه، وجلستُ حافيا أشاهد.
فجأة سمعته يسبُّ ويتشاجر مع أحد أفراد فريق الخصم حين صرخ مطالبا : "كونفرو، أعطني كونفرو، تضربني هكذا في قدمي أيها الوغد"
فأجابه رضوان : " كونفرو @#$%! أنت @#$%! "
فضّوهما وواصلوا اللعب، كان يجب علي حينها أن أتوقع المصيبة، أكنتُ ساذجا لهذه الدرجة؟

عاد "رضوان" يسبُّ مجددا ويتشاجر مع شخص مختلف لسبب تافه آخر، كان الرجل منحنيا حينها، رفع رأسه لوهلة، وخطا نحونا وقد اربدّ وجهه، قذف المعول صوبنا بأقصى قوته وهو يسبُّ أمهاتنا جميعا.
للحظة اختلط كل شيء، تدافع رفاقي هاربين كاللصوص من الشرطة، لم أرهم حينها فقد كانت عيني مسمّرة على الموت الذي حلّق نحوي مباشرة. رفعتُ ساقي لا إراديا من الأرض بحركة خاطفة فحطّ المعول مرتطما حيث كانت تماما، لو لم أرفع ساقي لأُصيبت.
كبّلني الخوف لحظات، رأيتُ الرجل يدفع رضوان أمامه بغلظة، قال لي آدم وهو يقفز من الدكة : "اذهب، اذهب"
فوقفتُ، وركضنا هاربين، أدركتُ أني حافٍ، وواصلتُ الجري مع ذلك على الأحجار متغلبا بالخوف على الألم، سلكنا طريقا مختلفا عن رفاقنا والتففنا لنلتقي بهم. خفنا من أن يلحق بنا الرجل أو يقطع طريقنا حين نمرُّ قبالة منزله، لكنه لم يفعل، لا أعرف أين كان، ربما ذهب ليُدخل ابنتيه للمنزل. التقيتهم واستردتُ نعلي، لامَ أحد أصدقائي رضوان على بذاءته فسبّه وقال له : "حتى أنتم كنتم تسبّون"
قال لهم آدم : "أظنه كان فخا، الرجل كان يخطط للإيقاع بنا من البداية، لم أرتح له بتاتا"
فغرتُ فمي مصدوما، يا له من وغد! لعنته عشر مرات أو أكثر، رغم أن ذلك ليس من عادتي.
خططنا للانتقام، وكنتُ أشدّهم تحمسا لذلك، قلتُ : " علينا أن نهشم زجاج سيارته الأمامي ونريه".

أيّدوني حينها ولكنهم لاحقا تعلّلوا وتذرّعوا، "ربما هناك كاميرات"، "إنه يعرف آباءنا"، "ستكون مشكلة كبيرة"، قلتُ في سري: جبناء!
وجبنتُ لجبنهم فلم أثأر لنفسي بشيء، وما زال ذلك يحزُّ في صدري إلى الآن.
لم أحك القصة لأبي، كنتُ مراهقا أرى أن أبي ينحاز دائما ضدي، وربما يحرمني من لقاء أصحابي بعدها تماما خوفا علي، ويلومهم على الواقعة لاعنا : "الأوغاد أولاد الشوارع"
رويتُ القصة لشخص واحد حينها، صديق لي يكبرني يُدعى "عيسى" كنتُ أراه بمثابة الثائر المتمرد الأبدي، تشي جيفارا أو ربما أعظم حتى.
قال لي : "كنتُ لأردّ المعول له لو كنتُ مكانك"
صدّقته، كان مجنونا بحق، جريئا قليل افتكار في وقوع العواقب، على النقيض مني، دائما أجتهد في إيجاد الأعذار لأبرر خوفي : ولكن ماذا لو حدث هذا؟ ولكن ماذا لو...؟

دفنتُ ذكرى المعول المحلِّق في صندوق مقفل مخفي داخل صندوق داخل صندوق آخر في خزينة في خزانة في ركام سفينة غارقة في قعر المحيط.
واصلتُ حياتي دون اكتراث، واصلتُ لهوي وعبثي وثورتي وتمردي الصامتين، ونسيتُ القصة، ولم أروها إلا بعد سنوات لابن عمي الأصغر مني داود ضاحكا وكلّي إثارة، حكيتها لأُبهره وأظهر بمظهر الفتى الجريء الذي مرّ بمواقف خطيرة جنونية وعاش ليحكيها.

كنتُ أرى الرجل في المسجد دائما خلال شهر رمضان، لم يكن يأتي فيما عدا ذلك، كان يتخللني لمرآه غضب عارم، أتمنى لو أركله أو أخنقه حتى الموت، ولكني لا أفعل شيئا، لا أنطق ولو بكلمة، قلتُ في سري : كيف لرجل مثله أن يطمع أن يُقبل صيامه أو صلاته؟ عليه أن يتوب ويستغفر ويطلب الصفح ويكفِّر.
تساءلتُ إن كان قد نسى ما اقترف، أو إن كان يعتبر ما فعل أمرا عاديا تماما، وإن كان يخفي في قبوه جثثا جباهها مشجوجة بذات المعول، تساءلتُ : كيف يربي ابنتيه وهو عنيف هكذا؟ وكيف تعيشان وقد شهدتا في صغرهما مثل هذه الحادثة المخيفة؟ ثم إن كان فعلها من أجلهما لأنهما سمعتا السباب، فهو سبّنا كذلك حين قذف المعول، أيعاقبنا على شيء ثم يفعله خلال العقاب؟ كرجل يجلد شارب خمر وهو يحسو من زجاجة ويسكي بين جلدة وأخرى، وربما يقول بسم الله قبل الشرب أيضا.

سأختطف ابنتيه وأعذبهما وأنتقم لنفسي.

تصورتُني وأنا أقيّدهما وأقيده هو أيضا، وأضع تفاحة على رأس كليهما وأبدأ بتعلم الرماية بالسكين عليهما، أو ربما بالفأس أفضل، وهو يشاهد ويتوسلني أن أتوقف.
خيالاتي الدموية التي كان يغذيها عجزي عن الانتقام، وغضبي المكبوت.
لو فعلتُ ذلك لصرتُ كالمسيحيين الذي يؤمنون بأن المسيح صُلِب ليكفر عن خطايا البشر، كنتُ مراهقا جاهلا غبيا أحمقا حينها.

الآن أعلم أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولذا سأذهب إليه بعد إنهاء هذه الحكاية لأشفي غليلي، لقد اشتريتُ فأسا من أبي عمّار لأجله خصيصا.
أصدّقتموني؟ أنا جبان رعديد، وقد مضى على الواقعة ما يقارب العقد، تعلمتُ من هذه الحياة أن الانتقام طبقٌ يُقدّم ساخنا.
ربما علي أن أذهب وأشكر هذا الرجل، وأسأله عن اسمه لأهدي له هذه القصة، لقد منحني أفضل هدية يحلم بها كاتب : إلهام، بل قصة مثيرة كاملة، سأحكيها لأظهر بمظهر الفتى الجريء الذي...
ولكن جديا، أريد أن أعرف هل لمثل هذه الوقائع الرهيبة التي لم أُلق لها بالا ونسيتها تماما لردح من الزمن تأثيرٌ عالقٌ بشخصيتي كالوشم أو الوسم حتى لو نسيتُها، أو لم أستعد ذكراها إلا لماما، حتى لو لم أعد أشعر بشيء تجاهها.
شاهدتُ منذ قليل فيديوها للدحيح بعنوان "ذاكرة الجسد"، ظننته سيتحدث عن أحلام مستغانمي فاستعددتُ لتغييره فأنا أكره الروايات الرومانسية، وجدته بدلا من ذلك يتحدث عن الذاكرة الضمنية، ورَبَط ذلك بالحوادث المأساوية، أنهيتُ الفيديو وفمي مفتوح عن آخره.
إذن، هناك تصرفات لا إرادية وطباعٌ في شخصياتنا ترسّبت عن غير وعي منا وهي مخلّفات المواقف السيئة التي مررنا بها.
تذكرتُ كل موقف سيء مررتُ به، تلك الضربة، تلك اللكمة، تلك الصفعة، تلك الكلمة الطاعنة النجلاء، ومواقفا ألعن بكثير كلها تركت بقعا سوداء على روحي حتى صارت أقرب لجلد يغور، ثم ها أنا ذا أتساءل حائرا : لماذا

أنا على هذه الحال؟ لماذا أضحك لمن يسخر مني؟ لماذا لا أنفجر غضبا إلا أمام من هو أضعف مني؟ لماذا أخاف؟ لماذا أكره الاجتماعات والمناسبات وأُصاب برهاب حين أُحشر مع الناس في غرفة مغلقة؟ توتر عظيم يستبدُّ بي حينها، كأنك حبستني مع أفاعٍ وعقارب وعناكب في قبو مظلم، سرعان ما أبدأ في التعرق من كل موضع في جسدي، حرفيا، وأبدأ باللهاث وتضيق حنجرتي كأني مصاب بالربو، أفرك يدي ببعضهما فأجدهما رطبتين كأني غسلتهما للتو، وتحتشد نقاط البول على الحافة كالمظليين على وشك القفز تِباعا من طائرة.

كل هذا الهراء اللعين الذي أضطر لاحتماله كل مرة، سببه ذلك الرجل وأمثاله ممن لم أمسّهم بسوء يومًا ولو في خواطري أو في أحلامي، فإذا بهم يمزقون أحشاء حياتي عن بكرة أبيها بمنشار كهربائي.

خطر لي هذا ليلا، والساعة تقارب الواحدة ليلا. أنا أغوص كثيرا مؤخرا في مثل هذه التأملات، الفراغ ماذا يفعل بالإنسان، أتأمل شريط حياتي كلها كأني شيخ في الثمانين على وشك الموت لا شاب في العشرين.

أمي تناديني : "اذهب للنوم، الوقت تأخر".

أقول لها : "سأذهب بعد قليل".

ولكني أعتقد أن ما يجول في ذهني هذه اللحظة من خواطر وذكريات مهم وخطير، ويجب تسجيله.

من لي بالسايكوباثيين فيُعدمهم ويُبيدهم جميعا حتى ينقرضوا ونرتاح من جينات قابيل الملوثة؟

مهلا، لو انطلق أحدهم في مسعى للبحث عن الساديّين وقتلهم، أفلا يجعله هذا سايكوباثيا بدوره؟

المجنون الرابع قابلته خلال عامي الأول في الجامعة.
ذهبنا أنا ورفاق الإقامة لليلة سمر على شاطئ البحر، فرشنا الحصير على الرمل، وصلينا، ثم جلسنا وأكلنا ما أحضرنا من بطاطس مقلية بالبيض ولحم دجاج، وتجاذبنا أطراف الحديث، وكنا نتناول واحدا منا فنمزقه بألسننا مع الطعام، ونجعله موضوعا للفكاهة ونستفزه، فيحمرُّ وجهه ويردُّ بجدية ونحن نضحك، ثم نأخذ شخصا آخر، وهكذا بالدور.
المشكلة في هذه اللعبة أن الخجولين المهذبين من أمثالي، لا يشاركون في حملة الهجوم، فلا ينتقمون ممن يسخرون منهم ويكتفون بالدفاع، ولذا حين أقول "نأخذ" فافهموا أن ذلك يعني شخصين أو ثلاثة يتمتعون بلسان لاذع وشخصية جريئة يسلقوننا بألسنتهم كالبيض، ونحن فراخٌ بالداخل تصيح وهي تحاول النجاة من هؤلاء الوحوش.
المهم، لعبنا الأونو والشطرنج والدومينو، وقررنا العودة حين حلّ الملل ضيفا.
كانت الساعة الواحدة والنصف أو أكثر، ونحن مجموعة كبيرة، وسائقوا التاكسي يتوجسون مؤخرا من جماعات الشباب فهم يرفضون أن يُقلُّوا أكثر من اثنين أو ثلاثة لحوادث السرقة التي استفحلت مؤخرا.
ولذا ذهبت المجموعة الأولى، ووقفنا أنا وصاحبان لي أحدهما اسمه نصر الله والآخر اسمه موسى، كلاهما أقصر مني بقليل، ولكن نصر الله يكبرني

بست سنوات، أسمر، يرتدي نظارة عريضة، وعلى ذقنه دغل من الشعر، أما موسى فيصغرني بعام، لكنه أقوى مني بدنا، وأكثر مني ثقة بنفسه.
إذن، أنا بين أيدٍ أمينة؟ أعتقد أني يمكنني أن أغلب كليهما في القتال، ولكني لم أخبرهما بذلك. ولذا هما كانا تحت حمايتي وليس العكس.

قال لي نصر الله : "هذا السائق الذي وجدته على "إن درايف" لم يرُق لي بتاتا، ولكني اتصلتُ به، لأن الوقت تأخر وقد لا أجد غيره"
سأله موسى بفضول : "ماذا يريبك فيه؟"

- نبرته، كما أنه قال لي أنه مع امرأة، لم يقل لي سائق مثل هذا أبدا
- مع زوجته؟ غريب حقا

أصغيتُ لهما مستغربا، حين وصل ركبنا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي وانطلق، كان في الثلاثينات، وجواره جلست شابة محجبة، كانت تساعده بمتابعة google maps.
قال لنا : "وجدتكم بصعوبة، جيد أنكم ذكرتم لي أنكم جوار هذا المبنى، فأنا أعرفه جيدا".
كان صوته أجشا عميقا، كأنه جزّار الرغاية، بل وجهه وصوته وجسمه كلها أشبه بالمقاتل شون ستريكلاند حتى لكأنه توأمه، لم يُشعرني هذا بأدنى قدر من الراحة.
ما إن خرج للطريق الرئيسي حتى ضغط على الدواسة وبدأ يسرع قليلا، بين الفينة والأخرى كان يميل برأسه لامرأته ويهمس لها فتضحك بخفوت مستمتعة.

هل هو يتغزل بها هنا؟ وهو يقود سيارة فيها ركاب أجانب؟ غريب.
أخرج سيجارة وبدأ يدخن، كانت النافذة مغلقة، فهتف نصر الله فورا :
"أخي، أطفئ السيجارة"
قال الرجل : "ماذا؟"، بدا متفاجئا من الطلب.
فردد عليه نصر الله : "رائحة الدخان تخنقني، أنا لا أستطيع تحملها"
فتردد الرجل لحظة كأنه يفكر أيرضخ أم يرفض، ثم ألقى بها عبر النافذة، وقال له : "ارتحت الآن؟"
فأجاب نصر الله : "نعم".
فجأة دون سابق إنذار، ضغط السائق على الدواسة وانطلق مسرعا بأقصى ما في المحرك من طاقة، كنتُ قد وضعتُ السماعة لأستمع لبعض الأغاني أو الأناشيد، استقر اختياري على ماهر زين.
دخل السائق الطريق السيّار بذات السرعة، بل وزاد أكثر، وراح يتخطّفه بنا كأنما يسابق العفاريت. وأخذ ينعرج وينحرف، ويراوغ ويناور، متفاديا السيارات الأبطأ منه - كلها أبطأ في الحقيقة - ومتجاوزا إياها بعد أن يكون على قيد شعرة من تقبيلها. كان يسوق بجنون، كأنه فرغ من كتابة رسالة انتحار.
نظرتُ من نافذتي فإذا الأنوار صارت خيوطا وشرائطا، وكل شيء فقد صلابته وأصبح طاقة أو سائلا، يا له من منظر باهر رهيب!
تملكني الخوف، وتخيلتُ موتي في أية لحظة، بل في كل لحظة، استسلمتُ للأمر الراهن كأني ذبيحة أسمعوها القرآن، وبينما راحت السيارة ترُجُّني رجّا يمينا ويسارا، رحت أفكر في حياتي، في ذنوبي وخطاياي، في صلواتي التي

تهاونت أو قصّرتُ في أدائها، رحتُ أفكر في الناس الذين قد أكون ظلمتهم، فتيةٌ أصغر مني أدّبتهم بالضرب، وربما بالغتُ في ضربهم. رحتُ أسترجع كل فعل سيء فعلته وأستغفر الله عنه، تلوتُ الشهادتين، اعتراني همٌّ شديد : أأنا جاهز؟ هل سيغفر الله لي كل هذا لمجرد الاستغفار أم أن القضاء يلزمني والكفارة وطلب العفو.

الجنة أم النار؟ قد لا أكون جاهزا، كيف أكون على يقين؟ آه، يا إلهي، رجاء أدخلني جنتك، أأموت هنا مع هذا المجنون؟ كنتُ أريد أن أموت شهيدا في فلسطين أو اليمن، ولكن ما أفعله الآن يشبه الكفار على السفينة، تنقضُّ عليهم الأمواج فيتذكرون الله ويتضرعون، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، ما أفعله شبيه بفعل فرعون، لماذا لا أذكر الله في حياتي اليومية العادية؟ أيجب أن أدنو من الموت حتى أتذكر؟

انحنى السائق على أذن المرأة وهمس لها بشيء فضحكت، ما الذي يضحكك أيتها المعتوهة؟ سيقتل نفسه ويقتلنا جميعا معا، أتحسبين أنكِ ناجية؟
ثم لماذا هو لا يخاف من الموت ولقاء الآخرة؟ أم أنه لا يؤمن بالله ولا بالقيامة؟ أم أنه يخال نفسه خالدا لن يموت؟ حتى خالدٌ مات أيها الأحمق، مهلا، أهو تحت تأثير المخدرات أو الكحول؟ هذا قد يفسر صوته العميق الغريب، آه، تبا، نحن هالكون لا محالة.

وكبح فرامله بعنف، وارتطمنا! هكذا خلتُ ولكننا كدنا، أدار المقود بعنف، وأنزل زجاج النافذة وهو يتجاوز السيارة أمامه، ليُمطر سائقها بالشتائم، ثم يندفع مبتعدا.

بعد برهة سبقنا سيارة رفاقنا التي انطلقت قبلنا بنصف ساعة أو أكثر، فاتصل بهم نصر الله، مِلتُ على أذن صديقي موسى وقلتُ له مازحا بسوداوية : "هل كتبت وصيتك؟"
فضحك، وضحكتُ معه، ألا إن كان الموت مقبلا فسأستقبله ببسمة وضحكة، ما جدوى البكاء والخوف الآن؟

صرنا قريبين من وجهتنا، حمدتُ الله، يبدو أني سأعيش للغد، الحمد لله، الحمد لله، هيا، قليلا بعدُ، قليلا بعدُ...
أبطأ السائق من سرعته شيئا ما، وقال ساخرا كمن لاحظ للتو القلق والخوف على وجوهنا، قال مسددا كلامه لنصر الله : "هل أنت بخير يا أخي؟"
أخوك؟ نحن خصومك أمام الله أيها الكلب، إخوتك اليهود والكلاب بل الخنازير بل الشياطين!
فأجابه نصر الله : "لقد خضضتني تماما"
فردّ السائق بفجاجة : "هكذا كي تتعلم ألا تأمر أحدا مجددا كأنك سيِّده، عليك حين تريد شيئا أن تطلب بأدب".

فقال نصر الله : "لم آمرك أبدا، طلبتُ منك أن تطفئ السيجارة فحسب".
همستُ له : "لا تجادله، دعه يهذر ويثرثر ويزهو بنصره الذي يتوهمه"
ولكن نصر الله لم يتراجع وواصل النقار مع السائق حتى وصلنا ونزلنا من مركبة الموت تلك، دفعنا له 1000 دج وكان الحساب 950 دج، قال لنصر الله : "آسف، يا أخي ليس عندي فكّة"
فنظر له نصر الله نظرة تتوعده : أقسم أنك لن تأخذ دُريهما زيادة مني أيها الكلب.
قلتُ له أنا وموسى بخفوت : "هيا، قل له أن يحتفظ بالقشيش حتى نرتاح منه"
فقال نصر الله وهو يكزُّ على أسنانه : "احتفظ بالباقي"
أسرع الرجل يقول : "السماح بيناتنا ياخي؟ إذا شئت ذهبت معي إلى المحلات القريبة لنحصل على الفكة منها".
فقال نصر الله : "لا، لا داعي لذلك"
فيما فكرتُ أنا وأنا أكاد أختنق بالحنق: السماح؟ أيها الوغد، تطلب عفونا على سلبك 50 دج وتنسى أنك كدت تسلب حياتنا.
خرجنا من السيارة، فاستدار وانطلق مسرعا كما جاء وسرعان ما توارى.

وصل الآخرون بعده بقليل، فحكينا لهم ما حدث، ودخلنا للإقامة وما زلنا لا نصدق لشدة جنونه، قلت لهم ضاحكا : "ظننتُ أني ميت لا محالة حتى أني بدأتُ أستغفر وأتشهّد"

قال موسى لأحد رفاقنا : "لن تصدق ما قال لامرأته، لقد قال لها وهو يسرع أكثر وأكثر ويُدير المقود من أقصى الشمال لأقصى اليمين : "أنا أحب الموت"، فضحكت له"
صرختُ : "ماذا؟ لم أسمعه إطلاقا، أقال ذلك حقا؟ إذن، كان مدركا تمام الإدراك لما كان يفعله، وكان واضعا في الحسبان احتمال موته وهو يسرع، أهما زوجان مخبولان أم ماذا؟ ما الذي يفعله أصلا مع امرأته بعد الواحدة ليلا بالعمل سائق أجرة، أهذا زوج طبيعي؟"
قال نصر الله : "ليست امرأته حتى، فهل كان ليدخن أمام زوجته؟"
فهتفتُ : "بل قل، كيف يخاطر بحياتها متهورا وهي تضحك له؟ إنها خليلته أو بائعة هوى، ليس في هذا شك"، ثم أردفتُ ضاحكا بمجون: "ربما هذه تمارين تسخين لهم تمهيدا للوِقاع، ذانِك السايكوباثيان اللعينان ينالان اللذة عبر تعذيب أعصابنا".

بعد أيام خطر لي خاطر مزعج، لماذا لم أقم أنا وصديقاي بفعل شيء؟ أقصد، لقد هدد الرجل حياتنا، لقد كاد ينتحر ويقتلنا معه، لو كان يحمل سكينا لكنّا قد قاومناه بالعنف، لربما تكالبنا عليه، ونزعنا السكين من يده ثم ضربناه حتى يفقد وعيه، ما الفرق بين تهديده إيانا بسكين ومحاولته قتلنا بحادث مروري؟ لماذا جلسنا مكتوفي الأيدي كأن عليها الأصفاد؟ تخيلتُ نفسي بعد توقفه، أطوّق عنقه الغليظ بذراعيَّ وأخنقه بتلك الحركة الشهيرة[3]، فيما ينزل نصر الله وموسى بسرعة ويلكمانه على وجهه مئة مرة

[3] Rare-naked choke hold

على الأقل حتى يبصق كل أسنانه، لماذا لم نفعل هذا؟ أين ذهبت عزتنا وجرأتنا وشجاعتنا؟ بل دعك من صاحبيّ، أين شجاعتي أنا؟
لم يخطر لي هذا أبدا، ولا أظن أن الفكرة راودت رفيقاي، ربما لأنهما مثلي لطيفان مؤدبان. المانع الوحيد ربما هو أن يرجع الرجل مع عصابة فتصير معركة، وإذا جاؤوا مدججين بالسلاح فقد تصبح مجزرة.
وهذه إقامة عمل، ولابد أن رب عملنا بغنى عن المشاكل، ولكن هل سأظل طيلة حياتي هكذا، يهددني أمثال هذا البلطجي فلا أفعل شيئا خوفا من أن يرجع للثأر ومعه جماعة، هل سأترك شخصا يهددني ويضربني ويسرقني وربما يغتصبني خوفا من عصابته؟ تبا لهذا! ستعود إلى عصابتك بلا لسان ولا عينين حتى لا تعيد الحكاية، ولا يدين حتى حتى لا تكتبها، ولكني أفكر بهذا وأقوله وقد أتغنى به وأكتُبه وأذيعه وأنشره ثم ساعة الجد تراني عاجزا عن التطبيق، واقفا هامدا جامدا كأني صنم يرقُبُ فأس إبراهيم عليه السلام.

سئمتُ حياة الحملان، أريد أن أصير ذئبا، أريد أن أصير كمايك تايسون، ومحمد علي، وحمزة شيمياف، وإسلام ماخاشيف، وحبيب نورماغوميدوف، وفينوم بيج، وكل البواسل الأشاوس المسلمين.
قد أعذر المجنونين الأولين فهما يفتقران للعقل كي يفرقا بين الصواب والخطأ، ولكني لن أعذر الآخرَيْن ولن أسامحهما، ولو لقيت أحدا مثلهما فأريد أن أكون قادرا على الفتك به وافتراسه حرفيا، كما يفعل التمساح بالفهد أو اليغور بالقاطور أو الليث الهصور بالضباع الوضيعة.

أريد أن أكون أنا نقطة التحول في حياته، أن أحوِّله من شدة الضرب إلى مسلم مؤمن تقي يصِل إلى المسجد قبل المؤذن، ويصلي جوارك على كرسي، ويسلّم عليك بلثغة ويبتسم لك فترى في فمه سنّين أو ثلاثة فقط، الناجيات الوحيدات من السّبي.
هذا هو هدفي من الآن، إن أريد الإصلاح ما استطعتُ وما توفيقي إلا الله.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

لا أعتقد أني أحببتُ فتاة حقًّا أبدا، ربما أعجبتني بعض الخصال في بضع زميلات خلال سنوات دراستي، وربما اشتهيتُ الأنثى أحيانا، ولكني لم أبِت أرقًا أفكر في إحداهن أبدا، وكنتُ أعتبر العادة التي تفشّت حين كنتُ في المتوسطة من اتخاذ الفتيان صديقات، يشاكس بها بعضهم بعضا فيقال : "هذه صديقة عمر"، فيسمع عمر ويهتف : "لا، ليست كذلك"، أو يقول : "اخفض صوتك أيها الوغد، هذا سر بيني وبينك"، أو إن كان عمر قليل الحياء يقول متفاخرا ونظرة شبقة مكشوفة كسوأة قرد تعلو عينيه : "أجل، إنها كذلك، أرأيتها حين صعدت على المصطبة لتكتب على السبورة اليوم؟".
كنتُ أعتبر تلك العادة المستوردة من الأفلام الأمريكية سخافة مطلقة، لماذا تتخذ صديقة؟ ما الفائدة وأنت لن تكون أبدا معها وفي المستقبل على الأغلب ستتزوج واحدة أخرى؟ كنتُ أراها تضييعا للوقت وتشتيتا

للذهن، وكنتُ أصرخ في سري : الصبية الأغبياء ينشغلون ب"غمزت لي" و"ابتسمت لي"، ويدعون الفتيات اللواتي يركزن على دراستهن يتفوقن عليهم، قد تكون هذه خطة شيطانية جهنمية منهن لإبقائنا دائما أسفل أقدامهن.

لا أدّعي الطُّهر ولا الكمال، لقد ارتكبتُ خطايا وذنوبا كثيرة، ولكن العشق لم يكن إحداها، ربما لهذا لا أطيق الراي، ولا أستمع للبوب كثيرا.

على أيّة حال، لأني لم أشعر حقا بهذا النوع من الحب - ولا أريد أن أشعر به بتاتا، فآخر ما أحتاجه في حياتي الهادئة الرتيبة هو أنثى تقلب كل شيء رأسا على عقب - لا أحب صنف الرومانسية، لا في الأفلام ولا في المجلات المصورة ولا في الروايات، ولهذا لن أكتب الرومانسية...

إلا مرة واحدة فقط، لأني أردتُ أن أفهم وأردتُ أن أتصوّر ذلك الشعور.

هذه القصة مذنّب هالي، لن تروا في حياتكم مثلها أبدا.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

ما وافق شَنٌّ طبقة

ماذا تحب أنتَ في الفتاة؟

- وماذا يحب الرجال عموما في الأنثى؟ لا أستطيع أن أتكلم نيابة عن الرجال، فأنا ما زلت في زهرة الشباب، يمكنني عوضا عن ذلك أن أخبرك بما

أحبَّ أقراني في الفتيات، المراهقون وهرموناتهم في متوسطاتهم وثانوياتهم، إذا سألت أمين الشّهوتاني فسيجيبك بكل سرور، وعيناه تلتمعان بالأحلام الفانطازية - على حدِّ قول علاء الأسواني - وفمه يفترُّ عن ابتسامة عفريت عربيد : "أووه! ماذا أحب **أنا** في الفتيات؟! لا، ليس الوجه اللعين، من غير الأبله يأبه للوجه؟ أنا مستعد لأحب أيَّ فتاة حتى لو كانت قبيحة الوجه..".

تقول له : "أوه، حقا؟ أنت نبيل ولستَ سطحيًّا كما ظننت و...". فيواصل حديثه الذي انتشى به وثمل حتى أنه لم يُدركـ مقاطعتك أصلا : "... إن كانت شهية ويانعة".

- ماذا؟! تبًّا! إنه خطئي لأني سمحت للأمل بأن يغُرَّني.

يستأنف أمين : "أوه، أجل، شهيّة غضّة بضّة، تراها فتفكِّر كالحجَّاج حين يرمق رأسا انتفخ بالعلم: **حان وقت القطاف يا حلوة!** تمشي متهاديةً فتهتزُّ الثمرات الأربع المستديرة الأماليد - التي تحملها معها أينما ذهبت - وتتواثب في وجهك ملوِّحةً كما لو أنها تهتف بك : "هاي، أنا هنا، التفت إلي"، ثم يلومونني على النظر بعد ذلك، دعني أبُح لك باسم الثمرتين العلويتين...".

تقاطعه بسرعة قبل أن يقذف بالقنبلة : "مهلا، مهلا، لا داعي لذكر التفاصيل يا هذا، لقد فهمت قصدكـ، الفتاة في رأيك هي عبارة عن... نهدين وردفين؟".

يتفرّس وجهك مليًّا محاولا تخمين إن كنت تهزؤ به ثم يسألك : "كيف تنهاني عن الاستغراق في التفاصيل، ثم تقولُ بالذات ما كنتُ أنا موشكا على البوح به؟".

- ....

يسألك مجددا في لوم : "ثم كيف تذكر أهم شيئين في العالم بهذا الاستخفاف والاستهانة؟ عليك أن تتلو اسميهما بإجلال وتعظيم، فمن أجلهما يدفع الشباب الملايين مهرا للعروس".

تصيح به : "الرجال لا يتزوجون من أجل ذاك يا أحمق يا مأفون يا فاحش يا فاسق يا...".

- ومن أجل ماذا يتزوجون إذن إن لم يكن لغير ذلك؟ شهواتهم تستبدُّ بهم وتهيج حتى يصير من المستحيل إخمادها، فيقتلون أنفسهم كدًّا ونصبًا لجمع مال الصّداق، أو يقترضون أو يتسولون أعمامهم وأخوالهم وآبائهم، المهم أن يحصلوا على الثمن اللازم ليشتروها".

تسأل مصدوما : "يشتروها؟!! ".

- أجل، ليشتروا تلك الفاكهة التي يأخذون منها كل ليلة قضمة تسمح لهم بالنوم الهنيء، قضمة حلالا لا يلومك عليها أو يشاركك إياها أحد".

- والآية التي تقول : ((وجعل بينهما مودة ورحمة))، والآية التي تقول : ((لتسكنوا إليها)).

يسرع أمين بتلاوة بعض الآيات القليلة التي يحفظها من القرآن ليُفحمك : "والآية الكريمة التي تقول : ((فلما تغشَّاها))، والآية التي تقول : ((هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن))، والآية الجميلة التي تقول : ((فأتوا حرثكم أنّى شئتم)).

تصيح فيه : "أنت تركيزك كله منصبٌّ على إشباع غرائزك الجنسية الدنيئة". فيقول مجيبا : "وأنت تتغاضى عنها كما لو أنها ليست جزءً من واقع الحياة الزوجية".

تسكت فيصمت بدوره وينظر إليك نظرة الظافر المنتصر، وهو يبتسم في خبث أبي نواس حين يتمكن من إغواء غلام، ثم تتفقان على أن تختلفا وتفترقان، لأعود أنا إلى حديثي حيث انتهيت.

كان هذا كله إجابة أمين الشهوتاني المتخيّلةُ بفرض أنه يحمل ذرة عقل تكفي للإتيان بحجة دون السب والشتم واللعن، ويحفظ نزرًا يسيرًا من الآيات الكريمة، دعنا من أمين، ولنتوجه لطالب ثانوي آخر، يمشُط شعره للخلف، بعد أن يغسله بالشامبو، ويطليه مرتين أو ثلاثا بكل أنواع الزيوت؛ بما في ذلك زيت الطبخ وزيت السيارة وزيت الدراجة، إنه مستعد لاستعمال أيِّ سائل يجعل شعره لزجا، وثابتًا كالخيزران أمام الريح، لن يتزحزح سنتمرا عن مكانه، وسيظل كما نحته بالمشط تماما، انسفه

بالبارود أو اقصفه بالقنابل إن شئت، شعره مقاوم مناضل ثابت على موقفه، ولن ينثني أو ينحني مهما تعرَّض له من تعذيب، الحل الوحيد هو أن تأخذه إلى مقصلة الحلَّاق.

فلنسأل هذا الطالب، اسمه – بالمناسبة – هو كمال الولهاني: "ماذا تحب في الفتاة؟".

يجيبك بأعين حالمة وفاهٍ أَلِفَ إفلات آهاتٍ ترزح تحت لوعة الهيام الطّاغية : "آه، ليت قلبي، ماذا فعلت به وجوه الحسناوات، تلك الأعين الخضر تطير تحت إمرتها أسراب من الكيوبيدات ترشقني بسهامها القاتلة، وتلك الجفون المنسدلة مع كل غمضة وغمزة تعلو وتهوي فتجلد فؤادي بسياطها اللافحة، وذلك الأنف الطويل الشامخ الملكي يسجد له أنفي الأفطس تعظيما وإجلالا بجبهة خاشعة، وتلك الوجنتان المتوردتان بغمّازتيهما الساحرتين، هلالان يتلألآن فتنة وبهاء حين تبسُم أو تضحك فينيران الليلة الحالكة، وذلك الثغر الحلو بئر خمر لا تغور ولا تنضب، تملأ الكؤوس حتى تفيض مترعة دافقة، حين أتزوجها سألقي فيه دلوي، وألثمه حتى أثمل بالقُبَل الرائقة، فشفاه السّكر والشَّهد تلك لم تخلق لغيري".

مهلا، مهلا، نقول له في اعتراض : "هل أنت تصف بشرية أم إحدى الحور العين؟ لا ريب أنك تبالغ يا هذا".

- أجل، هو كذلك، إنها من الحور العين، لا يمكن أن يكون منبت هذا الجمال الخارق الأرض، لابد أنها هبطت من السماء كمائدة عيسى عليه السلام، نزلت من أجلي خصيصا

مهلا، مهلا، فلنسأله مجددا : "لقد شبّهتها بالمائدة؟ هل هذا يعني أنك تراها شهية".

- أنا أراها فاتنة آسرة ساحرة جميلة بهية، "شهية" لفظة غريبة منكرة ولا تليق بها، أنا أرغب في تقبيل أناملها وتشمّم شذا أظافر أصابع قدميها ولكني لست أشتهي أكلها، من تحسبني؟ هانيبال ليكتر؟

نفسر له قائلين : "لا، لا، كل ما هنالك أننا سألنا قبلك أمين، وقد أخبرنا أنه يشتهي في المرأة النهود والأرداف لا غير ".

يبدو الامتعاض على محيّاه ويبصق ويكاد يقيء : "أتقارنني بذاك الحيوان؟ إنه كلب يلهث خلف اللحم، كلا، حبي العذري أسمى وأنقى وأطهر، إنه أدنى إلى التصوُّف منه إلى البهائمية، أنا أهوى الوجه الملائكي الصّبوح، وأعشق الجيد الطويل الناصع، وأحب اليدين الملساوين الناعمتين المزركشتين بالحنّاء، ويرقص قلبي مع ذاك الشعر الحريري المسترسل الذي تلاعبه الريح وتداعبه، ويتوق فمي لعناق ذاك الثغر العسلي الحلو، آه، خير ما أصف به حبيبتي ما تغنّى به أبو القاسم الشابي الشاعر الرومانسي المرهف الرقيق إذ يقول :

عذبةٌ أنت كالطفولة كالأح		لام كاللحن كالصباح الجديد

كالسّماء الضحوك كالليلة القمراء   كالورد كابتسام الوليد

يا لها من وداعة وجمال   وشبابٍ منّعمٍ أُملود

أتعلم؟ أنا لا أعرف حتى ما معنى "أملود" ولكن لهذه الكلمة جرسا موسيقيا جميلا كمعشوقتي، فهو لابد وصفٌ يناسبها، دعني أنشد لك أبياتا أخرى من هذه القصيدة الغزلية البديعة :

كل شيء **مُوقَّعٌ** فيك حتى... ".

نقاطعه صافقين باب الحوار في وجهه قبل أن يحشو آذاننا بكل ما يحفظه من شعر الغزل : "حسنا، توقف فقد فهمنا، جسد حبيبتك مُسودّةٌ لإمضاءاتك وتوقيعاتك".

- ماذا؟!!

جيد، نجحنا في إرباكه بتلك التوريّة، ها قد تبلبلت أفكاره وسرعان ما سينسى قصيدته تماما، فلنواصل تشتيته : "أراك يا كمال أرقى بدرجة من أمين، ولكنك مثله تنظر إلى الجمال الجسدي، الفرق أن تركيزك منصبٌّ على أعضاء أكثر براءة وطُهرا، ولكن لديك شهوة للجنس رغم ذلك، أليس كذلك؟".

ينظر لي في حنق : "بالطبع، لدي شهوة للجنس، أتحسبني عنينًا؟ أنا أحبها ذلك الحب العذري الطاهر، وأشتهيها في نفس الوقت، ولكني لا أصرِّح بذلك لأنه يفسد جو الرومانسية".

- أقدِّر فيك صدقك، لدي سؤال أخير لك، ماذا عن العقل والخُلُق؟ هل تهتم لهذين؟

ينظر إلينا كمال مندهشا : "من يأبه لذاك الهراء؟ الأنثى زينتها الجمال واللطف والرقة والدلال والغنج، أما الذكر فزينته القوة والشهامة والشجاعة والحزم والهيبة، العقل شيء ثانوي إضافي، إنه أكسسوار لا يعيب الحسناء نقصه، لو كان الناس يبحثون عن العلم والمعرفة في أزواجهم لنكحوا الكتب، ذكّرتني بنكتة عن شيخ علّامةٍ أعزب، قيل أنه تزوج كتبه أو شيء من هذا القبيل ههه".

أُلقي إليه بالقنبلة وأنطلق مغادرا : "شخصيًّا أُفضِّل أن أنكح كتابا على فتاة بلهاء!".

- ماذا؟!

أتوقف وألتفت إليه مكملا : "أجل، فالبلهاء ستصمُّني بترّهاتها وسخافاتها، وسيتوجب علي أن أحشر شيئا ما بين شفتيها وإلا سأُجنُّ وأقتلها".

- ماذا؟!!!

أتابع غير مكترث لصدماته المتتالية ونوبته القلبية الوشيكة : "وأنا لستُ راغبا بإهدار مالي في شراء العلك والمصّاصات ولذا إن خيّرتني فسأتأبّط الكتاب، وداعا يا كمال.."، ثم أدير له ظهري وأهمس من بين شفتاي المواربتان مطلقا نخيرا ساخرا : "أيها العاشق الولهان!".

- ماذا قلت؟!!
- لا شيء

- "ولكني سألتك ماذا تحب أنت في الفتاة؟ وليس ما تعتقد أن الناس يُفضِّلون"، يكرر طبيبي النفسي الوهمي "وليد العُقَدكبتياني" سؤاله بصبر، لقد أسكنتُه ناطحةَ سحابٍ في عقلي، فرشتُ له شقة فاخرة، وجهزت له مكتبا مريحا، ومنحته وجها وسيما؛ عينين زرقاوين، وشعرا أشقر أملس، ولقبا فريدا علاوة ذلك، ثم بماذا يجازي سخائي؟ يُلِحُّ علي بأسئلته المتطفِّلة المخجِلة.

أصرخ فيه : "أنا لا أحب الفتيات جملة وتفصيلا!".

فيقول بصوت رزين هادئ : "وهذا ليس طبيعيا، أظن أن السرّ يكمن في طفولتك، أرجو أن تثق بي وتأتمني على ذكرياتك يا خالد، احك لي كل ما تذكره من مواقفك مع الإناث في صغرك".

يمرُّ أمام عينيّ شريطٌ طويلٌ من مغامراتي الطفولية وبعثاتي الاستكشافية إلى أراضي الأنوثة المجهولة، والتي كان أغلبها في الواقع إستجابة لدعواتِ فتياتٍ يزوِّقها الإغراء بخطّه المتأوِّد المتنهِّد، شريطٌ طويل كأمعاء الإنسان، وفاضح كالغِلالة، إنه كنزٌ لمن يطمع في ابتزازي، شريط أحاول أن أخفيِهُ حتى عن نفسي فكيف أأتمنُ عليه طبيبًا نفسي؟ وحتى إن كان الطبيب صنيعة خيالي فلن أُفشي له أبدًا بهذه الأسرار الخطيرة.

أنظر إليه مليًّا، تلك العوينات الطبية التي تهبه هيئة الحكيم العليم، تلك الابتسامة العريضة التي توحي بالثقة، تلك العينان المتفهمتان المكترثتان، يشبِّك يديه على سطح مكتبه وينحني إلى الأمام، لغة جسده تقول لي بوضوح : أنا مهتم، أنا منتبه للهراء الذي تبعثره في وجهي، أنا منتبه لأنك تؤويني مجانا وتبقيني حيا في خيالك.

أقول له والندم يلوح في عيناي : "هل يمكننا أن نعود إلى السؤال الأول رجاء؟ سأعترف لك بكل ما يغريني في الفتيات".

****

أنت تعرف أن اسمي خالد وأن لقبي البهجواني، وهو لقب غريب لا ترتاح له الأذن كما لو أنه لحن فيه نشاز، فليكن، إنه من اختلاقي، لدي مشكلة أسماء عويصةٌ حتى أحمد خالد توفيق سيعجز أمامها ويقول : "ما باليد حيلة"، أي، نعم، هذه إحالةٌ، لا تكونوا كسالى وفتِّشوا في كتبه -أحمد- عن مقال بعنوان "مشكلة الأسماء"... لاحقًا! قلتُ لاحقا، الآن أنصتوا لقصتي...

سأطلعك في البداية على بعض الحقائق التي ستمهِّد للقصة التي سأحكيها...

أولا، عائلتي والأدب كالبدو والسمك، هل رأيت البدو يقلُون السردين يوما ما؟ لا، لماذا؟ لأن ليس لديهم مقلاة؟! لا، ليس هذا السبب يا "باخالي" ولا تسلني عن معنى هذه الكلمة، فأنا لا أعرف سوى أنها ليست سبّة ولا

شتيمة فارتح بالا وهدئ من روعك يا هذا، احزر مرة أخرى... ماذا؟ ليس لديهم شِباك وصنارات؟! هل أنت تتغابى أيها المتذاكي اللعين؟ أأنت تعبث معي... حسنا، حسنا، أترى هذه البندقية المصوبة نحو دماغك؟ إنها معبّأة، أنا لا أمزح معك، أجب مرة ثالثة، إنها فرصتك الأخيرة، إما صوابا وإما وفاةً، لماذا تهرش رأسك وتعُدُّ على أصابعك؟ إنها ليست معادلة لعينة... مهلا، ماذا قلت؟ كررها، البحر؟ لا يوجد بحر، الحمد لله، إجابتك صحيحة يا عبقري يا نابغة، لقد عثرت على جواب أعقد سؤال فلسفي في التاريخ، عليك أن تفخر بنفسك... أأنت حقا أبله لدرجة أنك صدّقت إطرائي التهكُّمي أيها الطبيب النفسي الأحمق؟".

- لا أعتقد أن هذه النبرة غير اللطيفة ضرورية لإعلامي أني على خطأ و... .
- كلا، بل هي جِدُّ ضرورية لتأديب أمثالك، إنكم تجوبون الشوارع بحرية مفعِّلين في أدمغتكم وضع البلاهة والسذاجة، وتنتظرون من الناس أن يتحملوكم ويجاروا غباوتكم وحماقتكم.
- يُخيَّلُ إلي أنك تُلصق عيوبك بي وتلومني عليها لأنك تمقت نفسك وتتلذَّذُ بتعذيبها.

حملقتُ فيه بفم فاغر، يا لبديهته! كيف استنبط كل هذا بهذه السرعة والدقة؟ قلت : "هذه هرطقة وتجديف وتمرد صريح، ولذا فهذه جلستنا الأخيرة معا، حين ننتهي ستخرُّ صَعِقًا، وسيتسلّم مني عزرائيل روحك ويأخذك إلى ربك".

- تقصد أنك ستُجلسني على كرسي كهربائي؟
- بالضبط
- فليكن، هل يمكنك الآن أن تعود إلى قصتك؟

- "سأفعل، ولكن ليس رضوخا وانصياعا لك، أين توقفنا؟... آه، عائلتي لم تذق الأدب يوما وحتى لو ذاقوه فلن يستسيغوه، فهم قد ألفوا طعم الضَّب والجراد، مهلا، اختلط المجاز بالحقيقة وامتزج المشبه بالمشبه به في هذا التشبيه التمثيلي، المعذرة، سأعيد... لن يستسيغوه لأنهم يفضلون الأفلام والمسلسلات والأغاني ومباريات كرة القدم وقنوات الأخبار، ولهذا لن تنصدم حين أقول لك أني كنت منزويا منطويا متقوقعا على كتبي وأقلامي لا يشاركني في شغفي للمطالعة والكتابة أحد، ولربما اعتبروني غريب أطوار، وقد كنت بالفعل غريب أطوار، لأني بخيالي الجامح كنت أختلق أكوانا وعوالما أسرح فيها وأتسكع في أوقات فراغي، وأصطنع شخصيات وأمنحها أصواتا ثم...".

- كما فعلت معي؟
- تماما مع فارق واحد، أن شخصياتي الأخرى كانت مثيرة وجريئة ومليئة بالمفاجآت أما أنت فممل مضجر كصخرة صماء أو عصا ميتة
- الصخرة قد تتمخض عن ناقة والعصا قد تواري ثعبانا وقد تفلق بحرا وقد تُفجِّر نبعا
- أيها المتحذلق اللعين، يا من تخال ردودك مفحمة مخرسة، قبل الإعدام سأعذبك، سأخوزقك على عصا وأرجمك بالصخر، والعذاب

سيتضاعف كلما فتحت فاك ترُدُّ على مولاك أيها العبد القليل الأدب، صدق المتنبي حين قال : "لا تشتر العبد إلا والعصا معه".

- ما خطبك اليوم شديد اللهجة؟ لم أعهد هذا منك قبلا، حتى حين حدثتني عن وفاة جدك، وهجران صديقك لك، وقطعك لرحمك، لم تنقلب عصبيا هكذا فما بالك؟ ألأنك على وشك البوح باسم محبوبتك التي لم تبادلك... الشعور؟ هاها
- اضحك، اضحك أيها الوغد، عذابك تضاعف وقد أعذر من أنذر، خوزقة ورجم ثم صلب وسلخ، ثم إني لم أكِنّ لتلك الفتاة حبا ولم أضمر لها كرها، ولن أفشي اسمها لنذل منك، بل سأختلق اسما مستعارا، والآن انته عن هذا الجدال العقيم وإلا سأوقف الجلسة وأجلدك...

أين توقفتُ؟ على الأقل انفعني بتذكيري يا عديم الفائدة، هيا، أنعش ذاكرتي، آه، نعم، توقفتُ عند خيالي الجامح، كنتُ أختلق به حشدا من الشخصيات، سريعة الغضب، شديدة البأس، ثم أشعل الحروب بينها، وأتمدّدُ على أريكتي (منتوجٌ خياليٌّ) وبيدي كيس متخمٌ بالفشار (علامة خيالية)، وأشاهدها تقتتل بضراوة وشراسة شياطين تسمانيا، وأنا أهتف مشجعا حينا، وأملأ فمي بقبضة من الفشار حينا آخر.
بيت القصيد أني كنتُ في عائلتي النعجة السوداء، أو الأسد الأبيض، أو النمر الأسود، كنت مختلفا فريدا متميزا، والتميُّز يجلب معه نديميه الوحدة والوحشة، ولكني اتخذت من كتبي أنيسا، ومن كتاباتي خليلا حميما

فساعداني في تناسي مرارة العزلة، ولم يقتصر الأمر على عائلتي بل امتدّ إلى أصدقائي، فلم يكن منهم من يماثلني في الهواية، كانوا جميعا يحبون كرة القدم، فجرّبت لعبها وما هي إلا أيام حتى اكتشفت أن الكرة اللعينة تحبني فهي لا تكفُّ في كل مباراة عن تقبيل وجهي، وتتركني قبلاتها العنيفة - الأدنى لقبلات القروش - بعيون متورِّمة ودموع منسكبة، ولذا كرهتها ونبذتها ولم أُلق بنفسي في مرماها منذئذ.
ولكن وعلى الرغم من ذلك، كان لي - في صغري - سحرٌ على زملائي، سحرٌ أحلُم باستعادته، وذلك أني كنتُ أكتب قصة ملحمية لا نهاية لها، لا أتوقف لأراجعها فأتأكد من أني لم أقع في ثغرة أو تناقض – وما أكثر ما يسقط في أحابيلهما الكُتّاب – أو أغيِّرْ اسم إحدى شخصياتي سهوًا، بل وكنتُ أحيانا أبتكر شخصيات ثانوية فأغوص في قصصها ومغامراتها وأنسى أبطال قصتي الأصليين كُلّيةً...

يصرخ إبراهيم قاذفا بدورق النبيذ إلى الجدار ليتهشّم ويتشظّى على الأرضية الخشبية للخان : "اللعنة! تبا! تبا لذلك الكاتب! لقد نسانا، هجرنا وتخلّى عنا على قارعة الطريق كاللُّقطاء، ألقى بنا في هذا الخان الحقير وحبسنا فيه، ونحن الآن مسجونون هنا بلا أمل في الرحيل، هنا حيث يقدمون دائما نفس الفطور، نفس الغداء، ونفس العشاء، دائما بيضة مسلوقة لعينة، وقدح شاي، بيضة وقدح شاي، بيضة وشاي... أكادُ أُجَنَّ، سنون وأعوام كثيرة أقبلت وأدبرت، في كل يوم من كل أسبوع من كل شهر من كل فصل من كل سنة منها أكلتُ عين الوجبة، سئمتُ الطَّعم وصرتُ

أبغضه بغضي لإبليس، وذاك الشاي، سُكّر وماء عكرٌ وصرصوران يسبحان فيه أو ثلاث، أنا الأمير الذي أَلِف لحم الظباء والحملان أتردّى إلى هذا الحضيض، تلك الحيزبون الملعونة هي من أنزلت علينا هذا البلاء، أكان عليها أن تختتم آخر فصل لنا في القصة بتلك الكلمات؟! قالتها في فخر : "أهلا بكم ضيوفنا في خان "جوار الآلهة"، غرف النوم في العلية، خمس دنانير فضية لليلة الواحدة، سنعطيكم المفاتيح بعد قليل، برنامج الوجبات معلق هناك، الفطور : بيضة مسلوقة وقدح شايٍ أطرى كل ضيوفنا السابقين على نكهته 'المميزة'... "، مميزة؟ نكهة الصراصير حقا **فريدةٌ...** في كونها أشنع مذاقٍ على الإطلاق!

"... الغداء : عصيدة أو حساء، العشاء : بيضة مقلية وقدح شاي، بالطبع نحن نُغيِّر من نوع الشاي حرصًا على ألّا يملَّ زبائننا، في الفطور، نقدم شايا أخضرا، وعلى العشاء نقدّم شايا أسودا"، تغيرين من نوعية الشاي؟! ألم يكن أحسن بك أن تُنوِّعي الوجبات في برنامجك أيتها المأفونة؟ أسديتُ لنا معروفا حين قتلتها، جيد أني فعلتها، جاءتني تدمدم وتتذمّر بصوتها الذي يجعل الضبع والحمار والذبابة يظنون بأصواتهم الحُسن، كانت تقول : "متى تخرجون؟ متى تغادرون؟ لم يأتني زبائن جدد مذ جئتم يا وجوه الشؤم يا.."، كنتُ ثملا حينها فطرحتها أرضا وانتزعت جوربها وخنقتها به حتى خرست، وحين أفقتُ من سُكري لم أندم إطلاقا، بل شعرتُ بالراحة تغمر صدري، همُّ السجن لوحده يكفي، لا تطالبني بأن أتعايش مع الصراصير والجرذان التي تعمُر الزنزانة، ألستُ محقا يا رفاق؟

قال إبراهيم مُجيلا النظر فيما حوله إلى أصحابه...الجثث، بعضهم مات من الكبر، وبعضهم من جراحٍ تُركت دون علاج فتقيّحت وتعفّنت، وبعضهم ضحية داءٍ عضال فَتَك بهم لسوء التغذية، أو الجراثيم في الشاي أو قُبَلِ البعوض العاشق القاتل، صاح إبراهيم مجددا : "تبا للكاتب اللّع.."، وأفرغ معدته على طاولته، ثم ألقى رأسه على القيء وغاب في نومٍ عميق و... مهلا، هذه قصةٌ أخرى، أردتُ أن أجعلها مثالا يوضح كيف أنسى أبطالي حين أكتبُ قصة ملحمية بلا نهاية ولا أراجعها أبدا، لماذا لم تخبرني أيها الطبيب أني انحرفتُ أميالا عن الموضوع؟ عليك أن تنبِّهني في المرة القادمة، أسمعتَ أيها الأحمق؟ والآن أين توقفتُ؟...

كنتُ أنطلق على الأوراق دون فرامل، بقلمٍ يتعرّج وينعطف مخالفا كل قوانين المرور، فيترك شرطة الخطّ مذهولة من هول الحوادث، كيف سوّلت له نفسه أن يترك الهمزة مشوّهة مرميّة وسط السطر هكذا؟ يا له من وحش!

كنت أنطلق على صفحات كراستي أسوِّدها بالحبر دون تفكير أو تدبر أو تأمل فيما أكتبه، فقد كانت القصص تنساب من لا وعي متدفقة بلا تحكم مني كالقيء... عذرا، أقصد البول... مهلا، أنا آسف حقا، كنت سأقول الإسهال... آه، تبا! أظن أني سأكفُّ عن المحاولة، هيّا، اقترحوا علي أيها الحساسون تشبيها نظيفا طاهرا نقيًّا، ماذا؟..السعال؟ أستطيع بقليل من العناء أن أحبس السعال، آه، سعالُ مريضٍ مصابٍ بالأنفلونزا؟... أجل، السيطرة على ذلك أشبه بمحاولة التشبث بمكانك على صهوة ثور هائج،

ولكنه ليس تشبيها نظيفا تماما، أتعرفون ما يلوِّثُه؟ أتريدون أن أصرّح به؟ كلا؟ جيد، لأني أحب أن أثير اشمئزازكم بما تنفرون منه، إنه النُّخام، البلغم الأخضر اللّزج الثخين.

كنتُ أقول، كنتُ مجرد حافلة أو باخرة أو طائرة تنقل ساكني عالم الخيال إلى أرض الواقع، أقول لهم : "اهبطوا، فإن لكم على صفحات دفاتري مستقرا إلى حين"، إلى حين أمزِّقها إربًا عندما يتلصَّصُ عليها أحد دون إذني، وكان زملائي يَعْجَبُون لأمري، ما خطب هذا المعتوه يواظب على ممارسة أكثر شيء نبغضه في المدرسة؟ الشيء الذي يتلذَّذُ الأساتذة بتعذيبنا به دون وجه حق، الكتابة! كانت أكفُّهم تتقرّح وسواعدهم تئنُّ وتتأوَّه بعد ساعة من الكتابة، فتخيلوا نظراتهم لي حين يرونني بعد تدوين الدرس، أنكبُّ على كراستي أطعنها بنصل سيالتي وأشقُّ فيها جراحًا تنزف مِدادًا، ماذا يفعل؟! أهو ينتقم من كراسه بهذه الطريقة؟ يسألونني : "ماذا تكتب؟".

فأريهم الكراس، على الهوامش رسومات لسيوف ونبالٍ ورؤوس ليوث وأفاعي كوبرا ورقاب مقطوعة لا تمتُّ إلى القصة - المكتوبة بخط مشوّه ممسوخ - بِصِلَةٍ البتّة، يقرؤونها فتبهرهم ويهتف صديقي أحمد : "ما رأيك أن تبيعها لي؟ سأشتريها بألف دينار! ".

ألف دينار كانت تساوي مليارا في أعيننا البريئة الساذجة، كم سأشتري من العلك بألف دينار؟ دعني أحسب، العلكة الواحدة بدينار واحد، هذا يعني

ألف قسمة واحد يساوي.. يساوي.. يساوي.. يا لها من عملية حسابية صعبة! جيد أن صديقي عزيز عبقري في الرياضيات، صادفتني عملية معقدة يا عزيز، كم يساوي ألف قسمة واحد؟

- أيها الغبي الأحمق... ألف.

- نعم، ألف، احسب لي ألف قسمة واحد.

- قلت لك **"ألف"**، ألا تفهم؟

- ماذا؟! أهذه هي الإجابة؟ يا لها من عملية سخيفة!

المهم، هذا يعني ألف علكة، يا للهول، هذا حقا كثير، أستطيع أن أتخيلها، أمطار من العلك تتهاطل علي من السماء، وأنا ألاحقها محاولا التقامها بفمي المفتوح كما أفعل تحت المطر، هذا كنز، ثروة فاحشة، متى سأنتهي من مضغ ألف علكة؟ واحدة كل يوم، دعني أحسب، ألف قسمة واحد، كم يساوي؟ لقد حسبتها توًّا، كيف نسيتها بحق اللعنة؟
- يا عزيز يا عزيز، أحتاجك في مسألة ملحة...

- خيرا.

- كم يساوي ألف قسمة وا..؟

- **ألف! ألف يا حمار!** وإن كررتها ثانية سأضربك بلكمة على رأسك لأعيد لك عقلك، كيف تكتب قصة بتلك الروعة وتعجز عن حساب أبسط عملية، يا لك من غريب أطوار!

- آسف يا صديقي أحمد، على الرغم من أن الثمن مغرٍ حقا، إلا أني لا أستطيع شراءها، قصتي لا تقدّر بثمن.

- أهذا يعني أنها مجانية؟

- ماذا؟!

- قلتَ أنها بلا ثمن، هذا يعني أنها مجانية.

- كلا، بل هي أغلى من كل ثمن.

في اليوم التالي، فتح كل التلاميذ مقلماتهم، واستلُّوا سيالاتهم، وأخذوا كراريس المحاولات وخطُّوا جميعا على رأس الورقة القانطة - التي كانت قبلُ على يقين من أنها ستموت عانسا عاقرا – ذات الكلمة.."قصة".

قصة الدببة الثلاثة... قصة المجانين الأربعة... قصة القراصنة الخمسة... قصة اللصوص الستة... قصة اللصوص الستة... مهلا، سرقتَ عنواني... أنا فكّرتُ فيه أولا... سأطحنك وأُدقِّقُك... سأبيدك وأُبدِّدك... أتريد لكمة؟... أتريد ركلة؟... تبا لك، تعال هنا أيها ال...

أصبح كل زملائي كُتّابًا يحكون عن قلاعهم وقصورهم وإمبراطورياتهم الخيالية، حتى هشام الذي كان يحلم بأن يصير زعيم مافيا أمسك السيالة – لا ليطعن بها أحدا أو يستعملها قاذفة للقنابل الورقية الكروية – وشرع يكتب قصة عنيفة عن العصابات تعُجُّ بالاغتيالات .

- إنه يعرف أكثر مما ينبغي، أرسله ليسبح مع السمك
- أمرك يا زعيم

رصاصةٌ، أناسٌ يركضون ويصرخون في هلع، حقيبةٌ تُفتح لتحتوي الجثة، سيارةٌ تسابق ظلّها، انعطافاتٌ حادّة خطيرة، على الجسر، المسدّس يُلقى، الجثة تُرمى، تغرق وتغوص لتنضم للمقبرة.

- اصطفُّوا يا سُميكات، هذا رفيقكم الجديد في السرب، اسمه؟ مكتوبٌ على بطاقة التعريف الطافية جواره أن اسمه جاك، رحبُّوا بجاك
- أهلا جاك
- من اليوم فصاعدا، جاك سيسبح معنا في جولاتنا وهجراتنا
- ولكن أستاذ "سردين"، إنه يبدو مخيفا، فهو منتفخ وأخرس تماما، يطفو ولا يسبح
- ماذا قلتُ لكم عن العنصرية؟
- ولكن...
- لا تكن تونة عنيدة، هذا أخوك في السّمكيّة ولن أسمح لأي شخص بإهانته، قد يبدو غريبا عنّا، فزعانفه جدُّ طويلة، وذيله مشقوق زيادة

عن اللزوم، وحراشفه عجيبة، وخياشيمه لا تؤدي وظيفتها، باختصار إنه عرقٌ مختلف تماما، ولكنه يسبح، وهذا هو ما يهم، أتذكرون ماذا فعل القرش هلتر بأصداف البحر، تلك الإبادة الشنيعة فقط لأنه يحسدها على لؤلؤها؟ أتريد يا "تونة" أن تكون مثله؟ كلا؟ إذن، كما قلت، لا عنصرية، ستسبح معنا هذه السمكة من الآن ف... مهلا، أين تهبطين؟ لماذا تستلقين في القاع؟ ما زال الوقت مبكّرا على النوم، غريب ولكن، لا بأس، لا بأس، فعلينا أن نحترم عادات كل سِربٍ وتقاليده و...

- هل جُننت؟ تخرج من القصة وتبدأ قصة أخرى تماما لا علاقة لها بهذه الحكاية سوى أنها مثال توضيحي لجملة لا تتجاوز ستّة كلمات؟! هذه "أحلام وكوابيس" وليست "ألف ليلة وليلة" وأنت "خالد" ولستَ "شهرزاد" فارجع إلى الحكاية الأصليّة حالا
- آه، يا إلهي، لقد غُصت في غمار تلك القصة تماما، جيد أنك انتشلتني، أين كنت؟

ولكن كتابات زملائي لم ترقَ للمستوى الذي يبهرني ويخلبني فيُشعرني بالغيرة، ويُضرم في نفسي نيران المنافسة، فقد كانت الأخطاء الإملائية تعمُرها كالدود في اللحم العفن، أما عن الأخطاء النحوية فحتى عزيز لن يستطيع حسابها.

ولذا شعرتُ بفخر أدنى إلى الغرور لأن لي هذه السلطة والتأثير عليهم، ولكن نغَّصت علي سروري غيمة خيبة ظلّلت أيامي بعدها بالكآبة والقتامة، متى

سأجد توأمي؟ متى سأعثر على قرين لي؟ ندٍّ لصيق بي يلازمني ليل نهار حتى يغار ظلي، يجالسني فنحتسي الشاي أو القهوة، ونتبادل القصص فنقرأ لبعضنا؛ نشهق انبهارا أحيانا، وننفجر ضحكا أحيانا، ونجلِدُ بعضنا نقدًا أحيانا أخرى، نبدي كل ردود الأفعال هذه بلا خجل من الجهر بها، أجل، نحن مهاويس قراءة ومجانين كتابة، أُنظر واسخر واهزأ ولا تنس لاحقا أن تشنق نفسك! لأننا لن نكترث مقدار ذرة لك، أنت مجرد ذبابة تطِنُّ، ومتى توقّفتُ يوما لأفهم مراد ذبابة؟

ولكن هذه الجلسات لن تكون أمتع شيء، ألذُّ متعة ستكون المسابقات.

إعلان

غدا، هناك نزالٌ قِصصيٌّ حتى الموت بين الروائي العبقري المشهور ذي حزمة الجوائز والأوسمة "خالييييد"، وصاحبه الذي يضاهيه خيالا وأسلوبا ورسالة، إنه "اسم توأمي أيًّا كان"، سيكون قتالا أسطوريا، العظمة تبارز الجلال، العبقرية ضد الجنون، المغوار ضد الصنديد، السيف قلم، الدرع ورق، والدم حبر، إنهم يطعنون بالاستعارات ويضربون بالتشبيهات، رقصة سيوف تجعل دم "جاتس" لو شهدها يفور، إن أردت أن تقطع العنق عليك أن تختلق شخصية تجعل د. علاء الأسواني يحار، ويتحرّج من دنانة فيلقي به في حاوية القمامة، إن رغبت في بقر البطن عليك أن تبتكر منحنى زمنيا أو أسلوبا سرديّا جديدا يُشعر ستيفن كينج بالخجل من روايته "it"، يا جمهور القُرّاء المتعطش للدماء، لا تنسوا أن تحضروا معكم نظّارات

القراءة، وأقلام التعيين، وأقداح الشاي وأكياس اللوز والجوز والفول السوداني وبالطبع... ثمن شراء الرواية، إن نسيت المال يمكنك أن تقايضها بالمكسّرات، ولكن إن نسيت المال في المرة القادمة فسنُحيل عظامك أنت إلى مكسّرات!

حتى ولو لم يحضر أحد لن يعكّر هذا صفونا، نحن نكتب من أجل اللذّة والمتعة الشخصية، أعرف كاتبةً شبّهت الكتابة بالجنس، ويا له من تشبيه قذر! شغفي الأثير يُكَبُّ به في بركة وحل هكذا، كلا، الكتابة ليست أشبه بالجنس يا حاملة القلم النجس، بل هي أدنى منه إلى العادة السرية! فالملقي هو المتلقِّي، والفاعل هو المفعول به، والكاتب يمكنه أن يؤدِّي دور قارئه، الفرق أن العادة السرية خبيثة قذرة مثل قلمها، أما الكتابة فسامية لذيذة تبعث النشوة والصفاء في النفس، إنها خمر لا تُسكِرُ، وهي لا تتطلّب سوى الكاتب وحده، اثنان؟ المتعة مضاعفة إذًا، و...

- مهلا، مهلا، توقف... أنت تلُفُّ وتدور ولم تدخل في صلب الموضوع حتى الآن، لم تحاول حتى أن تدنو من سؤالي بل رقصت حوله رقصة قبيلة بدائية حول نارٍ عظيمة، كلهم مفتتن بها ولكن لا أحد يجرؤ على القفز عبرها كما يفعل صديق مُختلِقِكَ "بكاي" – يثبُ داخل فم لهيبها ويتملّص في لمح البصر من ألسنتها الجائعة، ورائحةُ أقدام الكباش المشويّة تفوح منه - لم أسألك عن رأيك في تلك الكاتبة، فأنا لا أهتم له، وقد قرأتُ نقدًا جميلا لها بعنوان "باية بين العتمة والنور"... اذهبوا واقرؤوه الآن، قلتُ "الآن" وليس "لاحقا"، علّق

الناقد القدير في هذا الكتاب على كل رواياتها وفصّل فيها فكان نقدا شاملا موضوعيّا نافعا على عكس سخريتك وتهكُّمك الذي لا يُضحكُ حتى، وأنا صراحة أعتقد أن كتاباتك فاضحة صريحة مثل رواياتها تماما، وقبل أن ترُدّ، أعرف أنك لا تتبنّى فلسفتها وتوجهها النسوي العلماني التحرري، المسكينة لا تدري أن العبودية شيء محتوم، وأنك إن لم تخضع لربك فستصير عبدًا للأهواء والشهوات والنّزوات الحقيرة، فالاختيار ليس بين الحرية والعبودية بل بين العبودية لحاجاتنا الطبيعية التي تجسّدُ ضعفنا ونُقصنا، وبين العبودية لتجسيد الكمال الخالي من النقص وهو إلهنا الله، ولكني أظنك يا خالد لا تقلُّ عنها سوءً فكتاباتك فاضحة وهي علاوة على ذلك عنيفة دموية، فأنت فُقتها شرًّا، والآن قد تُبرّر ذاك بقولك "الرواية مرآة تعكس الواقع وهي لا تجامل أو تداهن أحدا فإن كان الواقع قبيحا دميما عكسته قبيحا دميما"، رأيي في هذا الهراء أنه ذريعة أخرى تنتحلها لتزكّي بها نفسك...

- أيها ال...

واصل رافعا من صوته باترا مقاطعتي : "ثم رُحتَ بعدها تحدثني عن توقك لتوأم يشاركك عشقك للكتابة، على ذكر "العشق" ألم تشبّه الكتابة بالزوجة سلفًا؟".

- نعم، لماذا؟ إلام تلمّح تحديدا؟

- العاقل تكفيه الإشارة، دعنا ننتقل إلى شيء آخر، قبل ذكرك لتوأم الأحلام، رحتَ تحكي لي عن أصدقائك وأقاربك، وتحاول أن تبدو بمظهر "الشاعر المسكين الذي لم يجد أحدا يفهمه"، إما أنك سيء تماما في اختيار الأصحاب، أو أن أصدقائك وأقاربك - على عكس ظنك - موهوبون، وأن منهم ربما من يتفوقون عليك في هذا الفن الذي تدّعي أنك سُلطانه سُلطانه بيدك حسب زعمك، ولربما كان منهم من قرأ قصصا وروايات أكثر منك أيها المغرور المتعجرف المصرُّ على التفاخر بالمطالعة رغم أنه حاول يومًا إحصاء قراءاته كلها فانصدم بأنها تُعدُّ على الأصابع... على يمناه، الإبهام.. أحمد خالد توفيق.. السبابة... تامر إبراهيم.. الوسطى... شيرين هنائي.. الخنصر.. نجيب محفوظ.. البنصر.. علاء الأسواني.. على يسراه، الإبهام الآخر.. ستيفن كينج.. السبابة.. جورج رر مارتن.. الوسطى.. تولكين.. الخنصر.. أنيس منصور.. البنصر.. نيل جايمان.. ثم.. ثم.. لا أحد؟ لا أحد؟! لا أعرف كاتبا آخر قرأتُ له عدا هؤلاء.. يا للعار! يا للفضيحة!

ثم أخفى تلك الحقيقة عن أقرانه، وظل يكرر على مسامعهم نفس الأغنية : "منذ نعومة أظفاري وأنا أكتب وأقرأ، وقد قرأتُ من الكتب والروايات أكثر مما يمكنني أن أحصي، أفلت وليد ضحكة ساخرة وهزّ رأسه مبتسما ابتسامة ثعلب : "أكثر مما يمكنك أن تحصي؟!".

رحتُ أحدجه والحنق يسدُّ حلقي فيخنق أنفاسي، عيناي كادتا تذوبان من الغيظ المستعر فيهما، كَوّرتُ قبضتاي بشدة حتى شعرتُ بأظافري تنهش

راحتي، بينما جالت بذهني آلاف من طرق التعذيب والقتل العبقرية الشنيعة، يعرضها علي خيالي الواحدة تلو الأخرى كموظف في اجتماع مع مجلس الشركة يقترح عليهم أفكارًا لمنتجات جديدة...

- آلة التعذيب هذه من أبدع ما تفتّق عنه ذهني، سميتها "سينما مَوْتكَ"، الاسم قابل للتعديل، الفكرة ببساطة هي أن تُقيّد المجرم - سواء كان مغتصب أطفال أو قاتل عجائز - إلى هذا الكرسي المصمَّم بإتقان ليحتوي دزينة من وسائل الإعدام، إنه أشبه بسكين متعدد الاستخدامات، فيه تلتقي المشنقة بالمقصلة والخازوق والحرق وثلاث طرق للصّلب، يُعدَم المجرم بوسيلة من اختيار زبوننا الكريم، وله أن يترك الآلة تنتقي عشوائيا إن شاء، خلال الإعدام تتولّى الكاميرا المتصلة بالكرسي التسجيل، ثم حين يخنق الموت حشرجته الأخيرة، حينها تخيط الآلة ما تمزّق من أعضائه وتعالج جراحه آنيًّا، ثم تعيده للحياة مجدّدا، يُرحِّب زبوننا الكريم بالمجرم في حياته الثانية...
- أهلا وسهلا من جديد صديقي العزيز، أخبرني ماذا رأيت حين كنتَ على وشك اجتياز النفق بين الدنيا والأخرى؟ الملائكة؟ الشياطين؟.. مهلا، كلا، توقف، غيّرتُ رأيي، لا تبُح، أبقه سِرّا، فأنا أحب المفاجآت.

يضحك الزبون الكريم ضحكة الزبانية فيما يتلفّتُ القاتل المقتول حوله في حيرة نصف دائخ : "ما الذي حدث لي؟"، تطرُق لحظاته الأخيرة ذاكرته فيصيح : "آعع! يا إلهي! لماذا أنا حي؟ لقد مُتُّ، لقد أُحرِقت.."، ويذكر الألم فيقشعِرُّ جلده وينتفض في رعدة كأنما به الصرع أو الجن، "كيف لا

أزال حيًّا؟ الموت أنقذني من العذاب، فلماذا رجعت؟ هيا، حرِّرني، فُكَّ قيودي".

يبتسم زبوننا الكريم ابتسامة جهنم لو تجسّدتْ بشرا : "اطمئن، اطمئن، العذاب انتهى، اخترعنا جهازا جديدا يمكننا من إحياء المُعدمين لنمنحهم فرصة أخرى، حياة ثانية يكفرون فيها عن خطاياهم، والآن قبل أن أُطلق سراحك، هل لي أن أعرضك إلى مشاهدة فيلم معي؟".

يقول القاتل بلهفة : "بالطبع، بالطبع سأكفِّر عن خطاياي، سأتوب وأعود لجادة الصواب، وسأمحو سيئاتي بفعل الحسنات، سأفعل الخير من الآن فصاعدا، بل سأنضم للكنيسة حتى".

- والفيلم؟
- سأشاهده، سأشاهد أي فيلم تريد، أرجوك، ارحمني وأطلق سراحي.

يُشغِّل الزبون تلفاز العرض الكبير، ليبدأ العد التنازلي.. خمسة.. صفر، ويبدأ الفيلم، يرى القاتل نفسه مكبّلا بالأغلال على الكرسي، فيفهم فورًا، ويبدأ بالصراخ، يحترق شبيهه في الفيلم وتغشوه سرابيل من نارٍ، ويتمايل الدخان في الهواء كثعبان، تمتزج صرخاتهما الكفيلة بجعل الأشباح والعفاريت ترتعد، فيما تجلجل قهقهة زبوننا الكريم، حين ينتهي الفيلم بهمود جثة القاتل المتفحمة، تُظلم الشاشة ثم تظهر رسالة "يتبع" وتنهمر دموع القاتل ويتعالى نشيجه، وتتدفّق توسُّلاته المرتجفة، ويُغرق البول سرواله.
ويحُكُّ زبوننا الكريم يديه كأنما يستعدُّ للانقضاض على وليمة صُفّت

أطباقها أمامه، يفعل ذاك وهو يقول : "والآن ماذا سأختار؟ ماذا سأختار هذه المرة؟ المقصلة؟ رحيمة ونظيفة أكثر من اللازم، الخازوق؟ بشع أكثر من اللازم، الصلب؟ لا بأس به".

وهذه هي فكرتي الأولى، آلة تعذيب وإعدام عبقرية وأبديّة، تعدم القاتل وتصوره ثم تحييه ليشاهد مقتله وتُعدمه مجددا، وفي المرة التالية سيتفرج على فيلمين، وهكذا دواليك.. أوليست رائعة؟ ألستُ عبقريا؟)).

تبادل الممولون نظرات الاستحسان والإعجاب وهتف أحدهم : "أنت شيطان يا جون)).

فقال الموظف جون وقد احمرّ وجهه خجلا : "شكرا على إطراءك!"، ثم رفع الورقة من لوح المسند المثبّتة إليه دستة من الأوراق، كل منها مرسومة عليه وسيلة تعذيب وإعدام وحشية، وقلبها كاشفا الآلة الموالية قائلا : "هذه أسمِّيها آلة ال...".

قام الطبيب النفساني من مقعده وزفر في ضيق، وقال رافعا سبّابته رامزا ل"واحد" : "معذرة، دقيقة واحدة فقط وأعود".
لم أسمعه بتاتا فقد كنت مستغرقا في خيالي، أتصور ذاك الموظف يعرض أفكاره المجنونة لآلات التعذيب والإعدام على شركة "جحيم المجرمين"، فدار حول المكتب، وحثَّ الخُطا خارجا من قاعته، ثم عبر رواقا - في عقلي - في نهايته باب أبيض، ركله مقتحما فانفتح الباب على مصراعه، واصطدم بالجدار فأحدث دويًّا، سكت جون والتفت مصدوما، تطلّع الممولون

البدناء إلى وليد، من هذا؟ وماذا يفعل هنا؟ لم يُلق بالًا للفضول في أعينهم، بل تقدّم بتصميم ناحية الموظف، تقهقر الأخير خائفا وانكمش على نفسه وهو يهتف : "مهلا، مهلا، ما الذي فعلته؟ أيّا كان ما تريد سأعطيه لك، مهلا، ماذا تريد؟"

اعتصر ياقة قميصه بقبضته، واستدار ليرفعه عن الأرض على ظهره، وانحنى مطوِّحًا به فوق رأسه في حركة جودو احترافية، فطار وانقلب في الهواء، ولكن وليد لم يصبر على جون حتى يسقط على مهله، بل جذبه من ياقته - وهو بين السقف والأرضية - وهوى به على طاولة الاجتمعات البلاستيكية فانشقّت نصفين، كالأرض إذ تنخسف فتفغر فاها أوسع من قرش الحوت، وابتلعت الأوراق المتناثرة، والأقلام المتدحرجة والحواسيب المنزلقة على سطحها، وسقط رجل أعمالٍ بدين من على كرسيِّه في تضامن - غير مقصود - مع الموظف جون، فيما تراجع الآخرون، وصاح الآخرون كالنساء مولولين مستغيثين : "يا حراس! يا حراس! أسرعوا!". وراحت أصابع أحدهم تتعثّر على شاشة هاتفه إذ حاول طلب رقم الشرطة.

سدّد لهم وليد عينين متفجرتين بنار الغيظ المستعرة وجأر: "كفُّوا عن حشر وجوهكم القبيحة الغبية في القصة!".

- خالد، استدعانا، أنت تعلم أنه لا ذنب لنا، إن هو استحضرنا، فالحضور علينا محتّم.

لم يلن وليد بل جذب الأوراق من على اللوح غير آبه بأعذارهم وتبريراتهم، ووضع إبهامه عليها وهمس : "تجسّدي"، فتشكّلت آلات التعذيب المتنوّعة - ابتكارات جون العبقري - في الهواء ثم حطّت على الأرض أمام صدمة الجميع، نفخ فيها وليد أرواحًا لكلاب بيتبول - أُعدِمتْ لأنها قتلت أصحابها - فكشّرت الآلات - إذ أضحت حيّة - وزمجرت وتحفّزت للانقضاض، قال لها وليد : "اهجمي!".

فانطلقت الآلات راكضةً عبر الغرفة تطارد الفرائس لتقبض عليهم فتعذبهم وتعدمهم، وكان أول من وقع في الأسر جون المغمى عليه، حمله كرسيُّه برفقٍ، وأجلسه في حجره بحنان، وقوائمه تهتزُّ من فرط الإثارة فلو كان له يدان لفركهما ببعضٍ في لهفة، جهّز الكاميرا في زاوية مثالية تليق بمخرج أفلام رعب، ثم فعّل وضع الانتقاء العشوائي، وترك للحظ اختيار قِتلته، وبدأ بتصوير الفيلم و...

عاد الطبيب النفساني يجلس أمامي، وكان خيالي قد انقشع فجأة - دونما سبب واضح - مثل غبار معركة انتهت، فتبخّرت وجوه الموظف والممولين، ورجعتُ إلى حنقي على وليد الذي سخر مني وتهكّم، وتدافعت حشود الأفكار الهائجة في شوارع عقلي متظاهرة...

هذا الملعون يعرف كل أسراري، كل عيوبي، فهو يعيش داخلي ويبدو أنه فتح كل صناديق الباناندورا المغلقة، وقلّب كل الغرف المقفلة، وأكل من جميع الأشجار المحرمة، إنه يدور بخلدي كخُلدٍ يجول بِحُرِّية في أنفاق

جحره، فهو يعرف ممراته السرية كما يعرف راحة يده، كان كل ما خرج من شفتاي المزمومتان وفكّاي المنقبضان على بعضهما كلمتان نطقتُ جميع حروفهما بالشدّة : "عّلّيّكّ اّلّلّعّنّةّ!".

- شكرا لك!

ماذا قال؟! أسوأ إهانة لخصمك الذي يغلي غيظا أن تشكره على سبّة، سيدفعه ذاك إلى الجنون، وقد يفقد أعصابه، ويقتلع شعره من جذوره، ثم يجلس ربما ليحيك المؤامرات ويُعِدُّ الخطط للقضاء عليك وعلى عائلتك وإبادة نسلك عن آخره.

وأنا سأفعل ذلك بالضبط، سأجعل لوليد أولادا، وأذبِّحهم أمام عينيه... أستغفر الله، سيطر على أعصابك يا خالد، ولكن ما خطبه اليوم قد زاغ عن أمري وانقلب عفريتا متمردا؟ لقد كان في جلساتنا السابقة صورةً نمطية لأطباء النفس، منتهى اللطف والانتباه والتفهم والرِّقة، حتى بدا أقرب إلى التخنُّث.

هذا مثال لكيف تجري المحادثة - حسب تصوُّري - مع هؤلاء الأطباء النمطيين :

- سامحني الله، لقد قتلتُ ضفدعا في صغري، فقتلني الندم وحلفتُ حين بلغت سن العقل والرشد أني لن أمس بسوء حيوانا أبدا، ولكني حنثتُ قبل أيام، فقد دهستُ قِطًّا بدرّاجة نارية، كنتُ أجرِّبُ قيادتها للمرة الأولى، لقد استعرتها من عمي على حين غفلة منه، وانطلقتُ

بها مسرعًا مُردِفًا أخي الصغير شاعرا بالأدرينالين يندفع كالقطار السريع عبر عروقي، غارقا في غمرة اللحظة حتى ظهر ذلك القط فجأة!... صرختُ به : "ابتعد!"، فانطلق يلوذ بأمان الرصيف، ولكنه ركض إلى جهتي من الطريق، لم أستطع تغيير مساري في اللحظة المناسبة، ولم أتمكن من ضغط الفرامل، جمّدني الذُّعر، شعرتُ بالدراجة ترتجُّ تحتي وتهتز إذ دعست على وجهه (بكاء) ولكني لم.. لم.. أقصد فعلها، أقسم.. أقسم..(نحيب مخنوق).. أقسم لك، والآن تلك القطة الصغيرة المسكينة بأعيُنها المقلوعة الدامية تسكن كوابيسي.

يضع الطبيب يديه على يدي المغتمِّ المهموم مُهوِّنًا ويردِّدُ هامسا : "أنا أتفهم، أنا أتفهم".

هذه صورتي النمطية للطبيب النفسي، أما هذا فهو يصغي بانتباه شديد فقط ليتصيّد أخطائي وهفواتي فيُعيِّرني بها، فأردُّ عليه محنقا ليقصفني بردود ناريّة تجعل "من مسح وجهه بمنشفتي؟" و"رأيتك من بعيد فظننتك رجلا" أقرب إلى المجاملة أو التغنُّج، وهو فوق هذا يتّخذ من مواضيعي الجادة وحكاياتي الحزينة مادة للفكاهة والهزل، فكأنما هو الجندي حينما يتيقّن من الهزيمة يستبسل في القتال ليموت عزيزا، أو الفاجر المنافق الذي يقترف رذائله في جُنح الليل خوفا من الناس، فإذا بطبيبه يصارحه بأن مرضه العضال استفحل وأن موته محتوم، فماذا

يفعل الفاجر؟... يتجرّأ ويقيم حفلة عربدة ماجنة على مرأى من الناس ومسمع لأنه لم يبق لديه ما يخسره و...

تثاءب الطبيب فاتحا فمه عن آخره كفرس نهر، ثم قال منتشلا خالد من أدغال الخواطر الملتفة المتشابكة : "هل يمكنك أن تكمل قصتك؟ أنا أتوق **لسباتي الطويل المرتقب**، ولكنك تحرمني منه، وتبقيني يقظا سهرانا معك فقط لأنك تخشى الوحدة".

- "حسنا، سأكمل القصة، ولكن أرجوكـ... "، وتوسَّل خالد موشكا على الارتماء عند قدمي وليد، "أرجوكـ دعني أفرغ منها"، سأقتلك بعدها!

بدا كما لو أن العقدكبتياني أشفق على حاله ورقّ له : "حسنا، لقد توقفتَ عند التوأم المتوهم".

- "الحمد لله، أجل... كنت أتوق لتوأم روحي يشاركني شغفي، وكنت يائسا بعض الشيء من إيجاده، وكيف يوجد في جيل التلفزيون والأنترنت هذا فتى مثلي يعشق الكتب؟ الجرائد في هذا الزمن تُستعمل لمسح زجاج النوافذ، والكتب توضع على رفوف المكتبة على سبيل الديكور لا أكثر، فمنظرها يوحي بأن أهل الدار أهل علم وثقافة، وبين شهر وشهر تمرُّ عليها ربة البيت لتنفض عنها الغبار والعثث - المنتفع الوحيد بها - فإن لم تكن الكتب غذاء للعقول فستتحول إلى غذاء للعثث والفطريات، ولكني مع هذا عثرتُ عليه، أخيرا... توأم الأحلام، مهديّ المنتظر، ويا لنحسي وسوء حظي!... لقد كان – بل بالأحرى كانت – فتاة!"

"أخيرا"، هتف وليد وعلى وجهه بهجة - لا أعرف إن كانت حقيقية أو مزيّفة - "أخيرا، وصلنا إلى بداية القصة، بعد كل تلك المقاطعات والتشتيتات بلغنا وجهتنا، فأرجوك اختصر الآن وأرحنا، لا أعرف ما الذي يشُدُّك إلى أسلوب المشهد التوضيحي ذاك، إنه سخيف، ممل، ومُربك، تحاول تقليد مسلسل family gay - عذرا، أقصد guy - أليس كذلك؟ مسلسل كرتون الكبار ذاك الذي كلما قالت إحدى الشخصيات فيه استعارة أو تشبيها مضحكا، غاصوا فيه واستغرقوا في تصوره لبضع ثوان ثم عادوا إلى الحبكة الأصلية، ضع رقما فلكيًّا من الأسطر تحت بضع ثوان، كم تستغرق أنت في مشاهدك التوضيحية؟ لو أنه تمّ تفريغ هذه المحادثة على الورق لأخذت ثلاثا وعشرين صفحة، ثم إن محاكاتك رديئة، والأسلوب الأصلي في المسلسل نفسه رديء، فماذا ينتجُ من محاكاة الرداءة؟ أترك لك تخمين الإجابة، لا تقلق، إنها غاية في البساطة، حتى أبله بمستوى ذكاءك المحدود يستطيع إيجادها"،

اندفعتُ لمقاطعته ولكنه رفع صوته وواصل داعسًا على صوتي الخافت: "ايت بشيء جديد، أسلوب جديد، طريقةُ سردك للحكايات مكررة كالبترول، تلاعب لفظي سخيف آخر، صفِّقوا لي"، أخذتُ أشعر بأني وعاء ضغط على وشك أن ينفجر بما فيه من طعام في وجه الطبّاخ، "هيا، أنا أتحدّاك أن تأتي بشيء لم يسبقك به أحد من الحكّائين والقصّاصين أبدا".

قلتُ بغيظ: "تتحدّاني؟!" فقال رافضا التراجع: "أي، نعم، أتحدّاك". "حسنا، إذن، أسلوبي المبتكر البديع هو.." وفرقعتُ بإبهامي وسبّابتي

لأعلنه و.. لم يصدُر الصوت! أعدتُ المحاولة، مرة، مرتين، مراراً، لا فرقعة! استرخى وليد على مقعده المتحرك وعيناه تصوبان أصبعا نحوي، وتضحكان بلا توقف، آه، تبّا! انس الأمر، أنا أخرق، أتعثّر في كل خطوة أخطو، وأكسر كل كأس أحمل، ولا أقدر على تلقُّف أي شيء تُلقيه حتى لو كان بطّيخة، لو كان هناك قاموس مصوّر يضعون فيه جوار الكلمة أشهر شخصية تمثّلها، لوضعوا جوار الكرم حاتم، وبجانب الاستبداد الحجّاج، وحُذاءَ الهجاء الحطيئة، ولوجدتَ الخرق ينفر مني ويتبرّأ وهو يصيح محتجّا: "إنه على درجة أخرى من الخرق، درجة خارقة من الخرق، عليكم أن تبتكروا له كلمة جديدة تحتويه وحده، فهو سيُسوِّد سمعتي تماما، أنا براء منه، برااء!"

قلت باستسلام: "أسلوبي البديع هو الاحتمالات اللامتناهية، بدل أن أحكي لك ما وقع، وهو دائما شيء ممل سخيف تافه، لماذا لا أحكي لك ما كان يمكن أن يقع؟ ولكن في شكل أحلام طبعا".

- "بفف! تسمي هذا إبداعا وابتكارا؟! أيها الأحمق، كل الروائيين يحكون عما يمكن أن يقع".

- "أجل، يصرّحون لك بحفنة من الاحتمالات ليشوِّقوك ويحمِّسوك، ويتركون لخيالك أن يتصوّر باقي الاحتمالات، فتبدأ بالإتيان بالنظريّات وتوقع النهايات، وتشاركها مع أصدقاءك، ثم ينبذونها كلها فيما بعد حين يبوحون لك بما وقع فعلا، وهنا تأتي النهاية المخيِّبة للآمال، أما أنا فلن

أنفي شيئا، بل سأتركها معلّقة، ولن أصرّح لك بحفنة بل سأدفنك بأكوامٍ منها".

قال وهو يلوِّح بيده مستخفًّا أن "هيا، هيا، ابدأ وكُفَّ عن الإطالة": "حسنا، حسنا، سنرى، والآن قل لي أين التقيت هذه الفتاة؟".

في الجامعة طبعا، أين سألتقيها غير ذاك المكان؟ مهلا، قلت "التقيتَ"؟ أنا لم ألتقها، نحن ندرس في نفس القسم فقط، إنها زميلة، وأنا لا أكِنُّ لها حبا ولا أضمر لها حقدا، أنت تحاول إيقاعي في فخ، تريد أن أقول شيئا خاطئا كي تهتف بسماجة مثل أصدقائي: "إنها حبيبتك!"، ولكني لن أقع أبدا في هذه الألاعيب والحيل فأنا خبير بها، ماذا كنتُ أقول؟..

أول مرة رأيتها فيها كانت في الجامعة، كنتُ في الأولى ليسانس أختلف إلى – أو "أرتاد" إن كنت تفضل التعبير المعاصر - جامعة "نافذة المقيمين" حيث يُذيقون الطلبة كل ألوان الملل والضجر، يخنقونهم بمحاضرات سرمدية يقوم فيها أستاذ بتلاوة كومة من الأوراق بصوته الخافت الرتيب الذي لا يُسمع ولا يُساغ، كما لو أن الطلاب أميُّون لا يعرفون كيف يقرؤون الأوراق بأنفسهم، كم يهدرون من وقتنا ويُبلون من شبابنا في هذه المحاضرات المضجرة الخاوية من أية فائدة، آه، تبّا! كم أكره تضييع الوقت، إنها جريمة يجب أن يُعاقِب عليها القانون، أي أحد يضيِّع لي وقتي في هراء لا ينفع ولا يدفع يستحق السجن 50 عاما مع الأعمال الشاقة.

بعد مُضِيٍّ نصف ساعة من المحاضرة، سرعان ما يأخذ بعض الطلاب بالتململ فيما يشرع الآخرون في التثاؤب، ويفكر حفنة منهم تُعدُّ على الأصابع في طرق للانتحار، ولكن نافد الصبر لا يحق له أن يغادر، والنعسان لا يقدر على النوم، وعلى أي شيء سيضع رأسه؟ الكرسي بلا طاولة، إدارة الزبانية تلك وضعت كل شيء في الحسبان، لا مناص من جحيم الملل هذه، أما ذوو الأفكار الانتحارية فسرعان ما يجبنون ويتخلّون عن أحلامهم، إنهم واهنو العزم حقا، وهذا... مطمئن. هذا حالنا في قاعة المحاضرات، أما في القسم فكان الأمر أحسن قليلا، على الأقل هناك وسائد... أقصد، طاولات.

كنتُ أدرس الأدب العربي في قسم يضمُّ ثلاثة شُبّان وقطيعا من الفتيات، أغلبهن كن ثرثارات بلهاوات. لقد سمعتُ الجرذان ليلا تركض على سقف حجرتنا في الإقامة مرارا، وأصغيتُ لمزامير البعوض إذ تحوم أسرابه حولي مهددة باحتساء دمي، وأصختُ لأزيز الذباب إذ يهرع إلي ليدغدغني حاسبًا أنه يُسعدني بذلك، ولطنين النحل إذ يتوعّدني إن أنا وقفت في طريقه بلسعة كاميكازية، كل هذه الأصوات تبدو لآذاني أعذب وأجمل من جعجعة تلكم الفتيات، إلا واحدة...

كان الأستاذ زكرياء يسأل فيُجبْن إجابات حمقاء من قبيل...

ما إعراب حمل الراعي عصاه؟

حمل: فعل ولادة وهو فعل لا تؤجر عليه الأم ولا تشكر، مرفوع بالإنجاب الواقع في آخره.

الراعي: رعاع جاهل أمي يفوح برائحة روث الأغنام لا تتزوجه إلا أمية ساذجة مثله، تصير مجرورة به إلى شظف العيش، وعلامة ذلك الكسرة البائتة الظاهرة على مائدته.

عصاه: أداة تُستعمل للضرب والسحر مرفوعة بيد الراعي وعلامة الرفع ضمٌّ القبضة لها.

فيُحدِّق زكرياء ذاهلا كأنه رأى نملة - اسمها مسعودة - تحاول خنق فيل، ويفكر في سريرته: يا سلام على إجابة هذه الطالبة المبدعة في... الغباوة! يعطي الإذن للأيدي المرتفعة الأخرى، فتقذفه صاحباتها بالقنابل:

حَمَلَ فعل مبني للمجهول، (آه!..)، حمل فعل مبني على النصب الظاهر، (.. يا إلهي!..) حمل مبتدأ منصوب والجملة الفعلية في محل نصب خبر، (.. برحمتك نستغيث! احبس سيل الغباء هذا ولا تجعلنا من المغرقين). أخيرا يلتفت نحو ذراعي الكليلة من طول الانتظار ويأذن لي في استسلام، ولسان حاله يقول: الإجابات الصائبة دائما تأتي من ذات الطُّلاب، ألا يقولون أن دوام الحال من المحال؟!

أُجيبُ متلعثما وعيناي بين الذعر واللهفة: "حَمَلَ فعل ماض مبني على الفتح، الراعي فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدّ-دّ-رة على..آ.. آ..

آخره منع من ظهورها.. التعذُّ.. أقصد، الثقل، أما عصاه فهي مفعول به منصوب بالفتحة المقدر-ر-رة منع من ظهورها ال... ال.. التعذُّر".

فيتنفّس زكرياء الصُّعداء، ما دام هناك طالب أجاب بشكل صحيح، فلابد إذن، أنه شرح الدرس بوضوح، الذين ركّزوا فهموا، والذين انشغلوا والتهوا بطبيعة الحال لم يستوعبوا حرفا.

ولكن فجأة، رفعت طالبته المفضّلة النجيبة المتفوّقة يدها النحيلة عاليًا، فابتسم في سرّه وقال وهو يأذن لها بالكلام: "ألديك إضافة؟".

- فردّت بصوتها الصادح الفصيح الواضح ال... آه، لماذا ليس لي مثله؟ لو عُرض للبيع في مزاد لقايضتُ من أجله شفتاي وأسناني وحنجرتي وحبالي الصوتِيّ... أوه، مهلا، حينها سأكون بلا صوت، يا لغبائي! ردّت في ثقة وغرور: "العبارة تحتمل إعرابا آخر بما أنك لم تضع الحركات".

- فطفت بسمة الأستاذ على سطح شفتيه كدلفين نشوان: "وما هو الإعراب الآخر؟".

- "حملُ الرّاعي عصاهُ، حملُ: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة.. إلخ، وهو مضاف، الرّاعي: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة.. إلخ، عصا: فعل ماض مبني على الفتح والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية (عصاهُ) في محل رفع خبر".

انطلق مهرجان ألعاب نارية في نفس أ. زكرياء، وتبرّجت السماء بألوان البهجة والحبور لأن تلك العبقريّة تلميذته هو شخصيًّا، يسقيها بعناية من علمه وفكره، ويرقبها إذ تزداد طولا وتفرُّعا وتبرعمًا كل يوم، ويترقّب في أمل تفتُّح الأزهار وتدلِّي الثمار، قال لها: "إجابة ذكية يا س..".

تشبّثتُ بلساني بشدّة إذ كان على شفا جرف هار يوشك منه أن يزِلّ، وابتلعتُ اسم زميلتي، يا للهول! كدت أُفصحُ باسمها الحقيقي، التفتتُ إلى طبيبي النفسي فوجدته يحدِّق فيّ بعيني البومة، تيقّظَ بعد نعاس، وكشَّر بعد تثاؤب، وتوفّزت حواسُّه بعد خمول، أمسك بحافة مكتبه، وتقوّس ظهره عليه كالقط حين يستعد للانقضاض.

قال: "ماذا قلت؟ 'س'؟ سمعتُ 'س'، من السّيدة 'س' هذه؟ أو هل يجدر بي أن أقول الآنِسة؟ لأني الآن س..أخمِّن اسمها وأفضحك وأضحك عليك، فضحك فضحك، هل تذكر؟ ".

آه، أجل، أذكر ذاك الجناس العبقري الذي اكتشفته والذي أتحدى أي أحد أن ياتيني بمثله، ولكن هذا لا يهمُّ الآن، المهم أن أعدِم هذا الطبيب النفسي قبل أن يفضحني أمام العالم أجمع، وليته يفضحني بالحق، بل سيفتري علي بهتانا وزورا، وسيصدِّقه الجميع... مسدس! تخيل مسدّسا فورًا قبل أن يفتح فمه.. ها هو في قبضتك.. عبِّئه ثم ضع أصبعك على زناده واحشره في...

- سماء!

- ماذا؟
- اسمها 'سماء' أليس كذلك
- لا، طبعا، سماء؟ أيٌّ اسم هذا؟!

تحمّس وطفق يطلق عليّ الأسماء كالرّشاش: "سلامة؟ كلا؟ أأنت صادق؟ حسنا، إذًا، سلاطة؟ ماذا؟! ليس هذا أيضا؟ فليكن، سنام؟ سنجاب؟ سحلية؟! سلحوفة؟! سُموم؟ سُهاد؟ سماد؟ لا؟ إذًا، سميد؟ سفاهة؟ سخافة؟ سراب؟ سنارة؟ سحاب؟ سحابة؟ سحّاب؟".

كان فمي يحُكُّ عينيه، وعيناي تفغران فميهما، مع كل تخمين يهتف به حتى وصل ل"سحّاب" فصحت به: "سحّاب؟ سحّاب سروال؟!..".

راح يغمغم: "ليس بالضرورة سروال، قد يكون سحّاب بزّة أو..".

هتفتُ به غير منصت لحرف مما يقول: "فتاةٌ اسمها 'سحّاب'؟! أأنت مجنون؟! مهلا، لا داعي للسؤال، فأنت بالطبع مجنون! من أين تأتي بهذه الأسماء بربك؟! سلحوفة؟! سحلية؟! لو تركنا لك تسمية الأطفال في بلادنا، لظهر جيل كامل من الأسماء العجيبة من قبيل 'خروف' و'مقلاة' و'يقطين' و'صرصورة' و'ماسورة' و'بالوعة'".

فسكت هنيهة وهو ينظر لي بشك ثم قال: "أأنت متأكد أنه ليس سُلحوف..؟".

قاطعته بشدة: "طبعا، متأكد، ولكن أجبني أنت، أأنت متأكد من أنك لست 'معتوها'؟.. على أيٍّ، كُفَّ عن التخمين، سأختلق اسما كما قررت في البداية وسنواصل قصتنا.. اسمها هاجر تيمُّنًا بزوجة إبراهيم، وقبل أن تسأل، هاجر والدة إسماعيل لا إسحاق، أمُّ أسحاق هي.. زوجة أخرى".

- لم أكن لأسأل فأنا أعرف بالفعل ذلك

قال خالد متظاهرا بأنه لم يسمعه...

قال الأستاذ زكرياء باسما : "إجابة عبقرية يا.. هاجر ".

فأغرقتْ القسم موجةٌ تصفيق حارّ عارمة من التلاميذ؛ ذكورا -المتملقون- وإناثا، فيما رُحتُ أنا أكتوى بلظى الغيرة، فالتلاعب اللفظي اختصاصي أنا، كيف لم أسبقها إلى حدس التشكيل الثاني للجملة؟

ثم استمرت الحصة، ورحتُ أمطر الأستاذ زكرياء بالأسئلة والفضول يشِعُّ في عيناي.. هل يمكن أن تخلط بين بحرين من الشعر الحر في بيت واحد؟ يُقال أن المتنبيء أشهر الشعراء وأكثرهم إثارة للجدل فهل هذا صحيح؟ ماذا تعني عبارة "أشهر من نار على علم"؟ ماذا يعني قولُ "مُكرهٌ أخوكـ لا بطل" وكيف وأين ولماذا؟...

وكان الأستاذ طيِّبا منفتحا على كل الأسئلة لا يضجر منها ولا يسأم، فكان يجيب منبسطًا مبسِّطًا، بساطًا يفرشُ للأفكار فتعبر إلى عقلي في غير عُسر،

ولكنه أحيانا يعاني في فهم أسئلتي لتلعثمي وركاكة ألفاظي وتفكك عباراتي...

- أستاذ، هناك في الإنجليزية فعل "euthanize"، بحثتُ عن ترجمته بالعربية فوجدتُ أنها القتل الرحيم، وهذا الاسم فما هو الفعل منه؟

انصدم الأستاذ زكرياء وتضرّج وجهه بالحمرة وهو يقول : "قتل ال.. ماذا؟!".

فأعدتُ على مسامعه المصطلح، الذي شعرتُ به يصعد حلقي سليما حتى إذا ما وصل إلى لساني الأخرق وشفتاي الغليظتان، كالوا له لكما وركلا فكسّروه وهشّموه، فخرج اللفظ مشوها منتفخ العينين يكاد يماثلُ لفظا آخرا قبيحا، وسأل الأستاذ نفسه وقد بدأ يغضب : قتل الرّحم؟ قتل الرحم؟ أيعني الإجهاض؟! أيريد أن يفضحني أمام الطالبات؟ ما خطب هذا الفتى اليوم؟ أنا لم أعهد منه هذه الأسئلة الخادشة للحياء؟ لابد أني لم أسمعه جيدا.

فطلب مني أن أكرر سؤالي، وهو يدنو من طاولتي ويرهف أذنه كالجان تسترق السمع في السموات العلى، فكرّرتُ، ليتيقّن الأستاذ بعد شك، وتلتصق التهمة بي كما أُلصقت بمريم العذراء قبلي، وحين أوشك على توبيخي، نطقت هاجر - كما نطق عيسى عليه السلام - تُنقذني من عقابٍ على تهمة أنا منها بريء : "إنه يقول "القتل الرحيييم" ، أي العادة التي يمارسها الغربيُّون في إعدام الحيوانات - وحتى المرضى من البشر في بعض

الدول - إن كانوا يتعذبون في ساعة الاحتضار، أو كانوا مصابين بداءٍ عُضال لا رجاء لهم في البرئ منه".

فبزغ الفهم في عيني زكرياء وقال : "الآن أفهم، ظننتك تسأل عن.. شيء آخر، احرص على إبراز المدود في المرة القادمة، والآن ماذا تريد أن تعرف عن القتل الرحيم؟".

فأعدتُ سؤالي والامتنان يغمر صدري.

وكانت تتدخّل بهذه الطريقة لتفسّر أقوالي وتشرح أسئلتي دائما، كما لو أني كتاب قديم صعبُ الألفاظ انكبّت على حواشيه تملأها بالشروحات لتُيسّر فهمه على غيرها من القُرّاء، كانت تفعل ذلك ولا تنتظر مني إذنا ولا دعوة، حتى سئمت سماع "إنه يقول".. "إنه يقصد".. "إنه يعني".. من عيّنكِ متحدثة رسمية عني ومترجمة لكلماتي؟ (رحتُ أستجوب نسخة منها بقسوة في خيالي) هل تحسبين أني لا أستطيع أن أتحدّث بمفردي؟ هل تخالين كلامي رطانةً لا يفهمها سواكِ أم ماذا؟.. تعتقدين أني لا أكاد أبين؟ وأنّكِ أنت هارون أفصح مني لسانا و... مهلا، من أخادع؟ هذا هو ما يحدث فعلا، أنا باعترافي مثل موسى عليه السلام لا ينطلق لساني، وإذا انطلق راح النُّطق يبسمل ويحوقل، وأخذ التجويد يتعوذ ويحمد الله على أني لم أسع لنيل الإجازة، وهي في المقابل مثل هارون عليه السلام توضح ألفاظي المبهمة المستغلقة للسامعين، وهذا تطوعا منها لا ترجو منه جزاء ولا شكورا.. إنها... هاروني؟

واختلستُ النظر إليها، فوجدتها بين حاشيتها من صويحباتها، تسخر من هذه وتداعب تلك، وتردُّ بجرأة على من تسوِّل له نفسه أن يستفزّها من الفتيان، المسكينة لا تدري أنهم المازوخيُّون يحبون ردودها النارية التي تُبيد العنقاء نفسها ويتلذذون بسماعها، فيستفزونها عمدا طمعا في جلدات لسانها و...

- "اختلستَ النّظر إليها؟!"، سأل وليد في خبثٍ، وصوته يعلو ويشتد في دهشة مصطنعة مع كل كلمة، ثم قال : "أيها المنافق الذي يدّعي الطُّهر والعفّة".
- "لا، أيها الشكّاك المرتاب، لم أختلس النظر إليها لأملأ عينيّ من ملاحة الوجه أو فتنة الجسد، بل كنت أستشفُّ وأسبر أغوارها لأعرف جواب اللغز المحيِّر.. لماذا لا تفتؤ تحشر أنفها لتوضِّح أقوالي وتفسّرها؟ لماذا لا تكتفي بالسخرية والهزء من تلعثمي؟ كما كنت لأفعل لو كنت مكانها، أعني، أنها حين كانت تتعرّض للتوبيخ من قبل إحدى الأستاذات؛ الأستاذة عائشة؛ المرأة الوحيدة التي تفوق هاجر جرأة وسلاطة، ولو خرجت خديجة من عالم "الثلاثية" وجاءت لعالمنا وامتهنت التعليم لما فرّقنا بينها وبين عائشة هذه؛ كانت عائشة الوحيدة القادرة على ردِّ الصاع لها صاعين، فكنتُ حين تفعل ذلك، أو حين يتكالب عليها الفتية الثلاثة بألسنتهم، ويتهكمون ويسخرون منها أنفجر ضحكا في سرِّي، حتى تفيض الضحكات من فمي أحيانا، فأكفكفها محاولا سدّها ولكن بلا جدوى، أما هي

فكانت تجازي برودي وفتوري وجفائي نحوها بشرح ما أقوله وتفسيره، هل تفهم سر حيرتي يا دكتور؟

نظر لي وليد في تفهُّم برهة ثم قال بغتة : "ولكنك اختلستَ النظر إليها!"، وأطلق ضحكة مدوِّية كمحمد حجاب و... مهلا، لا تعرف محمد حجاب؟ لقد فاتك الكثير يا صاحبي، إن كنتَ تمقت الفلسفة، فهو سيحبِّبها لك ويبسِّطها ويلخِّص لك كل فلسفات الغرب، فقط تابع سلسلته "شرح اللُّندنية"... فيما بعد! قلتُ فيما بعد.. أما إن كنتَ تملُّ المناظرات فسيشوِّقك إليها بأسلوبه المفحِم الساخر، وإن كنتَ تبغض المحاضرات فستعشقها بعد أن تستمع له وهو يحاضر، أقول لك، ذاك الرجل له شخصية كاريزماتية كاسحة تستولي على الألباب والقلوب فلا تملك إلا أن تنبهر به وتصغي له.. ولكن له ضحكة مجلجلة عجيبة، أطلقَ طبيبي مثلها فنظرتُ إليه مستشيطًا، كان هجوميًّا مستفزا بادئ الأمر، ثم انقلب الآن سمجا سخيفا مثل تلميذ في المتوسطة - ليس كل التلاميذ طبعا، فهناك منهم من كلمة "سمج" إطراءٌ لا يستحقه، وهناك حفنة، فقط حفنة منهم حاذقون وجادُّون - صرختُ ألعنه وأشتمه ثم تابعتُ قصتي...

قلتُ لك أن هاجر فتاة ذكية ذاك الذكاء الحاد الملفت للنظر، جريئة تلك الجرأة المستفزة المتحدية، سليطة اللسان تلك السلاطة التي لا تتوافق وصورة الفتاة الخجول الحيية، وأنها كانت تلعب دور هارون معي لغرض في نفسها أجهله، أو ربما كانت تفعل ذاك عفويا دون مأرب محدد، ولكني ما زلتُ لم أبح لك بما يجذبني إليها، لا تقلق، كدنا نصل، النهاية قريبة، ألا

تراها؟... لا؟ مهلا، دعني أُعِرك تيليسكوبي؟ أتراها هناك على سطح القمر؟ لا؟ مهلا، ليس قمرنا أقصد، سدِّده نحو نبتون، نعم، تلك النقطة الصغيرة الأشبه بخال باهت على وجه قمره، تلك هي النهاية، ألم أقل لك أنها قريبة للغاية؟

قال الأستاذ زكرياء آخر الحصة : "سأكلّفكم بتعبير إنشائي كتابي، تمرينا لليد والقريحة، اكتبوا عن حيوانكم المفضّل، صفاته ومميزاته، وسلوكه، ونطاق انتشاره، وسبب حبكم له".

نظر له الطلبة في دهشة وقالت هاجر : "حيواننا المفضل؟ هذا غير معهود، دائما تكلفنا بمواضيع روتينية من التي عوّدنا إياها المقرر الدراسي مثل : صِف مدينة زرتها/ تريد أن تزورها، اكتب نصا حجاجيا بين شخصين متعارضين في الرأي... إلخ، إلخ".
أنصتتُ وأنا أومئ في داخلي موافقا حتى إذا قالت "إلخ" وكرَّرَتها كظمتُ ازدراء بالغا كاد يدفعني إلى البصق على الأرض أسفل قدميها، طريقتُها الملول في قول ذاك الاختصار، كما لو أنها سئمت الكلام - علم الله أنها أكبر ثرثارة على أرضه - لا داعي لإكمال أية جملة، كل شيء مفهوم.

مع ذلك، ما زلتُ لا أعرف لماذا تُثير "إلخ" الضَّجِرةُ تلك غيظي لهذا الحد، كما لا أعرف لماذا يثور الثور حين يلمح الأحمر، ثم هل يثور لو رأى دمه؟[4] أينطح نفسه مثل القرش يأكل أحشاءه إن رآها متدلية من بطنه المبقور؟

---

[4] اكتشفتُ بعد كتابة هذه القصة بحين أن الثور لا يغضب لرؤية الأحمر بل لحركة العلم الأحمر الذي يلوح به مصارع الثيران، فالحركة هي ما يستفزه أما اللون فليس قادرا على رؤيته حتى، هذه المعلومة تفسد هذه السطور الرائعة كليا لذا تظاهروا بأنكم لم تسمعوها.

لا، ليس هذا بالمهم، بيت القصيد هو أن بعض الأحاسيس اعتباطية، أو أن وراءها بواعث خفية يقصر عن إدراكها عقلي.
ابتسم الأستاذ : "أجل، ولتجنب الإملال والإضجار آثرتُ أن أكلفكم هذه المرة بشيء غير مألوف وحميمي قليلا، يثيركم ويحمسكم لتكتبوا عنه، فإن سحر البيان لا يبقبق ولا يفرقع إلا في مرجلٍ تؤججه نار الحماسة والإثارة، ولا يُخمِدُ ذلك اللهب إلا الملل والجمود والرتابة".
ثم غادر القسم، فحثثت الخطا خلفه، أُمطره بأسئلتي، ما جمع الخيال؟.. أخيِلةٌ، ما جمع المسك؟.. مُسوك، ما معنى "شخوص"؟... جمع شخص، وإن كان مصدرا فهو ثبوت العين أو الحدقة، ومنه جاءت "شخصت الأبصار"... ما معنى..؟... مهلا، مهلا، يا خالد، أسئلتك "غزيرة" فسجِّلها في ورقة، وسأوافيك بالإجابات في المرة القادمة، وأخبرني - عوضا عن ذلك - عن حالك، كيف أنت؟ كيف تبلي في دراستك؟ ما رأيك في أسلوبي في الشرح؟ هل هو واضح؟ وماذا عن قصصك القصيرة؟ أما زلت لم تنشرها؟ ورسوماتك، قال لي أصحابك أنك ترسم... كنتُ في مراهقتي أرسمُ مطربين من فرقة موسيقية كنتُ مدمنا على الاستماع لأغانيها، لم أعد أتابعها بعد الآن... احمد الله، صدِّقني، لقد أراحك منها، ثم لماذا تذهب إلى الموسيقى ولديك الشعر ببحوره العامرة الزاخرة؟ انهل من دواوينه ولا تكتف بغَرفة، لا تتردد فهو ليس نهر طالوت، إن دأبت على إنشاد الشعر سهُل عليك قرضه وإنشاؤه، فتُضْحي قديرا على إلقاءه بالسليقة، ما رأيك أن أُشعل بينك وبين الطالبة هاجر منافسةً شعرية،

سأعطيكما مطلعا لقصيدة من نظمي، وستكملانها وسنرى أيكما أخصب قريحة وأحدُّ قلما؟".

كان الأستاذ زكرياء ماكرا داهية فهو يعرف أنه إن حرّضنا الواحد على الآخر في حرب أدبية، سنتسابق للتسلح كما كان حال أمريكا وروسيا، فنطوِّرُ من أساليبنا ونجوِّدها، كنا سكينين يُشحذان، كلاهما يحاول ذبح الآخر فيزدادان في سعيهما الضاري لذلك مضاءً وحدّة، كانت المنافسة أدنى لصراع ديوك دجّجها الأستاذ بالسكاكين، تناطحُ كباشٍ في العيد، ولكن مع فارق هائل... فأنا الديك وهي مجرد دجاجة، أنا الكبش وهي محض نعجة، صدري منتفخ منفوش، وقروني خناجر معقوفة، هيا، تجمّعوا أيها الناس، أعظم مساجلة شعرية في التاريخ، انس النقائض، واقذف بالفرزدق والأخطل وجرير والمتنبي خارجا، خاليد ضد هاجر، هلموا، هلموا، على من ستراهنون؟... مليون على خالد؟ لك ذلك، ماذا عنك؟ عشرة على خالد؟ شكرا أيها الصديق... ماذا عنك؟ على من ستراهن يا ولي..؟".

ردّ بلا تردد قبل أن أنهي السؤال حتى: "ألف مليار على سلحوفة.. أقصد، على هاجر أو أيّا كان اسمها".

نظرتُ له في يأسٍ مشوب بالملل، لقد بدأتُ أعتاد لسعات لسانه، قلتُ مستأنفًا قصتي غير مبالٍ بالرد على استفزازه حتى...

قلتُ لأستاذي في حياءٍ: "حسنا، موافق"، لم أستطع رفض طلبه، وأنّى لي أن أرفض طلبا للأستاذ زكرياء؟ ولكني في الوقت نفسه لم أرتح له، فأنا أنظر

لأي شيء قد يربطني من بعيد أو قريب بفتاة نظرةَ السياسيين إلى الرسائل عام 2001؛ حين شاعت سلسلة من الاغتيالات بالجمرة الخبيثة، ذلك المرض المميت المعدي، كان الفاعل يدُسُّ الجراثيم في الرسائل، تخيل نفسك في الولايات المتحدة الأمريكية في ذاك الوقت، أنت سياسي ذائع الصيت، ذو مقام رفيع وكلمة مسموعة، تخرج من منزلك لتتفقّد صندوق البريد، تنظر له فتراه وجه شيطان يبتسم في مقت خالص، يهمس لك: "اقترب، اقترب، وجرّب حظك".

تدنو وتفتحه وترمق حزمة الرسائل البريئة المظهر، إحداها قد تكون رسالة من عزرائيل مكتوبة بخطّه العبوس القمطرير الذي يكشر في شر مستطير: "الرحيل، الرحيل، رحيل من؟ رحيلك أنت طبعا، هيا، لا تتأخر علي، لا داعي لتجهيز الحقائب الآن، فقد أمهلك ربك حياة كاملة لتجهيزها".

تلك هي النظرة التي أرمق بها أي شيء يربطني بفتاة، سواء كان مسابقة، بحثا مشتركا، جمعية، مجلة، أو حتى قطعة شيكولاطة أصغر من حبة فول سوداني ترسلها لي عبر أحد سُعاتها من زملائي - المتملقين - ، أُمسك الرسالة بملقط حديدي، ووجهي ملتوٍ كأن في فمي الليمون، وأقذف بها في النار، وأقذف بالرماد في المرحاض، وأقذف بالمرحاض في صحراء مقفرة، ولو استطعتُ لقذفتُ بالصحراء خارج هذا الكوكب، ولقذفتُ بالكوكب خارج المجرة، وبالمجرة خارج الكون! ثم أستدير للحمامة الزاجلة، وأقبض عليها قبل أن ترفرف فارّة، وأنتزع من فمها غصين الزيتون، وأحشر مكانه

فطرا مسموما، ثم أقطع ساقها وأبعث بها مجددا، تطير مترنحة وهي تنثر ريشًا أحمر، الرسالة واضحة، إن لم تقلعي عن مراسلتي فسأقلع عينيك!

مطّ وليد شفتيه تقززا وقال: "أفٍّ لك من معقّد سايكوباثي، الحمد لله أنك لستَ رجلا".

صرختُ فيه وأنا أفكر، هذا المخنث من بين كل الناس يتهمني بهذا: "لستُ رجلا؟!"

أومأ العقدكبتياني وقال غير مرتدع: "أجل، أنتَ لستَ رجلا، أتذكر جلستنا الأخيرة؟ حين حكيت لي عن تنمر عمر عليك وكيف أنك لم ترُدّ اللكمة، وانغمست بدلا من ذلك في تخيُّل موته بمختلف الطرق البشعة..".

قلتُ محتجًّا: "لم يكن بوسعي الانتقام فقد حيل بيني وبينه، وقف بيننا أمين".

سألني: "أتعرف ماذا كان الرجل الحق ليفعل؟"، ولم ينتظر إجابتي بل قال مجيبا سؤاله: "الرجل الحق كان ليلكم ولم يكن ليُضمر الضغينة لاحقا، أما أنت فخنوع، لا تثأر لكرامتك ولا تنفِّس عن غضبك، وتكُبُّ بذلك الغيظ أسفل حلقك وتكبته، حتى إذا فاق الضغط عليك حدّه انفجرت في وجه مسكين ضعيف لأدنى غلطة وأتفه سبب، وتستغرق إلى حين تعثر على ذلك المسكين في الخيالات الدموية الوحشية القاتلة، ولكنك أجبن من أن تنفّذها في الواقع، ولهذا أحمد الله الذي لم يجعل لك نخوة ولا شهوة ولا شهامة، أحمد الله على افتقارك للرجولة".

لا نخوة! لا شهامة!! لا شهوة!!! حين فرغ من حديثه كانت شفتي العلوية ترتجف، وحين ترتجف شفتي فاعلم أني على وشك استئصال شأفة أمك وإبادتك عن بكرة أبيك، ولكني كظمتُ غيظي ومضمضتُ فمي ببعض الخيالات العنيفة لأزيل طعم الحنق الكريه ثم تابعتُ سرد قصتي...

كنت لا أرتاح لأيِّ بادرة تصدر من فتاة، حتى لو بدت بريئة عفوية وطيبة مثل إعارة قلم تصحيح أو سيالة أو كراس أو... أي شيء، إن كيدهن عظيم، فكما تستطيع أنثى ما أن تجعل نسوة في المدينة يقطِّعن أيديهن دون شعور، تستطيع بنفس اليسر أن تجعلك تخلع سروالك دونما شعور، ثم تصحو لتجد اسمك يُلعنُ في لايف ما على لسان أحد المصلحين المحرِّضين - الذي يرى رسالته أن يعيد إحياء العفة والحياء في حين أن البذاءة؛ سبابا وشتائما؛ تجري على لسانه مجرى اللعاب - لماذا اسمي وحده يُلعن؟ وكيف عرفوا بالأمر؟ الفتاة زعمت أنك اغتصبتها يا ساذج، تخرج للشارع لتأتي بالخُضار فتعود بأسنان محطمة (بسعر لكمتين للسن الواحدة)، وعيون متورمة (بسعر لكمة للعين الواحدة)، وأضلاع مهشمة (بسعر 5 ضربات بعصا المجرفة لكل عظمة)، المصلح يقول: "الفتاة بريئة ولا داعي لذكر اسمها كي لا تفسُد سمعتها، أما الفتى فعلى أهل مدينته - إن لم يكونوا مخنثين ودياييث - أن يعتنوا به". ويا لها من عناية!

- إذًا، أنت ضد إقامة حد الزنا، تريد للفاسقين الفجرة أن يزنوا كما يحلو لهم دونما عقاب

- كلا أيها الأحمق، أنا ضد العنصرية والتحيز والتعسُّف على الذكر دون الأنثى، اسحبوهما عبر الشوارع واجلدوهما معا، فكما شاركته الفراش عليها الآن أن تشاركه العقاب، وهذا مكتوب في القرآن، الرفق واللين مع الفتيات تجاوز حدوده، إنها صغيرة وساذجة ولا تعرف، لا تعرف؟! من تخادع أيها الأبله؟ إنها تعرف وكان بوسعها أن تتمنع وتستصرخ أخاها وأباها والعشيرة بأكملها، تراجع بعدها، وشاهد كيف سيدفنونه لكما وركلا، حتى كرة القدم لم تتلق هذا الكمّ من الركلات طول حياتها، ما رأيك في الرهان؟... أنا أقول أنهم لن يتركوا فيه عظمة سليمة، وسيزحف على الأرض بعدها إلى منزله كالرخويات؛ كالأخطبوط تحديدا... ماذا تقول أنت؟... لن أراهنك فهذا الرهان محسوم... كما قلنا إذن، يمكنها أن تذود بمحارمها من الرجال، وإن لم تفعل فهي شريكته في الإثم - وإن هدى الله الناس - شريكته في العقاب أيضا، أنا لا أنفي احتمال وقوع الاغتصاب، ولكن عليكم أن تتثبّتوا أولا و... سأعود الآن للقصة، لا تقلق

انقطع شخير وليد وصحا من غفوته مفزوعا: "ما الذي حدث؟ ما الذي يحدث؟ آه، أنت! ما زلت لم تفرغ من قصتك؟ أيقظني حين تفعل، لقد راودني حلم جميل، كنت أنفجر ضحكا فيما كنت أنت مسودّ الوجه، تسعل وتختنق لأنك شرقت بلسانك الثرثار الذي تعثّر وسقط في حلقك! كان ذاك مضحكا حقا، ولكن ذكِّرني لعلي نسيتُ.. ألم تقل أنك ستستعمل أسلوبا جديدا أم أنك نسيت أيها الخرف المبتلى بالزهايمر؟".

أجبتُ في برود: "لا، لم أنس، سأستعمله في حينه، على أيٍّ، استمع لنهاية القصة...

جاءت حصة التربية الإسلامية، وكان الأستاذ إسحاق يعلمنا عن العقل، أين يجوز استعماله وأين يحرم، وكانت الخلاصة أن الخوض في الغيبيات حرام، فرفعتُ يدي أسأله وكانت غزارة أسئلتي قد أضحت مشهدا طبيعيا معتادا كشروق الشمس وهطول المطر في غابات الأمازون، سألته ببراءة: "فلنفرض أن روائيا - ليس أنا - يكتب قصة قصيرة عن العفاريت - هو يكتب - ، فأخذ يتخيل مظهرهم - في خياله هو - ليصفه في قصته، أهذا حلال؟".

سألتُ ورسمتي المروِّعة - التي تمثِّل عفريتا يصرخ عذابا، وجلده يُشوى حتى يتقشّر في سقر - تتدلى أمام عينيّ، فشهقتْ الفتيات الحسّاسات في فزع وصدمة من السؤال لا الرّسمة. العجز عن قراءة الأفكار نعمة ما فوقها نعمة، فلو اطّلعن على الرّسمة في ذاكرتي لترنّحن دائخات، كانت هاجر ممن شهقن، أتصدق هذا؟ تلك الفتاة الجريئة سليطة اللسان ترتعد لذكر الجان، أو ربما هن يتظاهرن بذلك متوشِّحات بشال الرِّقة والدلال، قالت: "هذا مخيف حقا، ما هذا السؤال؟!".

أجابني الأستاذ إسحاق بعد أن استردّ القسم هدوءه: "اسألوا أهل العلم إن كنتم لا تعلمون، عليك أن تسأل مُفتيا عن هذا فأنا لا أعلم الإجابة".

ولم تمض دقائق على سؤالي حتى رفعت هاجر يدها...

- النحيلة الملساء المزركشة بالحنّاء؟

- لا، أيها المختل الرومانسي! كانت يدها... عاديّة، ليس هذا فقط، بل كان جسدها بكل أعضائه وأطرافه مثل ذلك الحليب

- أبيضا ناصعا سائغا لذيذا؟

- لا، بل عاديًّا مثل ماركة الحليب تلك "عادي"، لم تكن بها دمامة ولا حُسن، كانت نحيلة لا هيفاء، وقصيرة بعض الشيء و... في الحقيقة لا أذكر لها سمة خُلقية أخرى، لم يكن الجسد ما يجتذب الفتيات والفتيان إليها، بل كانت سرعة بديهتها وصراحتها وجرأتها وتمرُّدها وسلاطتها وسخريتها، كل هذا خلق لها شخصية كاريزماتية قوية، ولكنها لا ترقى إلى شخصية أستاذي زكرياء ولا محمد حجاب طبعا، أنا أعني أنه بيننا نحن الطلبة، كانت هي أكثر شخصية اجتماعية... والآن، توقف عن مقاطعتي ومحاولة حشري في إحدى الزاويتين؛ العشق أو الاشتهاء فأنا لستُ بمعتكف لا في هذه ولا في تلك، أين وصلتُ؟...

قال الطبيب : "أنت تكذب وتنافق!".

فأجبته : "لولا أني أخاف أن تسأل زملائي عن اسمها لوجّهتك إليهم لتسألهم، رغم أن هناك تفصيلة صغيرة أخفيتها عنك..".

- كما قلتُ لك، منافق وكاذب

قلتُ : "تفصيلة تافهة، في بداية العام، كانت تتلثّم بنقاب أسود يتماشى مع حجابها وعباءتها الحالكة".

- أهي بيضاء؟
- أجل، ولكن هذا لا يعني الجمال بالضرورة

لم يأبه وليد لاعتراضي بل أنشد بيتًا للشاعر بيرون عثر عليه في إحدى روايات فرجينيا وولف؛ اقتبسته إحدى شخصيات الرواية: "تمشي وجمالٌ آسر يحفُّها، جمالٌ له من السِّحر ما للَّيل".

بصقتُ في اشمئزاز على الورود في مزهرية انبثقت خارجة من سطح مكتبه وقلتُ: "رومانسي لعين!"، ثم عدتُ لقصتي...

كان ذلك الخمار الذي تواري به وجهها يهبها سحر الغموض، الفضول طبيعة في الإنسان، فكل ما استخفى عليه واستغلق يلهبُ خياله، فلابد إذن أن كلا من الشُّبّان الثلاثة راح يتخيل حين يخلو بنفسه أيّ مخايل خلّابة يواريها هذا الخمار، أي وجه؛ أي أعين؛ أي أهداب، أي خدود؛ أي غمازتين، أي فم؛ وأي أسنان وشفتين، ولكن لم يكن لهم من شيء يستدلُّون به سوى عينيها ليقيسوا ويقدِّروا بهما نسبة جمالها، ويا له من مقياس خدّاع، فقد كانت عيناها لعوبتين كقطة صغيرة تلهو بكبّة خيط، حدقاتهما تتراقصان كلاعبتي باليه تشبّان على أصابع القدم وتلُفّان وتقفزان لتطفوا بين السماء والأرض المرة تلو الأخرى بمنتهى الأناقة والرشاقة، وكان لها أمارة أخرى تبدو خلف الستارة؛ حمرةٌ تصبغ وجهها

حين تُستثار أو تتحمّس فيكاد الخمار يذوب لحرارته ليشِفّ عن توهُّج وجنتيه، وهجٌ لا تلقي مثله الشمس الذبيحة إذ يشطرها الأفق بنصله فتنزف على السُّحبِ نُدفِ القطن التي هُرعت إليها تسدُّ جراحها فتشرّبت حمرتها، أجمل ميتة في العالم!

تأمّلني وليد الطبيب ووجهه ساحة معركة تصطرع عليها المشاعر، أخيرًا قال: "آه، بماذا أبدأ؟!... أولا، السايكوباثية تظهر مجددا، تشبِّهُ غروب الشمس بالذبح والموت، وترى الجمال في ذلك، أنت حقًّا مختل، ثانيا، تقول لي أن الفتاة عادية لا حسن فيها ولا جمال ثم تلقي خطبة في وصف أثر الخمار على وجهها، أنت حقًّا متناقض، ثالثا، كشفت كذبك، قلت أنك لا تختلس لها النظر لتملأ عينيك، الخلاصة أنت سايكوباثي متناقض منافق و... لستَ رجلا فوق ذلك!".

تقاسم الغيظ والخجل وجهي فصرتُ كذي الوجهين، نصف شفة تكشر في وعيد، وتوأمتها تبتسم في خجل، نصف وجه مسودٌّ محتقن، والآخر محمر متورد، قلتُ في الأخير: "هل يمكنك أن تدعني أنهي قصتي بحق اللعنة؟! كُفّ عن الأسئلة".

كان ذلك مهربي فالردود لم تسعفني... أين توقفت؟

قالت هاجر سائلة: "سؤال خارج عن الموضوع، يقولون أن الأنبياء لا تأكلهم الديدان، أليس كذلك؟".

أومأ الأستاذ لها لتواصل وقد بدا في عينيه القلق، فهذه بشائر قنبلة!

سألتُ ببراءة دون تردد: "إذًا، لماذا لا ينبشون قبورهم ويخرجون جثامينهم فإن كانت سليمة كان ذلك دليلا قاطعا على صحة الإسلام؟".

لو كان في فمي مشروب لشرقتُ به، هذا إن لم أنفثه مغرقا به سطح الطاولة، نبش قبور الأنبياء؟! حتى أكثر المهرطقين زندقة لا يجرؤ على التصريح بهذا، ألا تعرف هذه المخبولة معنى 'التابو'؟ خطر لي هذا حينها ثم تبين لي فيما بعد في أحد امتحانات الفرنسية أن القسم بأكمله يجهل معنى كلمة 'التابو' وهذا يفسر الكثير...

انصدم الأستاذ إسحاق وفغر فمه عن آخره: "مهلا، ماذا قلتِ؟ أيمكنك رجاء إعادة السؤال؟".

هي تلقي أسئلة مثل هذه، وأنا مع ذلك صاحب الأسئلة المخيفة الصادمة؟ ولم تمض لحظات حتى ألقت قنبلة أخرى، هيروشيما ثم ناكازاكي! أنقذنا يا رب!

"أستاذ، لماذا يحاسبنا الله على معاصينا وهو قدّر لنا فعلها؟".

أجبتها في عقلي، العلم لا يساوي الإجبار، أنا أعرف أنك تسير في طريق مسدود، فسجّلت في مذكرتي: "السائق الجاهل الغافل لا يعرف أنه يقود في طريق مسدود، سيستدير ويعود بعد خمس دقائق تقريبا وهو يصيح في حنق". ويقع المكتوب، هل مذكرتي هي من جعلت السائق يقود في ذلك الطريق أو يبلغ النهاية المسدودة؟ لا، إنه جهله هو، ولا ذنب لي أنا. هل

فهمتم؟ ولكني لم أشرح لها هذا لأني لا أريد... لقاءها في الجنة! لا، أنا أمزح، ولكني حقًا أتخوّف من لقاءنا سواء كان ذاك في الجنة أو الجحيم.

شرح لها المعلم ما قلته بطريقة أخرى ولكنها لم تفهم، في أحايين نادرة تبدو غاية في الغباوة والحماقة، الحمد لله أنها أحايين نادرة.

ثم جاءت حصة الرياضيات، تغيّب الأستاذ محمود، فتجمّعت الفتيات في دوائر صغيرة ورحن يثرثرن في أتفه وأسخف المواضيع على الإطلاق، فتحتُ أنا كراستي، بوابتي السحرية إلى جنّات الخيال التي ألوذ بها من ملل الحياة القاتل، كان فيها 300 صفحة، تحدّاني صديقي الحميم مصطفى إلى ملئِها كاملة بشعري النثري في غضون عام لا أكثر، فقبلتُ التحدي، ولكني فشلتُ فقد جفّت قريحتي في نهاية المطاف، كنت قد جاوزت المئتين ولكني لم أستطِع المواصلة، فتحتُ تلك الكراسة ومشيتُ في طرقاتها متكئًا على قلمي، أرتكب به مختلف المجازر والمذابح، هولوكوست ثانية، ولكن هذه المرة في حق الصهاينة لا اليهود جميعًا، لأن هؤلاء بالذات لن يفتقدهم أحد، مذبحة أخرى في حق من يقول أن أحمد خالد توفيق كاتب سيء، ومجزرة ثالثة في...

و.. و.. من يضحك عليه اللعنة؟! لقد انتشلني من أحلى الخيالات وألذها، تبعثرت أحلام يقظتي تبعثر الحمامات إثر رصاصة صياد، ومن ذاك الصياد؟!

إنها هي، هاجر، ضحكتها الماجنة الصاخبة تكاد تصم الجدران، لو سمعها بشار بن برد لرقص قلبه لها طربًا، ولو سمعها أبو نواس لودّع غلمانه: "أظن أني سأبيت معها الليلة على سبيل التجريب". ألف لعنة عليها وعلى ضحكتها الخليعة السافرة، ألم تسمعي بأن صوت المرأة عورة؟

أنكبُّ على الصفحات مرة أخرى، متلمسًا متحسسًا لعلي أجد البوابة السحرية مجدّدًا، ها هي.. تنفتح أمامي، أهرع بالدخول، وإذا بأشياء تتقذف نحوي وعليها أسمائها، "فيل" مخطوطة بخط عريض أحمر على جبهة فيل عملاق يهوي كالنيزك من السماء، "جبال" محفورة على سفوح سلسلة جبلية انتصبت في التو واللحظة وشمخت أنوفها شاهقة شمّاء أمامي، "عناكب" تلقي خيطًا للريح فتحملها هبَّتُه نحوي، "كرة" تضرب وجهي، وهكذا دواليك، فآخذ من الأسماء ما أحتاجه، وأترك الأخرى تمضي صوب هاوية النسيان السحيقة...

أمسكتُ "أَمَلْ"، أضفت لها كافًا، ثم رحتُ أبحث عن شبَهِها، أَمَلَكْ، أمْلِكْ، أمَلَكٌ؟ أَمَلِكٌ؟ ممالك، مماليك، مما لك، مَالَكْ، مَا لَكْ؟ مالِكْ — خازن جهنم —، تملُّك، تملَّك؟ هي تملُّكَ أم هو تملُّكٌ؟ يا لها من تجميعة، قلادة ذهبية من الجناس، وربما أحوِّلها إلى ألماس إن شكّلتُ بها تورية، مهلا، دعني أفكر كيف أربط بين هذه الكلمات في سطر شعري بديع يسمعه أبو تمام فيربِّتُ على كتفي ويقول: "بوركت يا فتى"، حسنا سأضع ممالك قبل مماليك ومماليك قبل.. قبل.. الضحكة الملعونة مجدّدًا!

ألتفتُ لها في حنق، فأجدها تضحك وهي تضرب كتف زميلتها، فاتحة فمها على وسعه، ملقية رأسها للوراء، مغمضة عينيها، وأتخيل والغضب يغطش عيناي شيئا يقتحم فمها دون دعوة... ماسورة... ماسورة بندقية!

أطرد الشياطين ثم أطارد الكلمات.. م..ما..مو..مي تبدّدت! تلاشت! بنات أفكاري وأدتها ضحكتها الوحشية دون رحمة، لا احترام، لا أدب، لا خصوصية، هذه الفتاة تحتاج بضعة صفعات، لو كنتُ أباها أو أخاها لتكفّلتُ بالأمر، مهلا، أستطيع أن أفعل بها الأفاعيل، أفاعيل أقسى من الصفع، أفاعيل يبدو الصفع تمليسا وتمسيدًا أمامها، سأكتب عنها قصيدة... هجاء! ومضيتُ أنفِّذ خطتي الجهنمية، صلبتها على قلمي، ورحتُ أشتمها وأرجمها وأبصق عليها حتى أضحت أقذر وأنتن من خرقة مُسح بها قيء!

وكان أحسن سطر جارح كتبته: "إذا تحمّست تورّد وجهها فأصبحت قرد الوكاري".

ومرّت بي هاجر فجأة كشبح تجلّى من عدم، فأسرعتُ أقلب الصفحة مذعورًا، مرّت بي دون أن تلتفت لي، كانت تتأبط ذراع زميلتها السمينة متوجهة نحو الباب، ذاهبة لشرب الماء أو زيارة.. الحمّام، أيّا كان، أحمد الله على أنها لم تلحظ حرفًا، وأحمده كذلك على أنها خارجة، على الأقل لخمس دقائق أو...

"ماذا يكتب؟"، ألقت السؤال لصديقتها جاهرة به كي أسمع وهي تجتاز عتبة الباب، وخرجت مقهقهة في مجون، وأنا أحملق في الفراغ الذي كانت تحتله مصدوما ممتقعا، يا للقحة والوقاحة!

لم أنبس ببنت شفة حين رجعت، كانت تلك رسالة مشمّعة بعثت بها، وإن رددتُ فسأكسر ختمها، كلا، الصمت البارد خير جواب، واكتشفت فيما بعد أن المأفونة ملحّة مصرّة صبورة، ولن تَقنع حتى تظفر بالإجابة، ماذا يكتب؟.. قصيدة هجاءك اللعينة... ماذا يكتب؟... قصيدة قتلك!... ماذا يكتب؟... قصيدة رثائك!... ماذا يكتب؟... آه، تبّا!

عدتُ لمنزلي، وجلستُ على سريري، كيف لتلك الملعونة أن تأمن صمتي وتتخذ منه حصنا تصُبُّ من وراءه دلاء الزيت؟ كيف لها ألّا تتخوّف وابلا من حجارة من سجّيل تقذف به مجانيقي؟ مزّقتُ بضعة أوراق من دفتري، وكتبتُ لها رسالة "كره"...

"هل لكِ يا هاجر من فضلك أيتها اللحوح السمجة أن تطبقي فمك اللعين؟ لقد سئمتُ أسئلتك، فكيف لا تملّين أنتِ تكرارها؟ لن أخبرك عما أكتبه حتى لو هددتني بالانتحار، بالمناسبة، هل يمكنك أن تنتحري وتريحيني من أسئلتك المزعجة وضحكاتك المقززة، شكرا."

أنهيتُ كتابة الرسالة، ثم أعدتُ قراءتها مرتين وقررتُ أن أشطب على سطر "الانتحار"، الفتاة حساسة وهستيرية، ستنفجر باكية وتنهال علي بالشتائم وتحدث فضيحة.

وفي صباح اليوم الموالي، بدأنا بحصة العربية، دخل الأستاذ زكرياء،

والتفاءل يُظلُّه بأشجاره وأزهاره كبلبل يضُمُّ فراخه تحت جناحه، دخل بابتسامته الواسعة وسأل بعد تمهيد: "والآن أي الطلبة سيقرأ تعبيره الإنشائي أولا؟".

يا للهول! انشغلتُ بالرسالة ونسيتُ كتابته، ماذا سأفعل؟! ماذا لو عرف أني لم أنجز... أمزح معكم، لقد أنجزته طبعا، كيف أنسى تمرينا كلّفني به الأستاذ زكرياء؟

على الفور رفعتُ يدي فقال الأستاذ: "حسنا، سنبدأ بك يا خالد".

فأخذتُ أقرأ بصوتي الخافت المتلعثم المشوه: "حيواني المفضل هو..'الكُتُبَان'، وهو حيوان سحري أسطوري من بديع خيالي، عملاق كالحوت الأزرق، ذكي كالحوت القاتل، دماغه ضخم كحوت العنبر، ولكنه على خلافهم برمائي، عيونه شاخصة غريبة مثل ليمور الأي-الأي، خطمه نحيف طويل كتمساح الهند، يفترُّ فكُّه عن ابتسامة بريئة كسمندل عفريت الماء، على جانبي بطنه شعر غزير مثل ضفدع الوولفرين و..".

"ماذا يقول؟.. أنا لا أفهمه فأنا لا أسمع شيئا"، سألت هاجر جيرانها من الطالبات بصوتها الجهوري، سمعتُها ولكني تابعتُ القراءة غير مكترث، فطلبتْ من الأستاذ بعد أن آنست مني لامبالاة جليدية: "أستاذ، أرجوك قل له أن يرفع صوته فأنا لا أستطيع سماعه".

ففعلتُ فقط لأن الأستاذ زكرياء طلب مني، وواصلتُ القراءة وقد بدأ الإحراج يغزو بجيشه رافعا راياته الحمراء عاليا على وجهي: "ويستوطن الكُتُبان ضفاف الأنهار والبحيرات، ويتغذى على الأفيال والزرافا..".

- أستاذ، أنا لا أفهم شيئا، إنه يسرع، قل له أن يتمهل ويتأنّى في قراءته

فطلب الأستاذ مني ذلك تحت إلحاحها، شعرتُ بدمي يغلي، وأسناني تزمجر، ووجهي يحمرُّ فيُطابق وجه قرد الوكاري، ولكني بَرّدتُ أعصابي، ورحتُ أقرأ بلهجة بطيئة كالترتيل، وأخذت أنطق الحروف مقطّعة حرفا حرفا كطفل في الابتدائية لعلّ الصمّاء تسمع فتستوعب : "حين يبلغ الأفراد سن التكاثر يقومون بهجرة سنوية إلى البحار، وحين يمخرون عبابها ويغوصون في أعماقها تتحول حميتهم الغذائية إلى الدلافين والقروش والحيتان والحبّارات العملاقة و..".

- ما زلت لم أفهم

عافاكِ الله الفهم طول حياتك أيتها المعتوهة! توقفي عن التظاهر بالصمم عليك اللعنة! كيف كنتِ تفهمين أسئلتي قبل هذا؟ هيا، أخبريني... أيها الناس اسمعوا ما لا يُصدّقه عقل، هارونتي فقدت رُشدها، لقد حان وقت شدِّ ناصية ولحيةِ هذه المسترجلة وتأديبها، لم أقل شيئا من هذا طبعا، بل جلستُ في مقعدي أرتجف من الغيظ، ولو عقل مقعدي وأحسَّ لفزع وجرى هاربا خشية أن يناله شيء من سخطي.

- من فضلك يا أستاذ، اقرأ أنت نيابة عنه

مددتُ الكراسة لأستاذي دون نقاش، لا تحبين نطقي وإلقائي، لا بأس فأنا لم أزعم لنفسي يوما زعامة الخطابة، ولكن لن أسمح لكِ أبدا، أبدا، أبدا بإنكار أو جحود تعاويذ عصاي السحرية، قلمي يُبكي المزهوّ المسرور،

ويُضحك المكتئب المغموم، ويُغضب الحليم الصبور، ويُهدِّئ العصبي الغضوب، قلمي يصنع العجاب؛ يصدم الشياطين ويذهل الملائكة، بقلمي أحطُّ شأن الملك وأرفع مقام عامل نظافة، بقلمي أغرس في عقلك أفكارا دون وعي منك ولا إدراك، فتفعل ما زيّنتُ لك وتترك ما قبّحت، قلمي قد يجلب لي موتي وربما يفتكُّني من فتكته، فإياك إياك الكفر والجحود لأني لن أغفر ولن أصفح، لا أجيد شيئا أكثر من الكتابة، إنها هوايتي، مهنتي، شغفي، إنها حياتي، وإن حاولتِ انتزاعها مني فكوني مستعدة للموت لأني سأقاتل متشبثا بالحياة.

ورفض الأستاذ طلبها معتذرا : "إنه خطه ونصه هو، فهو وحده من يفهمه لأنه كاتبه، ولذا لا أستطيع أن أقرأ بدلا عنه".

أدركتُ لماذا اعتذر أستاذي، خطي كصوتي، كلاهما مسخ مشوه. ولكن ما يهم برأيي هو المضمون لا الشكل، لا أحد ينظر إلى المحارة، ولكن الكل يرنو إلى اللؤلؤة.

واصلتُ الكفاح محاربا اللعثمة القاهرة، واللسان السكران، والشفتان المحرِّفتان : "أبدع ما في هذا الحيوان أنه يفرز مادة مخاطية إن تذوقها إنسان فس...".

تعالت همهمات عدم الفهم، ما الذي يقوله؟ أنا لا أسمع، إنه يسرع، إنه لا يفصح ولا يوضح.

لم يفهم أحد منهم فكيف يعجبون وينبهرون، كانت تلك أخزى اللحظات في حياتي، قلمي عصا السحر والمعجزات يخذلني هكذا، وكل هذا بسبب هاجر اللعينة، لقد حرّضتْ القسم ضدي، وها هي الفتيات يرددن خلفها كالببغوات، وهي تسوقهن أمامها كالأبقار لتدهس وتدوس كرامتي.

طلب مني الأستاذ حينها أن أتوقف وقال يسترد لي شيئا من اعتباري : "في هذا القدر كفاية، لقد كتبتَ نصا بديعا ورائعا، فقد سبق أن اطلعتُ عليه، لأنك لم تصبر وأرسلته لي على الإيميل، رغم أنه طويل بعض الشيء، ورغم أن تفصيلة المخاط لم تعجبني، ليتك استبدلته بشيء آخر لا يثير الاشمئزاز، نصيحتي أن تحسِّن من خطك وإلقاءك لكي يفهم الناس عنك... من يقرأ بعده؟ ".

رفعت المأفونة يدها، ومال صاحبي محمد - الذي يجلس خلفي - على أذني يواسيني : "نصك أعجبني"، علت ابتسامة باهتة واهنة وجهي كعجوز قبيل سكرات الموت، ولكن صدري انشرح قليلا فقد خرق زميلي ثغرة في لجّته الخانقة لينفذ إليه بصيص نور، أردف محرِّضا : "أنت أيضا علِّق عليها وتصيّد أخطاءها".

- "بالطبع سأفعل"، وشمّرتُ عن ساعدي، وجهّزتُ الكراس، واستللتُ الساطور لأمثِّل بجثة نصِّها على صفحاته، أذن لها الأستاذ فأقلعتْ تقرأ بسرعة الصاروخ - وأنا من يسرع؟! - ولكنّ كلماتها خرجت واضحة ساطعة كالبدر في الظلماء، فلكأنه تخاطر، ولكأنها تُخاطِبُ

عقولنا وقلوبنا مباشرة، انسابت كلماتها كالسِّحر، كالشَّهد، كخمر الجنة، لترويا أذناي بنهر رقراق مهراق، تذوب له نفسي المولعة بسحر البيان، وترقص له روحي طربة جذلة ثملة منتشية، "النحام أحب الطيور إلى قلبي..."

اغرورقت عيناي بالدموع، لم تكن قرّة عين ولا دمعة حسرة، كانت دموع التعجب والذهول والانبهار أمام مشهد طبيعي خلّاب أخاذ تقصر عنه الكلمات، دموع تذرفها لو رأيتَ الشفق القطبي الأخضر في آيسلندا، أو سديم النجوم، أو انفجار البراكين، أو هجرة أسراب عصافير غفيرة تحجب وجه الشمس وتحيل زرقة السماء سوادا، اضطرمت الحماسة في صدري، واستعرتْ الغيرة في قلبي، وسَرتْ قشعريرة عبر سائر بدني، وكوّرتُ قبضتي على سيّالتي واعتصرتها بعنف، لقد أدمعتْ الأستاذ زكرياء، لو أدمعته أنا بكتاباتي لعشتُ بقية حياتي هنيّا رضيّا، وإن انقضّت علي المصائب والنوائب سأقول لنفسي : "أنا قرة عين زكرياء، فليفعل بي الدّهر ما شاء بعد هذا".

ها هو غريمي، ندي، قريني، توأمي ينزل ساحة الوغى مدرّعا مدججا معلنا اندلاع الحرب الضروس الطاحنة بيننا، التفتتُ إلى كتفي فوجدت داغر عليه متوفزا للانقضاض، قلتُ له : "ماذا سنفعل بشأنها؟ لقد أشعلت المنافسة".

فأجاب : "أستطيع أن أجعلك تظل الواقف الوحيد في ميدانك كما كنت دائما".

- حقا؟
- "أجل"، وربّت على مطرقته.

كلا، أنا أريد انتصارا عادلا نزيها، إنها خصمي المنتظر، ولكن تبًّا، فهي فتاة، فتاة عابثة متمردة، لا تعرف حياء ولا خجلا، فتاة تصُمُّني بضحكاتها، وتزعجني بأسئلتها، لماذا قُدِّر لتوأمي أن يُخلق أنثى؟ أما كان خيرا لتلك الروح؛ لا، بل ذلك العقل؛ لا، بل بالأخص تلك الموهبة الساطعة العامِيَة- موهبة الكتابة - أن تتلبّس فتى؟... أستغفر الله، أنا أعارض القدر، وأنّى لي أنا الحشرة أن أعترض على القضاء؟
- "مهلا، مهلا، مهلا"، قال الطبيب وليد بعد سكوت تمتعتُ بظله طويلا حتى خلته يدوم.

نظرتُ إليه نظرة "ماذا تريد الآن؟".
فأجابني قائلا : "كيف السبيل إلى فهمك أيها المتناقض المخبول؟ في البداية تقول أنك لا تضمر لها حقدا ولا تُكِنُّ لها حبا، ثم تمقتها على شروحاتها ثم تحب منها ذلك، ثم تبغض ضحكها ولهجتها، أي صوتها، ثم تستمتع بأسلوب إلقاءها، وتحبها لأجله، فهل تحبها أم تبغضها؟ احسم أمرك".

- "في الوقت الحالي أنا لا أكرهها ولا أحبها، أما حينها فكنتُ أحب عقلها وحده؛ نباهتها وذكاءها وطرافتها وسعة اطلاعها وفوق كل شيء، موهبتها في الإنشاء؛ بلاغتها ورشاقة عباراتها وجزالة ألفاظها، وأشعر بالحسرة لأني لا أستطيع فصل عقلها عن جسدها، كان الأمر أشبه بمرآى ياقوتة في بالوعة إن استخرجتها منها زال بريقها، أو أشبه بالخمر، إنها حلوة لذيذة ولكنها مُسكِرة تجعلك تبول على نفسك وتركع أمام المرحاض لتقيء، ورغم كل هذا تجد من يشربها، ولكني لا أستطيع، والآن هلّا أخليت الطريق كي أواصل قصتي.. من فضلك؟".

لوّح وليد بيده مستهينا : "احك أو اسكت، لا أحد يهتم، أتخالُ أنّ قارئا واحدا سيُنهي حكايتك هذه لو فُرِّغ التسجيل الصوتي لهذه الجلسة على الورق؟".

- "بالطبع، أعرف قارئا واحدا سيقرأها حتى النهاية"، ضيّق وليد عينيه في شك، مخمنا من قد يكون، مص..طفى؟ أم سلحوفة؟ ولكني لم أبال به بل واصلت...

حين أنهت القراءة، ماج القسم تصفيقا، وقال زكرياء مادحا وهو يحبس دمعة كادت أن تنساب : "ما شاء الله، تبارك الله، إنه أفضل تعبير سمعته حتى الآن، أنا أجد في كتابتك أثرا لأبو القاسم الشابي، والمتنبي، ومالك بن نبي، فهل تقرئين لهؤلاء؟".

قالت في غرور : "طبعا، آخر كتاب قرأته كان "الأيام" لطه حسين، إنه سهل العبارة على عكس "حديث الصباح والمساء".
لم أكن حينها قد قرأت لطه حسين، فقد كنت أحسبه يكتب بتلك اللغة المعقدة المطلسمة، لغة المتنبي والنابغة وعنترة، ولم أكن قد سمعتُ ب"حديث الصباح والمساء" لنجيب محفوظ أيضا، راحت غيرتي تمزِّقني حيّا كالضباع، إنها تقرأ أكثر مني، وتكتب أفضل مني، أبدا لن أسمح لها بالتفوق علي في القراءة والكتابة معًا.

ثم جاءت حصة التاريخ، تغيّب الأستاذ، ففتحتُ كراستي، كتبتُ سطرا، سطرين، ثلاثة، ثم شطبتهم مُعدِمًا غير راضٍ عن مُشوّهي الخِلقة هؤلاء، كتبت سطرا آخر، اثنين، ثلاثة، وأربعة، والموت لكم أيها الهزال العجاف الضعاف! تخيلتُ أسطري وسطورها يصطفّان في جيشين متقابلين للقتال، سطوري تفرُّ كالأرانب، سطورها تطارد كالثعالب، سطوري حمير وحشية وسطورها ليوث متوحشة، لا خِلاف في المنتصر، كتبتُ سطورا أخرى ولكني لم أرض عن أي منها، كل كلمة وضعتها على الورق بدت مبتذلة مخلخلة متذبذبة ترتجف كأوراق الخريف في مهبِّ الريح، جعّدتُ الورقة ومزقتها في سخط، وسمعتُها...

- هاها، أنت حقا سخيف يا يوسف

كانت جالسة إلى طاولتها، وكان يوسف متكئا على المدفأة خلفها، يُدفِّئ ردفيه ربما؟

كان يوسف شابًّا قويّ البنية، فارع الطول، منفوش الصدر، وسيم الوجه بعض الشيء، يهتم بتسريحة شعره وأناقة ملابسه، وكان يتطاول على الأساتذة، ويمازح الفتيات ويُغيظهن دائما، التفت فجأة لزميلنا الثالث في القسم عبد الودود، وقال له : " كنتُ في السوق أمس، واشتريتُ موزة كبيرة بسعر بخس لا يصدق، أيمكنك أن تحدس كم؟".
وانفجرت هاجر ضاحكة وقالت بنبرة تَفِحُّ فتنة وإغراء : "لماذا يجعلني ذِكر الموزة أتخيل ذلك الشيء؟".

كادت محاجري تقذف عيوني، وتدلّى فكي السفلي مغمى عليه، في حين دوّت صيحة كالناقوس في دهاليز عقلي : ماذا قاااااااااااااااااااااااااالت؟! لا يمكن، لا يمكن لها أن تقول ذلك، لابد أن سمعي خانني، أذناي الواهنتان أخطأتا بين كلمة وأخرى. لابد أن دهشتي كانت واضحة للعيان.

فقد أردفت ساخرة بعدها بلهجة تلميذة صغيرة تشي : "معلّمة، هاجر تقول كلاما فاحشا".

وقُطع الشكُّ باليقين، كيف أمكنها؟ كيف تجرأت على التصريح بتلميح جنسي فاضح كهذا؟ ما هذا الفجور؟ ما هذا الفسوق؟ جهارا وعلانية، أبدا لم أسمع مثل هذا من قبل، الفحش بين فتى وفتاة داخل القسم على مسمع من الطلبة ومشهد.

يومها سقطت هاجر من عيني، وهوتْ في مستنقع قذر تسبح فيه الجرذان والصراصير والخنازير. احتقرتها، ازدريتها، وطرق سوء الظن بابي: أهي نفس

الفتاة على الأنترنت التي صوّرتْ يدها بالهاتف إذ تداعب بأصبعها حبة الخيار، وهي تقول ضاحكة كالساحرات ليلة السبت على حِجر الشيطان ذي رأس التيس : "أنا أتخيل ذلك الشيء الآن"؟

وأجاب سوء ظني نفسه : أووه، هذا وارد، وارد جدا.

كوّرتُ رسالتي وتخلّصتُ منها، إنها حقيرة ولا تستحق جوابي، لا خلق لها ولا جمال، ولولا عقلها لما أقمتُ لها وزنا إطلاقا.

- ولكن لماذا أنت موقن من قبحها هكذا وهي تلبس الخمار؟

هل نسيتُ أن أذكر أنها خلعته يومها؟ دخلتْ القسم دونه فحملقتُ فيها، من هذه الفتاة القبيحة؟ أهي طالبة جديدة ولماذا تلبس تماما مثل هاجر؟ مهلا... إنها تقعد في مكانها أيضا، مهلا... لقد سرقت صوتها كذلك، مهلا... أهي هاجر؟! أهذا وجهها؟

وجه عبوس مقطّب كالعجوز وهي ما تزال في زهرة شبابها، فكيف يُمسي حين تُذبلها الشيخوخة فتصير حيزبونا؟

رآها زميلي محمد - وكان أقرب في طبعه لأمين الشهوتاني من كمال الولهاني - فعلّق بصوت مسموع : "يا لقبحها! أعوذ بالله! كنت أتخيل أن وجهها صبوح مشرق فإذا بها تطالعنا بهذا".
فلكزته أن اخفض صوتك ولا تفضحنا...

تمّت بحمد الله.

ابتهل وليد ودمعتا شكر تنسابان حتى ذقنه : "الشكر لك يا رب، الشكر لك يا رب، أخيرا، أخيرا ختمت قصتك اللعينة، سألتك سؤالا واحدا فإذا بك تحكي لي سيرة حياتك المثيرة للشفقة، كان بإمكانك أن تُجيب باقتضاب : 'أحب في الفتاة عقلها'.

وفقط، أربع كلمات تُغني عن قصتك كاملة، ولكن ما زال عندي سؤال واحد لم تجب عنه سأطرحُه عليك بشريطة أن تجيب بإيجاز ولكن أولا دعني أعلن..."، ومسح الدموع بكمّه ثم أزال يده ليكشف عن تشفٍّ تلبّس عينيه : "... أُعلنُ خسارتك الفاضحة، لقد أطاحت بك هاجر ومسحت بك الأرض كالخرقة، رهانك، ألا تذكره؟... النعجة نطحت كبشا فأفقدته وعيه، الدجاجة نقرت ديكا ففقأت عينه! لقد فازت عليك، ألف مليار لي، قدِّمها لي حالا...".

سألتُه وأنا أكزُّ على أسناني : "دعك من هذا وألق سؤالك؟".

- قصتك غير مقنعة، لقد استأثرت بصورة البريء التقي النبيل، ووصَمْتَها بصورة الفاسقة الماجنة، لكن لابد أنك تداري عيوبا أيها المنافق

- حسنا، سأذكر عيبا واحدا كانت تشمئز مني بسببه، كم مرة ذكرتُ القيء في هذه القصة؟

"لا أستطيع أن أحصي"، قال وليد وأردف ضاحكا في سخرية : "لأن كل حرف في قصتك بطعم القيء".

فرددتُ صارخا : "مضحك، مضحك حقا، أتعرف ما هو أكثر إضحاكا؟... حين تبول على سراويلك في لحظة موتك"، ثم زفرتُ ضيقا وأجبتُ سؤاله : "لقد اعتدتُ التقيّؤ في الجامعة، كنت أتقيؤ كما أتنفس، دون انقطاع. وكنت أحمل في محفظتي حزمة من الأكياس السوداء احترازا، وأجلسُ في آخر القسم قرب النافذة المفتوحة، وحين يباغتني القيء أختطف كيسا وأفرغ فيه، ثم أحكم غلقه وألقيه من النافذة على قارعة الطريق، لماذا تحدِّق في بهذه الطريقة؟ كل الناس يفعلون هذا خلال السفر بالسيارة، ولا أحد يلومهم.

في بداية العام، اختارت هاجر الجلوس في الطاولة الموازية لي ويا له من خيار تعس! إذ كان عليها أن تتحمل تلك الرائحة الخانقة طيلة السنة، كنت ألتفت إليها فأرى القرف يعلو محيّاها، والامتعاض يتلوّى كالدود على عينيها، وكانت تتبرّم وتشكو لزميلاتها : "ما خطبه؟... ما به؟... إنه دائما مريض... لم لا يزور طبيبا؟... لم لا يأخذ دواء؟".

لطالما سمعتُ نجواها هذه، فقد كان همسها يُسمع، وصياحها يصُمُّ، وتمنيتُ لو أصرخ فيها : **لقد زرتُ أكثر من طبيب، ووصفوا لي كم من دواء، لم ينفع أي منها ولم يؤثر**، بعدها رسخ في الاعتقاد بأن مرضي نفسي أكثر منه جسدي، فأنا حسب تشخيصي الشخصي مصاب بالرهاب الاجتماعي، ربما لأني ألفتُ العزلة والانطواء والانزواء، فإذا حشرتني مع عشرين شخصا في غرفة مغلقة، انتابني الذعر وراحت هذه الأفكار المضطربة تتردد في ذهني، صيحات أشباح في بيت مسكون : سأُحرج

نفسي أمامهم، سأُخطئ في شيء ما، وسيسخرون مني ويهزؤون بي، أنا أخرق أحمق أبله لا يصلح لشيء، سأتقيّؤ وأتغوّط وأتبوّل على نفسي، وسيشمئزون مني ويتقززون، الازدراء تنطق به عيونهم، والاحتقار تبوح به شفاههم، إنهم يلتفتون نحوي، إنهم يتربصون أن أفعل شيئا يعيِّرنوني عليه ويعيبون، آه، اللعنة! سأقيء.. سأقيء.. سأقيء..
فتقول المعدة لعقلي : هل يريد مني أن أقيء؟ إن كانت تلك رغبته فأنا لن أرفض له طلبا.

فيجيب العقل : لا، إنه يتوجّس خيفة من ذلك فقط، عليكِ أن تشدِّدي قبضتك على الطعام، فلو قاء سيغرق في وحل احتقار الذات.
العقل اللا واعي يتدخّل : هلُمّ تقيّئي أيتها المعدة، أيها العقل، إنه يرغب بذلك، فهو يعتقد أنه لا يستحق الكرامة والتقدير، بل المهانة والذُلّ، ربما ارتكب فعلا شنيعا في الماضي لا يتذكره، وهو يعاقب نفسه عليه بذلك، من أنت حتى تضنّ عليه برغبة؟ إن كان يريد تعذيب نفسه فدعه يعذِّبها إذن و...

بععع... تصيح الفتيات اشمئزازا... يعع!... يقول الأستاذ مهدئا... شيء طبيعي، لا داعي لكل هذا، إنه سقيم... الحصة التالية... لن أقيء، لن أقيء، لن... بععع... تصيح الفتيات في سخط : "كل يوم؟!"... يقول الأستاذ مستاء : "سكوت! وأنت يا خالد، عليك بالخروج إن شعرت بأدنى اضطراب في معدتك"... الحصة الموالية... لا تفكر في القيء حتى، فكر في شيء آخر، التفكير في القيء يستدعيه فكأنك بالفكرة تستقي القيء... بععع، آه، علي

اللعنة! عليكِ اللعنة أيتها المعدة! ليت بإمكاني أن أتخلص منك ولا أموت... ربِّ أرحني من هذا العذاب... بععع... هذه لعنة، ما الذي فعلته لأستجلب لعنتك يا إلهي؟... بععع... ليتني أستطيع التخلص من هذا الجسد العفن، العقل وحده يكفيني، عقل يطفو في وعاء زجاجي على طاولة في مخبر كيميائي، حلمٌ ليته يتحقق، هذه مأساتي : أحسن عقل مسجون في أقذر جسم... بععع... الفتيان يزدرونني، الفتيات يشمئزن مني، هاجر تتقزز من الرائحة والمنظر.. بععع... أريد الانتحار، لولا جهنم لانتحرتُ منذ زمن، سأقتل نفسي بالهاريكاري، أبقر بطني اللعين كما سأل أشعب الخليفة حين أراد إعدامه في ذلك النص الذي قرأته في...بععع... لو كنتِ تحسِّين ألم اللكمة يا معدتي للكمتُكِ ألف مرة في اليوم، لماذا لا تكفِّين عن تعذيبي واضطهادي؟... بععع... الأكياس نفدت، سأخرج وأقيم في المرحاض، ذلك مسكن يليق بصرصور قذر حقير مثلي... بععع... يوسف يتبادل نظرة استهزاء مع هاجر، لقد كنتُ أصوم عليكما اللعنة معا! كنت أصوم وأجوِّع نفسي لكي لا أتقيّأ أمامكما فأزعج خاطركما، وبماذا تجزيانني؟ تبا لكما! وتبا للقسم!... أنتم مثلي حقراءٌ مناجيسٌ، لستم أربابا ولا ملائكة، كلكم يسعل ويعطس ويبصق ويتنخم ويقضي حاجته وبعضكم يُمني وبعضكم يحيض، هاجر تحيض، لقد فطنت لها ذات يوم، صاحت في الأستاذ متململة في مقعدها : "أريد الخروج"، قال لها الأستاذ : "لماذا؟"، فصرخت فيه ثانية بوجه محمرٍّ وهي نصف واقفة : "يجب أن أخرج"، فأذن لها، ثم تجرؤ وتهزؤ بي هي التي راحت تلمِّح للأعضاء التناسلية، لا يحق لك - بل حرام عليك - أن تدّعي الطُّهر والنقاء بعد ذاك القول، إنه

أشنع من القيء بألف مرة، ولذا سأقيء ولن أكترث لأحد فأنتم لستم بشرا في نظري، أنتم صراصير وذبابات، وهل يستحي إنسان من قضاء حاجته تحت أعين الذباب؟... بععع.... كلا، بل سأفعلها نكاية فيكم، سأقيء عمدا، سآكل حتى التخمة لا لغاية سوى... بععع".

تركتُ وليد بكلامي فاغر الفم، متقلِّص الأنف، ملتوي الوجه في قرف : "لدي تعليقان على هذا، سأبدأ بالجيد، ألم تلاحظ أنكما متماثلان كنصفين، كجسد وانعكاسه، كوجهين لذات العملة، هي خالد ولكن النسخة الأنثوية، وأنت النسخة الذكرية من هاجر، ويا للعجب! النسخة الذكرية هزيلة خجول، هامسة وخنوع، والنسخة الأنثوية صريحة جريئة جهوريّة متمردة، وأنت ماذا تبغض فيها؟ الجسد، وماذا تحب فيها؟ القريحة، وهي ماذا تحب فيك؟ القريحة، وماذا تحتقر فيك؟ الجسم، أنتما متماثلان، نصفان متناظران لنفس التفاحة، نفس البرتقالة، نفس الوجه، فكأنما خلقكما الله لبعضكما، مقدّر لكما أن تلتقيا وتعيشا معا، فكما تلاصق وجها العملة، فعليكما أن تتلاصقا أيضا... بالزواج، بالطبع، هذه نظرة مبسّطة، ولو وضعنا التفاصيل في الحسبان، فيجدر بنا أن نشير إلى أنها عادية المظهر، كتلة هلامية رخوة لا يميزها شيء، أما أنت ف"غول كوابيس العنساوات" هههه... وهي موهبتها شمس ساطعة، وأنت موهبتك هلال شاحب، وهي عثة كتب، وأنت فراشة تموّه نفسها بهيئة العثة".

حملقتُ فيه مشدوها، إنه على حق.. في بعض ما قال، نحن توأمان متطابقان تمخّض عنا رحم واحد، رحم الإبداع الذي يفيض بالإلهام، ولكنه أخطأ في شيئين، "أولا، وجها العملة مختلفان تماما، ثانيا، لا هي شمس ولا أنا قمر، بل هي كوكب وأنا كوكب آخر، كوكبها مفروش بالزهر والحرير، هواؤه مسك وعبير، ماؤه عسل ونبيذ، الذئب فيه يرعى جوار الحمل، أما كوكبي فمفروش بالعظام والعظايا، هواؤه أنفاس تنانين وأنسام جثث، ماؤه سوائل لا اسم لها، نصفها غريب النكهة، ونصفها مقرف الطعم، الذئب فيه يأكل الحمل، وربما يستحيل الحمل وحشا فيفترس الذئب، أنا أنزع إلى الرعب والفانتازيا والكوميديا السوداء والغرائبية السريالية أكثر و....

قاطعني غير مكترث لحديثي : "أنت أحقر 'إنسان' في العالم، هذا هو تعليقي الثاني، الأكثر إثارة للشفقة على الإطلاق، بل أنت لا تنتمي للبشر، فمكانك بين الحيوانات، بل رتبتك دنيئة حتى بينها، فأنت أدنى من البطاريق، والعصافير، والنعام، والنحام، والقرود، والخيل، والحمير، والبغال، سأضعك بين الضبع والخنزير، مهلا، الخنزير ذاته قد يكون أرقى من...".

قاطعته في برود جليدي : "لم أعد أحتاجك".

توقف عن الكلام وسأل: "ماذا؟... آه، تقصد أنك ستقتلني الآن لأنك أنهيت قصتك، تريد أن تخيفني أيها الصرصور المثير للشفقة، ولكني لا

يخيفني الحتف، حتى أنت ستلقاه يوما، وآمل أن تلقاه حين يكون هائجا متجهما، لذا لن أستجدي ولن أتوسل لتبقي على..".

بترتُ كلامه ثانية: "إليَّ يا داغر".

"أمرك مولاي".

تجلّى خادمي العفريت أمامي قبل أن يرتدّ لي طرفي، تمثّلَ في صورته المعهودة، قرد صغير كالذي يعتلي أكتاف القراصنة، تسلّق ظهري واثبا ليتربع على كتفي الأيسر، ووشَّح عنقي بذيله، وشمخ برأسه كي أداعب ذقنه فهو يحب ذلك أكثر من القطة.

قلتُ له ملتفتا نحو طبيبي وليد، الذي كان يرتجف هلعا حتى راحت قوائم المقعد تهتز، جحظت عيناه، واصطكّت أسنانه، وتلعثم متوسلا : "لا، ليس داغر، أرجوك سيدي، ليس داغر، سأقبّل حذاءك، سأفعل أي شيء تطلبه، اصلبني، أحرقني، ولكن أتسول إليك لا تتركني لداغر".

نزلت كلماته على غيظي الكظيم كمطر خفيف منعش فأنبتت تربتُه السوداءُ الفاحمةُ أشجارَ ضريعٍ وزقُّومٍ داخلي أضرم حطبها جهنما متلظّية مستعرة بخّرت رحمتي وشفقتي، فلم تبق سوى القسوة والوحشية، قلتُ لداغر : "اقتله".

فكشّر داغر وزمجر، ثم وثب عاليا ليحُطّ على المكتب، امتقع وجه وليد، وصاح مثل امرأة تضع، وحين استدرتُ كان داغر قد تضخّم وتعاظم حتى

اقتلع السقف وأزاح الجدران؛ استحال وحشا هائلا مُشعّرا، مخالبه تشطر أضخم دب، أقدامه تسحق أكبر فيل، أنيابه تجعل قضمة القاطور تبدو عضعضة هريرة، غادرتُ الغرفة دون أن ألقي ولو نظرة واحدة على إعدام طبيبي وليد، مشيتُ الهوينى أتلذّذُ بأنغام العذاب التي لاحقت آذاني تدغدغها؛ طقطقة عظام مكسورة، صيحات عذاب مسعورة، نهش ونبش، تمزيق وتقطيع، مضغ وبلع، تملظ، باختصار، افتراس!
سيمفونية الجحيم. واستسغتُ أيضا الرائحة التي أفعمت أنفي، رائحة بول كريهة نفاذة، شعرتُ بالقرف ممزوجا بالانتقام، مثل تيريون حين قتل أباه.

مشيتُ عبر دهاليز عقلي، ومررتُ بقاعة اجتماعات شركة "جحيم المجرمين"، حيث كان الموظف جون يُشاهد موته للمرة الخمسين، ثم دخلتُ الغرفة الموالية لها، سرعان ما انبثق مكتب وسطها، وسقط كرسي أسود دوّارٌ من السقف، وتشكّل عليه طبيبي النفسي الجديد حسب مواصفاتي، قزمٌ يتسلّقُ الكرسي تسلُّقا، خرِعٌ خنوع، ضعيف الشخصية، مذعور كالأرنب، خجول كالعذراء، يصغي ولا يقاطع، ولا يتكلم إلا حين يسؤل، هذا هو طبيبي النفسي المثالي، واسمه عمر...

- عمر، أنصت جيدا، سأسرد على مسمعك أحلاما، سيأخذ ذلك حوالي ثلاثة وثلاثين دقيقة وحوالي اثنين وعشرين ورقة لو فُرِّغ تسجيل الجلسة على الورق، فإياك أن تنام، وإياك أن تتكلم، أو حتى أسمع لك نفسا واحدا، لو سمعتُ حركة واحدة منك فسأستدعي جلّادي داغر

كاد عمر يفقد وعيه لذكر الجلاد، ارتعد وجفف عرق جبينه بمنديله، ثم ازدرد ريقه فاضطربت حرقدته قبل أن يقول : "ح-ح-حاضر يا مولاي المبجل".

ما سأقصُّه على مسامعك الآن أضغاث أحلام، هذا ما سيقوله الكهنة، ولكن يوسف عليه السلام - ليس يوسف زميلي - وابن سيرين قد يكون لهما رأي آخر، سأقفز بين الحقيقة والخيال، بين الكوابيس والأحلام، وكذلك أحلام اليقظة.

خُذ نفسا عميقا، اغطِس، غُص، اغرق.

هيت.. هيت.. هيت.. هيت.. هيت.. هيت.. هيت.. هيت.. هيت..

راح صدى الكلمة يتردّد في عقلي، كان ذلك نذير شؤم، أحسستُ به كما يستشعر سبايدرمان الخطر المحدق. تلفّتتُ حولي فلم أر إلا الأسود، تلمّستُ عيناي، إنهما هناك، ترمشان، وتغمزان، ما بهما سوء، لابد أني في نفق دامس يمتد من أمامي وخلفي إلى ما لا نهاية، الظلام يجثم علي، وينزلق تحتي، ويخنقني من خلف ويضمُّني من أمام، لقد ابتلعني، وأنا الآن في بطنه، في بطن الحوت.

مشيتُ، وهرولت، وركضت حتى تيبّس فمي، وأوشك على الموت قلبي فأخذ بما تبقّى له من نفس يلعنني، لا مهرب، لا مناص، لا نور، ولو حتى بصيص، لا صوت، ولا حتى همسة، سأرحّب بضوء قطار وصفارته حتى، أصرخ وأصيح وأعوي، أصرخ كالغريق، أصيح كالثكلى، أعوي كالأرملة، ولكن لا جواب فما من مجيب، الظلام يلحس صرخاتي في شره، جثوتُ وأجهشتُ

بالبكاء، لكم من الوقت ركضت؟ أين أنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ وكم سأمكث؟ فجأة ترامى إلى آذاني صوت بعيد يدنو...

غمغمة، صارت همسا، ثم أصبحت كلاما، ثم باتت صياحا، صياح كالذي تطلقه ساحرة شمطاء مجنونة، صياح مرعب يردد : "هيت لك! هيت لك! هيت لك! هيت لك! هيت لك!".

تلفّتت فإذا بي أرى بصيص نور، وأسمع صفارة قطار خافتة، لم يجلب النور الراحة، بل ساق لي... "ما هذا بحق اللعنة؟!"، قلتها في فزع، ووثبتُ هاربا متعثرا متخبطا لأنجو بحياتي، لقد انقلب الحال من ظلام موحش إلى نور يؤوي الوحوش، انزاحت سدائل الظلمات لتكشف عن...

زحفتْ وفحت وهسّت : "هيت لك.. هيت لك.. هيت لك"، عيناها الميتتان القاسيتان القارستان المقسومتان بإبرتين سوداوين كعيني تمساح مسمّرتان على قفا عنقي، لسانها المشقوق يتدلّى متثنيا متأرجحا ينثر لعابها ذات اليمين وذات اليسار، ناباها السيفان المعقوفان الماضيان متلهفان للغطس في جلدي والغوص في لحمي، هل خمّنتَ أيَّ وحش يلاحقني؟

أفعى عملاقة هائلة، زحفت بشكل دوراني حلزوني كلعبة القطار الأفعواني، تتسلق سقف النفق ثم تنزل وتزحف على السكة ثم تتسلق مجددا، تلفُّ وتلفُّ وتلفُّ في سرعة مهولة، تنعطف وتنحرف وتهوي من على يميني، تخطئني، فتنزل من على شمالي، لتنهش الفراغ حيث كان رأسي قبل

لحظة، تفعل كل هذا وهي تفحُّ بصوت عال : "هيت لك.. هيت لك.. هيت لك"، فيكرِّر الصّدى وراءها كجوقة عزرائيلية، وأنا أهرب راكضا بأقصى سرعة كأني أفرُّ من ياجوج وماجوج، جريتُ بسرعة حتى جعلت ظلي يكافح ليلحقني، فيتوقف خلفي مستسلما، وينحني مستندا على ركبتيه وهو يلهث كالغريق أو المريض بالربو، يلوِّح لي أن "واصل، واصل، سألحق بك فيما بعد، دعني فقط ألتقط نفسا واحدا"، كانت قدماي تهرسان وجه الأرض، ولكني شعرتُ بأني أرفرف وأطفو في الهواء كشبح؛ شبحٍ هلعٍ يخاف أن يندثر ويتلاشى للأبد، كان فكَّاها على قاب قوسين من رأسي، أحسستُ بأنفاسها الجائعة على رقبتي، أدركتُ أني على قيد شعرة من الموت، رحتُ أتخبط وأتعثر فأسقط وأجرح لأنهض في اللحظة عينها غير مبالٍ بدم ولا ألم، وأخذت الأفعى تنقض وتعض، وتكشر وتزمجر، وتهسُّ وتفحُّ، حتى عرفتُ شعور المتعذّب في قصة "الحفرة والبندول" لإدجار بو، أن يدنو منك الموت حتى تشُمّ أنفاسه الكريهة، ثم يلتفت عنك ثم يرجع إليك وهكذا دواليك، دورة عذاب تفتِّت الأعصاب.
احتشد الظلام أمامي بآلاف الثعابين والأفاعي، والمسوخ والوحوش، كلها رابضة تتربص كالفخاخ الحديدية لتنقبض على قدماي، وتتكالب علي، وتتقاسم مُزقي، وامتدتّ آلاف الأيادي نحوي؛ أيادٍ لزجة، أيادٍ مشعرة، أيادٍ مخلبية تقبض علي وتتجاذبني وتدفع بي صوب الوحش العاصر.

فجأة شعرتُ ببلل لزج على عنقي، والتفّ شيء كالحبل حول رقبتي، ليس كمشنقة وإنما كقلادة، وأضاء مصباحٌ من اللامكان، فرأيتُ وجه وجسد

جنية ضئيلة- لو كان الإغراء أخطبوطا أو حرباء لتحوّل إلى شكل وجهها - يتمايل راكبا صهوة لسانٍ؛ كان الجسد متصلا ملتحما بلسانِ الأفعى الوردي الطويل...
وثبتْ على ذقني وتعلّقت به، وهي تردد هامسة تارة صائحة تارة : "هيت لك.. هيت لك"، وغمرت فمي بالقبلات، أحبك.. أحبك.. أحبك، بصقتُ على وجهها، ولكنها مسحت البصقة بكمِّها ولعقته ثم رجعت لشفتاي، انعرجتُ وانعطفتُ، وقفزتُ وانحنيتُ، وحبوتُ وزحفتُ، ولكن الفاجرة ظلت لصيقة بي، كأنها استبدلت ظلي، كأنها صارت ذيلي، أخذت تمطرني بوابل آخر من القبل، توقفي!.. توقفي أرجوك!.. توقفي عليك اللعنة!

فتحتُ فمي عن آخره (فلمحتْ هي لساني وانحنت عليه تلعقه وتمصُّه) وقضمتُ رأسها وكتفيها ونحرها، تلوّى اللسان وهسّ متوعِّدا، ولكني لم أفلت، سال الدم على لساني، وصاحت الجنية متوسلة إذ أغرقت الدماء صدرها، وانهمرت عليه كالشلال إلى بطنها، ولكني لم أرحم ولم أشفق، بل رحتُ أنهش وأعض وفجأة... اختفوا كلهم، الجنية الساقطة، وحاملها اللسان المتلوي، وحاملته الأفعى العملاقة، وتعالت صفارة القطار.. تووت.. تووت.. صفارة بريئة تبشِّر بموتة عاجلة...

كنتُ قد شاهدتُ فيديوهات لأناس كانوا يستكشفون الأنفاق فداهمهم قطار ليبدؤوا بالجري والركض كالمجانين لينجوا بحياتهم، وكنتُ قد قرأتُ قصة "الجثمان" لستيفن كينج حين وجد مجموعة صِبية نفسهم في موقف مماثل، ولكن ليس من قرأ ولا من شاهد كمن عاين، وقد تأكدتُ

من صحة هذه الحكمة حينها، التفتتُ لأرى القطار إذ برز مندفعا بصفارته التي راحت تنفث البخار في سعادة، إنه أفعى أخرى، أفعى حديدية عملاقة ستدهسني تحت بطنها، وتزحف عليّ فتسوِّيني بالأرض، رحتُ أجري وألهث، وأجري وألهثُ... وفجأة سمعتُ ضحكة، ورأيتُ شيئا يُقذف به، التفتتُ ثانية إلى الخلف فقابلني وجه هاجر هناك ملتصقا برأس عنكبوت رابض على القطار، أرملة سوداء ضخمة، التمعت عيونها الثمانية اللعوبة، ورقصت حدقاتها برشاقة لاعبات الباليه، غضضتُ البصر، فلم يكن لدي وقتٌ أصلا للنظر، أنا على عتبة الموت، قدمٌ في الدنيا والأخرى في الآخرة! كنتُ لأستعطفها وأتوسل رحمتها، بل وأفشي لها مكنون كتاباتي كلها، ولكن هل يستمع القطار؟ راحت تصرخ فيّ : "توقف، توقف وقبِّلني، توقف وعانقني، توقف و..".

وهشّمت بسيقانها المشعّرة الغليظة نوافذا في القطار، وراحت تجذب المسافرين من تلابيبهم، وتشكل بخيوطها مقاليعًا لترميني بهم، دنت صيحة امرأة محلِّقة عالية قبل أن تهوي أمامي مهشّمة العظام، قفزتُ فوقها متجاوزا، وسحبتْ أحذيتي خيطا من دمها، رجل آخر سقط على يميني، وآخر على شمالي، هممتُ بتجاوز جثتيهما (حينها كان عقلي يصيح في جنون وهو يضغط على صدغيه وقد شارف على الانهيار : ماذا يحدث بحق اللعنة؟! ماذا يحدث بحق الجحيم؟!) ولكن حذائي زلّ في الدم فهويتُ على ركبتاي ويداي، وشعرتُ بظل ضخم يجثم فوقي.. هيت لك.. هيت لك.. هيت لك..

قدّت قميصي من خِلافٍ بساقها المسنّنة، ثم قلبتني وهي تقول من بين فكيها : "أنا آكل أزواجي بعد معاشرتهم، لذا عليك أن تتصرف كما لو أن هذه ليلتك الأولى والأخيرة".

أردتُ أن أصرخ فيها : "امنحيني نصف فرصة وسأشقُّ حلقك أيتها ال..". ولكنها جذبتني إليها فجأة بساقها تُنهضني على قدماي، وإذا بي واقفٌ في القسم!

انتقلتُ آنيا كما يحدث في الأفلام حين يقطعون من مشهد لمشهد آخر، كانت هاجر واقفة إلى جواري تسأل في هستيريا وهي تلوّح بيدٍ في الهواء، وتمسك بالأخرى رسالتي : "أنا لحوحة؟! أنا لحوحة؟! أنا متطفلة؟!". نظرتُ إلى سلة المهملات الواشية، أيتها الواشية القذرة، ثم نظرتُ في القسم، كيف وصلتُ إلى هنا؟ أكان ذلك كابوسا؟ قطعًا كان كابوسا، ولكنه واقعي لدرجة مخيفة، نظرتُ إلى هاجر التي تناثر لعابها إذ رغت وأزبدت، إنها غاضبة حقا، كان قرار حذف سطر الانتحار حكيما، ولكنها حاولت التحرش بي قبل ثانية فقط، أنا من عليه أن يغضب، هاتي رسالتي (مددتُ يدي أنتزعها) أيتها ال... أدركتْ هي أني سأختطف الرسالة، فسحبتها بكفيها بشدة، وأنا قابضٌ على طرفها، وولّتْ لي عقِبها إذ فعلت، فجذبتني مع الرسالة حتى كدتُ أقع على ظهرها، حمدا لله أنني استعدتُ توازني في اللحظة الأخيرة، وإلا كنتَ لتسمع اسمي في لايف متّهما بالتحرش الجنسي ببنات المسلمين فيما أنا غافل أبتاع الخضروات في السوق. كما تنبأتُ تماما، إنها فضيحةٌ مجسّمةٌ، جالتْ عيناي عبر القسم فإذا بأعين الفتيان

والفتيات كلها مغروسة علي، نحن على خشبة المسرح، والأضواء الساطعة مسلَّطة علينا، فتى يتشاجر مع فتاة، أهي حبيبته؟ أتلك رسالة حب؟ هل عاكسها؟

قرأتُ الأسئلة في عيونهم، فاسودّ وجهي غيظا وصرختُ فيها : "أيتها النذلة الحقيرة، لماذا تتحرّشين بي في المنام؟ لماذا تحشرين وجهك في كل ركن من حياتي؟ تفسّرين كلماتي، وتستجوبينني عن كتاباتي، وتسرقين رسائلي، والآن تُقحمين نفسك في أحلامي؟".
تعالى تسونامي عارمٌ من الشهقات، وترنّحت الجدران دائخة، وتراجعت الكراسي مصدومة، وراح المكتب يصفِّر متظاهرا بأنه لم يسمع ولم ير شيئا، أما هاجر فقرعت على الطاولة مغتاظة، وإذا بي في منزلي أمشي نحو الباب لأفتحه، انتقلتُ ثانية؟! قفزت عبر الزمن والمكان؟! ما الذي يحدث برب السماء؟! رأيتُ أصص النبات، ودراجة أخي إلياس النارية، وسيارة أبي المركونة في المرآب، مشيتُ خلفها، وقطعتُ دهليزا جانبيا محاذيا للمرآب لأفتح الباب، ويا للهول!

لقد كانت هي، واقفة على العتبة في حجابها وخمارها الأسودين، كانت في البدء "مليحة في الخمار الأسود"، ثم حين خلعته أضحت دميمة فلكأنما كان الجمال مكنوزا في الخمار، مهلا، هذا لا يهم الآن، فهاجر زميلتي في الجامعة قد جاءت للمنزل.. يا للمصيبة!.. يا للكارثة!.. إنها الطامة الكبرى! سيسلخ أبي جلدي عن عظمي لو رأى هذا.. صرختُ فيها فيما أماطت

خمارها كاشفة عن ابتسامة واسعة فظيعة : "ماذا تفعلين هنا أيتها المخبولة؟!".

قالت : "أهذه تحية لائقة بين العشاق؟ صحيح أن هناك مجنون ليلى، ولكن ليس من اللائق أن تنادي حبيبتك ب...".

صاحت أمي من الطابق السفلي : "من القادم؟ أهي الجدة خديجة؟".

توقف قلبي لبرهة ثم عاد ينبض مجددا، فلعنته، كان عليك أن تنقذني من حزام أبي بنوبة قلبية فلماذا لم تفعل أيها الخائب الفاشل؟ أجبتها كاذبا مرتبكا : "إنه.. إنه صديقي.. صديقي.. إدريس".

- لا تكن بخيلا هكذا واستقبله في الصالون، سأعدُّ لكما الشاي

أنصتت هاجر معي ونظرت لي نظرة عابثة تنطق "أيها الكاذب"،ثم ابتسمت في انشراح، وتقدّمت وهي تقول : "قبلتُ الدعوة، السيدة أمك كريمة حقا، ولكن أولا...".

- لماذا جئتِ؟)).
- لأني أخيرا أدركتُ فحوى رسالتك، أنت تحبني

أخذ عقلي يهشم الحواسيب، ولوحات المفاتيح داخل دماغي في هياج، ونفرت أعصابي تريد الهجرة عبر حدود الصدغين، أما عيناي فقد اتّسعتا متثائبتين وهما تقولان في ملل : كم مرة علينا أن نفعل هذا؟ حياة هذا الأبله صدمة وراء صدمة، ونحن بين شخوص وجحوظ، لقد سئمنا، ليتنا

كنا عيني ياباني، وأردفت العين اليسرى : ليت أحدهم يفقأني بحجر، حينها سأرتاح. فنصحتها أختها : لا تفقدي الأمل في الحياة، إنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، فأجابتها وهي تزفر : صدقتِ يا أختاه، ربنا أفرغ علينا صبرا.

أخيرا حين تمكنتُ من الكلام قلتُ : "م-م-ما-ماذااا؟!!))، ثم التقطتُ نفسا وصرخت فيها : "كل ما كتبتُ فيها أن تكُفي عن إقحام نفسك في شؤوني، ولم أذكر الحب بتاتا".

فقالت : "أعرف، ولكني تذكرت أنك خجول ولن تصرِّح بشيء مثل هذا فقرأتُ بين السطور ".

قرأتِ بين السطور؟!.. أواثقةٌ أنك لم تجدي بينها الانتحار؟!
سمعتُ أمي تصعد الدرج وتقول : "ها هو الشاي يا خالد، لقد كان جاهزا بالفعل".

ثم أقدمت هاجر على فعل صادم فلم أعرف لمن أستجيب، اسألني يا عمر ماذا فعلت".

سأل الأرنب المذعور : "م-م-ماذا فعلت يا م-م-مولاي؟".

ضمّت شفتيها ومطّتهما نحوي مشكِّلة بهما حرف O أحمر، سألتها في ذهول: "ما الذي تفعلينه؟".
فأجابت بسرعة ثم ضمّت شفتيها مجددا : "هيا، قبِّلني، هلم، لا تخجل".

حلم الأفعى والعنكبوت يتحقق، إنها تتحرّش بي على عتبة داري، وعلى مشهد من أبي وأمي وإخوتي، تلفّتت يمينا وشمالا فإذا بالمارة القلائل يرمقوننا في شك؛ امرأةٌ وفتاة، ورجل وشيخ، كلهم حدجونا مستنكرين، لمحتني أمي واقفا على العتبة فاقتربت : "ماذا تفعل هناك؟".
كانت هاجر على وشك أن تستحثني بصوتها المتنهد مجددا. لو كنتُ يوسف عليه السلام لقلتُ "معاذ الله" وولّيتُ هاربا، ولكني لستُ يوسف، أنا خالد، قبضتُ على شفتي هاجر، وكنتُ أنتوي أن أرفعها بهما عن الأرض، وأُديرها مرتين في الهواء، ثم أقذف بها في مكبِّ قمامة، ولكن الشفتين حملتاني كخرطوم فيل يلهو بعصا، وهوتا بي على جدار المنزل بسرعة شديدة، فتحطّم الجدار وتحطّمت أضلاعي معه، ونفدتُ خلاله لأرتمي على... سرير أنا جالس!

مهلا، ما الذي كنتُ أرى؟ أكنتُ أحلم؟ أحسستُ بشعرات طويلة تزحف بنعومة الأفاعي على خدي، وشعرتُ بشيء يلتفُّ حول ساقي (أفعى أناكوندا؟)، رفعتُ رأسي بغتة فإذا بي أُصدم لما أسمع وأرى، سمعتُ صوتا من فم قريب - قريب جدا حتى توهمت للحظة أنه فمي - يحتجُّ بخفوت على حركتي المفاجئة، ورأيتُ ساقي مستلقية بجوار ساق أخرى، وكلاهما على سرير مزدوج، وأبصرتُ أظافر قدميَّ القاسية جوار أظافر أخرى مقلّمة مطليّة، تأملتُ الساق جوار ساقي في ذهول، إنها نحيفة رشيقة وربلتها هزيلة، لا أصدق، هذا لا يصدق، ما الذي يحدث بحق اللعنة؟!.. لا، لا

يمكن أن يكون هذا ما أفكر فيه.. هل.. هل.. هل نمت لي ساقان إضافيتان مثل القنطور؟!

ثم قال الصوت القريب مجددا : "ما بك يا زوجي؟.. هل أخذتك غفوة فراودكـ كابوس؟".

مهلا، أنا أعرف هذا الصوت.. التفتتُ فإذا هي هاجر، تنظر إلي بعينين متساءلتين، باسمة في براءة، متكئة على كتفي، ساقها جوار ساقي، و.. ارتفعت راحتها فجأة (مهلا، إلى أين؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أأنتِ قادمة؟! آه، ياللمصيبة! إنها آتية) وحطّت على وجنتي تُملِّسها، كدتُ أقع من على السرير، وحطّم قلبي رقم قلب الفهد الصياد القياسي، أردتُ أن أصيح حتى أبُحّ، ولكن الصدمة خنقت أنفاسي.

قالت : "لن تجيبني؟.. كالمعتاد، دائما صموت سكوت، ظننتُ أني سأغير هذا فيك حين تزوجنا، ولكني ممتنة للزواج بك مع ذلك، لم يكن أي رجل ليمنحني هدية مثل هذه.."، ولوّحتْ بكراس في وجهي، "... في عيد ميلادي الثلاثين".

ثم قالت وهي تضحك فيحمرُّ خدّاها كإجاص يانع : "قصتك البديعة الساحرة هذه عن القرصان الإيطالي الذي يجوب العالم بحثا عن جوهرة "النجم الوضّاء" الأغلى من الألماس ذاته ليقدِّمه عربون زواج لخطيبته مُجابها في سعيه لذلك الأخطار، مواجها الأهوال من البشر والوحوش على حد سواء هي أفضل قصة قرأتها لك حتى الآن".

ابتسمت هي فيما جاش صدري بِحيرة عارمة، أنا كتبتُ قصة عن قرصان إيطالي يبحث عن جوهرة نادرة ليقدمها مهرا لحبيبته؟! هذا أسخف مسعى سمعته في حياتي، يُلقي بحياته إلى الهلاك ولأجل ماذا؟ فتاة لعينة ما يرغب في أن ينال قبولها، لو كان هذا القرصان قرصانا حقا لانتحر من العار، القصة الوحيدة التي كتبتها عن القراصنة كان الثأر والجشع هما الدافعان الوحيدان فيها، أما الحب الرومانسي فلا يظهر إلا باهتا لا لغرضٍ إلا ليُنبذ ويُنفى مشيّعا بالبصقات.

قالت وهي تعبث بشفتاي - سأقضم أصابعكِ! نويتُ ولكن لم أستطع فعلها، شيء ما شلّني - : "الزواج بك هو أفضل قرار اتخذته في حياتي، كدتُ أرفض لأني لمحتُ في أول نظرة فقرك وضُعفك، ثم قلتُ لنفسي ارجعي البصر كرتين وتخطِّي المظهر، فألقيت النظر مرة أخرى، ورأيتُ خيالك الخصب، وإلمامك باللغة، وشغفك بالمطالعة، كنتَ شبيهي، نظيري، نصفي الآخر، فقبلتُ رغم اعتراض أبواي، وقلتُ لهما خديجة تزوجت النبي محمدا فقيرا فلم لا يجوز لي أن أحذو حذوها؟ وها نحن هنا بعد عشرة أعوام، متَّعتني طوالها بقصصك ومتعتك بقصصي، تقايضناها، وتبارينا كل شهر وكل سنة، كل شهر كانت هناك منافسة أفضل قصة قصيرة، وكل عام مسابقة أفضل رواية، على أن ينفِّذ الخاسر شروط الفائز، أتذكر حينما تحديتك إن فُزت عليك أن تملأ من أجلي كراسة 300 صفحة بقصائد الغزل رغم أني أعرف أنك تبغض ذاك الصنف من الشعر، وخسِرتَ فسِرت

وقد صرتَ أسيرًا إلى مكتب، وفتحتَ الكراس كسيرا مهزوما، ضحكتُ كثيرا إذ لعنت ساخطا عند مطلع كل قصيدة جديدة، أتذكر ذلك؟".

ما الذي تتحدثين عنه؟! أهي واثقة أنني زوجها؟ ربما سقطت روحي في الجسد الخطأ، هل هذا أنا في بعدٍ موازٍ؟ أتزوّجَتها نسخةٌ مني؟ محال أن أتزوج هاجر، ليس بعدما قالت ليوسف، بل مستحيل أن أتزوج أي فتاة، استحالة أن يبيض الديك أو تركض الأفعى أو تمسح شجرةٌ بمنديلٍ دموعها أو يُنسى ماضٍي بغيٍّ، هل هذا كابوس؟ هممتُ بأن أردّ : أنا لا...

- أذكر، أجل، أذكر هذا جيدا، هههه، ولكني نلتُ منك في العام الذي تلاه، حينها طلبتُ منك أن تكتبي قصيدة ألفية تعترفين فيها بأن تعبيري أحسن، وإلقائي أفصح، وفكري أعمق، وعلمي أوسع، وقوتي أكبر، ووجهي أوسم، وموضتي أرقى.

استمعتُ إلى شفتيَّ إذ ترتجلان دون إملاء مني، أنا لا أتحكم فيهما، لساني يتمرد علي، فمي كله خرج عن السيطرة، ما هذا الذي يقوله لساني؟ ذكرياتُ من هذه؟ أأنا روح دخيلة في جسد شخص آخر؟ أأنا طفيلي وهذا مضيف؟

انفجرت هاجر ضحكا حتى فاضت دموعها، وراحت تضرب فخذها وفخذي (سأقضم يدك بأكملها!) ثم قالت وهي تلتقط أنفاسها : "آه، أذكر ذلك، كان ذاك مغيظا حقا، شعرتُ كما لو أني أمةُ قلمٍ، كأني أحد الشعراء المتملقين الذين يمدحون الخلفاء لدرجة التأليه أحيانا، آه، يا للذكريات!

ولكن لم يكن أحدنا ليعترف بنُقصه، كلانا مبليٌّ بالنرجسية وجنون العظمة حين يتعلق الأمر بالقلم، ولذا كنا نحتكم إلى الأستاذ زكرياء، أفضل أستاذ على الإطلاق"، أومأتُ موافقا لأول وآخر مرة، "وكان يزورنا كل شهر، فأعدُّ له القهوة، وآمر الطباخة لتولم له لحم الظبي لهذه الزيارة الميمونة، رغم أني أعرف ندرته وغلاءه، ولكن الأستاذ يستحق، وكنتُ أذكِّرك بأن تُلِحّ عليه لتستبقيه للعشاء مهما تعلل وتعذر"، وقاطعتها قرعة واثقة على باب الشقة.

ووجدتني أفتح في خطفة البرق، كأنما حُملتُ للباب على كتفي جني سليمان عليه السلام الذي قال" أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك"، ومن الطارق غير الأستاذ زكرياء.

عانقني حتى أخذت عظامي تطقطق محتجة، غمر صدري الانشراح حتى تناسيتُ للحظة أني في كابوس، واستقبلته، وجلسنا في الصالون، وراح يتأمل هو معي في غبطة المكتبة العملاقة التي قبعت أمامنا كالوحش، اصطفّت على رفوفها كتب تجلو على الإحصاء، أهذه مكتبتي؟!

- ما شاء الله، ما شاء الله، لقد خصّصتَ رفًّا لكل كاتب، طه حسين، العقاد، أحمد أمين، الرفاعي، أنيس منصور؟

سألتُ مندهشا : "ألم تقرأ له بعد؟ لقد فاتك الكثير، فهو سهل العبارة، ومبدع في الاستعارة والتشبيه، أرشح لك أن تبدأ بسيرته الذاتية عن العقاد بعنوان "في صالون العقاد كانت لنا أيام"، فكتابه ذاك خليط فني فريد من

المذكرات والقصص والحوارات، جمع فيه بين الجد والهزل، ينقل إلينا فيه ما دار في صالون العقاد من نقاشات حامية، قدّم العقاد بطريقة كوميدية فحبَّبني إليه وأنا لم أقرأ له بعدُ حتى، كيف يقول "يا مولانا"، وكيف يفحم أي أحد يدخل معه في نقاش، فيلهبه بالردود حتى يُفنيه فينفخ رماده بعدها بعيدا، حتى أني أجسر على أن أقول أني أفضِّلُ صورة العقاد في ذاك الكتاب على العقاد نفسه".
نظر لي الأستاذ متعجبا : "حقا؟ حسنا، سأقرأ له إذن وأرى".

ثم جلبت هاجر صينية القهوة، وحيّت الأستاذ من وراء حجاب، وجلستْ خلف الباب تسترق السمع لصوته العذب إذ يقول : ".. أكبر إنجاز للأمة أن يخرج من أعطافها نخبة من الشباب الصالح البارع، كلٌّ متمكن في مجاله، هذا عالِمٌ في العقيدة وذاك علّامة في الفقة، وهذا نابغة في التاريخ، وذاك مغوار في القتال، وهكذا.. فعلى الجيل السابق أن يمهِّدَ الطريق للجيل اللاحق ويُيسّر له السُّبل، وإلا فكيف تُبنى الحضارة؟ وما الحضارة إلا تراكم العلم وثقافة الأجيال، وما نحن إلا شرذمة أنانيين بخلاء ضيقي الأفق إن تركنا أبناءنا وأحفادنا ينطلقون من الحضيض وورّثناهم هذه العادة ففعلوا المثل مع أبناءهم وأحفادهم، فعلينا توفير الدعم، ولكن في هذا الزمن قلّ من يدعم، أتذكر أني قلتُ لك حين كنت شابا في مقتبل العمر : كن عصاميا واعتمد على نفسك، وامض ولا تلفتت لأحد إن لم تجد من يعينك، ثم أني كنت أردد على مسامعك كيف كان الأدباء في مصر من روائيين وشعراء، حين كانت المعارك الأدبية تندلع بين العقاد وطه حسين ومصطفى

صادق الرافعي و..و..و..، كنت أرمي لغاية ألا وهي أن أشعل الشّرارة في قلبك، فانظر بعد عشر سنين أين أوصلتك نصائحي وحكاياتي بعد الله طبعا، لقد سجّرتُ في قلبك بركانا لا شمعة، سبعون رواية وكتابا تقطّرَ بها قلمك، إنتاج غزير وثمين فعلا، بالمناسبة، قرأتُ آخر قصتين قدمتماها أنت وهاجر، ومع ما بيننا من صداقة حميمة إلا أن علي مصارحتك، قصتها أجمل بكثير، لقد أبكتني".

كنت أمتاز غيظا في مجلسي، فيما راحت هاجر ترقص من الزهو في الخارج حتى كادت تفلت صيحة فرح، رحتُ أسبُّ ال"خالد" الذي أشاركه الجسد، كيف سمحتَ لزوجتك بالتغلب عليك أيها الذليل؟ ثم فكرتُ : لقد أبكته هي مرتين، أو ربما مرارا طوال هذه الأعوام المزعومة، وأنا لم أجعله يذرف ولا دمعة، وشدة الاستجابة برهان على وقع الكلمات، فكلماتها إذًا أروع وأقوى.

وقال خالد الآخر : "وجدتُ غريمتي فأُغرمتُ بها وتزوجتها.."، أيها الدّيوث! أنسيتَ ما فعلتْ مع يوسف؟! "فأبقت شُعلتي متَّقِدةً، وريشتي مشحوذة، في ميدان الأدب الخامد هذا كنت لأنطفئ لولاها"، لو كنتَ كاتبا بالفطرة لما انطفأت، وهل تنطفئ اليراعة إلا حين تحترق؟

"كنتُ أفتِّش عن خصم جديد، ولم أجده في أصدقائي ولا في أقاربي، بل وجدته غريبا من جنس آخر، فتمردتُ على عُقدتي، ونبذتُ تعصُّبي وتحيُّزي، وأعلنتُ الرِّدة على نفسي بالزواج منه، وغرستُ بذلك جنّتي، دانية القُطوف

متى اشتهيتُ قتالا امتشقتُ قلمي وتحدّيتها، ومن عجبٍ أني أُغلَبُ أغلبَ الأحيان فأرجع مجرجِرًا خلفي سيفي المكسور، ولكني أصلحه وأنزل لأنازل مجددا، أريد أن أسألك سؤالا أستاذي، لماذا لا تكتب وقد أوتيتَ العلم والحكمة وسدادة الرأي ونفاد البصيرة؟ كنتَ لتصير من عظماء الأدباء لو حملت القلم، أفلا تراودك رغبة لذلك؟
أجاب زكرياء في خجل : "الحق أني...".

ورُفعت الأطباق، ووجدتُني على السّرير مجددا، وهي بجانبي تقول وقدمها تلاحق أصابع قدمي لتدغدغها : "حفظ الله الأستاذ زكرياء، ولكن ماذا كنتُ أقول قبل هذا؟... آه، كنتُ أشكرك، طوال عشرة سنين ظللتُ أرفل في فردوسٍ فَرَشَتْه لي كلماتك، شكرا لك، وما هو خير من هذا كله أنني أنجبتُ لك سرور وسحر وسندس، التوائم الثلاثة، وكلهن أخذن مني ومنك موهبة الكتابة مضاعفة".
ودخلتْ بناتي - المفترضات الثلاثة - كأنهن ممثلات على مسرح، وذكر أسمائهن هي إشارة أوان أداء أدوارهن، دخلن يهتفن في مرح : "بابا، بابا، انظر ماذا كتبت".

وهممتُ بأن أجيب : لستُ بأبيكن، أنتنّ لقيطات، ولكن كان للشفتين المتلبّسَتين قول آخر :

- واو، هذا جميل، قصة الدببة الثلاثة، وقصة الزهرات الأربعة، وقصة القطط الخمسة، رائع، رائع حقا

وسألت إحداهن وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة هلال جذلان فيما راحت ضفيرتاها تتأرجحان : "بابا، بابا، قصتي أفضل منهما، أليس كذلك؟ قصصكن كلهن غاية في السخافة والسذاجة.

- قصصكن جميعا غاية في الروعة، الاختيار صعب حقا

هتفت الفتيات في تبرم ورحن يطالبن كلهن بتاج الملكة، في حين أخذت هاجر أصغرهن في حضنها، وواصلت سردها لقصة زواجنا المزيفة الملفَّقة : "أذكر أنك قلت لي ليلة زفافنا أنك أنت الروائي المخضرم تتزوج بكاتبة قديرة، فلابد أن ذريتنا ستكون سلالة من أعظم الكُتّاب، وقلتَ أن الأمر أشبه بتحسين نسل الخيول، ثم أضفت أنك تتمنى ألا تكون الثمرة مثل هجين الأسد والنمرة؛ ذلك الأسد الببري البدين الكسول الأثقل من أن يصطاد بنفسه".

فاربدّ وجهي غضبا حينها وصحتُ : "أتشبِّهنا بالحيوانات؟!"، وأفسد قولك ذاك الليلة تماما، أصارحك الآن أني أدركت أن حالنا كما وصفت، ولكن بعد إطرائي هذا، عليك أنت أيضا أن تشكرني فلولاي لما تفرّغتَ للكتابة، أنا كنتُ أتحمّل نفقات البيت من خلال مشروعي التجاري الضخم، "القافلة"، ثم قامت من مجلسها، وخطت نحو نافذة واسعة تُطِلُّ على أفق أزرق، أهذا بحر؟.. تلفّتتُ حولي في الغرفة، ولاحظت لأول مرة الأثاث الفاخر الباهظ الثمن، الأرائك الوثيرة المفروشة بأنعم سجاد، التلفاز الذي يكاد يحجب جدارا بأكمله، اللوحات الفنية التي رقّطت جدارا آخر،

التسريحة التي استقرّت قرب سريرنا وعليها كل شكل من الأمشاط، وكل لون من الماكياج، وكومة من القلائد الفضية، والأقراط الذهبية، والخواتم الألماسية، شبيهي يتقلّب في هذا الثراء الفاحش وأنا أتلوّى في الفقر المدقع؟ لم أطمع يوما في الثراء، ولم أحسب نفسي من آل المال قط، آل المال الذين يعرفون كيف يجنون ويدخرون ويستثمرون. ولكن ها أنا ذا أنام إلى جوار كنز قرصان.

ومضيتُ أخطو متثاقلا كالدائخ إلى النافذة الشمسية الواسعة، والبناتُ يتعلقن بساقيّ كما يتعلق صغار القردة ببطون أمهاتهم، مشيتُ لحيث وقفت زوجتي وهي تتأمل البحر : "انظر، قافلة أخرى ترسو في الميناء".

نظرتُ فإذا جِمالٌ في حجم الجبال تقطع البحر دانية من الميناء، وعلى الجمال رحال عظيمة، قالت مشيرة إليها بأصبع : "أكثر وسيلة نقل بحري شيوعا، كل الشركات التجارية عبر العالم تتعامل عبرها، إنها قافلتنا السحرية، جِمالها قابلة للتضخم والانكماش وكذا السلع على أسنمتها، نُصغِّر السلع ونكبِّر الجمال قبل أن نرسلها عبر البحار، ثم نصغِّر الجمال ونكبِّر السِّلع حين ترسو في الموانئ، قضينا على صناعة البواخر والسفن وملاحتها وتسببنا في انقراضها تماما بهذا الاختراع الجديد ههه".

رحتُ أنظر إلى الجمال إذ تنكمش مع كل خطوة تدنو بها إلى الميناء، ثم رأيتها تبرز من المياه رويدا رويدا حتى انتصبت على سيقانها في المياه الضحلة، وراحت تدفع بأعناقها قُدُمًا فيما ربّتَ الموج على رُكبها، حتى

بلغت المرسى فارتقت إليه، وسارت وقطرات الماء تنهمر منها، حيث أناخها الرعاة وأنزلوا عن أظهرها البضائع، ثم ساقوها إلى مرعى معشوشب لتنفض عن سُنُمها غبار السفر، أقصد "زَبَد الرحلة".

وبينما كنتُ أحملق إلى ذاك المشهد العجيب غير مصدق، أهذا حلم أم هلوسة أم برزخ أم ماذا؟ طوَّقتْ هاجر كتفيَّ بذراعها، وضمتني إليها، وطرحتْ رأسها على كتفي، يا للحب! ياللرومانسية! ياللجحيم! وياللعذاب! ودخلتْ عجوز بعد هنيهة، فاستدارت معي هاجر لترى من الداخل، عجوز مترهِّلة ذابلة صبغت شيب شعرها بالحناء، أهي أمها أم جدتها؟ هتفت وهي تفلتني وتمشي نحوها لترحِّب بها : "أهلا بحفيدتي خديجة، كيف حالك؟ كيف هي صحتك؟".

حفيدتي؟! ما الذي يحدث بحق اللعنة؟! هذا لا يُعقل، هذا لا يُعقل، أنا لن أتحمل أكثر.

شعرتُ بشفتيَّ تتأهَّبان لتحيَّتها، فعضضتُ عليهما بأسناني بشدة، سمعتُ الآخر داخلي يشهق في ألم وهو يقبض على فمه الدامي بيديه مصدوما، وانطلقتُ مندفعا نحو المكتبة، شعرتُ بساقي تعانداني، فرفعتُ واحدة ودعستُ بها على الأخرى، صاح الصوت متألما، فيما هتفت هاجر ملتاعة : "خالد! خالد! ما بك؟!".

وترنّحت الحفيدة العجوز وهوت دائخة، اندفعتُ مجددا صوب المكتبة، وأمسكتها من الجانبين، كانت قزمة مقارنة بمكتبة الصالون العملاقة،

صاحت هاجر : "ماذا تفعل؟! ماذا أصابك؟".
صرختُ فيها بفاهٍ يسيل دما ولعابا : "أنت لستِ زوجتي".
ثم جذبتُ المكتبة بقوة، فهوت كشجرة مقطوعة، وسحقت قدميَّ، وتشققت الأرضية فجأة، فخُسِف بي ووقعتُ.. ووجدتُ نفسي في مكانٍ خافت الإضاءة، هذا معمل طبي من نوع ما، أنا أرتدي مريولة طبيب، وأمسك مقصًّا حديديا صغيرا، وعلى عينيّ نظّارة، وأمامي كرسي قبالته مرآة، ومن على الكرسي سوى.. هاجر.

أأنا أحلق لها شعرها؟ ألقيتُ بنظرة على رأسها فإذا هي صلعاء، حلقتُه كله؟!

ثم تأملتُ انعكاس وجهها على المرآة، كانت الدموع تترقرق شاقَّة خديها في خيوط أو خطوط، إنها تبكي، لماذا تبكي؟ شعرتُ بوخز في قلبي، لقد رأيتها تبكي من قبل، في يوم ما تهجّم عليها مراقب ما، صرخ عليها وكاد يلطمها، كان المراقب شبه مخبول، فشَكَتْه إلى أستاذ الإنجليزية وبدأت تتكلم في حدَّة بادئ الأمر ثم انحدر حديثها وانجرف شيئا فشيئا نحو حافة الهيستيريا.. تهنُّفٌ بين الكلمات ثم نشيجٌ مخنوق ثم نواحٌ عال، كلّلت الدموع عينيها كاللآلئ على أوراق الشجر في الصبح الباكر، التقى في صدري حينها الحزن بالشماتة، بحران بينهما برزخ لا يبغيان، وابتسمتُ في ساديّة فيما اغرورقت عيناي بالدموع تعاطفًا، تألّقتْ دمعتان في عينيَّ الآن أيضا، وكادتا تنسكبان لولا أن كتفي نطق!

- والآن انزع القشرة العلوية عن جمجمتها لتكشف دماغها، إنها نصف مخدرة، أؤكد لك أنها لن تتألم

ارتجفتُ في ذعر وأدرتُ عنقي بسرعة، فقابلني القرد بوجهه، إنه داغر، كاد يقع لرجفتي، ولكنه تشبث بظهري، وزحف عائدا إلى عرشه على كتفي، قال داغر : "ما خطبك؟ هل راودك كابوس يقظة؟"، ثم هز منكبيه ولوح بيده، "لن ألومك فأنت مجنون، المهم، كنتُ أقول، اخلع القشرة العلوية من رأسها ليتبين لك دماغها".

سألتهُ مرتاعا : "ماذا؟! لماذا؟!".

فرفع حاجبيه مندهشا : "ألم نتفق على ضرورة فعل هذا؟ جلسنا نخطط طيلة الليل، لاختطافها، كيف نقتحم البيت ونتسلل داخله دون أن يشعر بنا أحد، وكيف نخدِّرها في نومها ونحرص على خنق صرختها، وكيف نحملها ونخرجها من المنزل، ولأين نأخذها، لقد درستَ طب الجراحة سبع سنوات، كل هذا تحضُّرا لهذه الليلة، وها قد اختطفناها فأُسرع بتنفيذ الخطوة الأخيرة لنقيم حفلتنا مع رفيقنا الجديد".

اختطفتُها؟ أنا؟ درستُ طب الجراحة؟

- مهلا، مهلا، مهلا، علام اتفقنا تحديدا؟

اربدّ وجه داغر وجأر ممطرا أسهم اللعاب على وجهي : "ما خطبك أيها الخرف؟ أفقدت ذاكرتك أم ماذا؟".

فلوّحتُ بيديَّ بجنون، وصحتُ فيه والدموع تطفر من عيني : "أيها الوغد!

أيها النذل! لم أتفق معك على شيء، يا كذاب! يا نصاب! لقد نوَّمتني، سحرتني، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ نومتني لتجعلني أختطف هاجر وأغتصبها ثم أعذبها وأقتلها، أليس كذلك؟ عليك اللعنة، هذا من كيدك، هذا من شيمك، هذا من عادتك أيها السايكوباثي اللعين، تبا لك! تبا لك!".

حدّق فيّ داغر بفم فاغر، وشفتاه السوداوان الرقيقتان ترتجفان، وكفّاه شبه البشريتان ترتعشان كأنهما يدا مدمن انقطع دفعة واحدة عن المخدرات، لقد أدمنتْ يداه خنق الأعناق، وها هي ذي رقبة في المتناول؛ رقبة غبي أبله معتوه رسم خطة ثم نسي أنه فعل في الخطوة الأخيرة منها، تحكم داغر على أعصابه بعسر شديد كفرقة إطفاء تحارب نارا شعواء في غابة جافة صفراء، وقال وأسنانه تكاد تمزق بعضها من الغيظ: "حسنا، حسنا، لقد فقدتَ ذاكرتك كما يحصل دائما، دائما! دعني أنعشها لك إذا، أترى مصطفى الجالس هناك على يميني؟"

أرسلتُ طرفي عبر النور الخافت الذي ينثره المصباح المتذبذب الواهن، واجتازت نظراتي القناني والأنابيب الزجاجية، وجثث فئران التجارب، لتحُطّا أخيرا عند المحطة الأخيرة، كرسي آخر، ملقى عليه فتى هامد، أمامه طبق، وعلى الطبق دماغٌ بأكمله يسبح في بحيرة من الدم، أهو طعامه؟ عشاءه؟ أهذا دماغ ناقة؟

وثبتْ عيناي من الطبق إلى أعلى وهوتا صريعتين من الهول، لقد كانت جمجمة الفتى خاوية، تجويف فارغ كفوهة بركان، أأنا في أحد أفلام هانيبال لكتر؟! من الضحية؟! من الفتى منزوع الدماغ؟! تمعّن فيه خالد ومحّص، وأخذ دماغه يملي عليه الإجابة مشفقا حرفا حرفا، الفتى هو.. م.. مص.. مصط.. مصطفى؟!

أطلقتُ صيحة فزع عالية، ووثبت للخلف كمن يتفادى انقضاضة تمساح، وأسقطتُ في تراجعي المتعثر المذعور ثلاث كراسٍ، وقلبتُ طاولتين فوقعت القناني بسوائلها الكيميائية على الأرضية، وراحت تذرف دموعها أو تنزف دمائها أو تتقيؤ أحشائها، كنتُ لا زلت أصرخ وأصيح غير قادر على التملص من موجة الهلع العارمة التي أغرقتني، ولوحتُ بيدي دون شعور فرأيت قبضتي ملتفة حول مقص جراحة يقطر بالدم القاني، فقذفتُ به بعيدا مرتعبا كما لو أنه أفعى، وثب داغر وجثم أمامي، ثم تقدم في خطى وئيدة على قوائمه الأربع وهو يردد: "لا بأس، لا بأس، اهدأ، اهدأ".

صرختُ فيه بين الدموع واللعاب والحزن والحنق: "أهدأ؟! أنت قاتل لعين، لقد قتلت مصطفى، وتريدني أن أهدأ؟ سأذبحك، سأقتلك"، وانقضضتُ عليه، ولكنه قفز إلى السقف عاليا وتفادى هجمتي، تعلّق بالمصباح بذيله وقال متدليا رأسا على عقب: "أنا قتلته؟ أنت شققت رأسه يا أحمق!"

- أنا؟

- وهو ما يزال حيا يتنفس أيها المعتوه، ألا تذكر؟
- أنا لا أذكر شيئا لعينا أيها الشيطان
- ألا تذكر أنك كنت ستبدّل بين دماغي هاجر ومصطفى؟ انتويتَ فعلها كحل لأزمتك، أردت أن تضع الدماغ المثالي الذي تحبه في الجسم المثالي الذي يناسبك، دماغ هاجر في جسد صديقك مصطفى، جسد ذكر، جسد صديق، لتزيل الحواجز التي تحول بينك وبين هذا الدماغ الذي ترغب في أن تجلس إليه وتحدثه وتخلو به ليل نهار، سهر وسمر، شاي وقهوة، تحت ضوء الشمس وتحت نور القمر

ماذا؟! أكانت هذه نيتي فعلا؟! ربما، إنه يبدو حلا منطقيا عنيفا من التي أفكر فيها ولا أعمل بها، من الأفكار التي تخطر لي عرضا فلا تسمح لي نفسي أن أتركها هكذا دون استغلال فأحشرها في قصصي حيث لا توقفني القوانين؛ آه، يا إلهي، لقد مرت بذهني صورة، رأيتُ نفسي أصفع وجه عدو لي بسلحفاة قاسية القوقعة، ليت بإمكاني فعل ذلك، الواقع ممل حقا، فليكن سأحشوها في قصة ما، الحمد لله على الخيال.

- هل رجعت لك ذاكرتك الآن؟
- مهلا، إن غيرتَ دماغيهما فسيُسجن مصطفى في جسم فتاة، وستستقر هاجر في جسد صديقي، ألن تتذكر؟ اختطافي لها وتبديلي بين الدماغين، ثم إنها لا زالت فتاة، أي أنها ستحب الأزهار والوردي والنحام، وسترتقب فارس الأحلام الذي لن يجيء أبدا لأنها فتى

قال لي القرد : "أيها الأبله، لقد خلطتَ بين العقل والدماغ، بين mind وbraing، ألم نتناقش في هذا من قبل، ونتفق على أن الروح ستبقى نفسها، فالله هو من وضعها في الجسد ولن تخرج إلا حين الوفاة بإذنه، فالروح والعقل ليسا في الدماغ، ما سيتغير هو طريقة استقبال المعلومات عبر الحواس وتحليلها".

- وماذا عن الذكريات؟

- إذا كانت الذكريات مختزنة في الدماغ، وورث مصطفى ذكريات هاجر، سيشعر بالتشوش والارتباك فقط
- ولكن ألا تتشكل الشخصية بالتجارب؟ والتجارب تُحفظ في الذكريات، وإن تغيرت ذكرياته أفلن يغير هذا شخصيته أو يمحيها نهائيا؟
- ما زلت تخلط بين العقل والدماغ، الدماغ آلة تسجيل، تسجل الصوت والصورة، وتستعيدهما عن إرادة أو دون وعي، ولكن الشعور الملتصق بالذكرى ليس في الدماغ بل في العقل، سأوضح لك لأني أعرف غباءك وبطء استيعابك، حين يرى مصطفى ذكريات هاجر سيشاهدها دون مشاعر، ولن يحس بأنه عاشها سابقا لأنه لا يستعيد مشاعر تلك الذكريات، لماذا؟ لأنه ليس لديه مشاعر عنها أصلا، فهي في عقل هاجر، ولذا حين يراها سيتجاوب ويتفاعل معها للمرة الأولى، ربما شعرتْ هاجر بالخجل أو ربما الذعر وشيء من الفخر بأنوثتها حين تبرعم ثدياها لأول مرة، ذلك الشعور ملتصق بتلك الذكرى، ولكنه حين يعرِضُ عليه دماغه تلك الذكرى سيشعر

بالإثارة كما قد يشعر أي ذكر بالغ آخر، ولن يحس بالفخر بأنوثته، أفهمت؟

حملق فيه خالد بعينين زائغتين واشيتين : لم يفهم حرفا، ولكنه قال بكذب مفضوح : "أجل، فهمتُ.. بعض الشيء، ولكن قلتَ أنه سيتشوش ويرتبك ويختل، ماذا سنفعل حينها؟".

"لقد نسيتَ الخطة برمتها، هل أنت خالد الذي كان يخطط معي بالأمس حقا؟ لقد بدأتُ أشُكُّ في أنك مزيّفٌ أو متقمصٌ"، وسبر أغواره مليا ثم قال مرجئا الحكم إلى حين تتوفر الأدلة القاطعة، "سنصارحه بالأمر، وسيشكرنا هو بنفسه على زيادة ذكاءه اللغوي، فهو يميل للغة الضاد وهل تعرف أبرع منك في العربية في صفك غير هاجر؟"،

ثم لعق شفتيه بشبق وقال : "ثم إنه سيحكي لك.. سيفشي لك كل أسرارها.. كل أسرارها.. سيخبرك عن شعرها، ما لونه يا ترى؟ أصهب؟ أشقر؟ كستنائي أم فاحم السواد؟ وسيحكي لك أيضا عن...".

قذفتُ القرد الغويّ بأقرب قنينة زجاجية عثرت عليها يدي، ولكنها طاشت بسبب تصويبي الأخرق، قذفته بقارورة زجاجية أخرى، كنتُ محتقن الوجه بالخجل والغيظ، تلقّف داغر القارورة وقرأ اسم السائل داخلها، ثم قال : "لقد سئمتُ من جبنك وتخاذلك، سأواصل تنفيذ الخطة بمفردي"، وجرع المحلول في فمه ولكنه لم يبلعه، بل احتفظ به بين سدَّي خديه المنتفخين، ثم وثب منقضا علي وصبّه على وجهي.

ذابت مقلتاي، وسالتا على جانبي أنفي، وتدفق أنفي - بما فيه من مخاط - على شفتاي، وتقاطرت شفتاي على ذقني، وانصهر وجهي بأكمله، وراح يذوب بفعل الشمس الكاوية التي قبّلتني قُبلتها لرأس آيس-كريم على مخروط بسكويت.
ولكن المخروط أخذ يذوب أيضا، أقصد أن جذعي بأكمله - بل وحتى ساقاي - راحتا تذوبان، وهويتُ كجلمود جليدي على الأرض واستحلتُ بركةً، وجاء فأر مشقوق الحلق فلعقني بلسان يتدلى عبر حنجرته، وإذا بي في أحد أروقة الجامعة أمتطي صهوة ديناصور تي-ركس يركض مزمجرا، وأدركتُ أني أبحث عن توأمي... أبحث عن هاجر، التففتُ عبر منعطف، وإذا بعيني تقع عليها، رأيتها تجري أمامي هلعة، ووراءها يوسف يمدُّ يده ليزيحها جانبا ليهرب بسرعة أكبر فقد كانت تسدُّ عليه الطريق، لقد كانت تركض ببطء كسائر الفتيات، ترفع ساقيها على جانبيها حين الجري، أخذت تصيح وتصرخ جزعة، على حين كادت كفُّ يوسف تبلغ قفا عنقها فزعقتُ بالديناصور : "أسرع".

فوثب وثبة طويلة، وحطّ قدمه عليه وعجنه بالأرض، تماما كما تسحق أنت صرصورا وجدته يجول ليلا في المطبخ، التفتتْ هاجر فلمحتْ نصف جثته المهروسة ملتصقا بالأرضية كطماطم فاسدة، ونصفه الآخر عالقا بخُفِّ قدم الديناصور يسحبه معه في هرولته غير مكترث كتمرة التصقت بحذاءك في البستان، لم تتحمل أعصابها الهشة الصدمة فوقعتْ مغشيا عليها، فقبضتُ على عنق الديناصور وأنشبتُ أصابعي فيه وجذبته، لو كان

حصانا لجذبتُ خصلاته لأكبح جماحه، ولكن استقبلتْ أصابعي بدلا من الشعرات الناعمة الحراشف القاسية، ورغم كل ما حاولتُ لأغرس فيها أظافري الطويلة قابلتني مقابلة الأرض القفر الجرداء، مهما غرستَ وزرعت فسترجع خائبا خالي الوفاض، لحظةٌ مرَّت، في اللحظة التالية رمقتُ بجزع جسد هاجر مرميا هناك وسط طريقه على قيد أنملة من الطحن، ثم انزلقتْ موزة من جيبها، وتدحرجتْ مرتين على الأرض فدعسها الديناصور، وزلّت قدمه وترنّح، وسقط على جنبه إلى الخارج مهشما النافذة الكبيرة على جانب الرواق المقابل للأقسام، كنتُ في الطابق العلوي! صفع الهواء وجهي، وتشقلبتُ، ولمحتُ إذ هويتُ بطن واد سحيق يترقبني في الأسفل، وكأني سقطتُ من جرف جبل، رغم أني كنتُ في رواق الجامعة للتو.

ملأ بصري بني التراب والغبار، وصرخ الديناصور بوصيته الأخيرة، ثم انسحب البني، وانبسط تحتي أخضر العشب والشجر، واندسّ حبل أخضر من أليافِ شجرةٍ في يدي فقبضته ورحت أتأرجح به كطرزان، نظرتُ لأسفل فإذا بي أرتدي بزة سبايدرمان، ونظرتُ أمامي فإذا بي وسط الشوارع، أحلِّق بين المباني، وإذا بهاجر تتأرجح جواري مبتسمة لي، شعرتُ بالارتباك والتشوش واختلطت في عقلي الأزمنة والأمكنة، وفيما أنا مبلبل الأفكار خرجتْ شاحنةٌ لوهلة من طريق جانبي، وصدمت كلينا، وقذفتنا ملتصقين ببعضنا ثم دعستنا، ومضى سائقها ولم يلتفت إلينا، حولتنا قافلة السيارات بعدها إلى سجادة حمراء، امتزجت دماءنا، واشتبكت عظامنا، والتحم قلبانا وعقلانا معا، يا للرومانسية!

ثم رأيتُني معها على قمة برج خليفة، ساقانا تتدليان متأرجحين، التفتتْ لي بعينيها الوامضتين وقالت : "ألم أقل لك أننا في المستقبل سنكون قادرين على التخاطر؟ أحسن استخدام لهذا الاختراع هو زيارة أصحابك في أحلامهم".

سألتها : "أنا في حلمكِ؟".

- "لا، بل أنا في حلمك"، ثم أفلتت ضحكة قصيرة وأردفت : "لقد اطلعتُ على كل مكبوتاتك، ورأيتُ كل أفكار القصص التي تتهاطل عليك دون طلب منك ولا دعوة، أعجبتني الفكرة التي تحكي عن حبيبين منعهما أهلهما من الزواج، فيجتمع الحبيب بمعشوقته في حلمها، ويتزوجها هناكـ، ولكنك طردتَ تلك الفكرة عن رأسك رغم أنها كانت ستجلب لك العالمية، لاسيما أنها تدغدغ مشاعر الغرب المتحررين الذين يقدسون الحب واللذة ويجعلانهما غاية للحياة، لماذا لم تكتبها؟".

- لأني مسلم، وأنا أعتقد بأن تلك القصة التي تفيض فحشا لا تتوافق مع مبادئي ومعتقداتي

"أفٍّ لك، أنت متنعت حقا"، ثم تنهدت وقالت : "لقد خُلقنا مختلفين لنتعارف، لو أنك نحّيت الجنس فقط جانبا لكُنَّا نعيش أفضل لحظات حياتنا الآن، تلاقح فكري لا نظير له، أنا زهرة وأنت نحلة، تأخذ رحيقي، وآخذ طلعك، تطالع الأدب الإنجليزي والفرنسي، وأطّلع أنا على الإسباني والإيطالي ثم نتقايض، لماذا؟ لماذا يا خالد نبذتني من حياتك رغم كل ما فعلتُ لأعقد أواصر الصداقة بيننا؟ قدّمتُ لك الشيكولاطة فرفضتها،

سألتك عما تكتب فهجوتني، شرحتُ للناس غمغمتك فلم ترض عني، ما ذنبي أنا؟ الله هو من خلقني أنثى".

سكتتُ مليا ثم قلتُ ما يجول بخاطري لأول مرة : "إنه ابتلاء ربما، عسى الله أن يجمع بيننا في الجنة"، كذبتُ ففي الجنة سأنال ألف حورية أذكى منك وأبرع قلمًا بمئة مليون مرة وأجمل وجها طبعا، "ثم إنك تستطيعين أن تكتبي وتنشري على الملأ، وأكتب وأنشر أيضا ونتنافس، لماذا ترغبين في أن نتراسل على الخاص، أو نخلو في مكان وحدنا ونتحادث وجها لوجه؟"

- ومن قال أني أريد ذلك؟

تمّت بحمد الله.

استرخيتُ في مقعدي وتمددتُ وتمطّيت، فيما جلس الأرنب متململا على مقعده يلتفت يمنة ويسرة، ويجفف عرقه ويزدرد ريقه، ثم أخيرا قرر أن يبوح وقال بصوته الخافت المذعور : "أرجو ألا تسيء فهمي يا مولاي، ولكن أهذه هي النهاية فعلا؟ لا تبدو كنهاية، المعذرة، المغفرة، أقصد أنها ليست نهاية تقليدية، إنها ليست سعيدة ولا حزينة، ولا حتى صادمة كالمعتاد منك، في قصصك ورواياتك السابقة يجب أن يموت البطل أو على الأقل شخصيةٌ أخرى في النهاية".

فنظرتُ له شزرا وقلت : "ماذا قلتُ لك؟ لا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكرا، بقي شيء أخير لأذكره، أنا أدرس لأنال شهادة الدكتوراه الآن في جامعة مختلفة، قيل لي أن هاجر توقفت عن الدراسة بعد أن نالت

الليسانس، أظن أن أحدهم خطبها، ولا ريب أنها في منزلها ترقب يوم الزفاف، رغم أن تصوُّر تلك الفتاة الجريئة المسترجلة تطبخ وتكنس يجعلني أضحك، فذلك لا يُصدّق لغرابته وطرافته، المهم، أتعرف أبَ القصة القصيرة الفرنسي جي دي موباسان؟".

أجاب عمر : "أ-أ-أجل".
فواصلتُ : "لقد كتب رواية قصيرة بعنوان "المجنون" تتحدث عن شخص عاقل يسقط في هوة الاضطراب النفسي، هناك مقتطف في الرواية يصور البطل إذ يتوغل في غابة، ويعبر ممشى تحُفُّه الأشجار من الجانبين، وتتعانق أغصانها فوقه مشكِّلة مظلة تحجب عنه الشمس، يصاب البطل بالرعب حين يراوده هاجس بأنه مطارد، ويلتفت خلفه فلا يجد أحدا، ويلفُّ ويدور حول نفسه خائفا هلعا، ذلك الشعور تحديدا يرافقني كلما ذهبتُ للجامعة، بينما أنا أصعد تلك الهضبة العالية التي تتربع على قمتها أقسامنا، وأخوض في فيضان الفتيات ذاك الذي ينصبُّ صوبي من أعلى إذ يغادرن بعد الدوام، الأمر أشبه بالملاحة وأنا قبطان محنك ولله الحمد، كم من مرة كدتُ أرتطم بشابة خرقاء تترنح دون سُكر، ثم انحرفتُ بحدة في اللحظة الأخيرة، المهم، كنتُ أرى ملامح هاجر في وجه كل فتاة، أنظر يمنة فأجدها هناك تتقدم نحوي مبتسمة وقد فردت ذراعيها كأنها تتأهب للعناق، ثم تندفع فتاة أخرى خلفي فتضمُّها وسرعان ما يتلاشى سراب وجهها فتتمثل لي الفتاة مجرد بلهاء أخرى، وألقي نظرة يسارا فأراها معتمرة ذاك الخمار الأسود، ثم تخلعه صاحبته فتكشف عن وجه مختلف

مليح، بلهاء أخرى، كيف تتجرأن على تقمص وجهها؟ أعظم كابوس أتوجس منه أن أصادفها ذات يوم قادمة من الاتجاه المعاكس لي، أتوقف مذهولا وفمي فاغر، فتلحظني هي وتتأملني مليا ثم تهمس : "خااالد!".

أنا أحبذ أن أواجه مذؤوبا ومومياء ومصاص دماء جميعهم معًا على أن أواجهها هي، سأختنق بلساني، وينفجر وجهي بالدم المحتقن، أحيانا أشعر بخطواتها خلفي، أسمع رِكز ضحكاتها فأستدير بسرعة ولا أجد أحدا، إنها شبح من الماضي يطاردني، يسكن عقلي، ويشغل نفسي، أأنا أحنُّ إلى إجاباتها الفطنة اللبيبة؟ أم أني لا أريد أن أقابلها مجددا في حياتي لأني أبغضها لجرأتها ومجونها؟ أم أني أخاف من ذلك لأنها الفتاة الوحيدة التي قد تشكل تهديدا لحصانتي ضد الحب؟ إنها كالمرأة التي غلبت شيرلوك هولمز، أنبهر بسحر بيانها ولكني لا أحبها، أكرر، أنا لا أحبها، أكرر، أنا لا... مهلا، أذكر أني رأيتُها مرة، بالأحرى، رأيتُ فتاة تشبهها للغاية، قصيرة تلبس حجابا وعباءة مثلها، كانت تحمل كراسا معها، كانت تمشي في الاتجاه المعاكس، لم ألحظها في البداية إلا حين دنت وأوشكنا أن نتخطى بعضنا، لأنها رفعت الكراس لوجهها، أكان ذلك خجلا؟ أم أنها فتاة أخرى فعلت ذلك بعفوية، لا أدري، توقفتُ في مكاني مصعوقا والتفتتُ خلفي فإذا بها تواصل المشي ثم تختفي بين الجمع، لم ألحق بها لأتثبتّ طبعا فليس ذاك طبعي.

مضى على ذلك نصف عام، الآن لم يعُد شبحها يطرق تفكيري كثيرا، فقد ألمّت بي هموم ومشاغل أخرى، هكذا الحياة، هكذا الزمن، المهم، قلتَ

أنه يجب أن يموت أحد في نهاية قصصي وأن هذا صار تقليدا وعرفا، أليس كذلك؟".

أومأ عمر مؤمنا، فتهللت أساريري : "حسنا، سنضحي بك أنت إذا، أنت كبش الفداء، داغر".

- حاضر يا مولاي

وطرق أحدهم باب الحمام بقوة وصاح : "لقد ظللتَ قرنا في الداخل، أأنت تلد تسعة توائم أم ماذا؟
انتشلتني صيحته وطرقاته من شرودي فالتفتُ حولي، كم مضى من الوقت؟ لقد نمتُ على المرحاض مجددا، وحلمتُ بهاجر، حلمٌ يصلح لقصة، سأُعنونها ب "ما وافق شن طبقة"، أو بالأحرى وافقها ولكنه لم يوافق عليها. إنها أول وآخر قصة رومانسية أكتبها، فكرتها رائعة حقا، أدرتُ الصنبور لأملأ الدلو، الحمام معبد الإلهام، المرة القادمة سأحضر معي كراسي إلى هنا.

وطُرق الباب بشدة أكبر حتى كاد يتوسلني باكيا : أرجوك اخرج، آسف ولكن عظامي لا تتحمل هذه الطرقات، وصرخ الطارق مجددا : "هيا، هيا، كم توأما ولدتَ حتى الآن؟

تساءلتُ : ولادة في المرحاض؟ يا لها من فكرة قذرة مقززة! من أين أخذها؟ هو؟ وُلِد حيّا في الحمام؟! ثم أخذ يبكي غرغرة فأحست أمه بالذنب، لحظة، ثم تمالكت نفسها وشدّت السيفون فانجرف في رحلة عبر

المجاري إلى المحيط مثل قارب جورج الورقي في بداية رواية "الشيء" لستيفن كينج، وبينما خرج القارب من قصة ستيفن حينها ولم يرد ذكره مجددا، رضيعنا هذا سيأخذنا إلى... حلمٍ آخر، مهلا، توقف، الرضيع القذر لا يستحق، سيكبر ليصبح ذاك الشخص الذي يزعجني بطرقاته في الخارج، تبا له! ليت القروش أكلته، إذن... إلى حلم آخر غيره.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

الحفلة (1)[5] :

مقدمة : بمناسبة إنهاء الصفحات العشر الأولى من ديوان بشير ونذير نقدم لكم اليوم حفلة على هذا الشرف، إنها حفلة كتابية... ماذا؟... لم تسمعوا بهذا من قبل؟ بالطبع لم تسمعوا فالفكرة من ابتكاري، وستكون هناك فقرة مثل هذه كل عشر صفحات، والحفلة تتميز بطولها فأنا أكتب فيها ضعف ما أكتب عادة، وهذا يعني بمعدل الكتابة الحالي 4 صفحات، سيكون فيها قصص ونكت وألغاز وتوريات وغيرها من المفاجآت، نرجوا أن تستمتعوا وشكرا على الحضور...

=====================

سيداتي وسادتي، قلتُ مسبقا أن حرف الثاء صعبة قافيته لذا أظن أن استعماله الآن عبث،

---

[5] هذا نموذج للقصائد التي اعتدتُ كتابتها، نثر مليء بالقوافي والتوريات مستوحى من أغاني، سميتُه شعرا لسذاجتي وغروري، أعرتُ عادتي هذه لخالد البهجواني.

ولكن فقط لأبين أني الشخص الذي وُلد ليصنع في العربية حدثا وهو بعدُ حدث،

لبثِّ السم في عروقك أنا جاهز، لأجهِز عليك، القاتل لا زال ما زال لبث،

الليث أنا ورفاقي نشترك الزمرة، الدم يروق حين يراق لنا فيه حمرة، خمرة عبقها نَفَسُ ضحيتنا حين يكون آخر نفس لهث،

إن كانت القوافي أرضا سأكون أول من حرث،

(سطر محذوف هنا لدواع...)، أنا الذي ليُميتَ بُعِثَ،

عزرائيل (أجل) ما زال يحصد أرواحكم في الحقول بمنجل مكث

بالي يقول أين العقول؟ عقولهم تقول بالي الثياب ورثّ

أمي لم تتركني أمي، وعنها بشير العربية ونذيرها ورث

* * * * * * * *

فلسطين

اجتمعوا جميعا في قاعة فسيحة، حول طاولة طويلة، وجلسوا على الكراسي يرتبون أوراقهم، ويتبادلون التحايا والابتسامات الزائفة.
على رأس الطاولة جلس سام بلحيته الشائبة المدببة كلحية الشيطان، وابتسامته العريضة التي تفوح بالخمر والحشيش والبرغر والكولا، وعينيه الجشعتين. مدّد ساقيه على الطاولة، مهزهزا حذائيه بين الفينة والأخرى

كي يذكِّر الجالسين جواره بأنه يستطيع فعل ما يحلو له وقتما يعِنُّ له، كان يصافح ماريان المرأة الجالسة يمينه مرتدية بلوزة زرقاء وتنورة قصيرة حمراء، يصافحها مرددا :

- "bonjour... sava?"

وهو يهمس لنفسه كيف أنه يكره أبناءها المتعجرفين المتكبرين، ولغتها المعقدة، فيما أخذت هي تبتسم له في بلاهة وتهزُّ رأسها مرة تلو الأخرى لتزيح ناصيتها الشقراء عن عينها الزرقاء، فجأة ذكّره ذلك بشيء فقال: "بالمناسبة، أهنِّئك على تلقين تلكن الساذجات درسا، تلكن اللواتي يصررن على ارتداء لباس فرضه عليهن دين ابتدعه الرجل ليخدم به أغراضه، صحيح أننا قلنا أن المرء حر فيما يلبس، ولكنهن غسيلات دماغ يرضين بالعبودية ونحن لن نقبل بذلك، سنسحبهن إلى صلاحهن بالأغلال والسلاسل، أعني، أليس شرًّا مشينا سِتر ذلك الشعر الحريري والوجه المشرق الساحر وحجبه عن أنظار المتأملين؟" وازدرد لعابه وهو يمزق ثيابها القصيرة الشفافة بعينيه المتجوعتين، متخيلا ما سيفعله بها لاحقا، سأخبرها أنها إن كانت ترغب حقا في أن تصير نجمة هوليوود فعليها أن تدفع الثمن وتبيع لي جسدها، وستخضع لي مذعنة لأنها لا تريد أن تنضم إلى المتشردات على قارعة طرق لاس فيجاس، وحين تأتيني صاغرة س... سلّمت عليه بريتني الجالسة يساره بلكنتها الثقيلة ونبرتها القارسة، فرد التحية بفتور وهو يلعنها: "سحقا لكِ! لقد قطعتِ علي خيالاتي!"

وقف كونور أشقر الشعر، فارع القامة، مفتول العضلات، الذي يُذكِّرك بالفايكينج حملة الفؤوس محطمة الجماجم وقال: "لا أعرف ما الذي تنتظرون! الوقت يمضي، والناس يموتون، ونحن نتلكأ ونتبادل الإطراءات... كفى حوارا ونقاشا ولنبدأ بالحديث عن الحلول الجذرية."

نظر إليه سام شزرا، ثم رفع قدميه عن الطاولة متثاقلا متبرِّما، ووقف وهو يتمطى وقال أخيرا: "لم العجلة يا كونور؟... لم العجلة؟ يهوذا لم يقطع غير أصبعين حتى الآن، لا تنسوا أن أبا عبيدة لكمه في وجهه وكسر سِنّه، عليه أن يُغلظ له العقاب هذه المرة و..."

ارتفعت صيحة عذاب تحمل من الألم ما في دمعة يتيم صرخ بها الأسير في الركن، فالتفتوا له مصدومين، ليشاهدوه يتلوَّى قابضا بيسراه على اليمنى، يكزُّ على أسنانه، ويحدق حانقا مكافحا ليكظم ألمه كي لا يشمت به جلّاده، يحدق في جدعة بنصره المقطوع وهي تتفجر كالنبع بالدم، فيما وقف يهوذا جلاده جواره، رجلٌ قصير، هزيل الذراعين، ذو كرش بارز كالحامل، وصدر مسطَّح كالسهل، رجلٌ تضاريس جسده تفضح رخاوته ورخاء عيشه، فلولا الأسلحة التي يسخو عليه بها أبوه سام لفعل به أسيره ما فعل بلال بأمية.

حشر يهوذا قطعة قماش في فم الأسير، وهو يهمس: "اخرس عليك اللعنة!".

ثم وقف أمامه كي يحجبه عن أنظارهم، والتفت إلى المجتمعين مرددا بلهفة: "لا تنسوا أنه البادئ والبادئ أظلم، لقد باغتني بلكمة قوية دون أن يحذرني، إنه همجي، أما أنا فأنذره مسبقا قبل بتر أصابعه".

ارتجف محمد الذي ينادونه موح غضبا، وهتف منددا ولكنه لم يرفع أصبعا واحدا فنفسه الكسيرة تحذره: "ستخسر القتال، لن تنتصر ضد يهوذا أبدا. لديه ترسانة من الأسلحة لا تُتصوّر فالعم سام لا يبخل عليه بها، وهو سيقاتل إلى جانبه إن دنوت منه، كل ما بمقدورك فعله أن تتوسل العم وتحاول إقناعه لعله يغير رأيه فيزجر كلبه".

فيما أبدى رجلان جالسان أمامه الاستياء، وأشاحا بوجههما، قال محمود ابن سلمان أولهما: "لا حول ولا قوة إلا بالله، ليس بوسعنا إلا الدعاء".

فيما همس أحمد ابن زيدان من بين أسنانه: "يداك أوكتا وفوك نفخ، أيها الأحمق".

فلكزه محمود تحت الطاولة ليسكت فربما سمعه موح أو كونور، صمت أحمد ولكن صدى كلامه الغاضب استمر في عقله: لقد سبق لك أن حاولتَ عشرات المرات ولم تنجح، فلماذا ما زلت تقاوم؟ لماذا لا تحني رأسك وتريحنا عناء ندب جراحك كل مرة؟ القتال لا يجدي بعد الآن، ليس بعد أن جمعوا من الرؤوس النووية ما يكفي لإسقاط الجحيم على بلدك وتحويلها بين ليلة وضحاها إلى رماد وجمر، الغابات تمسي قفرا، والناس يبيتون سخاما، كلا، كلا، القتال ليس الحل، الحل هو ما أدركه الغساسنة والمناذرة، التحالف مع القوى العظمى، ومحاباتها لكي تمطر عليك المن والسلوى، حتى لو عنى ذلك القتال ضد بني جلدتك، إنهم يطلبون الموت فلماذا يجب أن أموت معهم؟ في حين يمكنني أن أعيد تشييد برج بابل، وأخلق جنة حقيقية على هذه الأرض، يريدون أن يموتوا، كان الله في عونهم، أما أنا فأفضِّل حياتي هذه.

انتبه أحمد على موح يقف مطالبا أعضاء المجلس: "حان الوقت للتصويت، لقد حضّرتُ ملفا يحوي كل ما ارتكبه يهوذا من مخالفات على مر السنين، وأنا أطالب بإيقافه عند حدِّه بالطريقة السياسية القانونية السلمية".

فأيّده فيودور وزي هاو اللذان اختارا أبعد مقعد عن العم سام، وراحا يرقبانه في ريبة وتوتر طوال الوقت، فحدجهما بنظرة مستعرة وهتف

محتجًّا: "أجل، أجل، أومأ برأسك هكذا يا فيدور متظاهرا بأنك تساند الحق والعدل، وتحمي المستضعفين من المغتصبين، دعني إذن أذكرك بالبيت الذي اقتلعت بابه، واقتحمته وقتلت صاحبه أوكرين، وتركت خلفك زوجته وأولادها أرملة ويتامى، ولا زلت ماكثا فيه ترجو أن تضمه إلى منازلك، أنت الذي تملك بيوتا تتواضع أمامها القصور، وقصورا يبدو فيها أبناءك لضخامتها فئرانا تسعهم جحوره، أنت تذكِّرني بصاحب التسع والتسعين نعجة وأخيه، جشعك لا حدود له".

اربدّ وجه فيدور: "تبسيطك للأوضاع ساذج، يبدو أن عقلك أصغر من أن يستوعب أن هناك خلف هذه الحرب سنوات من الأحداث والوقائع أدّت إليها، الأمر يتعدى شخصي وما أنا إلا خادمٌ لأبنائي، أقسمتُ أن أحميهم وأرفع شأنهم، لا تقارنني بخنزيرك القذر هذا الذي يقتات على أدمغة الصبية ودموعهم، ويسيل لعابه على ثياب العفيفات الطاهرات اللواتي يقتحم بيوتهن بعد أن يخليها من الأحياء، لا تقارنني بذاك المنافق الإرهابي السايكوباثي الذي لا يكف ينشر الإشاعات ليبرر أفاعيله الوحشية، لا تقارنني بأحدٍ يغتصب ضحاياه ثم يلومهم على اغتصابه لهم".

قال كل هذا في هياج مديرا مَدَافِعَ عينيه بين العم سام ويهوذا يتناوب على قذفهما بالنظرات النارية، وسكت فغرقت الغرفة في صمت كالموت، وراح الكل يترقّبون، كانت يده ترتجف من الانفعال فتهزُّ طوق دُّبه الأشهب الصغير الذي كان جالسا على حِجْرِه، فلما غضب سيده وضع مخالبه على الطاولة متوفزا متحفزا وأخذ يزمجر ويكشر.

تشارك كل من في القاعة ذات الخاطر: هل سيطلقه؟ أيُطلِقُ دبّه على العم هذه المرة؟ أهذه هي النهاية؟ سينقض الدب على يد سام وينهشها فيردُّ

العم بفتح قفص نسره الأصلع ويرسله، وسرعان ما يخطئ أحدهما طريقه ويندفع في إحدى بيوتهم يعيث فيه قتلا وتنكيلا، وحينها اتل صلواتك الأخيرة أو اذهب واغرس فسيلة ريثما تسمع نفخة الصور.

ولكن فيودور كظم غيظه وازدرد ريقه الزعاف، ورمى يهوذا بنظرة تسلخ الأوجه، فجرى هذا الأخير هاربا، وذيله الخنزيري الملتف كالزنبرك محشو بين ساقيه، جرى وهو يطلق قباعا خائفا، واحتمى خلف كرسي سيده.

كي تنقشع غيمة التوتر هذه قال زي هاو وهو يمسح العرق عن جبينه بمنديل: "رجاء، فلنبدأ التصويت".

وافقه العم سام على مضض، إنه ندِّي وغريمي، وهو يزداد ثراء كل يوم، كما أن عدد أبناءه... يا للهول! تكاد الأسماء تنفد ولا تكفي مواليدَه، ولكن لي أفضلية عليه، إنه لا ينظر في عيني مباشرة حين يتكلم معي فكيف سيجرؤ على صفعي؟

قال العم سام: "فلتبدؤوا التصويت، من يرى أن يهوذا يقسو قليلا في عقاب جاره الغدّار أبي عبيدة الذي لا يؤمن جانبه، إن كنتَ تريد للعقاب أن يتوقف إلى حين تلتئم جراحه فلترفع يدك".

رفع كل الحضور أيديهم، فنظر لهم العم سام في حنق، ثم قال: "أنا أعارض القرار".

فقامت منظِّمة الاجتماع، امرأة شقراء أوكل لها العم سام مهمة إحضار شكاوى الناس إليه لينظر فيها ويفصل وأوصاها في مقابلة العمل قائلا: "صحيح أننا سنسمح لهم بإدلاء آراءهم والتصويت، ولكن الكلمة الأخيرة دائما ترجع لي، إياكِ أن تنسي هذا، إياكِ أن تنسي من يدفع لك".

فأطرقت خاضعة، وعاهدته على ذلك، ولذا قامت الآن وقالت: "لقد أعلن العم سام اعتراضه على القرار، ولذا لن نفرض وقف إطلاق نار".

فهتف زي هاو محتجا: "هذا ليس عدلا، ذاك الخنزير أمام ناظرك يعذب رجلا بريئا مسكينا وأنت تَحُول بيننا وبين إيقافه، كيف لصوتك وحده أن يلغي أصواتنا جميعا؟".

ولكن العم سام لم يجبه بشيء بل حدجه مليا ثم نظر للمرأة الشقراء فأعلنت: "رُفعت الجلسة".

خرج الحاضرون وهم يلعنون ويشتمون، ومرُّوا جوار أبي عبيدة الجالس وسط بركة من دمائه وسمعوا صراخه واستغاثته، ولكن أحدا منهم لم يحاول فكَّ قيوده، ناوله موح وكونور رغيف خبز وقالوا له: "صبرا.. صبرا".

فالتقطه بيدٍ تقطر دمًا وأخذ يلتهمه بسرعة لشدة جوعه، وهو يكظم ألمه.

ولكن ما نفْعُ رغيف الخبز إلا إطالة عذابي واحتضاري، أليس أجدر بكم أن تمدُّوني بالسلاح فأقف في وجه هذا الغاصب الغاشم.

رجع موح إلى منزله، واستلقى قليلا ليرتاح، ثم جلس على طاولة العشاء، وأخبر زوجته وأبناءه وهو يلتهم فخذ دجاجة: "لقد اتخذتُ موقفا مشرفا اليوم، لا أحد يستطيع أن يزعم غير ذلك، عرضت عليهم الملف الذي سهرتُ ليلة أمس أحضِّره، ودفعتهم بذلك لبدء التصويت، لقد جاهدتُ في سبيل تحرير أخي عبيدة، وأثبتُّ صدق قولي حين أعلنتُ 'أنا مع أبي عبيدة ظالما أو مظلوما' ".

فسأله ابنه الأكبر صالح: "ثم ماذا؟".

- "ثم ماذا ماذا؟".

- "هل تم وقف إطلاق النار؟".
 بُهِت الأب للحظة ولكنه تمالك نفسه ورد مضطربا: "لا، لم يصدر قرار وقف النار لأن العم سام - عليه لعنة الله - اعترض عليه كالعادة، وأنت تعلم عِظَمَ سلطته وتأثيره على جمعية الاتحاد".

- "إذًا لماذا تُتعبُ نفسك ب...".

- "هاي، كُفَّ عن أسئلتك هذه، فأنت ما زلت ساذجا، الاستقلال لا يُنال بين عشيّة وضحاها، عليك أن تصبر سنينا، ألم أخبرك كم مكثت اللعينة ماريان في منزلنا هذا قبل أن نقدر على طردها؟".

- "ولكنك طردتها حينها واستردت حريتك بالقتال والتضحية، لا بالأحزاب والمطالب والوعود والعرائض، لقد رفعت بندقية وحشرتها في وجهها كي تغادر، لقد درستُ عند أستاذ التاريخ إلياس كيف يفي مقتحمو البيوت بوعودهم، وكيف يتعاملون مع المسالمين، ألا تذكر كيف قتلتْ ماريان أبناءك يوم 8 ماي رغم أنها وعدتك بالرحيل، ذاك درس يجب أن لا يُنسى".
 صرخ فيه موح وهو يرشُّه بلعابه لعله يُسكته: "أذكر ما حدث في 8 ماي، أذكره كما لو أنه يقع اللحظة أمام عيني يا صبي، فأنا على عكسك كنتُ حاضرا حين خطف أولادها الملائكة في مظهرهم

الشياطين في قريرتهم كالأفعى ناعمة الجلد سامّة اللعاب، خطفوا أبنائي الأبرياء وصفّوهم أمام الجدران وطلوها بدماءهم، ولكن من قال أني ضد القتال؟ 'أبو عبيدة' يحطم أسنان يهوذا متى آنس منه غفلة ووجد في نفسه قوة، وأنا معه، وأدعو الله أن يستطيع الانقضاض على عنقه يوما، فيخنقه حتى الموت ويثأر لنفسه، أما أن نذهب نحن فنقاتل معه فجنونٌ ودليلٌ على أن القائل بهذا لا يفقه في السياسة شيئا، أولا، نحن بعيدون، بيتنا في شارع، وهما في شارع آخر لا يجاوره، فكيف نصل إلى يهوذا وكيف نباغته؟ علينا لنبلغه أن نجتاز الباحات الخلفية لبعض المنازل، ونتسلق أسوار وأسيجة منازل أخرى، فهل سيسمحون لنا بالعبور ونحن مدججون بالبنادق والمسدسات؟ ألن يخافوا على أنفسهم؟ بل ربما يكون منهم خونة تابعون ليهوذا فيتربصون بنا ويكيدون لنا ليعرقلونا، ثانيا، لا مبرر لنا في نظر العالم للشجار معه فِيهوذا لم ينلنا بسوء، ثم أننا سنغامر بتغيير نظرة الناس له، البشرية جمعاء أجمعت على أنه سفاح سايكوباثي طاغية جبار، طفل العم سام المدلل الذي يلهو بالقنابل والصواريخ، يحسب أن جمع طفل لأشلاء أمه المتناثرة على الرصيف مزحة مضحكة حقا، ثم ينوح وينتحب حين يدعونه إبليس ويرجمونه بالأحجار، لقد سقطت الأحجبة التي كانت تغشى عيونهم، وكلهم يرون هذا الوحش المغتصب على حقيقته، وقد ساعد على حدوث هذا أن الصراع بين يهوذا المدجج بالسلاح وأبي عبيدة الذي ليس بيده سوى يده يكوِّرها في قبضةٍ ويلكم، صراعٌ غير متكافئ أشبه بغُريرٍ يقف في وجه فيل، مما جعل العالم يتعاطف مع أبي عبيدة العزيز الأشمِّ الذي يقاوم رغم قلة عُدَّته، ولذا تصور الآن ما سيحدث لو اتحدنا وتكالبنا على يهوذا أنا ورفعت إسماعيل وأبو القاسم الشابي

وباقي الإخوة، قد يشفق العالم على ذاك الضبع الخنزيري حين يرى الأسود تتنازع لحمه، قد ينسى حين يسمع صرخات عذابه - الذي يستحقه - ويرى دمائه تتفجر وعظامه تتكسر جرائمه الشنعاء، فيصير الظالم مسكينا، ويصبح الناصرون للحق باغين، ولهذا كله لن أغير هذا المنكر بيدي، بل سأنكره بقلبي وأندِّد به بلساني، أفهمت يا صالح؟ كما قلتُ لك، الأمر أعمق وأعقد من تصور مراهق مثلك، أنت لا تستمع لصوت العقل في هذه اللحظة، بل تريد أن تَجري حيث تدفعك دماءك الحارة".

نظر صالح إلى أبيه مليًّا، وأخذ يفكر فيما قاله، لقد كشف له جوانبًا من القضية لم يضع لها حسابا، أهذه مبررات منطقية أم أعذار منتحلة؟ حسْبَ أبيه فخيرُ مساعدةٍ يقدمها هي الوقوف جانبا والتفرج على المجالِدَيْنِ يقتتلان حتى الموت، وتشجيع أخيه، وسبُّ خصمه والدعاء عليه، والدعاء لأخيه، كما لو أنه في كوليزيوم روماني، مع فارق أنه يشكو إلى قيصر صارخا أن يهوذا يلجأ للغدر والخديعة، نفس القيصر الذي أغدق على يهوذا بالأسلحة حتى أغرقه بها وحوّله إلى ترسانة بشرية، يصرخ صالح في قيصر ليوقف النزال قبل مقتل أخيه، هذا هو حل أبيه، فهل أنت بعد اطلاعك على أسبابه مقتنع؟

سكت صالح طويلا ثم قال بعد أن تجاذبت الصراحة والطاعة العمياء نفسه من طرفيها كنسرين يتنازعان قطعة لحم، ومزقتاه تماما، قال وهو يدوس على خنوعه ويسمح لصراحته بالتنفس: "أبي، أظن أن عليك أن تعترف بالحقيقة".

فاتّسعت عينا موح عن آخرهما وردّد غير مصدِّقٍ: "أعترف؟".

فتردَّد صالح وكاد يُحجم فهو يعرف الغضبة العارمة التي سيصبها أبوه على رأسه لو قال ما ينتوي ولكنه عزم أمره وتكلم: "أجل، تعترف، اعترف أنك تخاف الموت، تخاف الفناء والزوال، وتخاف قبله الألم والعذاب، وأنا أيضا أخاف مثلك، كل البشر يخافون هذه الأشياء، ولكن حبك لإخوتك يجب أن يدفع بك إلى أن تقهر مخاوفك وتثب في فكوكها، وهذا ما يسمى بالتضحية، الخُلُق الذي انقرض في زمننا هذا".

صُدم موح لقوله، وراحت يداه ترتجفان، واحمر وجهه ثم اسود ثم اتخذ لونا لم يُسمِّه أحدٌ بعد، قال بعد هدوء مشؤوم قاذفا بالأعاصير والزوابع والدوامات والسيول في وجه ابنه: "اخرس يا قليل الأدب! يا قليل الاحترام! أهكذا تخاطب أباك؟!! أباك الذي يحرص على سلامتك، تريد أن تنتحر؟ فلتذهب وتشقّ معصميك في الحمّام إذن! ولكن لا تطلب منا الموت معك، فكر في أمك البريئة، فكر في أختك الصغيرة، فكر في أخيك الرضيع، أتريد قتلهم معك؟ ترغب في الحقيقة؟ إليك الحقيقة اللعينة إذن، أنا لا أرغب في مساعدة أبي عبيدة لأني لا أرغب في يكون مآلنا كمصيره، لا أريد أن يجافيني النوم في خيمة ضيقة، والخوف مستبد بي أن تسقط علي قنبلة ما وأنا نائم فتقذف بي من الحلم إلى الآخرة، والجوع يضطهد بطني فلا أملك لدفعه سوى الطماطم الفاسدة وعلف الأغنام والديدان الزاحفة، لماذا أقف في وجه قوة غاشمة أعرف ألّا قِبَلَ لي بها؟ لو تبادلنا أنا وأبو عبيدة الأدوار أراهنك على أنه سيقول ويفعل مثلي، ما بيدنا إلا الدعاء فربنا وحده يستطيع قهرهم، هل تشك في هذا؟ أتحسبه يحتاجنا؟ سينصرهم وحده، إنه على ذلك قادر، ولابد أنه سيغفر لنا لأنه يعرف وضعنا".

"'اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون'"، اقتبس صالح لأبيه راجيا بآية من القرآن أن يجعله يدرك خطأ اعتقاده.

ولكن الآية كانت اللغم الذي فجّر غضب أبيه عليه أكثر، صرخ فيه: "آية اليهود؟! تشبهني باليهود أيها الوقح؟! انهض، انهض واغرب عن وجهي، هيا، انهض قبل أن تذوق طعم الطعام من كفي".

انتفض صالح لغضبة أبيه السوداء، ووقف ينظر له كأنه يتثبتُ من جديته، ثم غادر لغرفته حين رأى النظرة الشزراء التي رماه بها.

لكم الجدار في حجرته ثلاث مرات وتركه يئنُّ ويصيح متألما: وما ذنبي أنا؟

مهلا، أسمعكم تقولون من صالح؟ سمعتم حواره مع أبيه ولكنكم تريدون أن تعرفوا كيف يبدو، حسنا...

صالح شاب في العشرينيات تتفجر عروقه بالدماء الحارة، صالح ينفعل طيلة الوقت، إذا غضب وجدته يصبُّ الشتائم على كل شيء، الجدار البريء المسكين، الصور المعلقة عليه، جواربه، الموسخة منها والمقطعة وحتى النظيفة لا تسلم، حاسوبه الخرف، الذبابة عاثرة الحظ التي جاءت تداعبه في تلك اللحظة، أما إذا ابتهج وتحمّس وجدته يرقص وسط غرفته كالعريس – أو ربما كالعروس –، وإذا حزن واكتأب وجدته راقدا طيلة النهار، ساهرا طيلة الليل، يحكي همومه لكل من يراه حتى لو كان شخصا لم يلتق به أبدا في حياته، وقد يكتشف بعدها أن ذاك الشخص أصم أو معتوه فتثور ثائرته ويهرع لمنزله ليقتصّ من الجدار.

هذا هو صالح، وهو مستلق على سريره يلهث بعد أن أبرح الجدار ضربا، يستلقي متضايقا من عرقه، متضايقا من قبضتيه النابضتين بالألم، متضايقا من جبن أبيه وتعصبه لرأيه الخاطئ، متضايقا من البطانية الحارّة الخانقة، متضايقا من الحياة كلها، أمسك هاتفه وراح يركض بإبهامه على مقاطع الفيديو القصيرة لعلها تشغله عن غمِّه، الفيديو الأول عن شاب ملتح بعض الشيء يتكلم عن لعبة "أساسان كريد" الجديدة، البطل اسمه

"لا أحد"، اسم غريب، أليس كذلك؟ أحدٌ اسمه لا أحد، يقول الأستاذ وهو يتفرس في وجوه التلاميذ: "من ألقى هذه الكرية؟".
فينفجر فيهم: "لا أحد؟ الورقة كورت نفسها بنفسها، ثم طارت وضربت أذني لوحدها، أليس كذلك أيها الأوغاد ال...؟"

- "كلا، لا أحد هو من قذفها

"تبا لكم جميعا، سأقتلكم اليوم"، ثم يهبُّ ليقفل باب القسم، وما إن يخرج مفتاحه مستعدا ليفتح به أبواب عيونهم، حتى يقف لا أحد معترفا: "إنه أنا، أنا قذفتها".

- "آها، احمدوا ربكم على أنه نطق، والآن ما اسمك؟".
- "لا أحد".

جريمة قتل.

انتقل صالح إلى مقطعٍ آخر فإذا هو من قناة "كوكب الكتب" التي يتناول صاحبها كتابا كل مرة، فتابعه إذ يتحدث عن سلسلة "فانتازيا" لأحمد خالد توفيق: "للقارئ المبتدئ الذي لم يقرأ للعرّاب من قبل أرشِّح 'فانتازيا' ولا أرشح 'ما وراء الطبيعة'، لأن الأولى سهلة وفيها قدر أكبر من الثقافة، تخيل أنه في كل عدد منها تدور القصة حول أعمال كاتب من العظماء أمثال شكسبير ودوستويفسكي، رغم أنها أحيانا تقع في العالم الواقعي في فترة تاريخية معينة، مثل ذاك العدد الذي تحدّث فيه عن الحشاشين وقلعة آلموت التي كان زعيمها..".
كان زعيم الحشاشين يخدِّر أتباعه، وينقلهم وهم نائمون إلى مروج سرية لا

يعرف الطريق إليها سواه، ويبعث إليهم الجواري المليحات بصواني الفاكهة المونعة، وكؤوس الخمر المترعة، وأطباق الدجاج الشهية، حتى إذا أفاقوا خالوا أنفسهم في الجنة، فيفكُّون أحزمة شهواتهم وسراويلهم في آن واحد حتى يتيحوا لبطونهم الخاوية مساحةً فتتسع لكل تلك اللذة الفائضة، ولغرض آخر واضح لا داعي لذكره، فتتلاطمهم بحار السُّكر والنشوة، فهم فيها يترنحون ويتمايلون في عربدة ومجونٍ أبو نواس نفسه لم يذقهما، ولو كنتَ في تلك الرياض لتجسّد لك أولئك الحشاشون إسفنجات، تزحف خلف اللذة زحف الأفعى صوب الفأر، فتتشربها وتمتصها وتعبُّ منها عبّا، ثم حين يُشبعون شهواتهم، ويروون ظمأها حتى يكاد ينمو لهم سِنامٌ يخزِّنون فيه فائض المتعة، يخدرهم مجددا ويخرجهم من الجنة المزعومة. فإذا صحوا قال لهم أنهم زاروا النعيم، وذاقوا نكهته، وتنشقوا نسمته، وسمعوا نغمتها، وحظووا بنظرة إليها، وأنهم لراجعون إليها، ومقيمون للأبد بها، إن هم جاهدوا وماتوا شهداء، وكيف يكون الجهاد؟ تعال أعلِّمك، احمل خنجرا، اشحذه جيدا حتى يكون أمضى من قلمي هذا، اغمسه في سُمٍّ عجول حتى يأتيك اليقين أن اليقين سيأتي الضحية، ثم تربص بهذا الأمير أو ذاك الوزير حتى يخرج للشارع، أو صلِّ خلفه وهو يؤُمُّ الناس، هل تراه؟ انقض عليه الآن كالصقر، وأغمد الخنجر في تفاحة عنقه حتى يخرج من قفاه، فتصير عنقه كسمكة مخوزقة بسيخ، أحسنت يا فتى، لا تأبه للمتجمهرين الثائرين عليك حولك يوسعونك ضربا، الجنة لك الآن... حسب زعم الزعيم.
هذه هي طريقة الحشاشين.

تجاوز صالح هذا الفيديو وهو يقول في نفسه: لقد قرأتُ هذا العدد بالفعل، وأنا أُفضِّل عليه أي عدد من "ما وراء الطبيعة" حتى أسوأها، حريٌّ

بك أن ترشِّح للقراء أفضل أعمال العرّاب لا أكثرها امتلاء بالاقتباسات.
ولكن مهلا، الفيديو الأول كان عن أساسان كريد، أما هذا فعن قلعة آلموت، أليست هذه مصادفة غريبة؟ نطّ بإبهامه إلى الذي بعده، قناة السبيل، فيديو رسوم متحركة يشرح فيه المعلِّق الصوتي تاريخ الحشاشين منذ تأسيس جماعتهم وحتى نهايتها بالتفصيل، مهلا، مجددا؟!
الحشاشون يحشون وجوههم في كل فيديو كما يبدو. فجأة خطر بباله: لقد نسيتُ أني لم أعد أؤمن بالمصادفات، فكثيرا ما لاحظت مؤخرا ترابط الحوادث المتعاقبة مثل تلك المرة حين كنتُ شاردا في الجامعة أتذكر فتاة اسمها هاجر درستُ معها في الثانوية، حتى إذا تلاشت الذكرى التي غشت عيني فجأة، واتّضحت رؤيتي ركزت النظر على الطاولة أمامي وماذا أجد مكتوبا على جانبها بخط عريض... هاجر! أو حينما كنتُ في الحافلة أشاهد في طريقي تزجية للوقت واستغلالا له في الآن ذاته مقطع فيديو لقناة "sapience institute" التي يحاضر فيها محمد حجاب أحيانا، ف...
مهلا، يا صالح، دعني أعرِّف القراء على محمد حجاب.
من محمد حجاب؟ إنه أسد ليث ضرغام هزبر أسامة أغلب هصور من أسود الإسلام، آتاه الله بسطة في العلم والجسم، وزاده عليهما خطابة يكاد يضاهي بها الحجاج قبّح الله وجهه وعلي كرّم الله وجهه، درس فلسفة الغرب في جامعة بريطانية، وتعلم معها التاريخ والشريعة وغيرها من العلوم الإسلامية حتى أتقنها، ثم اقتحم غمار المناظرات، وراح يصرع خصومه هناك سواء كانوا نصارى أم ملاحدة كما كان الليث حمزة قبله، مزمجرا في ساحة الوغى، على مشهد من جبل أُحد، يبعثر بسيفه البتار المشركين يمنة ويسرة، قبل أن يخطفه الرمح الغدّار بغتة ويعرج به كالبُراق للجنة.
كان محمد يصرعهم بالحجة الدامغة، والكاريزما الطاغية العاصفة، والنبرة

المختالة الجبارة الكاسحة، وأحيانا بسخرية مريرة لاذعة لادغة لاسعة، أو توبيخ قاصم قاصف قاس قارس يلجأ إليه إن كان يناظر المستهزئين بالرسول.

هذا هو محمد حجاب الذي إن رشح نفسه اليوم للخلافة فسأبايعه دون تردد، المهم، الآن، أكمل يا صالح حديثك عن الفيديو، أي فيديو؟ تنسون بسرعة يا مرضى الزهايمر.

الفيديو في الحافلة كان حوارا استضاف فيه رئيس المنظمة حمزة زورتس – اسم يوناني وأنتم تعرفون ولع اليونانيين بتعذيب الأجانب بأساميهم العجيبة، مبارك المولود، ماذا ستسميه؟ همم فلنر، أي الحروف ستجعل ألسنتهم تتلعثم لا محالة، وجدتها، شمضخروفقكعغمخوس!

استضاف حمزة عضوا جديدا في المنظمة وهو عالم سُعوديٌّ ذائع الصيت يدعى عبد الله العجيري ترجم كتابا عن هيروشيما عنوانه هو... هيروشيما، يا للمؤلف العبقري! خير العناوين أبسطها، راح صالح يصغي باهتمام وتركيز لكي يفهم فقد كانت لكنةُ العالِمِ الإنجليزيةُ ركيكةً باعترافه، ثم بلغتْ الحافلة الجامعة بعد دهر، فهبط وانطلق في رحلة الصعود المضنية لمعهده المقام على قمة تلٍّ كأنه معبد بوذي، كأنهم يتوعدون الطالب: "سنرهقه صعودا".

وصل لقسمه يلهث كالمحتضر. كانت حصة العربية، وقد أدرك أنه وصل متأخرا كالعادة، فاعتذر كالعادة، وقبلت الأستاذة المتسامحة اعتذاره كالعادة، كان الطلبة قد شرعوا في عرض بحوثهم التي كلفتهم بها متيحة لهم حرية اختيار الموضوع. صعدت طالبة على المصطبة تقدم مراجعة لكتاب قرأَتْه، خمنوا ما عنوانه، أحسنتم، هيروشيما، مهلا، لعله كتاب آخر، فلنر اسم المترجم، عبد الله العجيري!

لم يصدق صالح أذنيه، خصوصا وأن هذه ليست أول مصادفة عجيبة وقعت له، فالأمس فقط رافق تلاميذ المدرسة الخاصة التي يُعلِّمُ بها، والحق أن أستاذا آخر كان يرافقهم في العادة فطلب منه أن ينوب عنه لأنه سيتغيب، قبِل صالح عن طيب خاطر، ثم حين بلغ المحطة الأخيرة صعد شاب مع الأطفال إلى الحافلة، وهذا غير معهود، ولم يكن الشاب سوى عدوه اللدود الذي كانت تراوده بإلحاح في تلك الأيام ذكرى الإهانة التي أحلّها به حين كان يدرس معه في المتوسطة، فتتغلغل أغلال الغلِّ في صدره أكثر، تلك الأغلال الحامية حدّ الانصهار الملتهبةُ بالرغبة في الثأر، بعد حوارٍ قصير معه عرف أن ذاك الوغد ذاهبٌ للمدرسة ليسأل المدير إن كان هناك منصب شاغر للعمل بها، ولكن كيف لهذا الوغد أن يلتقيه بعد هذه الأعوام في اليوم الذي تغيَّب فيه المرافق فناب عنه، ويختارَ هذه المدرسة بالذات ليعمل بها، وكل هذا يتصادف مع ذكرى العار التي راحت تتكرر باطّراد في تلك الفترة.

وما تذكّره صالح في هذه اللحظة لم يكن سوى قطرة واحدة من بحر الصُّدف العجيبة التي ينثرها موج الزمان على شاطئ حياته كل يوم.

هذا ما دفع صالح إلى أن يظن أن الله اصطفاه على العالمين ليُطلعه على سر من أسرار الحياة، ويمنحه تلميحا إلى حل لغز القدر والإرادة، طبعا لم يصل الأمر به إلى ادعاء النبوة، فهو ليس نرجسيا كالمتنبي، ولكنه شعر بأنه ارتقى إلى منزلة أدنى لمرتبة الذي جاء لسليمان بالعرش في رمشة.

اقتربوا مني لأهمس لكم بالسر، بنظريته العجيبة، مهلا، ماذا قلتم؟ أنا أطنب وأستطرد - أو بعبارة أبسط - أثرثر كثيرا؟ ضجرتم مني ومن صالح ونظريته السخيفة؟ علي أن أرجع لفلسطين؟ آه، أين رحل قراء دوستويفسكي الصبورون المتمهلون كأنما يخدِّرون الوقت ويختطفوه قبل فتح رواياته ذوات الألف صفحة، لا تلوموني أيها العجولون، لوموه هو

وتحليلاته النفسية الطويلة المسهبة لأدق حركة تقوم بها شخصياته حتى لو كانت سعلة أو عطسة، فأنا أقرأ كتبه حاليا، والقراءات تتجلى في أسلوب الكاتب كما يحمل وجه الابن جينات الوالد.

فليكن، سأختصر، إليكم نظريته المثيرة: لا يجوز أن نفترض أن الله هو من أجبر زميلة صالح على أن تختار ذاك الكتاب موضوعا لبحثها، ثم تقدمه في ذات اليوم الذي شاهد فيه هو الفيديو في عين اللحظة التي دخل فيها إلى القسم، فهذا يلغي حرية الاختيار التي كفلها الله لنا، والتي تجعل حسابه لنا على معاصينا وعقابنا عليها عدلا، فكيف إذن قُدِّر لتلك المصادفة أن تحدث؟ الله يعلم كل شيء مسبقا، وهو قد لا يتحكم بأفعالنا ولكنه يتحكم بمحيطنا وظروفنا، ولذا فقد شاء لتلك الفتاة أن تولد في ذات السنة التي وُلد فيها صالح، وكذلك لسائق الحافلة ولحمزة ولعبد الله العجيري ولأستاذة العربية، لقد أراد لهم أن يعيشوا في نفس الفترة الزمنية، وقدّر الظروف عالما أنها ستولِّدُ هذه الحادثة العجيبة، فهو الحكيم العليم قد نسج شبكة معقدة من الفواعل والعوامل مستعصيةً مستغلقةً على العقل البشري، وهذه الشبكة تؤدي إلى هذه الوقائع المترابطة بشكل محير معجز لحكمة لا يعلمها إلا هو، وهو قد قدّر لصالح أن يلاحظ ذلك، وأن يرى فيه رسالة ربانية وبرهانا آخر على وجود إلهٍ سيّر ونظّم ودبّر وخطّط لكل شيء ليقع كما أراد له.

ماذا تقولون؟ فلسفة عديمة الجدوى؟ سخافة وسفسطة فارغة وتعقيد لا طائل منه؟ أهذا عسير على الفهم؟! حسنا، إليكم تشبيها، أتعرفون لعبة كاندي كراش، تلك اللعبة التي ترتب كل عنصر فيها مع شبيهه في صفٍّ لتحذفه، لا؟ آه، تبا، لا بأس، سآتي بتشبيه آخر، حسنا، ماذا عن مكعب الروبريك؟ الوقائع هي المربعات الملونة، والله نسّق الوقائع المتشابهة (المصادفات) وجعلها متتابعة متلاحقة فلكأنها صفوف ذاك المكعب،

وكيف فعل ذلك؟ إنه يعرف كل إنسان، ويعلم كل كبيرة وصغيرة سيفعلها من لحظة خروجه من رحم أمه إلى لحظة دخوله رحم الأرض، ويعلم نتاج هذه الأفعال كلها، وهكذا نسّق هذه الحوادث كلها في خليط متجانس متناسق كما أحكم ترتيب الآيات في القرآن لتتناسب وتترابط رغم اختلاف ترتيب النزول عن ترتيب المصحف، وتلك معجزة أخرى يغفل عنها أغلب الناس.

لم يستغرق صالح طويلا ليدرك الرسالة الربانية وراء تتابع فيديوهات الحشاشين، كلا، ليس الانضمام إلى الشيعة الإسماعيلية، خطر له هذا فارتجف لفكرة تقطيع جسده في يوم كربلاء، أولئك المخابيل، ألا يشعرون؟ حتى الألم يجفل ويقشعر حين يرى الأنصال المنغرزة في أوصالهم، ويشفق عليهم، فكر صالح أن ذاك أغبى طقس ديني رآه، بجانب المشي على الجمر، وتقديس البقر، وعبادة أوثان التمر. لو بُعث الحسين من قبره لاستبشع ما يفعلون وتبرأ منهم، لقد كان مقتله الشنيع شرا فهل تتصورونه يرضى بأن يصيب إخوانه مثل ما أصابه؟
كان صالح يعتقد أن ذاك شكل من لطم الخدود أشد عنفا ودموية، وإن كان اللطم حراما فما بالك بتمزيق جسدك وإراقة دمك حزنا على ميت؟ ولماذا الحسين بالذات؟ ألم يُقتل علي أيضا مغتالا؟ وعلى ذكر الاغتيال، هذا هو الحل، أرأيتم كيف عدت إلى الموضوع آخر المطاف وربطت طرفي الفقرة في عقدة مثالية.
الرسالة هي : الاغتيال هو الحل، حل ماذا؟ حل يهوذا، مهلا، فليسقط الرمز، اقذفه من النافذة، يهوذا هو إسرائيل الصهيونية التي لو كان يعقوب عليه السلام حيًّا لتبرَّأ من أحفاده الصهاينة، ولعنهم، وشعر بالعار من إطلاقهم اسمه على دولة بُنيت على الأنقاض والأشلاء.

ولذا حين فكر صالح في الاغتيال، لم يكن بخُلده سوى صورة واحدة مقيتة لرأس الأفعى، مَنْ غيرُ ذاك الخنزير الضبع الذئب القذر الدنيء الخسيس الحقير المنحط الجبان السافل الوغد النذل النجس النتن نتن-ياهو يستحق الموت؟
ابتسم صالح، ودق قلبه بعنف، وأمسك هاتفه، وسرعان ما راح إبهاماه يبثان فكرته العبقرية إلى العالم في منشور على فيسبوك، قال فيه : "أنا مستعد لفعلها، لقد فكرتُ الآن مليًّا، هل أنا جاهز للتضحية بروحي في سبيل الله؟ هل أنا مستعد للجهاد والموت في سبيل الله؟ واتخذتُ قرارا، تخليتُ في هذه اللحظة عن الدنيا بأكملها، نبذتُ أحلامي وطموحاتي، أشحتُ عن المال والشهرة والسلطة والنجاح، واخترتُ الآخرة، أنا في هذه اللحظة موقن من صدق قراري هذا، أشعر بالعزم يموج بقلبي في هذه اللحظة، الدعاء لا يكفي، المقاطعة لا تكفي، المظاهرات لا تجدي، السياسة لا تؤثر، الاستجداء لن يُجدي، علينا أن نقوم ونسترد حق إخواننا بأيدينا فما أُخذ بالقوة لا يُسترجع بالسِّلم، ولكن دولتنا لا توفر لنا الأسلحة، وأنا لستُ قويا ولا نينجا خبيرا بأساليب التربص والتسلل، فهل يمكنكم مشاركة المنشور حتى يتمكن أحد أبطال جماعة "حماس" من رؤيته؟ أو إن كنت تعيش في نفس بلدي، فعلينا أن نتحرك ونضغط على الحكومة فتسلّمنا الأسلحة للقتال، سنقول لهم : "لا تريدون أن ترسلوا الجيش؟ لا تريدون أن تطلقوا الصواريخ وتبعثوا أسراب الطائرات، وأساطيل السفن الحربي. عتادكم الحربي الذي تتفاخرون به في الاستعراضات كل يوم لا ترغبون في إهداره على الفلسطينيين فهم لا يستحقون، أو ربما هو اليقين بالهزيمة، أو الخوف من ترك بلدك أعزلا واهنا معرضا للهجمات مثل مريض بلا مناعة يسقط طريحا لنزلة برد، فليكنْ دعونا نذهب نحن إذن، وب"نحن" أقصد كل مسلم عزيز، قوي الإيمان، لا يرضى العيش الهنيء

وإخوانه يرزحون في الهوان، ولا يقبل بأن يُكتب مع القعدة الخالفين، كل مسلم لم تندثر النخوة والشهامة في نفسه بعدُ، أقصد كل رجل، أما بقية الخرفان الذين ينجرفون مع الحياة دون تفكير، همُّهم الوحيد أن يتنفسوا ويعلفوا وينكحوا ويتغوطوا فله أن يطأطئ رأس الذل ذاك، ويواصل ثغاءه وهو الأبله يحسبُ أن يوم ذبحه لن يأتي".

لم يكن صالح بالغضوب ولا بالجريء، وقد كان خجولا لا يردُّ على السخرية عادة إلا حين تمسُّ معتقداته، ولا يفتعل الشجارات، ولكنه حين يشرع في الكتابة تبرز مخالبه، وتثب أنيابه، ويخلع عنه جلد اللطف والسذاجة، ويتدثر بفروة الجرأة والصراحة، فلو قرأتَ له لحسبته رجلا عنيفا عكر المزاج، مستعدا لتوزيع اللكمات متى شمّ رائحة خافتة لإهانة، ولو أخبرك أنه الكاتب لما صدقته، وكان دائما يتساءل : من أكون؟ أأنا ما أكتب أو ما أقول؟ ولكني جبان خجول لا أقول كثيرا، أما حين أكتب أسكب مكنون صدري على الورقة، فصدري محارة، وليس بغير الكتابة ينال الناس نظرة على الدُّرة داخله.

شارك صالح المنشور، ثم استلقى على سريره مجددا، وتدثر بالبطانية، ودخل زريبة التيكتوك، وشاهد بعض الفيديوهات القصيرة المضحكة والسخيفة، ثم راودته نفسه إلى مشاهدة بعض الراقصات، وكان يكبح جماحها عند ذاك الحد، ولا يسمح لها أبدا بأن تجرُّه إلى العري والعهر، شعر بالندم بعد برهة، لا سيما وأنه لم ينل الإثارة المشتهاة، فقد اعتاد هذه الفيديوهات ولم تعد جرعة الدوبامين الضئيلة تلك تكفيه، صفع نفسه بعنف وهو يشتم: أنت لا تتغير أبدا أيها الحقير، أأنت من سيحرر فلسطين؟ شخص مثلك يترك الشهوة تقوده باللجام، ربي سيغفر لي، قل يا عبادي لا تقنطوا من رحمة الله، لماذا تقع دوما في نفس المستنقع؟ المؤمن لا يُلدغ من الجحر مرتين، كم مرة لُدِغت بربك أخبرني، أنت لست بمؤمن، أنت

منافق، أأنا منافق؟ وإن كنتُ كذلك فهل أنا أهل للدفاع عن فلسطين؟ أكلماتي فارغة خاوية وهل أنا أتظاهر فقط بالبأس والبسالة أمام شاشة، ولكن في الواقع حين أقف في ميدان المعركة حيث الرصاص يقتحم الأبدان، سأبلل سروالي عند أول طلقة؟ أتكلم عن الجهاد والاستشهاد وأنا لم أذبح حتى دجاجة في حياتي، لم أر شخصا يموت أمام ناظري قط، فما بالك بشخص يُقتل؟ فما بالك بأن أقتله أنا بيدي؟ يا للسخرية! أنا حقا مستعد للتضحية!

قرأ صالح سورة الزمر قبل خلوده للنوم، تكفيرا عن الخطايا وغمرت صدره رغبة جامحة في البكاء ندما وعجزا عن الإقلاع عن عاداته السيئة، ولكنه قبض على دموعه وصفّدها وزج بها عميقا في زنازين المحاجر حيث لن ترى النور أبدا، البكاء للنسوان، وقمّط نفسه بالبطانية وغطّ.

طلع الصبح، واستيقظ صالح على صراخ أبيه إذ يهزه بغلظة كأنما ينتقم لما قال له بالأمس، مستغلا الفرصة إذ ابنه فريسة سائغة يتأرجح بين المنام واليقظة، صحا صالح متضايقا ولكنه سرعان ما تناسى ذلك، وركّز على لمِّ شتات حلمه مثل هاجر على النّبع تسدُّ الماء بيديها وتردّد : "زمزم".

جاءته صور الحلم خاطفاتٍ كأنما هو كاميرا تلتقطها، فلاش... صورة له في بزة زرقاء، وقد حلق شعر رأسه كله، وكلّلت قمة صلعته قبعة سوداء صغيرة، أنا يهودي؟ خطر له هذا فاعترته رغبة ملحة مباغتة لخلع القبعة وقذفها بعيدا كما يقذف صرصورا يتسلق ساقه.

ليس كرها لليهود بل لأن بعض اليهود صهاينة، وكل الصهاينة قتلة، ولكن جسمه لم يطاوعه، فلاش! سمع نفسه يتكلم بلسان غريب، أهذه عبرية؟ أنى لي الحديث بالعبرية؟

لم يكن يعرف منها سوى "تفت" والتي تعني الفتاة الصغيرة، و"أخد" والتي تعني أحد، و"شالوم" والتي تعني السلام، ثلاث كلمات علمه إياها أحمد ديدات ومحمد حجاب.
ولم يزد عليها ولا رغب في الاستزادة.
انتابه شعور غريب كأنه يتحدث السليذيرين، فلاش! رأى كل السادة الجالسين حوله إلى الطاولة أفاعٍ سامّة ملتفة ألسنتها تُطلّ وتولّي في فحيح وهسيس، تجسيد الحقد والعنصرية الخالصة، كان حوله عشرة رجال يتناقشون خطط الحرب، **قاعة اجتماعات كالتي يرتادها أبي**، سمع اثنان يتشاجران بحدة، والآخرون يحاولون فض شجارهما، حتى تكلم رجل يجلس على رأس الطاولة : "كفى".
فصمت كلاهما محنقا.
فلاش! التفت ليرى قائدهم، فلم يكن سوى نتنياهو بنتانته وقذارته، كان جالسا على عرش وُضِع على رأس الطاولة، وإلى شفتيه المزمومتين تتسلل ابتسامة خفيفة خبيثة، لفكرة خسيسة خطرت على خلده، كانت هناك ضباع تسرح خلف عرشه، ضاحكةً سعيدة بالجثث والجيف، ممتنةً للسفاح الكريم الذي يبسط لها يديه فتأكل وتلعق حتى تتخم، داعب خنزيران سمينان مستلقيان جوار قدمي العرش ساقيه، وراحا يقبعان في نجاسة تكاد لها الأذن تبصق وتقيء وتمضمض اشمئزازا.
قال نتنياهو مدغدغا عنقيهما ملاعبا : "اسمعوا لخنزيري الظريفين، إنهما جائعان، أووه، يا صغيريَّ، أأنتما جائعان؟ لا تقلقا، إن هي إلا ثوان ويحضر الطعام".
فلاش! كأنما كانت كلمته إشارة دخل خادمان يحملان طبقين فضيين كبيرين، فوثب الخنزيران راكضان إليهما وراحا يلفان حول سيقانهما في

لهفة، فوضعا الطبقين أرضا وكشفا عن الغطاء، دس الحيوانان منخريهما، وراحا يأكلان بشراهة، وسرعان ما تلوث خطماهما بالدم.
قال نتياهو مبتسما : "لذيذ، أليس كذلك؟ شهي، هاه؟ وددتُ لو أكلتُ معهما، إنها وجبتهما المفضلة، فلا تستغربوا شراهتهما، إنها أشلاء صغار تلك الحيوانات الفلسطينية مختلطة بصفحات المصاحف".
كادت عينا صالح تقعان، وكادت أذناه تقشعران وتنكمشان من الهول، شعر بحقدٍ حالك كالح عكر خثر يسدُّ كل عرق في جسده، حملق في الوجه مليًّا بنظرة قاتمة، هذا هو الجزار السفاح، الشعر الأشيب المسرَّح للجانب ينحسر عن جبهة مستديرة تتخللها تجعيدتان ونصف تجعيدة، الأذنان الكبيرتان البارزتان على الجنب كآذان الكوالا، الحاجبان البنيان اللذان عفا عنهما الشيب مقوَّسان كجناحي نسرٍ كنّاسٍ فوق عيني ثعبان بلا روح، الفم الملتوي الرقيقُ الشفتينِ، الذي يحملُ طرفُه إبرة عقرب، وأخيرا لُغد السلحفاة ذاك الذي يتصور أحيانا يده تحته، تسعى بلا توقف كهاجر بين الصفا والمروة بسكين الذبح.
ظلت عيناه مسمّرتان على تلك الابتسامة البغيضة، لكم يعشقك إبليس، لابد أنه سيطعمك طلع الزقوم بيده قعر جهنم.
كانت نظرة صالح قبل أن تبلغ وجهه ترتطم بالخنزيرين الجشعين، اللذين يتلذذان بازدراء أصابع وعيون الأطفال المقطوعة والمقلوعة الملفوفة في آيات قرآنية طمسها الدم، ولو استطاع قراءتها لوجد في إحداها : "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها".
كم دمعة سالت من أم وأب على جثامين أبنائهم حتى ابيضت الأعين وعميت؟
وكل هذا بسبب ذلك الشيطان المسترخي على كرسيه أمامي.

سحقا، ماذا فعلوا ليستحقوا أن تصبَّ العذاب على رؤوسهم؟ تنتقم لأخيك الذي قتلته المقاومة؟ أهؤلاء الأطفال قتلوا أخاك أيها المعتوه؟ ألم تثأر بما فيه الكفاية؟ تبا لك ولأخيك! كلاكما يستحق الموت، أحدكما ناله والآخر ينتظر وقريبا سيذوقه.

لم تكن خواطره هذه واضحة هذا الوضوح في تلك اللحظة، ففي صدره كان يتمعج غضب عارم جارف، رغب بشدة في أن يجري نحو نتنياهو، ويجذبه من تلكما الأذنين القبيحتين ككل شيء فيه، ويرميه أرضا ثم يدهس على رأسه حتى يهرس دماغه.

ولكن جسده أبى الرضوخ، ووجد نفسه يتحدث بالعبرية : "سيادة رئيس الوزراء، أنا أحمل إليكم معلومات سرية غاية في الخطورة عن خطط "حماس" ومؤامراتهم، هل تسمح لي بإطلاعك عليها على انفراد؟ إنها مستعجلة وعليك أن تسمعها فورا".

لم يعرف كيف فهم تلك الكلمات، ولم يفكر في ذلك حتى، كل ما دار بباله هو : أنا خائن؟ عميل مزدوج؟!!!

انحنى نتنياهو للأمام متحفزا كقط رصد حمامة غافلة، وأمر مستشاريه والوزراء : "حسنا، يمكنكم الانصراف، لقاؤنا غدا، وقد أعدل الخطط التي اتفقنا عليها بناء على ما أحضره لنا عميلنا الوفي صالح من معلومات".

فوقفوا وانحنوا له، ثم خرجوا ولم يبق سوى اثنان يقفان على جانبي كرسيه.

قال صالح : "الأسرار التي لدي بالغة الخطورة، أفضِّل ألا يسمعها سواك".

- هذان حارساي الشخصيان وأنا أئتمنهما على حياتي، لقد كانا معي في الجيش يقاتلان إلى جانبي في نفس الوحدة

- إن كانا أهلا لثقتك فلا بأس، والآن، الخبر الأول هو : حارساك هذان هما قاتلاك
- ما.. ماذا؟!
- الخبر الثاني هو: ستموت اليوم.

تجمد نتنياهو من شدة الصدمة، وما إن فغر فمه ليستصرخ حتى سدّ حباله الصوتية خنجر مسموم حادٌّ، لم يستطع أن يدير عنقه فقد كانت كف القاتل محكمةً على مقبض الخنجر، الذي دخل من جهة وخرج من الأخرى، ارتفعت عينه تفتش عن وجه قاتله لتؤنبه أو تلعنه، أراد قول شيء ولكن كلمته الأخيرة كانت حشرجة، اشتدت يده على كف القاتل، فيما تدفقت الدماء مغرقة بزته، اقترب منه صالح وهمس في أذنه : "لسوف يغتصبك الزبانية في الجحيم، وأخوك يشاهد ريثما يحين دوره".
ثم سحب الخنجر من عنقه وقال لحارساه : "تعرفان ما يجب فعله".
فاستلّا خنجرين وتناوبوا على طعنه كأنهم يغتالون يوليوس قيصر، صرخ صالح وهو يمزق جسده في هياج، والدماء تتناثر على وجهه حارة فتغسل الحقد وتُبرِّد الغضب : "هذه لأجل هند رجب وكل الأطفال الأبرياء الآخرين، وهذه لأجل أنس الشريف وجميع الصحفيين الشهداء وهذه لأجل يحي السنوار وكل المجاهدين المستشهدين في حركة حماس، وهذه لأجل كل ثكلى فقدت أطفالها، وهذه لأجل كل فلسطيني خسر أصحابه، وهذه لأجل كل أب فقد أسرته وهذه لأجل كل فلسطيني فقد أطرافه".
كان قد سدّد سبعين طعنة حين خطفه صوت أبيه من الحلم.
ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيه لحلاوة الذكرى وقال : "يا له من حلم جميل!".

ألم يفرح اليهود لمقتل هتلر؟ ألم يفرح الإباضية لموت الحجاج؟ ألم يفرح المسلمون لمقتل أبي جهل وأمية؟ ألم يفرح الروس لموت ستالين؟ وماذا يرقب الطاغية من المستضعفين إلا أن يرقصوا على قبره؟

خرج متثائبا ليصلي الفجر، واستمع للإمام إذ يدعو الله أن ينصر الفلسطينيين، وأصوات المصلِّين ترتفع بالتأمين كأنها أزيز خلية نحل غاضبة، أمّن هو معهم أيضا، ولكن فتى داخله رفع قبضته وهزها ثائرا : "إن تنصروا الله ينصركم"، أم أنكم لا تفهمون القرآن؟ ماذا تريدون؟ تريدون من الله أن يُنزل جيشا من الملائكة يقاتلون بدلا عنكم؟ لماذا أيها الإمام لا تقف؟ قف على قدميك والتفت إليهم بنظرات من لظى وازأر فيهم : "لن أكتفي اليوم بالدعاء، بل سأدعوكم أنتم للقتال معي وأدعو الله النصر، فليرجع كل منكم لمنزله، ويحمل أي سلاح لديه، ليس في دارك سلاح، ألديك فأس؟ ألديك معول؟ ألديك مجرفة؟ ألديك سكاكين؟ ألديك قضيب من فولاذ؟ ألا تستطيع أن تقتل رجلا بقضيب فولاذي؟ أستطيع قتل عشرة، سنلتقي أمام المسجد ونزحف نحو أقرب ثكنة، نحتجز الضباط رهائن، ونسلبهم أسلحتهم، من أراد منهم أن ينضم لنا مرحبا به، سنجمع المزيد من الرجال، ثم نزور الثكنة تلو الأخرى حتى نجمع ما يكفي من الذخيرة، نرفع راية فلسطين، ونختطف الطائرات، ونستنفر الجيش الوطني ليقاتل لجنبنا، أليس الجنود مسلمين؟ أليسوا من الشعب؟ منا نحن؟ أليس لهم آباء وأمهات وإخوة وأخوات يقيمون بيننا؟ فإذا كان الجيش من الشعب فما الذي يدفعه للوقوف ضده سوى الخنوع، ونحن لن نقف ضد الحكومة ولن نسقط الحكم، هدفنا الأول والأخير هو نصر إخواننا الفلسطينيين.

هيا، حرضهم على الجهاد، ألم يأمر الله الرسول بتحريض المؤمنين على الجهاد أم أن تلك الآيات نزلت عبثا؟ أم أنها محرفة؟ أم أنها ملغاة؟

ولكن الإمام خيب رجاءه وانتقل لدعاء آخر، كاد صالح يقوم ويندفع نحوه لينتزع الميكرفون من يده ويعلن الحرب بنفسه ويقودهم ولكن عزمه خانه حين تذكر : أنا لستُ بقائد؟ لستُ عمر بن الخطاب، لستُ الرسول، لستُ مالكوم أكس، لستُ مارتن لوثر كينج، لا أحمل معشار ما لهؤلاء من كاريزما، أعرف هذا بسابق التجربة، في الكشافة لم أستطع أن أقود فوجا واحدا ليس فيه سوى عشرون طفلا، في المدرسة الخاصة لم أستطع أن أتحكم في ستة عشر طفلا، فكيف أقود أكثر من خمسين رجلا في أوج العقل والقوة، لم يمض عامان على بلوغي السن القانوني للرشد، أسامة بن زيد؟ أنا لستُ بأسامة.

خرج صالح من المسجد، ومشى لوحده هنيهة سارحا سامحا للأنسام أن تغمر وجهه بالقبلات، وتخيل نفسه في حي من أحياء غزة، كل البيوت على جانبي الطريق أنقاض مطمورة تحتها الجثث المسحوقة، لا ديك يصيح، لا عصافير تزقزق، فقط غربان تنعب، وشمس تشرق لتبكي المجزرة، صمت قاتل، والناجون ينحبون ويتوارون، أو يجرون ليفِرُّوا من منطقة الموت تلك.

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله على نعمة الأمن والسلام، أليس واجبا علينا أن نعين إخوتنا على أن ينعموا بها مثلنا؟

قطع عليه خواطره صديقه آدم، قال له لاهثا وهو يضرب كتفه من خلف : "أيها الأصم، لقد ناديتك مرارا، ألم تسمعني؟".

هز رأسه نفيا متعجبا أول الأمر من أنه صلى الفجر في المسجد وقال : "كنتُ أفكر".

- فيم؟

- فلسطين.

- دعك من ذلك ولا تحمل نفسك همّا فوق هم، ثم مع من أنت؟

- ماذا تقصد؟
- مع أي طرف؟
نظر له صالح في ريبة وقال له : "أتعبث بي؟ أنا مع حماس طبعا، أفي ذاك شك؟".
- حماس؟ الإرهابيون؟
- إنهم يكافحون لتحرير شعب مضطهد من مستعمر غاصب، أليس هذا هدفا نبيلا؟ إنهم الأخيار هنا.
- أنت ساذج، تصدق أبا عبيدة وخطبه تلك، الحقيقة أن تلك الأرض لليهود منذ القدم، أتى العرب وسرقوها منهم، وحماس تابعة لإيران فهي تمولها بهدف الإستيلاء على فلسطين، إنهم يرفعون شعار الجهاد والدفاع عن المستضعفين، ولكنهم في الواقع لا يكترثون إلا لمصالحهم، مثلما يحدث في سوريا تماما، أفق، أفق يا صاحبي، أنت غارقٌ في سبات عميق.
حدّق صالح في صديقه غير مصدق، أهو يعبث معه؟ صحيح أن صاحبه ذاك كان يشتم ويسبّ ولا يصلي في الوقت غالبا، وكان متشبعا بالثقافة الأمريكية منبهرا بها، تسابيحه هي "fuck" و "bitch" و "nigga"، وأنه أحيانا يصرح بأكثر الأفكار الصادمة التي تخطر على بال بنبرة مستهترة، فلا تتبين إن كان جادا أو عابثا يريد الصدم فحسب، ولكنه رغم كل هذا مسلم يصلي ويصوم، فكيف لا يتعاطف مع شعب مسلم، ولا يغضب لمقتلهم، ولا يخاف على المسجد الأقصى أن يتداعى تحت القصف؟
ردّ صالح مدركا أن صديقه متأثر بالرواية الأمريكية للأحداث.
- ماذا عن الشعب؟
- إنهم عرب، أفضِّل عليهم اليهود، إنهم لا يسرقون.

- إنهم مسلمون، واليهود منهم اللص والعرب منهم الأمين فلا تعمم، ثم أتعتقد أن الصهاينة يحبونك كما تحبهم؟ أراهنك على أنهم لو استطاعوا لاستولوا على أرضنا أيضا وقتلوك لأنهم ضد الإسلام.
- أنت مخدوع ومصاب بالبارانويا، إنها قضية وطنية ولا دخل للإسلام فيها، حماس لا تقاتل في سبيل الله كما تدعي، والإسرائليون لا يقاتلون في سبيل اليهودية كذلك.
- بل أنت المخطئ، سئمتُ من هذا الجدال العقيم، اذهب وابحث عن تاريخ استعمار اليهود لفلسطين ثم عُد إلي.
- أنت جاهل وساذج، أنا آسى لك.
تركه صالح، وحث الخطا يدعس الأرض منفسا عن غضبه، آدم أقرب أصدقائه له فكيف يقول هذا؟ هذا تجديف وهرطقة، هل عليه الآن أن يقاطعه ولا يتكلم معه مطلقا؟
واصل خطوه دون أن يستقر على جواب، وما إن دنا من منزله حتى وثب له رجل ملتح من إحدى الأزقة ففاجأه وأثار ذعره، هل ينوي سرقته؟ ماذا لديه ليُسرق؟
قال الرجل : "أخي، مرحبا بك، تعال معي، أريد أن أكلمك".
ماذا قال؟ أخوه؟ أهو معتوه؟ كوّر قبضتيه ونظر له بشك : "من أنت؟ أنا لا أعرفك؟".
- أنا أخوك، تعال معي وسأحكي لك كل شيء.
- ليس لي أخ غير عبد العزيز.
- قلتُ لك "اتبعني".
غلبه خنوعه، وتنكر له على هيئة "الفضول" كي لا يشعر بالجبن، وتبع الرجل إذ قاده إلى طريق مسدود فيه بيت مهجور، دخل من باب موارب، واستدار نحوه فتقهقر صالح للخلف، ضحك الرجل عليه وقال : "أنت

خائف حقا، قلت لك أني أخوك، اسمي "أمير"، ألم يذكرني أبوك أبدا؟ (هز صالح رأسه نفيا) يا له من وغد! حسنا، ليكن في علمك أني أخوك الأكبر، أنا أكبرك بأكثر من عشر سنوات، كنتَ رضيعا حين تشاجرتُ معه وهجرتُ المنزل.

- تشاجرتَ معه؟ لماذا؟

- لأنه خائن، خائن أقول لك، لقد تزوج على أمنا ولم يخبرها، المسكينة، وأكثر من ذلك، لقد آثر أبناء زوجته الثانية علينا، اطلعتُ على وصيته على غفلة منه، ملايين الدراهم مكتوبة لها ولأولادها.

بُهِتَ صالح : "ومن زوجته الثانية هذه؟".

- ماريان؟

- ماريان؟!! ماريان قاتلة إخوتي؟

- آه، نعم، هي بعينها، أقسم لك، ليس هذا فقط فقد اتخذ عشيقات إلى جانب زوجتيه، ماريان تعرف وهي راضية بذاك فهي لا تحبه كي تغار عليه، إنها تحب ماله وقد ضمنته، أما أمُّنا، أمُّنا المطيعة الساذجة المسكينة الطاهرة البريئة، أمُّنا أمينة لا تعرف بالأمر، ألم تتساءل يوما عن جلساته واجتماعاته التي لا تنتهي؟ المفروض أن يُقام اجتماع واحد أو اثنان في الأسبوع، أبونا يحضر اجتماعين في اليوم الواحد، واحد بالصباح والآخر في آخر المساء، وهو لا يرجع حتى الصُّبح، اجتماعات؟ لا، بل هي "مواعيد غرامية".

- ماريان؟ ماريان؟ وماذا تعطيه تلك المأفونة حتى ينسى كيف قتلت أبناءه أمامه؟

- شيئا من تركة زوجها اللص؛ طعامًا فاخرًا، وفندقا فخمًا، وماساجا ومسبحا ليغرق في اللذة.

لم يصدق صالح واحمرّ وجهه خجلا وخزيا وحنقا، وتضارب في نفسه الغضب على أفاعيل أبيه والغضب على الاتهامات، ولكنه حين فكّر في الأمر وقلّبه اعترف أنه على حق.

استأنف أمير : "أنا خرجتُ وأقمتُ بحي ماريان، وتربّصتُ له هناك أترصد وأستطلع، ثم أفضحه آخر كل أسبوع لجميع أبنائه وبناته وكل أقاربه، الأمر يتعدى اتخاذ خليلة أو زوجة، لقد حرمنا ميراثنا بغير حق، وهو يعطيهم ولا يعطينا، ويهبهم جنانه، ويشركهم في مصانعه وشركاته، ويتركنا نحن عاطلين أو مهنيين ممتهنين، ألم تلاحظ أن كل الموظفين في شركاته أغلبهم ليسوا منا؟ دائما يجعل على المشاريع ابنا لماريان أو ابنا لزي هاو أو غيرهما، إنه يتكل عليهم، ويمدح علمهم، ويُطري على لباسهم، ويشيدُ بعاداتهم، لقد استعبدوه وهم يستغلونه، ولكنه راضٍ لأنه يتقلّب في اللذة والنشوة، ويأكل بشراهة ويشرب بإسراف، أما نحن فلا يفكر فينا، إنه لا يكترث لنا أكثر مما يكترث لنعاج أو بعير".

- غير صحيح، أبي يصرفُ علي.

- ماذا أعطاك؟

- حاسوبا ومنزلا على وشك البناء.

- دعني أخمن، حاسوبك عتيق يحتضر، ومنزلك صغير ضيق، هل أصبتُ بتخميني؟ أتعرف ماذا يعطيهم؟ قصورا وجنانا، البخيلُ يفضل على أبنائه أبناء غيره.

- لماذا؟ لماذا يفعل ذلك؟

- لأنه عبد، لأنه جبان، لأنه خنوع، لقد أجبروه على الموافقة على هذا قبل خروجهم من منزلنا.

- ولماذا تخبرني بهذا؟

- رأيتُ منشورك بالأمس فتذكرتك، نصيحتي لك أن تحذفه.

- ماذا؟! لماذا؟

- أولا، فكرته خاطئة، أنت تريد تحرير غزة، حرر نفسك أولا، ثم فكر في الآخرين، ثم إنهم أفضل منك حالا، أبونا يرسل لهم الملايين شهريا، يرسلها لحكومتهم، ولكن رئيسهم سرّاق، فأبونا يتظاهر بالنبل والكرم، ورئيسهم يعيد له نصفها ويأكل الباقي، ويترك أبا عبيدة وإخوته الصغار في الجوع والمرض والموت يتلوون، ففلسطين إذا أفضل منك حالا.

ارتفع حاجبا صالح وراحا يحكّان رأسيهما في حيرة : مهلا، قلتَ للتو أن أباهم يسرق كل شيء وهم في الجوع والموت، فكيف يكون حالهم أحسن منا؟

- أفضل منا حالا؟ هل فقدتَ عقلك؟ أيهما خير؟ أن تدفن كل يوم رفاتا مفتتة، وتلقن طفلا الشهادة، وتبحث تحت منزلك المنهار عن ابنك، أم أن تنتظر بصبر حاسوبك ليشتغل في بيتٍ تدفع إيجاره بعرق الشهر؟

- قلتُ لك أنهم أفضل حالا، صدقني، ثم حتى لو كانوا أسوأ، فكر في نفسك أولا، أنت كمسكين يريد أن يتصدق على الفقراء وهو لا يكاد يجد قوت يومه، ثم إن أبانا سيسلمك.

- ماذا؟

- لأنه لا يريد نزاعا مع العم سام ولا يقدر عليه، إنه عجوز وقد ذوى شبابه ولم يعد فيه إلا حب السلامة، إنه لن يخوض عراكا من أجلك، فأنت لا تساوي شيئا كما قلتُ، لقد أنجب قبلك العشرات وسينجب بعدك العشرات، وكلكم عنده حشرات، لو مات واحد فلن يشعر به.

- مثل بفلوفتش

- ماذا؟

- الإخوة كارامازوف، الأب الذي لا يهتم سوى بإشباع رغباته، ولا يحب أبنائه ولا يعبأ بهم، بل ويكره بعضهم أيضا.

- أيا يكن، أنت ورواياتك، لم تذق بؤس الحياة ولو ذقته لما وجدت الرغبة في قراءة رواية، حين تتزوج وتنجب، ويصير لديك في عشك ستة فراخ لا يخرسون ولا يطبقون أفواههم أبدا، حينها ارجع إلي، ستطالب أبانا بأن يعطيك كل ما يرسل لغيرنا من مساعدات مالية، فأنت لها أحوج فكر فيما قلتُ مليًّا وإذا أردتَ نصيحتي، فاحزم حقيبتك واهرب تحت جنح الظلام من بيت البؤس ذاك.
- لأين؟
- لماريان، أو لبريتني، أو لحضن العم سام، اهرب إلى الجنة حيث الرخاء والرغد والرفاهية.
- مهلا، أنت مخطئ في كل ما تقول، أبي لن يُسلِّمني لماريان ولا العم سام، ثم إن غزة أسوأ فهم يعيشون في فقر وجوع وخطر، نحن نعيش في فقر ولكننا في أمن ولا نزال نفطر ونتغدى ونتعشى كل يوم، احمد ربك وإلا سيصيبك بمثل ما أصابهم، حينها ستعرف.
- الحمد لله، الحمد لله على أني هربتُ من ذاك السجن، على أيٍّ، لقد نصحتك فافعل ما تشاء.
ودعه صالح ورجع لمنزله، لم يجد أباه هناك، جلس يأكل الفطور، بيضة مسلوقة كالعادة، وتفقد هاتفه فوجد أن المنشور لم يحظ بتفاعل كبير، إبهامان وقلب أحمر، ثلاثة فقط، وقد لا تعني هذه الرموز شيئا، ما أدراني إن كان واضعها قد قرأ حرفا مما كتبتُ.
أصيب بخيبة أمل، وفقد شهيته، وراح يأكل البيضة في سأم، ما الذي يجب على المرء فعله لتحريك جيش؟ كيف يجعل الناس يدركون أن الأعداد لصالحهم، كم عدد الإسرائليين؟ تسعة ملايين، كم عدد المسلمين؟ مليارات، أتمزح معي؟ اطرح أو اقسم لترى الفارق الهائل، عليك أن

تضاعف التسعة ملايين بمئتين واثنين وعشرين مرة حتى تدنو من المليارين، 222 ضعف!
والآن ذكِّرني ماذا تقول الآية في سورة الأنفال : "يا أيها النبي حرض المومنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا بإذن الله والله مع الصابرين".
هذا يعني أن المفترض أن يتغلب المسلمون على عشرة أضعاف عددهم، وحتى حين خفف الله عنهم.
"الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين".
ما زال بإمكان المسلمين أن يغلبوا ضعف عددهم، أي أن بوسعنا إن كنا مسلمين حقا أن نغلب 4 ملايير، ولكننا الآن عاجزون عن الوقوف ضد 9 ملايين، بل وليس حتى تسعة، فقد رأى صالح في الأخبار كيف يتظاهر الإسرائليون ضد نتنياهو ويطالبونه بإيقاف الحرب، حتى شعبه يكرهه، فلسنا إذا سوى ضد الرجل نفسه ومستشاريه ووزرائه وقادة جيشه، بضعة ثعابين بغيضة تُستأصل وتنتهي المعاناة التي دامت قرابة القرن، ونحرص بعدها على أن نُشيِّد على الأطلال صرحا راسخا مبنيا على التسامح والمساواة والعدالة، ولكننا قعدة متقاعسون فيا للخزي والعار!
ثم خمّنَ فيم عسى تكون ذريعة المتقاعس : العدد لا يهم، فهم يمتلكون العتاد والذخيرة، وهذه تسدُّ الفجوة في العدد بل وتقلب الموازين أيضا، صاروخ واحد يساوي 100 مقاتل أو أكثر، والآن قم بالحساب مجددا.
هرش صالح رأسه مفكرا في الرد، وسرعان ما منّ عليه الجني داخل عقله بالإجابة، لو جمعنا سلاح كل الدول المسلمة وجيوشها ضد سلاح إسرائيل فإن الكفة ستتحطم صارخة : **هذه الأسلحة تكفي لتفحيمهم عشرين مرة!**

فلو اتحدت كل من ليبيا والجزائر وتونس والمغرب ومصر والعراق وإيران وتركيا وسوريا واليمن والأردن وبين البحرين وقطر ووووو ثم اتفقوا على ميعاد سري، الواحدة تماما بعد منتصف الليل بتوقيت تل أبيب، ضربة واحدة، صاعقة بطش الإله القاصمة القاسحة الساحقة الماحقة، سيستيقظ ذاك الوغد في الجحيم، وقد ترك جسده خلفه جثة سوداء متفحمة، سقطتْ أذناها العملاقتان وانكمشتا فبدتا أقل قبحا، وذابت عيناها وشفتاها، وليته يكون مستيقظا لحظتها، ليشعر لحظةً بألم الأطفال المقتولين بغتة وخوفهم.
أأنا أتخيل؟ أهذه فانتازيا؟ تسميها كذلك وتنعتني بالجنون لأنك ذليل تشعر بالدُّونية، لو كنتَ مؤمنا قويا لقمتَ وقمتَ بتحقيق هذه الرؤيا.

ولكن لماذا؟ لماذا لا نستطيع الحراك يدا واحدة؟ راح يتساءل وانسلّ الجواب لعقله بسرعة النَّفَس، الاختلاف والتفرق، كلٌّ متقوقع على مذهبه، متعصب لبلده، يعادي إخوانه لأجل مباراة كرة قدم، ألا لعنة الله على كرة القدم ولاعبيها حتى تتحرر فلسطين، مهلا، تلعن كرة القدم يا صالح وأنت تشاهد الملاكمة والأفلام وتتابع كل جديد منها؟
عارضه ضميره ففكر صالح لبرهة ثم قرر في سريرته : لعنة الله على الأفلام والملاكمة أيضا وكل ما يُعمي المسلمين عن المجزرة ويشغلهم عن وضع حدٍّ لها.
ثم خطر له حلُّ الاغتيال من جديد فأخذ يتدبره بمزيد من الاهتمام، فهو يبدو له أفضل الحلول وأقلها خسائرا وأكثرها حقنا للدماء، لماذا يجب على ملايين المسلمين واليهود أن يتقاتلوا ويموتوا بجريرة رجل واحدٍ مختلٍّ نفسيا وعقليا، عرقل السلام عمدًا في الماضي حين أوشك الطرفان أن يتهادنا ويتصالحا، رجلٍ سفاحٍ متعطش للدم، لا يرحم شيخا ولا امرأة

ولا طفلا ولا رضيعا ولا جنينا، إن كان هو العائق الذي يحول دون حلول السلام فالحل إزالته.

نجيب محفوظ، سلمان رشدي، إذا كانت كتاباتهم تثير بعض المسلمين الغيورين لحدِّ إصدار فتوى بجواز قتلهم ومحاولة فعلها بلا خوف من العواقب، فلماذا لا أرى فتوى بجواز قتل نتنياهو ولا أسمع أحدا يهدد أو يسعى لقتله، أليس نتنياهو مقارنة بهذين يستدعي غضبا أعتى بما لا يقاس؟ وإن كنت غنيا ملياردير ترغب في مساعدة فلسطين فأرجوك ادفع لهاكر ليضع هذا الإعلان في الأنترنت المظلم :

إعلان

إلى كل القتلة المأجورين المحترفين، أعلن لكم مكافأة خمسين مليون دولار على نتنياهو ميتا أو ميتا، متطلبات المهمة : بندقية قنص، إجادة تامة للغة اليهودية، جنسية أمريكية.

اذهب إلى هناك متنكرا، مهلا، أنت لا تحتاجني لأعلمك كيف تقتل، إنها مهنتك بعد كل شيء، إذا أمكنك أن تصوره بعد قتله فسأدفع المزيد مقابل الصورة، وسأدفع الضعف مقابل فيديو إذا استطعت تصويره "خلال" قتله.

ما بالك مشمئز؟ أتشعر بالشفقة تجاهه، إنه قاتل، إنه يستحق أضعاف التنكيل الذي لحق أبا جهل وأمية وذاك الرجل الذي أشعل الحرائق في... استولت شهوة الدم والثأر على عقل صالح، ولو كان هذا مسلسل أنمي لرأيتَ الأورا السوداء الحالكة تلفُّ حوله في إعصار عنيف يكاد يمتص في دوامته السماء المفزوعة، وتوقف عن الأكل دون أن يشعر، وارتخت يده

على قطعة الخبز التي كانت تنتظر أن تحمل آخر لقمة من البيضة الباردة، سكتت العصافير، وسكنت الرياح، وارتقب الجميع في حذر.
ثم أين الجماعات المسلمة؟ السيئة منها والجيدة، أكره داعش من أعماق قلبي لأنهم يشوهون صورة الإسلام، ولكن أين هم؟ ها هو عدو "كافر" حقيقي للإسلام قد ظهر، تعرفون كيف تقطعون رقاب السفراء وكيف تفجرون الكنائس، فاخرجوا الآن وفجروا رأس هذا اللعين، وانفعوا الإسلام مرة واحدة على الأقل.
أين القاعدة؟ أين طالبان؟ ألم تستقلوا عن أمريكا؟ ألستم دولة إسلامية الآن تسير بالشريعة، فاخرجوا للجهاد إذن، أو أرسلوا الحشاشين.
كل الأفكار التي خطرت لك يا صالح شريرة شيطانية استعملها قبلك المشركون، اعترض ضميره من جديد، فكرة الدول المسلمة إذ تنقضُّ في ضربة واحدة قاضية لا تبقى لإسرائيل بعدها باقية هي عينها خطة "حتى يتفرق دمه بين القبائل" وفكرة المكافأة هي "مئة ناقة لمن يأتي بمحمد حيا أو ميتا"، اعترف صالح لنفسه، صحيح، ولكن ألن يكون استعمال الخطة عينها في الخير فعلا صالحا؟ ثم ألم يقل الرسول أن الحرب خدعة؟
ثم إن اغتيال نتنياهو سيكون عدالة شاعرية، فقد اغتيل رئيس الوزراء السابق "رابين" الذي كان منافسا له في انتخابات خلت، وشكّ الكثيرون في أن لنتنياهو يدًا في قتله، لأن الآخر كان محبا للسلام متعاونا في اتفاقيات أوسلو.

لم يدرك صالح وهو غائب في أفكاره جلوس أمه جواره حتى ربتت على يده، قالت له مبتسمة : "صباح الخير".

أجابها بالمثل، وهو يبتسم قبل أن تطفو كلمات أخيه "المزعوم" أمير فتكدر كجثث الغرقى المنتفخة على سطح البحر صفاء نفسه : "إنه يخون أمنا، لقد تزوج عليها سِرّا واتخذ خليلات".

قالت له كأنما لاحظت اضطرابه : "أراك مهموما، ماذا يشغل بالك؟".

- أفكر في فلسطين.

- ما يحدث هناك منكر شنيع، اللهم الطف بهم وارحمهم ودمر أعدائهم، ليس بيدنا حيلة سوى الدعاء، المساكين يحصون أيامهم بالقنابل.

- لقد وجدتُ الحل يا أمي لهذه الحرب، حلٌّ سيخلِّص الفلسطينيين من البؤس والاضطهاد، إنه الاغتيال.

انقلبتْ سحنة أمينة واسودّ وجهها وقالت له محتدة : "لقد رأى أبوك هذا الصباح منشورك ذاك على ذلك الشيء الأزرق، أتريد أن تقتل نفسك؟ لقد كان غاضبا، غاضبا جدا، قال أنك أحمق لا تكترث لحياتك ولا لحياتنا، اليهود سيرون ذلك المنشور وسيرسلون صاروخا إلينا بسببك، أنت لستَ سياسيا ولا قائدا فلماذا تتدخل؟ أنت شاب صغير لا تلتهِ بهذه الأمور، لديك مستقبل، لديك دراسة، اشغل نفسك بها ودعك من المشاكل، أبوك هو من عليه أن يتكلم فهو يعرف كيف يتحدث، وبالتي هي أحسن سيقنع العم بأن يزجر يهوذا وتابعه نتن نتن نتن... لا أعرف كيف يُنطق اسمه، المهم، ذاك الملعون، لقد قال أبوك أنك عسّرت المهمة عليه".

لم يتوقع صالح هذه الغضبة العاتية من أمه الرقيقة العطوف، ولكنه حين تفكر فيما بعد عرف أنها وبخته لأنها تخاف أن تفقده، أما في تلك اللحظة فقد انتابه الغضب هو بدوره وصرخ : "وكأن أبي يحقق أيّ تقدُّم باجتماعاته الزائفة تلك، البيروقراطية والديموقراطية ليستا إلا مرادفتين ل"مضيعة للوقت"، وثائق على وثائق، وملفات على ملفات، ثم في الأخير لا يوجد تطبيق فعلي لأي شيء، لو صدر القرار اليوم بأن نتنياهو مجرم فهل

سيقبضون عليه فورا؟ لا، لو صدر القرار اليوم بأن إسرائيل دولة استعمارية فهل سيرسل العم سام جنديا لإسقاطها وإنشاء دولة أخرى غيرها، كلا، لن يفعل، فما الفائدة إذن من كل هذه البروتوكولات والمنظمات
والاتفاقيات؟ يبدو لي أنها لا تُفعّل إلا حين تكون هناك مصلحة لهم، حينها يرفع هؤلاء بطاقة 'حقوق الإنسان' ".
لم تفهم أمُّه الساذجة نصف ما قيل، كل ما أدركته أن ابنها يرفض التوقف عن مسعاه الخطير، وأنه ربما سينشر المزيد من تلك الخطابات، والتي ستجلب إليه أنظار العدو، وقد تؤدي إلى سجنه أو لا سمح الله موته.
ارتجفت شفتاها واغرورقت عيناها بالدموع ثم انفجرت باكية وهي تردد : "لا أريد أن تموت، لا أريد ذلك، لماذا تريد أن تموت؟ لقد مات قبلك أبناء لي كثيرون، واختفى الآخرون ولا أعرف حتى إن كانوا أحياء، لم يبق لي سواك وأخواك فلا تفجعني فيك، ارحم أمّك أرجوك، قلبي لن يتحمل الفقد مرة أخرى".
تجمد صالح في مكانه وحدق فيها مشدوها، لم يعرف كيف يتجاوب مع سيل الدموع هذا الذي لم يتوقعه، لم تبكِ أمُّه أمامه قبله قط، ولذا صدمه مرأى جسدها يهتز وينتفض، وعيناها نضّاختان، والصوت المتمزق في نحيبها ينفذ مباشرة لقلبه فيخزه كالإبرة الساخنة، لم يتحرك إلا بعد لحظات فشدّ على يدها يطمئنها، فجذبته نحوها وعانقته بشدة، كأنما تكبّله لتمنع الموت من أن ينتزعه ويسلبها إياه.
أغرقت عيناه الدموع هو أيضا، استسلم لحضنها الحصين المحكم، وراح يفكر : هل أستطيع أن أموت وأفطر قلب أمي الذي سبق أن تشظى مرارا؟ ثم وجد نفسه يفكر في الموت بجدية هذه المرة، هل أنا جاهز؟ جاهز للرحيل في أية لحظة؟ حين تخترقني الرصاصة أو تفجرني القنبلة هل سأعرُج في السماء راضيا غير نادم؟

فيما بعدُ حين جلس لحاسوبه وكتب منشورا آخر :
"في عام 2050 مات آخر فلسطيني على وجه الأرض، وانقرض بذلك نسلهم، فأصبحوا بذلك الهنود الحمر المعاصرين، وكانت وفاته بعد قصف لبلده دام خمس سنين بلا انقطاع، ترك الأرض جرداء جدباء، وخلّف أكواما من الجثث، حتى الحيوانات لم تسلم، لم يبق شيء يسير على تلك الأرض سوى العقارب، شكل هذا صدمة كبيرة للعالم أجمع، وبكى المسلمون، وندبوا، ولطموا، ورثوا ونعوا، ولعنوا أنفسهم، وما زلنا ننتظر ماذا يخبئ المستقبل : هل حان الوقت ليقوم المسلمون وينالوا بثأرهم؟ أم أنهم سيقعدون كما فعلوا خلال تلك الحرب الطاحنة؟ معذرة، أقصد المجزرة البشعة".

كان هذا أكثر نص تحريضي خطر لصالح وقتها، ورغم هذا راوده القلق من أنه لن يكفي لإشعال الجذوة، هل سيقومون لو قرؤوا هذا؟ أم سيضعون لايك وينتقلون لمنشور آخر.
ماذا يحتاج المسلمون ليتحركوا؟ يا إلهي، أهم ينتظرون تهدم المسجد؟ أحين ينهار المسجد الأقصى تحت قنبلة هاوية؟ حينها سيشعرون بالغضب والعار العارمين فيندفع الطوفان نحو غزة.
توقفت أصابع صالح على لوحة المفاتيح تستريحان ثم عادتا تركضان إذ صفّرت الفكرة :
"من صالح ابن محمد وأمينة المسلم العزيز إلى نتنياهو كلب إسرائيل النتن البغيض :
لابد أنك لم تلاحظ ولكنك قد تحولت إلى هتلر، فعليك الآن أن تشعر بالعار لتبرير أفعالك المشينة بالهولوكوست، كيف تسعى لإبادة شعب بكاملهم وقد عرف أجدادك وعرفت منهم عذاب الإبادة وبشاعتها؟ أنت

كرجل بغيض يضرب الأطفال بقسوة شديدة لأن أباه كان يقسو عليه، ثم إنك تقول أن العالم كله ضد اليهود، والمسلمون بالأخص، وأبوك كان مؤرخا تخصص في الأندلس، أَنَسِيَ أن يخبرك كيف كان المسلمون واليهود والمسيحيون يعيشون بتسامح ووئام جنبا لجنب تحت ظل الحكم الإسلامي؟ أنسي أن يخبرك أن أحد وزراء أحد الخلفاء هناك كان يهوديا، نحن لسنا ضد اليهود، نحن ضد اليهود الغدارين المتطرفين العنصريين الذين يعادوننا، جيد أنكم سميتم أنفسكم لنتمكن من تمييزكم بسهولة، نحن ضد الصهاينة.

آمل أن تقتلك زوجتك بالسم حين تسمع بأمر المكافأة، فلابد أنها تكرهك، لا أستطيع تصور شعور النوم في فراش واحد مع وحش يفترس الصبيان، وإن لم تكن تكرهك فهي حمالة الحطب، فهنيئا لكما الجحيم معا، لقد أرسلتُ إليك زائرا ليبلغك سلامي، ويعطيك هدية مني، آمل أن يصل قريبا".

"إلى "أبي عبيدة" ورجال "حماس"، أنتم المؤمنون حقا ولا ريب، أنتم أمل الإسلام، أنتم الأسود الشجعان، تحملون في قلوبكم أرواح حمزة وخالد وعمر عليهم الرضوان، أرجو من الله أن ينصركم بجنوده، ويبث فيكم قوته، وينزل عليكم سكينته حتى لا تخافوا الموت ولا تهابوه أبدا، فالموت ممشى ممهد بالورود نحو الأنهار والجنان، أرجو أن يجعل الله منشوراتي هذه سببا لتحريك ولو مسلم لنصرتكم، وحين تتوفر السُّبُل سأنضم إليكم، لا أنكر أني أخاف الموت لأني لستُ واثقا من المآل، وأني لا أريد الموت صغيرا لأن في قلبي بعض الأحلام والآمال، ولكن علي أن أكون على يقين من أن في الجنة ما لن أحلم به أبدا ولن يخطر لي على بال".

نشر كل هذا، وأغلق الحاسوب، واستغرق في تعلم الإيطالية، ثم راح يشاهد فيديوهات عن الرياضيات وأخرى عن التاريخ، وقام بعدها يطالع كتابا عن الإعجاز في القرآن.

فجأة رفع رأسه عن الكتاب فإذا أبوه يطالعه، محتقن الوجه، محمر العينين يدمع، عروقه بارزة، فمه يرتجف، نظرته مزيج من الغضب والألم والحزن والكره، تقدم تجاهه وقد كوّر يديه وقال وهو يشده من ذراعه فينفضه ويوقفه بغلظة، صرخ فيه وهو يصفعه : "ألم تقل لك أمك أن تكف عن المنشورات اللعينة؟ أيها الغبي، أيها المعتوه، اللعنة على جدك! اللعنة على جدك! تريد الموت، تريد السجن، مجنون! أنت حقا مجنون! حسنا، لقد استجاب الله دعاءك ونلت أمنيتك".

صبَّ عليه هذا السائل المغلي من الكلمات، ولم يسمح له حتى بالاستيعاب أو الرد بل أخذ يجره تارة ويدفعه تارة، عبر الرواق ولأسفل السلالم نحو الباب.

صاح صالح محتجا : "توقف، توقف، إلى أين تأخذني؟".

- إلى حيث تحقق أمنيتك، تريد الجلد والسجن، أليس كذلك؟ تريد أن تجاهد، سآخذك لتجاهد.

وواصل دفعه حتى بلغ به عتبة الباب، فلما أراد أن يقذفه خارجا، تشبث بمصراع الباب بكل قوته، ودفع أباه عنه وهو يصرخ : "ما الذي تقوله؟ أنا لا أفهم، أكل هذا لأني قلتُ الحق؟ أليس هدفنا واحدا؟ ألستَ تكره يهوذا مثلي؟".

- ولا كلمة، ولا كلمة، امش أمامي هيا، سآخذك معي إلى "جمعية الاتحاد"، إنهم يريدون أن يروك ويسمعوك، من يدري؟ قد تنجح في تغيير رأيهم وتجعل العم سام يوقف الحرب.

- إلى هناك تأخذني؟ أهم طلبوا منك ذلك؟ لابد أنهم يريدون القبض علي، لن يسمعوا مني شيئا.
- عبقري! ليتك استخدمت ذكاءك هذا قبل نشر تلك السخافات أيها الأحمق.
صرخ صالح ملتاعا : "أتريد تسليمي؟ أحقا ستسلمني أنا ابنك إلى الأعداء".
تردد محمد للحظة ثم قال : "أنت أجبرتني على فعل هذا أيها الوغد، قالوا أن علي أن أسلمك أو يحاربوني أنا وعائلتي، سيرسلون جنودهم إلى هنا لأني أؤوي إرهابيا في منزلي، ماذا تركت لي من خيار؟ هيا، أخبرني، أترضى أن يأسروا أمك وأباك؟".
- لا تذكر أمي، أعرف أنك لا تكترث لأمرها مقدار ذرة.
- ماذا؟
سمعت أمه الجلبة فهُرعت تهبط السلالم وقالت : "يا ربي، يا ربي، ماذا يحصل؟ ماذا يحصل؟ لماذا تتشاجران؟".
صرخ فيها محمد وهو يصفق الباب : "ادخلي واخرسي هذا شأن بيني وبينه ولو راقبتِه كما أوصيتك لما وقع ما وقع".
في هذه اللحظات تسارعت أفكار صالح وبدا عقله لاعب خفة يحركها كالبطاقات بين يديه بسرعة لا تجارى : أبي يريد أن يأخذني للأعداء ليأسروني وربما – الأسوأ - يقتلوني، علي أن أدافع عن نفسي، علي أن أهرب، علي أن أطرحه أرضا وأهرب.
التفت حوله باحثا عن ثغرة، فيما تقدم أبوه باسطا ذراعيه على جانبيه كاللقلق، وقد استشعر رغبته في الفرار فعزم على القبض عليه، علي أن أضربه، أو أركل قدمه وأُسقطه.
كان محمد خمسينيا ما زال في عوده جذوة قوة، مدّ يده يقبض عليه، فصفعها ابنه وأزاحها، أغضبه هذا فوثب عليه ليمسك برقبته، فاشتبك

جسداهما وراحا يتصارعان، وتحالف الزمن مع ابنه عليه فأسقطه أرضا، هتف صالح بعدها : "آه، ماذا فعلت؟ آه، يا إلهي، آسف، آسفث.
كان محمد يحاول النهوض غير مصدق، ابنه يطرحه أرضا؟ يا للعقوق والتمرد! إنه كأولاده الآخرين تماما، كلهم عصاة متمردون، دائما يشتكون ويحتجون، تبا لهم جميعا! ولكنه سيهرب، سيفلت من قبضته، وحينها العم سام س...

أثارت هذه الفكرة ذعره فأخرج من جيبه الحل الأخير، شيء ودّ حين حمله أن لا يضطر لاستخدامه، أخرجه وصوب نحو القدم و... طاع!
تهاوى ابنه كعصفور كسير الجناح، وراح يعوي من الألم وهو يتلوى ويصيح : "آه، آه، أطلقت علي!".
قام محمد وسمع ولولة زوجته ونحيبها من داخل الدار، فسحب ابنه إلى السيارة قبل أن تفتح الباب وتلحقهما، وحمله من تحت الكتفين وهو يئن ويتخبّط محاولا الإفلات، وألقاه على المقعد الخلفي، وغرس في ذراعه حقنة مخدِّر وشغّل السيارة وانطلق قبل أن يتجمع الناس.

انفتحت عينا صالح على ضوء ساطع، وراحتا تدوران تائهتين تتحسسان المكان كالعميان، أين أنا؟ أحس برأسه يدور، ووعيه يكاد يفلت من يده، عرف أولا أنه مصفد اليدين، حركهما مذعورا ليحررهما ولكن قبضة القيد كانت عنيدة كعضة تمساح، عرف ثانيا أن قدميه مكبّلتان أيضا، راح يركل وأحس كأنه كبش بِيعَ وهو على وشك أن يؤخذ بالسيارة للبيت، عرف ثالثا أنه وإن كان لا يستطيع الحراك فهو يستطيع الكلام، كان هذا اكتشافا هاما، أخذ يصيح ويصرخ ففرقع صوت كالسوط يأمره : "اخرس".
ثم قال الصوت لشخص آخر : "لقد صحا".

دنا القائل من دائرة الضوء، عرف رابعا أنه في قبو، في زنزانة، وأن هذا قد يكون ساجنه، رفع عينيه يراه، الوجه مألوف، لقد رآه من قبل في نشرات الأخبار، يهوذا ولا فخر، ومن الثاني؟ من يكون سوى العم سام؟
أخذ يهوذا كرسيا، وجلس أمامه مبتسما ابتسامة ضبع، وهو يملِّس على سوطه الجلدي الذي التفّ على فخذيه : "أهلا، استيقظت؟ اسمي يهو... مهلا، لا بد أنك تعرفني فأنت تعرف تابعي المخلص نتنياهو، وهذا إلى جانبي صديقي الوفي الغني عن التعريف العم سام، أما لماذا...".
– أين أبي؟
بدا على يهوذا الاستياء، والتفت للعم سام وقال له : "أرأيتَ كيف قاطعني؟ إنهم لا يعرفون أصول الأدب واللياقة".
ثم قام وأرخى سوطه وهوى به بقسوة على خدِّ صالح، فصاح الأخير صيحة مريعة.
– إياك أن تقاطعني مجددا أيها الوغد، ماذا كنتُ أقول؟ آه، لابد أنك تعرف لماذا أنت هنا، منشوراتك على فيسبوك تدعو للقلق، أنت مشروع زعيم إرهابي، وكلماتك تلك لو لقت القلوب الصاغية فستحتشد الجنود خلفها وتزحف إلى بابي، وأنا لن أسمح بهذا، ولكني حائر، لماذا أوقعت نفسك في هذه الورطة؟ لابد أنك نادم، شاهدت بعض المسلسلات التاريخية الإسلامية فانبهرت ورحت تحاول التقليد، أبله، حقا أبله، والآن انظر لنفسك، أجبرتَ أباك على التخلي عنك، أمك لابد تنوح عليك وتنحب، وهذا كله بسبب طيشك، أتحلم بعودة الخلافة؟ لن تعود الخلافة حتى تقوم القيامة، صديقي العم سام هنا (وربّت على ركبته) وضعني في الشرق الأوسط لغرض واحد، ألا وهو المراقبة عن كثب وإجهاض أية محاولة لتوحيد المسلمين مجددا، ما إن يُظهر زعيمٌ رأسه حتى أجزُّه كالعشب الضار، ومنه جاءت تسمية العمليات العسكرية ب"جز العشب"

هيه، فغايتنا أنا والعم سام واحدة، ولهذا يدعمني، بالطبع ليس هذا هو السبب الوحيد، فأنا أدفع له، المال بيدي، الشركات الكبرى ملكي، هوليوود لي، اللوبي اليهودي يجود ويسخو، والعم سام يوافق ويوقِّع، والآن لابد أنك تتساءل لماذا أكاشفك بكل هذا، السبب واضح، لأني مطمئن إلى أنك ستأخذ هذه الأسرار معك إلى القبر، لا تقل لي أنك ما زلتَ تأمل في الحياة بعد أن وقعت في يدي، أوه، كلا، كلا، عليك أن تبدأ بالاستغفار وتلاوة الشهادتين، قد لا تجد الوقت فيما بعد"، ثم التفت إلى العم سام وسأله : "هل تريد إضافة شيء يا سيدي؟".
هز العم سام رأسه نفيا، وارتجفت يداه قليلا من الشيخوخة وهو يبسطهما، فيكشف عن حبتي دواء، إحداهما حمراء والأخرى زرقاء، وقال : "دعنا منه، ذكِّرني مجددا أيّ الحبتين تنصحني أن أتناول لأعالج هذا الصداع، ترامب أم بايدن؟".
فانزعج يهوذا لأنه لم يكترث لهذا المجرم الوضيع صالح الذي تجرأ على شتمه وتهديده، وأجاب وهو يهز يده : "لا فارق، لا فارق، كلاهما سيان عندي"، ثم سكت لحظة وغير رأيه : "بعد إعادة تفكير، أنصحك بترامب، إنها تساعد في تسريع الدورة الدموية وتجدد بذلك النشاط والحيوية، وآثارها الجانبية ليست بهذا السوء، نرجسية لا حدود لها، وجرأة أقرب للتهور، آثار بايدن الجانبية هي التخلف العقلي وضعف الذاكرة".
فبلع العم سام الحبة في اللحظة عينها التي دخل فيها رجل سمين مقنع عنبر الزنازين، ووقف لجوار يهوذا، أعلن عنه الأخير : "هذا هو جلادك، سيكون رفيقك لفترة فآمل أن تتفاهما هيه".

سمع آدم باختطاف صالح من أبيه حين عاد إلى منزله من العمل. أخبره أن العم سام أرسل جنوده فاعتقلوه أمام عتبة بابه، كان آدم معجبا بالعم

سام فيما سبق، يرى فيه صورة لأرقى ما يمكن أن يبلغه الإنسان من التحضر والتطور، الموسيقى، السينما، الاختراعات، الثقافة، اللغة، الناس، الفتيات على وجه الخصوص، كل شيء فيهم مثالي، كل شيء براق زواق، كأنهم ملائكة نزلوا من السماء وأقاموا على الأرض، ولكن العم سام ارتكب خطئا كبيرا باختطاف صديقه، صحيح أن صالح الأحمق هو من ألقى بيده إلى التهلكة كالكاميكازي، ولكن ليس من العدل أن يُزجَّ به في السجن، أفلا يؤمن العم سام بحرية التعبير ويبشر بها؟ فلماذا إذن قبض على صالح من أجل بضعة منشورات؟

لم يستغرق آدم سوى لحظات معدودات حتى قرر بتسرع الشباب المعهود وعقد عزمه، سينضم إلى ISIS، لا، ليس كيس الصابون، بل تنظيم "داعش"، سينضم لصفوفهم، ويقوم معهم بعملية إنقاذ أسطورية، ترك لخياله أن يصوِّر له الحلم، عملية إنقاذ يضحي فيها بنفسه لأجل صديقه، بندقيةٌ بيده، يزحف على بطنه إلى السجن، يرصد الحراس بالمنظار، يعبئ، يطلق ويعبئ مجددا، يفجر أدمغتهم، ويجعل أجسادهم تسقط كأنها دمى خشبية قُطعت خيوطها، يتسلل للداخل ويباغت الحراس على حين غفلة، ستكون مجزرة كـ"ريك" وجماعته حين هجموا على إحدى مقرات نيغان في مسلسل "the walking dead"، هذا بالطبع قبل أن يستجلب غضبته فيعطيهم علقة بمضربه "لوسي"، ولكن ماذا لو وجد صديقه الحبيب صالح جثة حية من قسوة التعذيب، ماذا لو وصل بعد فوات الأوان فوجده كـ"غريفيث" حين أنقذه "غاتس" ورُفقته أخيرا بعد طول عذاب، خرقة من الجلد، وبدن بلا أطراف، لسان مقطوع، وجلدٌ مخطط بعلامات الجَلد، علي أن أسارع، علي أن أنفذ مخططي اليوم، ولكن ما قيمة صالح لداعش حتى ينقذوه؟ سأخبرهم أنه رهينة مهمة، سجين حرب يعرف بعض الأسرار.

لماذا داعش بالذات؟ لأن صالح لا يعرف جماعة أخرى أكثر ضراوة وأسوأ سمعة من داعش، لقد كان مدمنا على فيديوهات قطع الرقاب والإعدام بالرصاص التي ينشرونها على تويتر وأنستغرام، كان يتابعهم دون أن يفهم دافعه حقا، أهو سادي؟ هل إقدامهم على القتل بهذه اللامبالاة هو ما يجذبه؟ لا يعرف، كل ما يعرفه أنهم أعداء العم سام وكابوسه الدائم، هناك مسلمون أغبياء يزعمون أن للعم سام دورًا في خلق تنظيمهم، وأنهم يخدمون أغراضه، آدم لا يؤمن بذلك ويعتقد أن القائلين بهذا بلهاء لا يفقهون شيئا في السياسة.
ولكن كيف أنضم لهم؟ آه، فلنسأل العم جووجل.

فيما كان صالح ينتقي الكلمات المفتاحية المناسبة ليعثر على إجابته، كان أمير مستلقيا على أريكة وثيرة، يشاهد نشرة الأخبار، ويجمع المعلومات، استعدادا لحلقة أخرى من اللايف الذي سيصوره مساء، حين شاهد الخبر الآتي : "وردنا الآن أن العم سام اعتقل صالح ابن محمد بتهمة التحريض ومعاداة السامية، وقد أدلى بأنه ستتم محاكمته في غضون أسبوعين، أما من هو صالح هذا؟ فهو طالب ثانوي ما زال لم يبلغ العشرين حتى، وهذا ما أثار استياء أصدقاء محمد وإخوته واعتراضهم، فبأيِّ حقٍّ يختطف العم سام فتى من أمام داره بلا مذكرة تفتيش ولا اعتقال؟ أما محمد أبوه فقد رفض التعليق على الحادثة، وتجنب الكاميرا تماما، لابد أنه حزين مغموم يرغب في العزلة الآن، ننتقل إلى خبر آخر، فقد وردنا أن أبا عبيدة سدد لكمة أخرى إلى يهوذا الآن حطم بها أسنانه المتبقية و...".
صُدِم أمير بهذا الخبر، وزار صفحة صالح مباشرة فرأى المنشورين الأخيرين فقال لنفسه : يا للهول! يا له من أحمق! لقد قلتُ له، قلت له أن يتوقف عن نشر تلك السخافات، ولكن ما يحيرني هو كيف استطاع العم سام أن

يختطف صالح في وسط حي موح أمام داره، ألم يكن هناك شهود عيان؟ ألم يسمع أبي استغاثة أخي؟ أم أنه كان في "اجتماع"؟ هناك شيء مثير للشك، أراهن أن أبي الجبان الخنوع لعب دورا في هذا، لابد أن سلّمه لهم طوعا، كما أنذرته تماما، لن أستبعد ذلك فهو لم يحب أولاده أبدا، وما لا يُحبُّ يُستغنى عنه، سأفضحه، سأفضحه في هذا اللايف، ولسوف يعرف العالم أجمع أيَّ جبان يكون.

تصبّبت جراح صالح دما أحمر قانيا، أحس بلزوجته تلطخ سائر جسده، وانفتحت جراحه التي كانت قد بدأت تلتئم إثر نوبة عذاب أخرى، هوى السياط على ظهره يشويه، فتعالت صيحاته وتتالت، كانت تستبد به رغبة جامحة في كظمها وحبسها حتى لا يشمت به يهوذا، ولكنه لم يتمكن، كزّ على أسنانه حتى كادت تتحطم، وعضّ على شفتيه حتى كادت تتمزق، ومع ذاك أفلتت صرخاته الرهيبة، واصل جلاده العمل دون اكتراث ولا شفقة، كأنه روبوت بلا شعور، كان بدينا عاري الصدر، يرتدي قناعا أسودا فيه فتحتان للرؤية والتنفس، فبدا خارجا من العصور الوسطى، أما صالح فكان معلقا إلى السقف بسلسلة تكبِّل يديه، يتدلى منها متأرجحا، كان يعاني من تمزق عضلي في كلتا ذراعيه، أضاف هذا إلى قائمة الآلام التي عليه أن يتحملها، راح الجلاد يطوف حوله بالسياط كي لا يترك موضعا إلا نالته من سوطه ضربة، خطر لصالح فجأة في غمرة هذا الجحيم المستعر أن الجلاد مجبر لا مخير، ربما هو فقير وليس أمامه سبيل آخر لإعالة أطفاله الجياع، ربما هو يشتري لهم بألمه ودمه الخبز.
أغرق هذا الخاطر النصراني المسيحي "سامح واغفر وأدر خدك ولا ترد" فيضانٌ من الخواطر والمشاعر السوداوية القاتمة، أفكار عن الانتقام والانتحار والانتقام والانتحار والانتقام والانتحار، كان يرحب بالانتقام ويفرش

له الورد، يتخيل ما سيفعله بهذا الجلاد وبيهوذا والعم سام حين يخرج، لا، لا، اغتيال نتنياهو رحمة له، عليهم أن يحبسوه في زنزانة مع مجموعة من القتلة والمغتصبين السايكوباثيين، يُعلنَ لهم أنهم ينالون عن كل ساعة يعذبون فيها الوغد سنة تخففُ من عقوبتهم ووجبة ساخنة لذيذة، عليهم أن يلقوه في قفص أفاعي، ثم يعالجوه ويلقوه في قفص عقارب، ثم يعالجوه ويلقوا عليه خلية دبابير ثم يعالجوه ويلقوه في قفص شامبانزي، يردُّوا للحيوان من حيوانيته.

أما الانتحار فكان ينبذه ويطرده، الله معي، الله معي، الجنة لي، الجنة لي.

فجأة أمسك العذاب، وسمع صوت خطوات تقترب، سمع يهوذا اللئيم يضحك ملء فيه ويقول : "أووه، يا للجمال! أنت تبدو كالعريس، هل أعجبك مذاق التضحية والجهاد؟ كلا، سؤالي الحقيقي هو : هل ستلبي طلبي؟ إنه بسيط، كل ما أريده كما قلت آنفا بضع كلمات، العن غزة، العن حماس، العن الإسلام، العن الكعبة والأقصى، العن الشهداء، ثم قل لي بعدها أني على حق، واعترف بأني مظلوم يسترد حقه ويدافع عن نفسه، وامدح الصهيونية، ثم قل وداعا للزنزانة، أسمعني هذه الكلمات الحلوة وأقسم أني سأخلي سبيلك، ستعود لأبيك وأمك، ألم تشتق لهما؟ ستتناول الفطور معهما مجددا، ستتنشق الهواء العليل، وتشم الزهور، وتصغي لشدو الطيور، هيا، هيا، لا تكن غبيا عنيدا كأبي عبيدة، كن ذكيا كأبيك، هيا، أسمعنيها".

ومط أذنيه يتسمّع، فبصق صالح نخامة من الدم على خده، ونطق بصوت واهن وحلق ظامئ : "عليك لعنة الله".

مسح يهوذا البصقة حانقا غاضبا كأبي جهل حين بصقت عليه سمية، وانتزع السياط من يد الجلاد، وشرع يضربه ويضربه حتى آلمته ذراعه

وسب وشتم وقال فيما قال : "ألم يكفني كسر أبو عبيدة لأسناني من جديد حتى تزيدني أنت من وقاحتك ورعونتك يا ابن ال..".
ثم توقف عن الجلد وصالح يكاد يُغشى عليه، وألقى السوط وقال للجلاد : "توقف عن الجلد، وانتقل للمرحلة الثانية من التعذيب، الصعق بالكهرباء، بعدها قلع الأظافر، وبعدها السلخ، لأذيقنك الويل، أنتم المسلمون تخافون الجحيم وتهددوننا بها، الجحيم هنا أيها الوغد، تقول أن الزبانية سيغتصبونني، لسوف أحضر لك الزبانية قريبا، أيها النذل، أيها الحيوان".
ثم زفر زفرة طويلة، وانصرف وهو يرتجف غيظا.
فكّ الجلّاد وثاقه، وناوله طبق عصيدة بارد شنيع الطعم، حين كان تلميذا في المتوسطة كان صالح يهرب ويتغيب عن الحصص، فعلها خمس مرات قبل أن تشي به إحدى الفتيات، حينها أتى المراقب ونادى عليه وعلى الهاربين الآخرين، وضربهم بعصاه الغليظة على الأيدي أربع مرات، أربع مرات فقط، دخل صالح القسم وهو يقاوم دموعه، وحك يديه ببعضهما وشعر بهما تنبضان نارا، كأنهما بحر حمم هائج، أخذت ساقه ترتعد لا إراديا، وغمره كره شديد للواشية والمراقب معا، استغرق الألم ربع ساعة أو أكثر حتى يخفت ويتلاشى، لم يهرب بعدها أبدا.
ما كان يعانيه حاليا من الجلدات كان أسوأ بمئة ضعف، تحول جلده إلى بزة عذاب، واعترته رغبة في سلخه بنفسه حتى يرتاح رغم لا منطقية هذا الخاطر، راح يئن ويصيح وينحب، ثم يقسم ويتوعد هامسا بالقتل والتنكيل، تردد في ذهنه صوت يهوذا إذ يقول : ما زلنا في المرحلة الأولى، سننتقل بعدها للصعق ثم قلع الأظافر ثم السلخ.
غلبته الدموع بغتة، كيف يصبر؟ كيف يصبر على الصعق؟ لقد قرأ الروايات من قبل وهو يعرف أنهم يصعقون الخصيتين دون كل المناطق، كيف سيحتمل ذلك العذاب؟ قلع الأظافر؟ حتى الخاطر تكاد روحه تزهق له

فكيف إذا فعلوها به، تصور الجلاد يقبض على يده وهو يرتجف ويرتعش ويصارع ويتلوى، ولكن الجلاد لا يكترث بل يطبق الكُلّاب على ظفره، وبعنف يجذب... آعع! هل أستطيع أن أصبر؟ كيف صبر سحرة فرعون وقالوا له متحدين : "لن نوثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا".

لقد كانوا حديثي العهد بالإسلام، ولكن إيمانهم كان يقينا لا يتزعزع، كانوا واثقين من أن النعيم الأخروي أبدي، وأن العذاب الدنيوي فانٍ، اللهم هبني صبرهم، كيف صبر بلال على صخرة أمية الضخمة التي وضعها على بطنه في وسط الصحراء الملتهبة، وجلده فوق ذلك؟ أيُّ إيمان هذا؟ قوته لا يكاد إيماني أمامها يبين، أنا مثل ياسر، سأنهار حالما يلامس الكلاب ظفري الأول، وسألعن كل شيء، أعرف هذا وأخشاه وأكره نفسي لضعف إيماني، آه، تبا لي! لماذا فعلتُ هذا بنفسي؟ أنا مجرد طفل لطيف ناعم، لم تعرف أصابعه سوى ملمس مفاتيح الكيبورد، كيف خدعتني نفسي إلى التصديق بأني قادر على الاحتمال؟ للجهاد رجاله، رجال الجهاد أيديهم خشنة كجلد الضب، أذرعهم عريضة كصواري السفن، صدورهم منتفخة كطير "الفرطاق الرائع"، هؤلاء الهراقلة العناترة هم رجال المعارك، أما أنا فكحسّان بن ثابت، مكاني بين النسوان وسيفي الريشة والدواة و....

- لا تقل ذلك.

جفل صالح وانتفض وسكب بعض العصيدة، ولكنه لم يأسف عليها، صاح : "من هناك؟".

كان الصوت آتيا من الزنزانة المجاورة له، لم يخطر له في غمرة التعذيب أن بها سجينا.

أجاب الصوت الخافت الهادئ : "أنا أبو عبيدة".

- أبو عبيدة؟!

- أجل.
لم يصدق صالح أذنيه، ونسي من شدة المفاجأة ألمه الرهيب للحظة، دنا زاحفا من باب زنزانته، وراوده الشك، أهو يهوذا يتلاعب به ويسخر منه؟
- أنت تكذب، أبو عبيدة في قاعة الاجتماعات، لقد قال أبي هذا.
- أقسم أني أبو عبيدة، لقد نقلوني إلى هنا ليضاعفوا عذابي خفية، كنتَ تتحدث مع نفسك.
- أسمعتني؟
قال صالح فيما فكر : كالعادة، دائما أفكر بصوت مسموع.
- نعم، كنتَ تشكك في قرارك، إياك أن تتخاذل، لقد فعلتَ حسنا بتحديك ليهوذا فإياك أن تحبط عملك الآن بالتراجع عنه، لقد أجاز الله لك أن تقول ما يرضيهم وأنت مطئمن بالإيمان، ولكن أن تنكر جهادك وتلعن نفسك لشجاعتك، ما هذا بالصواب، وإنما الرجل من يثبت على موقفه على الأقل في قرارة نفسه، ادع ربك كما دعوته وكما دعاه المؤمنون قبلك : "ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين".
كان صالح ما يزال يصارع حالة عجيبة من عدم التصديق، وراوده شعور بأنه يحلم وأنه سيستيقظ في أية لحظة.
- لماذا أنت صامت هكذا؟ ردد معي : "اللهم أفرغ علينا صبرا".
- اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.
إنه يتحدث إلى أبي عبيدة، أبي عبيدة بشحمه ولحمه، لا يفصل بينهما سوى حائط وقضبان زنزانة، ماذا يقول له؟ لو علم أنه سيلقاه يوما لجهز قائمة طويلة من الأسئلة، خطر له السؤال الذي ينغص عليه حياته وهويته كمسلم فطرحه عليه : "يا أبا عبيدة، لي لك سؤال".
- سل.
- ما رأيك في أمة الإسلام؟ لماذا لم يقفوا حتى الآن؟

- ماذا تقصد؟ لقد تظاهروا وأنفق كل منهم من سعته.
- لا، أنا أقصد الحرب المباشرة، أقصد زحف الجحافل، والجيوش الجرارة التي يقف أول جندي فيها أمام عتبة داره وآخرهم عند باب العدو يقتلعه، لماذا لا يجاهدون؟ أنسوا كيف؟ أم أنهم يخشون الهزيمة، أم يخافون الموت؟ أم هو الاختلاف والتحزب؟
- سؤال مهم، لا أعرف، أنت تجمعهم كلهم في شلة واحدة، هناك منهم من يجاهد، ولابد أنك سمعت بهم، هناك منهم يودُّ لو قاتل ولكن حكومته فاسدة خانعة، هناك منهم الجبناء أو الأنانيون، هناك منهم المستسلمون اليائسون القانطون، هناك منهم من يقولون : "فلينصرهم الله، أليس هو بقادر؟"، لا يعرفون أنهم يقولون كالمشركين : "أنطعم من لو يشاء الله أطعمه"، وأخيرا هناك المنافقون السفلة في الدرك الأسفل من النار، وأنت تعرفهم، المطبِّعون الموالون لليهود.
يا لها من إجابة وافية! لقد عدّد له كل أصناف المسلمين اليوم، فجأة عنَّ لصالح أن يشاركه حلما يراوده، كان حينها قد غفل عن ألمه الفظيع تماما لشدة الذهول من هذا الحوار، أهو في البرزخ؟ أمات من شدة العذاب، وهو الآن روح تخاطب روحا؟ لا، لا، إنه في سجن يهوذا، الدليل هذه العصيدة الشنيعة المنسكبة جواره، وتلك الصراصير التي تحتشد في الركن، وهذا الجرذ هناك، والجلدات التي خطّطت جلده.
- أتعرف يا أبا عبيدة؟ إن لي حلما.
- مارتن لوثر كينغ قال نفس الكلمات، الرسول أيضا قال نفس الشيء قبل الفتح المبين، قل، إني - رغم ألمي العظيم - أُصغي.
- حلمي أن يحج المسلمون كما يفعلون كل عام إلى الكعبة التي جعلتها الدولة السعودية معلما سياحيا، وراحت تتّجر بها كما كانت قريش بالأوثان، وإلا فلما تدعو المغنين وتدعهم يغنون الفحش والبذاءة على

مرمى حجر من الحرم الشريف؟ مهلا، خرجت عن الموضوع، حلمي أن يحج المسلمون إليها، ثم يقف أحدهم على عرفة خطيبا كالرسول يوم حجة الوداع، ينادي في الملايين المحتشدة : "يا عباد الله، هلموا إلى الجهاد، إخواننا في فلسطين تحت الأنقاض يختنقون، أبناءهم أدمغتهم تنتثر في الطرقات على إثر القنابل والقصف الجائر، هلموا إلى الجهاد، هلموا إلى الجنة، اجتمعتم هنا من كل البقاع، وطُفتم معا دون أن تضعوا اعتبارا لعرق أو مذهب، فلماذا لا تضعون فروقاتكم جانبا، فنذهب جيشا عظيما موحدا، ونزحف على الصهاينة الملاعين أعداء الله فنذيقهم بأيدينا عذابه وننتصر للمسلمين، ألا من كان مؤمنا حقا فسيحج معي إلى الأقصى المحتل، ومن كان منافقا جبانا فليعد إلى داره ويمكث به كالنساء، مهلا حتى النساء جاهدن فلا أعرف ماذا أقول في هؤلاء المخصيين، تبا لهم! إنهم يستحقون كل شتيمة فبعد ندائي هذا لم يبق عذر، قال الله تعالى : "ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل".

سكت أبو عبيدة مليا وقال بصوت متهدج متأثر : "ليت حلمك هذا يتحقق، عيناي تفيضان دمعا لسماعه، آه، ليته يتحقق، نحن ثلة قليلة وانظر ماذا فعلنا بيهوذا فما بالك لو كان معنا ذلك الجمع الغفير؟ سوف نحرر القدس في ساعة".

إن كان في قلب صالح شك أو ريبة أو اعتراه ضعف قبل هذا، فقد مسحته كلمات أبي عبيدة ونقَّته تماما وتركته كقلب الرسول بعدما غسلته الملائكة، شعر بإيمان قوي جديد كجذع شجرة فتيّة، ينبع في قلبه متفجرا كعيون موسى عليه السلام أو كزمزم، شعر به يهز أطرافه، ويطهر جوارحه، ويمحو خطاياه ومعاصيه، شرع يبكي على التقصير، على تضييع الوقت على التفاهات، على عجزه السابق عن التضحية في سبيل الله والإسلام،

فليكن، لو وقف ذلك الداعي على عرفة ونادى وأخرجني الله من سجني هذا، فسأكون مع المجاهدين بإذن الله، ودع الرصاص ينال من جسدي ما شاء، سأذهب محلقا كجحفر إلى الجنة.

صافح آدم يد الإرهابي – الذي يحسب نفسه مجاهدا – فاعتصرته القبضة القوية، وهزت ذراعه كأنما مُجَنِّده يختبر قوته، بدا عليه الرضا، فآدم يتمرن يوميا برفع الأثقال، فهو يحب الفتيات ولاجتذاب الفتيات عليك أن تبدو قويا كي تحس الفتاة بالأمن معك فتأوي لك، قال الإرهابي : "سامو عليكم، اسمي أسامة، ولكن هذا ليس اسمي الحقيقي، كلنا نستعمل أسماء مستعارة للاحتياط".

- أهلا، اسمي آ..آ...إلياس.

- أهلا بك، إذن، أنت راغب حقا في الانضمام بما أنك أتيت إلى هذا المكان.

كانت نقطة التقاءهما بعيدة ومهجورة، مكان في أرض جدباء قاحلة إلى جوار بئر ناضبة، تحيط بالأرض هضاب وجبال، جاء إلياس بالسيارة، استعاراها من أبيه – أو بالأحرى سرقها منه – سيستشيط أبوه غضبا حين يعرف، وسيندب السيارة ويبكيها أكثر من بكائه عليه، ولكنه يفعل هذا من أجل صديقه المخلص الوفي، وحين ينقذه، لابد أن أباه سينسى ذلك ويراه بطلا.

مشى أسامة الطويل قوي البنية عريض المنكبين مشيته العريضة، فجرى آدم خلفه يلاحقه، كان أسامة ملتحيا – كما توقع – معقوف الأنف ذا نظرة باردة صارمة، وكان يلبس عمامة سوداء ولثاما ويحمل بندقية ويلف على كتفيه حزمتين من الخراطيش، كانت تلفه هالة هائلة من الخطورة، جعلت آدم لا يمشي جواره بل خلفه بمسافة آمنة، قال أسامة : "أنت مجند جديد إذًا، لذا علي إعلامك بما سيحصل حين نبلغ المعسكر، سيناديك قائدنا

ويستجوبك، ويعرف دوافعك، إياك أن تكتم شيئا، سيعرف وحين يعرف سيجعلك تحفر قبرك، بعدها سيرسلك في مهمة صغيرة يختبر بها قوتك وشجاعتك، وحسب بلاءك فيها سيجعل لك رتبة، ويعرف نوع المهام التي تصلح لها، هناك منا القناصة الذين يصلحون للصيد، هناك الانتحاريون، هناك صانعوا الفخاخ، هناك الذين يجمعون الأدوية والمؤن، هناك المداوون، هناك المُجَنِّدون، وغيرهم، هو سيكتشف موهبتك بنفسه ويصنفك، المهم ألّا تكذب عليه، إن كانت نيتك صادقة فسيقبل بك، وإن خدمته جيدا فسترتقي وتنال معاملة خاصة، ابذل جهدك".
سأله آدم بما أن الأول بادره بالحديث فأزال حاجز الصمت بينهما : "هل تريد أن تعرف دافعي للانضمام؟"، لم ينتظر جوابا بل اندفع يقول : "لقد اختطف العم سام صديقي العزيز صالح من داره، فتى بريء مسكين وما نقموا عليه سوى أنه نشر على فيسبوك مقالات يحرض فيها المسلمين ضد يهوذا، أتصدق هذا؟ العم سام الذي يبشر بحرية التعبير والرأي يفعل هذا، لهذا أتيتُ إليكم، أنا أعرف كرهكم له، لقد فجرتم قصوره وأبراجه فلابد أنكم تستطيعون إنقاذ صالح منه".
- آه، العم سام عدونا اللدود، لعنه الله، بناته لا يتحجبن، نحن نخطف سفراءه الكفار كلما جاؤوا يزورون الحاكم ونقطع رؤوسهم ونصور الفيديو ونبعثه له لنريه، نحن لا نخشاه وهو لا يقدر على قتالنا، إننا نجعل أولئك الكفار يرتجفون لذكرنا، كلما سمعوا "الله أكبر" تصوّروا قنبلة، وهذه عزة الإسلام.
- هل تظن أن باستطاعتي إقناع زعيمكم بالخطة؟
- حدّثه وانظر ماذا يجيبك.
التقى آدم بالقائد وجرى بينهما حوار أشبه بما دار بين جون سنو ومانس رايدر، ما زلتَ لم تقرأها؟ حسنا، لا تقرأها، ولكن اعلم أن جون سنو

جاسوس من حرس الليل كُلِّف بالاندساس في صفوف الهمج ليعرف خطتهم فيخبرها لزعيمه فيقاتلهم، مانس رايدر ملك الهمج شكَّ فيه ولم يوله ثقته واستجوبه أول الأمر استجوابا ختامه أمران، إما الإعدام وإما القبول والانضمام، هكذا كان استجواب قائد داعش لآدم، في النهاية حين صرفه وقد قبل بانضمامه حين سمع بإعجابه بفيديوهات قطع الرأس والرمي بالرصاص، ثبت آدم في مكانه وقال متلعثما : "لدي شيء أقوله".
نظر له القائد ذو الوجه الهمجي الجهنمي المتجهم وقال بانزعاج : "ماذا؟".
- اقتراح، إن لي صديقا مقربا اختطفه العم سام وسلّمه ليهوذا، وأنت تعرف ما يفعله يهوذا بأخينا أبي عبيدة، فما رأيك أن نقوم بمهمة سرية نحرر بها صالح وأبا عبيدة من الزنازين؟ وبذلك ننتصر للإسلام وتكون ضربة قاصمة للعم وكلبه.
كان آدم موقنا من أن اقتراحه سينال رضا القائد، فهو مسلم متعصب متطرف يؤمن بالجهاد في سبيل الله، ولهذا أضاف أبا عبيدة رغم أن آدم لا يحبه ولا يكترث لأمره، ولكن داعش لن ينقذوا صالح فهو عديم القيمة لهم، ترقب متفائلا همهمة الاستحسان وأمر الزعيم.
ولكن الزعيم هزّ رأسه فتحركت لحيته الطويلة الشعثاء معه كأصبع ينفي مقترحه، قال : "لا نستطيع ذلك في الوقت الحالي، لدينا أمور أهم، والأولوية للأهم قبل المهم".
لم يستطع آدم منع نفسه من السؤال : "وما الشيء الأهم من تحرير أبي عبيدة من سجن يهوذا؟".
أجاب الزعيم متضايقا ثانية : "سنقوم بعملية تفجير في عمان".
- عمان؟

- أجل، عمان بلاد الكفر والعصيان، سنفجر مسجدا هناك، إنهم يتبعون مذهبا خاطئا، وهم يستحقون العقاب، والآن كفى أسئلة، إياك أن تسألني مجددا، القاعدة الأولى هنا : القائد يُطاع ولا يُناقش.

عمان؟ مسجد؟ أهو معتوه؟ ما خطبه؟ ولكني كنتُ أعتقد أنهم متعصبون للإ... ولكن أليسوا عدو العم سام؟ فلماذا يستهدفون المسلمين؟ ولكن ماذا عن أبي عبيدة؟ ألا يكترثون له؟ ألا يجب أن تكون الأولوية القصوى لتحريره من الاضطهاد الذي سيدفع به وقومه إلى الانقراض إن تواصل بهذا الاطراد؟ لا أفهم، حقا لا أفهم.

راحت التساؤلات تندفع بجنون في عقله وتصطدم ببعضها، وجرت على خاطره عشرات من "ولكن... ظننتُ أنّ... أليسوا... كنتُ أعتقد... إلخ"، أحس كأن صرحا هائلا من آراءه ينهدم، داعش لا يقاتلون لأجل الإسلام كما كان يظن، داعش لا يهتمون لما يحدث في غزة، داعش لا يهاجمون لا العم سام ولا يهوذا حاليا، أين هم؟ إنهم مشغولون بتفجير المساجد، هذا هو جهادهم.

أدارت أمينة ملعقة السكر في الفنجان بشدة غريبة، فانسكب بعض القهوة على الصينية، اعتذرت لزوجها وقدمت له الفنجان، ثم تناولت فنجانها ورشفت في صمت بنظرة جاحظة ساهمة.

شق وادٍ طريقه هابطا من عينيها، جاريا على جانبي أنفها وإلى طرفي فمها، مسارٌ ظاهر حفرته الدموع الفياضة التي أهرقتها على ابنها "صالح"، جلُّ إخوته الآخرين ماتوا أو هجروها ولا تعرف إن كانوا على قيد الحياة أم في عداد الأموات وحتى لو عرفت كما في حالة "أمير" التي عرفت أمس أنه ليلة أمس أنه مقيم بحي ماريان، حتى لو عرفت فهي لا تعرف كيف تتصل بهم، كل هذا بسبب زوجها محمد، دائما يتشاجر مع أبنائه، ويظلمهم ويبخلهم

حتى يُكرههم على مغادرة المنزل، كأنما يريد ذلك، حتى ابنها صالح، الذي لطالما مدحه محمد ل"طاعته" و"برِّه" تخلى عنه كأنه لم يربِّه منذ كان رضيعا، ويشتر له الحفاضات ثم الحلويات والمصاصات ثم ألعاب السيارات ثم الكتب والمجلات، كأنه لم يحرث معه الحقول في المزرعة، أو يزر معه المصانع، أو يجعله بائعا عنده في المتجر ذات صيف، كأنه لم يعانقه ويقبله ويلاعبه ويناغيه ويهدهده حين كان طفلا، ولم يعاتبه ويمدحه حين أصبح غلاما، تخلّى عنه ببساطة ولم يذكره منذ حكى لها ما حصل، ولم يهرع ليبحث عنه ولا سعى لنجدته، حكى لها الأمر قبل يومين.
رجع إلى المنزل بالسيارة، كانت قد خرجت للجيران وسألتهم باكية نائحة إن كانوا رأوا أين ذهبا، ومن أطلق النار، قالوا أنهم سمعوا الرصاصة وحين خرجوا لم يجدوا حتى الغبار، حين رجع تعلقت بثيابه وقالت وقد انخرطت في نوبة بكاء أخرى : "أين هو؟ أين صالح؟ من أطلق النار؟ هل أُصيب؟ أرجوك أخبرني".
قال لها بوجه جامد صخري: "كنتُ أريد أن أذهب معه إلى العم سام ليعتذر له فيصلح ما فعل، ولكنه رفض فجررته، فأسقطني وهرب، لقد ظنّ أني سأسلمه وما كنت لأسلمه أبدا، حين هرب سمعتُ طلق رصاص، جريتُ إليه فرأيتُ سيارة العم سام منطلقة بسرعة، كان واضحا أنه أطلق عليه واختطفه، لاحقته فضللني عبر الأحياء الغربية واختفى، فزرتُ المقر فلم أجد أحدا، لقد أخذه إلى مخبأ سري، ولابد أنه يرغب في استجوابه على ما نشر ".
وقفت أمينة مصدومة، ثم تهاوت على قدميها، العم سام خطف ابنها الأخير، ابنها الوحيد، ابنها الغالي، العم سام؟ ذاك المجرم الطاغية الذي يستبد ويتجبر ويضرب من شاء وقتما شاء دونما رادع، كيف سيقف محمد في وجهه؟

تعالى صوتها ناحبا مجددا، وبدأت تلطم خديها، فزجرها زوجها ثم ذهب لغرفته وأغلق الباب، ظلت تبكي عليه بكاء يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، أمس وأول أمس ذهبت للجيران فواستها الجارات، سألتهن بلهفة عن أخبار ابنها إن كن قد سمعن شيئا من التلفاز أو الأنترنت، دائما نفس الإجابة : لا شيء، لم يظهر لا ابنها ولا العم سام ولا يهوذا، ولكن داعش فجروا مسجدا في عمان، كانت لتُفجع لذلك في الأيام العادية ولكنها مصابة في ابنها ولذا لم يثر الخبر فيها صدمة كبيرة، كانت تدعو الله أن يفرجوا عنه ويعفوا عنه وأن يعيده سالما إليها، كانت تقرأ القرآن وتبكي وتصلي وتتصدق، ألحت على زوجها أن يخرج ويبحث عنه، ردد نفس الإجابة على مسامعها عشر مرات : "لقد اختطفوه وهم لن يفرجوا عنه حتى يفرغوا من استجوابه، كل ما يريدونه هو اعتذار بسيط، لقد خبؤوه وتلاشوا هم أيضا، لا أحد يعرف أين هم، ماذا تريدينني أن أفعل؟ أنا لستُ بجان سليمان، لا أستطيع أن أعثر عليه في التو واللحظة وأحضره لك، ولكني أقسم لك أني أبحث وأسأل عنه كل ساعة، صدقيني ولكن لم يرِدْني خبر حتى الآن".

في المرة الحادية عشر غضب فصرخ عليها وأقفل على نفسه باب الغرفة، جلست على الأريكة وسط الصالة شاردة مهمومة منبوذة، تخلى عنها زوجها في محنتها، وهجرها أبناؤها كلهم، وفقدت صالح، فلم يبق لها مؤنس سوى الوحشة والغم، نسيت إذ ذاك ابنتها الصغيرة مريم التي لا زالت تحبو، وعبد العزيز الذي لا زال يرضع.

فجأة خطرت لها فكرة، ذهبت إلى حاسوب ابنها وفتحته بمعجزة، ظلت تضغط على الفأرة بعشوائية وعلى المفاتيح، فجأة وجدت نفسها على جوجل وعلى يوتيوب تحديدا، كان الفيديو الأخير الذي شاهده ابنها في منتصفه، مكتوب تحته : "لايف الجمعة – أمير..".

مهلا، أمير؟ اسمه مثل اسم ابنها السابق لصالح، دخلت في القناة مصادفة وضغطت على آخر فيديو، كان عنوانه : "لايف الثلاثاء – فضيحة محمد ودوره في الاختطاف".
استمعت لأول عشر دقائق وصُدمت حتى كاد يُغمى عليها، لم تستطع الصياح، لم تقدر حتى على النطق، ظلت عيناها متسعتان ذاهلتان، وشفتاها ترتجفان، فجأة سمعت المفتاح يدور في قفل الغرفة فأطفأت الحاسوب، وتظاهرت بالبكاء، خرج زوجها وسأل عن الغداء، أخبرته أنها لم تطبخ فلعن وخرج يشتري شيئا، فيما استدار ومشى نحو الباب، سمّرت عينيها على ظهره حتى كادت تقدُّ قميصه من دبر من شدة النظر، كانت نظرة قاتلة، قاتمة، قاسية، باردة فيها بادرة جنون، ذلك الجنون الذي يُصيب من تعرض لحادثة شنعاء. كادت تنقض عليه وتنشب مخالبها في مؤخر عنقه.
حين خرج استعادت ما كشفه ابنها أمير، لقد قال أن محمد هو من أطلق على صالح النار، وأنه سلّمه بيده إلى العم سام طواعية في خنوع، ليس هذا فقط بل ذكّر المستمعين بمعاملة محمد السيئة لأبنائه وحرمانه ميراثهم وزواجه بماريان قاتلة أولاده، وذَكَر العشيقات والخليلات.
ولهذا لم تنم أمينة، بل دبّرت مكيدة بالليل، لقد طفح كيلها من زوجها هذا الذي حرمها أبناءها، ولم يحبها، ولم يقدِّر إخلاصها له وتفانيها، اشترت سُمّا غير بادِ الطعم، وأعدّت له فنجان قهوة في الفجر، بدا هذا الأمر غريبا لمحمد، قال في سره : سبحان مغير الأحوال، الحمد لله، لقد نست حزنها ولا ريب أنها ستنسى ابنها قريبا بإذن الله، عليها أن تفعل ففي حال لم يعده العم سام، سيواصلان العيش بدونه، هز محمد كتفيه وواصل قائلا لنفسه : ستنسى، ستنسى، لقد نست قبله عشرات الأبناء، كلهم

غادروا هذا الباب كما فعل ولم يرجعوا أبدا، إنها بريئة ساذجة وسرعان ما سترضى بالقضاء وتواصل حياتها.
قال لها مبتسما : "صباح الخير".
أجابت بلهجة جافة : "صباح الخير".
لم يتوقع هو منها سرورا على أية حال، قال مذيبا الجليد الذي تجمع بينهما الأيام الماضية : "الفجر جميل، أليس كذلك؟ العصافير تزقزق، والنسيم عليل، بعد الليل يحل الفجر دائما، أليس هذا موحيا بالأمل؟".
أجل، بعد موتك سيبدأ فجري، سأشفي غليلي، وأخرج للبحث عن أبنائي، هيا، هيا اشرب القهوة بسرعة.
ردّت بصوت خفيض : "أدعو الله أن تنقشع هذه الغُمّة ويعيد لنا ابننا سالما".
- "قد لا يعود سالما"، قال مجازفا وحسا من الفنجان متفاديا نظرتها الثاقبة، عليه أن يحضرها للأسوأ، عليها أن تسمع أسوأ سيناريو، وترضى به من الآن.

- ماذا؟ ماذا تعني؟
- ابننا قد لا يعود أبدا، أنتِ تعرفين قسوة العم سام، إنه يسفك دم الناس بدم بارد، قد يعدمه على جريمته.
- جريمته؟
- ولكن الله سيخلف لنا، وسينتصر لنا في يوم الأيام، الله سيعوضنا بصالحٍ عبد العزيز إن شاء الله سيكون بارًّا مطيعا و...

- ما الذي تقوله أيها الوغد؟ ما الذي تقوله؟ تتحدث عن مقتل صالح بهذا الهدوء شاربًا فنجان قهوة، كأنه ليس ابنك، أنت لم تعتبره ابنك في يوم أبدا، أليس كذلك؟ تبا لك!

بوغت محمد بغضبتها العاتية، بدت له كلبؤة تذود بمخالبها عن شبالها ضد أسد محتل، زمجر فيها لتستعيد رشدها : "اخفضي صوتك يا امرأة، ولا تفضحينا، الجيران قد يسمعون، ما قلت لك إلا ما أمرنا الله به، الصبر على البلاء".
ساق لها حججا دينية لأنه يعرف تدينها وورعها ولكنها هزؤت به : "اسمعوا للتقي، أنت أكبر منافق عرفته"، ضربت الطاولة بقبضتها وقالت : "لا تحدثني عن الإسلام وأنت تخونني مع نساء أخريات أيها السافل".
فاجئه ردها وسكب بعض فنجانه عن غير قصد ولم ينتبه له، توقف قلبه للحظة وشهق ولم يزفر، كيف عرفت بشأن الخليلات؟ ماذا تعرف أيضا؟ هل تعرف بشأن ماريان؟
لم يجد ما يرد به عليها في حين راحت تصب عليه الشتائم والسباب، استفزته بحق فمد يده يصفعها، ولكنه فجأة أحس بألم في صدره، شعر بشاشة عينيه تسودُّ، قال لنفسه : نوبة قلبية؟ نظر إليها، كانت تبتسم بتشف، لم يرها هكذا من قبل، الساذجة المسكينة انقلبت أفعى، مهلا، سم؟ أراد أن يقول شيئا ولكنه... مات.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

لا أصدّق أن الحرب استمرّت طيلة عامين دون أن تحركـ دولة عربية أو مسلمة ساكنا عدا اليمن الأبيُّ الوفيُّ، حتى اضطرّ المواطنون البسطاء إلى المبادرة بما في أيديهم من وسائل، فخرجوا في المسيرة البرية، فاعتدى عليهم الغوغاء، ثم خرجوا مجددا في أسطول الصُّمود لكسر الحصار،

فاختطفهم الإرهاب الصهيوني وهم في المياه الدولية، ولم تهبَّ الحكومة لنجدتهم، بل بدل أن يُشكروا ويُكرّموا وينالوا ألقاب البطولة والشجاعة إذا السفهاء يصمونهم بالخيانة والجوسسة، أيُّ سفالة وحقارة هذه؟ حتى الخنازير تحار.

أقسم أن إسرائيل ستبتلعكم جميعا كما يبتلع الحوت السردين أيها المتأسلمون طالما أنتم بهذا الجبن والخنوع، تخافون الموت وتحبون الدنيا فتربصوا.

ولسوف يُذكر الشجعان في التاريخ ويُكتب عنهم، ولن يذكر التاريخ القاعدين وإن فعل فبالسُّوء لا غير.

إن شئتم برهانا فهاؤم، قصة "فلسطين" مهداة إلى المناضلين :

عبد الرزاق مقري، زبيدة خرباش، الشيخ عمارة وناس، مهدي مخلوفي، نصر الدين دريسي، القفصي عبد القدوس، فوزي بوعزيز، محمد مروان بن قطاية، طيب محدان، محمد بن علوان، محمد سلمان، عبد الرشيد قريشي، عبد الفتاح شخنابة، عبد القادر عمور، حبيب طالب، زكرياء بن دادة، أمل لاميا، مصطفى بوشن.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

- القصة التالية بعنوان "وولف مان".

- تقصد "وير-وولف"؟

- لا، بل وولف مان، على شاكلة سبايدرمان وباتمان وسوبرمان.

- أيها الأبله، المتعارف عليه في الإنجليزية أن المذؤوب يطلق عليه "werewolf"، ليس الأمر سواء.

- أنا أريد أن أستخدم وولف مان لأن...

- لأنك مجنون.

- لا، لأن...

- لأنك غبي.

- بل لأن...

- لأنك مخبُ...

- دعني أتحدث بربِّ باسّة.

- باسّة؟

- أجل، باسّة، منطقة ستسمع أكثر عنها في القصة، المهم، كنت أقول، اخترتُ وولف مان لأنه بطل القصة فأردتُ تشبيهه بالأبطال الخارقين، وأيضا لأنه ليس مذؤوبا بل يلبس قناع ذئب تماما كباتمان.

- لكنه ليس بطلا

- فليكن، إذن، سميته بذلك عن نزوة تافهة، لا سبب منطقي وراء التسمية على الإطلاق، أرضيت الآن؟... دعني أقل شيئا أخيرا، هذه القصة قُدِّمت لي على طبق من ذهب، رأيتها بأكملها في المنام، كل ما فعلته هو مَنْطَقتها بإضافة تسلسل زمني، وتفاصيل وأسباب ونتائج وغيرها، وهذا لابد منه فأنتم تعرفون طبيعة الأحلام الجنونية.

والآن، بدأت القصة حين...

====================

وولفمان

تنحنح محمد بودراع وعقد يديه، وانحنى إلى الأمام ضاغطا بساعديه المفتولين على مكتبه، كان في منزله، في غرفة مكتبه حيث يجلس طيلة اليوم يعمل ويسجل حلقاتِ البودكاست، وأداءاتِه الصوتية لأدوارٍ في أفلام الأنيميشن، ومسلسلات الكرتون، وحتى الأفلام المصممة بالذكاء الاصطناعي، كان يدير اجتماعاته من ذلك المكتب أيضا، لايف في زووم متطور مزود بتقنية الأفاتار، كانت هولوغرامات المجتمعين معه تطفو أمامه في الهواء، ولو دخل رجل من الجاهلية أو من القرون الوسطى الغرفة ورأى، لولّى هاربا وقد حسبه ساحرا يستحضر الجن.

قال مُجيلا نظره في الحضور : "مستمعينا المواظبين، دعَوتكم اليوم لتفيدوني بملاحظاتكم واقتراحاتكم حول الموسم الثالث من بودكاست

'**حتى كلماتهم الأخيرة**'، وقد لبّيتم دعوتنا، شكرا لكم على ذلك، أنا ممتن حقا، ونحن إذ دعوناكم نبرهن على أن آراء المستمعين تهمُّنا، وكذلك لنُنمِّي ونطور، فالتغذية الراجعة هامة لكشف العيوب واستئصالها ومعرفة المحاسن وتجميلها وتضخيمها".

كاد لسانه يزلُّ ويضيف : "كما في عمليات التجميل"، ولكنه عضّ عليه، لقد تعلّم منذ سنوات كيف يسيطر على لسانه الجامح المنفلت الذي كان يطلق عنانه حين كان شابا فيسخر من هذا ويهزؤ من ذاك، وكثيرا ما تطغى البذاءة على حس دُعابته، فيَضحكُ أصدقائه الجريئون وتحمرُّ وجوه الخجولين منهم، لكنه صار رجلا الآن في الثلاثين، وهو مقدّم بودكاست، ومعلق صوتي، وممثل، ورئيس شركة إذاعة، وفوق هذا زوج له خمس أبناء، سادسهم وسابعهم وثامنهم و..- مهلا، يا للهول! كل هذا في بطن واحد؟ - وتاسعهم في الطريق، وهذه النغزات والوخزات البذيئة الفاحشة به لا تليق.

تلقَّف حبل الكلام بعد صمت قصير : "لا يخفى عليكم أن جمهورنا قلّ بشكل ملحوظ مقارنة بالنجاح الساحق الذي حصدناه في الموسم الثاني، ولذا نرجو منكم في ملاحظاتكم واقتراحاتكم أن تنقُدونا وتقدموا لنا الأسباب التي برأيكم قد أدت إلى هذا التراجع في المشاهدات، لأن قاعدتنا الجماهيرية سقطت سقوطا حرا كأنها عا.. أقصد، كأنها عارضة أزياء على أعلى طابق في برج خليفة داست بحذائها ذي الكعب العالي على ذيل فستانها فتعثرت وسقطت من السطح. لو كان سعيد هنا سيصفها هكذا

تماما، ويردف بعدها : "ولم ترتطم بالأرض بل هوت في بالوعة مفتوحة عميقة تعجُّ بالفئران والصراصير" هِهِه، المهم، أنا أخرج عن الموضوع، قبل أن أُحيل الكلمة، آمل أن يسود هذا اللقاء جو من الشفافية، تحدثوا بصراحة ولا تخفوا شيئا، والآن فلتتفضل يا..."، والتفت إلى أفاتار الرجل القصير الأصلع البدين بعض الشيء الجالس على يساره وناوله الحبل، "مسؤول متابعة تفاعل الجمهور ابن عبد الرحمن خليل".

جفّف خليل عرقه المتكاثف بمنديل - شخصيته خضراء نصف زرقاء - ثم وقف وتلعثم وقد احتقن وجهه : "ما أود... الحديث عنه... أقصد، في هذه المناسبة... دعوناكم ل... أولا، موضوعُ ال..."، كان دائما يتلعثم في محضر النساء، رغم أنهن لم يكنَّ حاضرات فعلا وإنما هي صور معروضة فحسب متطورة للغاية في شكلها ولونها حتى تخالها حية ملموسة، وقد كان أغلب من شارك في الاجتماع نساء، فالمستمعون الرجال لم يشاركوا طبعا لأنهم لا يبالون، الاجتماعات مملة، ستجدهم الآن غارقين في سبات، أو متوسّدين متدثرين يشاهدون الأخبار على هواتفهم، أو يهتفون تشجيعا وهم يتفرجون على مباراة، حتى محمد بودراع لم يكن ليحضر لولا أنه رئيس الشركة، والاجتماع يعنيه هو دون سواه.

لماذا هجروا البودكاست بعد أن أدمنوا عليه؟

إنه يعرف الإجابة، لكنه يريد أن يتثبت، فقد يكون هناك سبب آخر، مشكلة أخرى يستطيع حلها، فالسبب الذي يعرفه قد عجز أمامه تماما، شعور مقيت شعور العجز، شعور مدمن على الإباحية أمام زوجته ليلة الزفاف.

ذلك المجرم البغيض، كيف يقتل دون ترك أثر، خليفة جاك السفاح، خليفة القاتل زودياك، خليفة وحش فلورنس الإيطالي، أولئك القتلة المختلون الذين دائما ما يهذي لي عنهم سعيد.

أنهى خليل تعريفَه بالبودكاست وتاريخه - وهو ما لا داعي له فالحضور أنصتوا له أسبوعيا على مدار عامين، لكنه البروتوكول والبروتوكول عند خليل وحي منزّل - وطرح النقاط التي يريدون رأي المستمعين فيها، ويمكننا هنا أن نعرِّف البودكاست ببساطة بدل أن ننقله لكم على لسان ابن عبد الرحمن المترنح المتعثر بأنه :

رافِقنا يا عزيزي المستمع العسل (مجاملة المستمع والإطراء عليه بشكل مبالغ فيه مستوحاة من قناة دوبامكافين ولها تأثير مذهل على فئة الإناث) في بودكاست "حتى لحظاتهم الأخيرة"، أين نتتبع القتلة منذ ارتكابهم لجريمتهم وحتى لحظة شنقهم، في كل حلقة نوافيكم بمستجدات القضايا مسجلين شهادات العيان وإجابات المحققين، بل ونحاور عائلات الضحايا، والمشتبه فيهم أيضا، ونقدم نظريات حول الفاعل؛ من يكون؟ كيف فعلها؟ وفي النهاية بعد القبض عليه نجري مقابلات معه، نحاول فيها فهم دوافعه، ومعرفة سيرته، كي نتفادى ونتقي

وقوع مثل هذه المآسي مستقبلا، بودكاست "حتى لحظاتهم الأخيرة" يقدِّمه لكم محمد بودراع بأسلوبٍ يمزج بين الرعب والغموض وعلم النفس والإثارة والكوميديا السوداء مستلهمٍ من روايات الكاتب المعروف سعيد، وقد حصد أكثر من ثلاثين مليون مشاهدة في موسمه الأول فقط".

راح بودراع يدير عينيه بين الأطياف متأملا أوجههم، يا تُرى من منهم سيفتح فمه أولا؟ عشرون شابة، أربع نساء، خمس شبان، وكهل واحد. ثلاثون مستمعا انتقاهم بحرص، المعيار : عدم تفويت ولا حتى حلقة واحدة.

نطقت إحدى الفتيات : "اسمي عائشة، وأنا معجبة كبيرة".

- شكرا لكِ.

كان أفاتارها يرتدي حجابا أسودا، عباءة سوداء، ومعطفا أسودا، وحذاء أسودا، حتى جوربها أسود، أما عيناها فسوداوان كبحيرة تعجُّ بحبّارات مصابة بإسهال الحبر.

كل ما يلفُّها أسود، ولكن بشرتها أكثر بياضا من سنو وايت، كأنه الليل يطوِّق القمر فيزيده بهاء وسناء، هل اختارت ذاك اللون عمدا لتبرز بشرتها فتخطف البصر؟

بدأت تقول وهي تحرك يديها بإيماءات تترجم بها ما تقول، أتحسبني أصمًّا؟

- أعتقد أن التراجع في الأرقام يرجع إلى أن آخر مجرم تحدثتم عنه ما زال طليقا حتى اللحظة، حتى بعد نهاية الموسم

الحقيقة تلفظ أنفاسها، بينما رمح وحشي ينهش كبدها.

لقد صرّحت بما كان يتجنب مواجهته، السبب الحقيقي لتدهوره، يأبى مواجهته لأنه لم يجد له حلا.

- لقد عوّدتمونا نحن المستمعين أن يقع المجرم في الأسر في غضون أسبوع أو أسبوعين مهما بلغت فعائله شناعة وبشاعة، لكن هذا المجرم الملقب ب"X" ما يزال طليقا رغم مضي شهرين على جريمته الأولى، إنه يقتل ويشوه في كل ليلة ضحية أخرى، لقد أثار ذعر الناس ورعبهم، فتخلّوا عن البودكاست لأنك في الافتتاحية تتوعد كافة اللصوص والقتلة بالعاقبة الوخيمة آخر المطاف، وتعِدُ المشاهدين بأن الحقيقة والعدالة دائما تنتصران، ولكنكم فشلتم في الإيفاء بالعهد، الجمهور يشعر بأنه تعرض للخيانة، لقد كذبتم عليه، كنتم حصنا للمستمعين يجدون فيه الأمن، أما الآن فقد كشف الحصن عن ثغرة، وأدرك المتابعون أنكم قد تقرؤون نعيهم في الحلقات القادمة

أجابها إلياس مسؤول المالية بهدوء - وهو ذو شخصية زرقاء نصف صفراء - : "أختي الكريمة، أعتقد أنكِ مخطئة في رأيك، نحن لسنا شرطة ولا محققين، لا نستطيع تقديم المجرم للعدالة، نحن مذيعون وصحفيون

ننقل الأخبار لا غير، قولنا أن كل المجرمين سيسقطون هو قاعدة أثبتها الزمن، وليست وعدا، لا يحق للجمهور لومنا كأننا نحن المسؤولون عن القبض على القاتل".

لا، إنها على حق، أجابه محمد بودراع في سره، نحن مسؤولون، بل أنا المسؤول تحديدا، لكنك تجهل الكثير لذا سأعذرك، هذا اللقاء مجرد هراء لا نفع منه، لقد ترسّخ هاجسي، الجمهور اعتاد انتصار الخير، وكان يهلِّل لانتصار العدالة في نهاية كل موسم، ولكن الحلقة الأخيرة هذه المرة لم تكن سعيدة إطلاقا.

راح يسترجع ما حصل... انطلاقه بسيارته الكهربائية ذاتية القيادة في الصباح الباكر بسرعة شديدة، فبلوغه مسرح الجريمة في "بوطارة"، كانت حلقة من الشرطيين تحيط حاوية قمامة مفتوحة، تعلو محيّا أكثر من واحد منهم نُذُر القيء.

من الحاوية يُطلُّ رأس فتاة مقطوع يعتلي كيس قمامة أسودا كبيرا كأنه تاجه، على جانبيه يتدلّى خارجا ذراعان مقطوعا الأصابع، راح يحدق في وجهها، في حوالي الثامنة عشر، مخطوبة ربما، كانت تحلم بأيام الزفاف، ترنو لهدية خطيبها، تسأل الإصدار العشرين من chatgpt أن يصمم لها فيديوهات توضيحية لوصفات طبخ جديدة مبتكرة كي تجعل لعابه يسيل لها فيما بعد، وتراه يربت على بطنه المسطّح - والذي سرعان ما سيترقى لينال وسام "الكرش" - وهو يحمد ربه ويشكرها ويدعو لها بالجنة، ها هي

ترمقه الآن بعينين جامدتين، سلب القاتل روحهما ومحا نظرتهما الحالمة، لا يملأهما اللحظة سوى الخواء، على وجهها ارتياع نُحِتَ وتُرك دليلا على ميتتها الشنيعة كالجثث المتصخرة في بومباي، فجأة لاحظ شيئا على جبهتها، ختم إلكتروني صغير لا يكاد يبين!

اقترب أكثر ليُلقي نظرة، حاول أحد رجال الشرطة المبتدئين الأغبياء منعه كالعادة، ففرقع بأصبعيه ليظهر هولوغرام شارة المحقق الخاص في الهواء أمامه، لم يكن محققا خاصا حقا، من أين له الهولوغرام؟ لقد زوّره له أحد الهاكرز المحترفين.

ارتدى نظّارته الإلكترونية، وكبّر الصورة، حالما أدرك فحوى الختم ثارت ثائرته، واحمرّت الدنيا من حوله، تعالى لهاثه، وتسارع نبضه، وبرزت عروقه، واعترته رغبة عارمة في قتل أحدهم للتنفيس، كأنه رجع لوهلة لميادين الحرب التي شارك فيها قبل خمس سنوات، طفق يسبّ ويلعن ويشتم، أمسكه شرطيان ليهدِّئاه فقذف بهما بعيدا، وكاد يحفر أخاديدًا في خدودهما بقبضته لولا تماسكه لأعصابه.

تبا له! تبا له! ابن الحقيرة! يسخر مني، يتحداني.

"حتى لحظاتهم الأخيرة - سأكون في الموعد، هاك مادة للحديث، أحبك"، تحتها طابع قبلة حمراء كالتي كان يراها على جدران السلالم أيام الجامعة، كانت تثير فيه الشهوة حينها، الآن أثارت فيه غضبا أعمى لو صُبَّ على تنين لشواه.

أحاطه رجال الشرطة، وراحوا يسألونه عما به صارخين، لكنه سيطر على نفسه، واعتذر لهم بشدة، ثم رمش بعينيه ملتقطا بنظارته الذكية بضع صور، وانصرف.

في المساء كان يشرب الشاي بالقهوة محاولا تناسي ما حدث، لكي لا يؤثر ذلك على إلقائه، كان على وشك بث حلقة أخرى، ساعة ويبدأ بالتسجيل.

فجأة اتصل به إلياس وأخبره بصوت حاول خفض نبرته لعله يخفف من وقعه أنهم وجدوا جثة أخرى، نصف جثة بالأحرى، فتاة أخرى في السادسة عشر، وجدوها في الشيخ عامر 4، كانت معلّقة بحبل تجرُّه طائرة مُسيَّرةٌ صغيرة، راحت تجوب بها الطرقات، بعض الناس أُغمي عليهم، بعضهم هرعوا هاربين وهم يصرخون، طفل ما عبرت فوقه فأُصيب بعقدة نفسية مزمنة، سترافقه حتى قبره ما دام منظر الأحشاء المتدلية وهي تمرّ متأرجحة فوق رأسه عالقا بعقله كالمسمار في النعش، إحداها لامست شعره بشكل طفيف.

أرسل روبوتا بالنيابة ليتحرّى، ثم بدأ تسجيل الحلقة المشؤومة، حاول كظم غيظه وحزنه ويأسه، لكنه لم يقدر، خرج كل هذا في صوته، في ارتعاشه، في مغالبته للدموع، في الشتائم التي حاول كتمها فخرجت مقطوعة، وما زاد الطين بلّة أنه اتصل بأم المخطوبة - كانت قد خُطبت حقا وأزف زفافها - فراحت تبكي وتدعو الله أن يُنزل بالسفّاح القصاص، وتستغيث، وتستصرخ، وتصرخ كيف يمكن للشرطة والمحققين أن يتركوا

كلبًا مسعورًا كهذا طليقا يسرح في بريان ويعيث فيها الفساد، كيف تركوه يسخر منهم في رسائله المشفرة وتسجيلاته الصوتية؟

لم تعرف أن كلماتها تخترقه هو أيضا، وتحزُّ في قلبه كأنياب قرش مدببة، فهو المسؤول، هو العدالة، هو البطل، هو الحامي، هو المنقذ، أو هكذا يجدر به أن يكون.

انتهت عائشة من كلامها، وسكتت فشكرها محمد باقتضاب، كانت هناك عشر أيادٍ مرفوعة تتلهف لإبداء رأيها، كلهم تشجّع الآن لصبِّ الانتقادات على رأسه، ربما يطمعون في إعجابه وربما إطراء من قبيل "أحسنتَ يا عزيزي العسل الحلو"، لكنه رفع يده، فعمّ الصمت، وتعلقت بكفِّه النظرات الحائرة يشعر بها رغم المسافة، أخيرا تنفس في ضيق وقال : "انتهى اللقاء".

التفت إليه خليل بأعين متّسعة كالليمور الفاري، نظر له كأنه أعلن لهم "أنا حامل"، كاد يضحك حين تذكر فجأة ميم القط المصدوم، ثم تذكر النقد فعاوده عبوسه، كفى تضييعا للوقت، سأخرج ولن أعود حتى أعدَّ أسنان هذا القاتل كما يعدُّ الطفل النقود بين أصابعه، تعبير سعيدي آخر.

هتف إلياس وقد تلاشى هدوءه المعهود : "ولكن، يا محمد، أقصد، أيها المدير، اللقاء ما زال في بدايته، لقد قررنا في البرنامج أنه سيمتدُّ إلى الساعة ال...".

- وأنا قلتُ أنه انتهى الآن، إنها شركتي، أنا ربها، قرار كل شيء بيدي، وقد قررتُ أن ألغيه، لقد حصلتُ على الإجابة، ولم تعد للقاء فائدة، إلى اللقاء، لقاءٍ آخر، نعتذر على إزعاجكم، ادفع لهم إن شاؤوا تعويضا لوقتهم، أو أعطهم اشتراكا مجانيا للمحتوى المتميز (premium)، أما أنا فمغادر.

وقام من مقعده، وغادر مكتبه تاركًا الحضور يتأملون مكتبته الصغيرة التي كان قد واراها بظهره، لاحظ بعضهم فجأة أن نصف الكتب عن الثقافة الجنسية، وشهر العسل، وكيف تقنع زوجتك بأنك ستتزوج عليها، وكيف تُرضي زوجاتك الأربع بحيث تغار كل واحدة عليك من الأخرى فيتنافسن عليك مقتديا بقصص من الهدي النبوي، لاحظوا كل ذلك ولكن لم يكن الوقت مناسبا لذكره، راحوا يحدقون في بعضهم كحيوانات ليمور حائرة، ما الذي أغضبه؟ ما الذي أزعجه؟ ربما يعاني إسهالا وهو ذاهب للحمّام، كله خطأ عائشة، كانت عائشة قد أنهت الاتصال، ربما خجلا من العناوين، أو خشية من غضب الحاضرين.

راح إلياس وخليل يعتذران لهم، تمتم الحضور بعبارات ساخطة، هذه إهانة، يا له من متعجرف، لن أتابعه بعد الآن، سأرسل له إيميلا مسموعا غير مسبوق، تركتُ زوجتي وقد كانت تتغنَّج وقعدتُ لهذا الهراء! راحوا يقطعون الاتصال واحدا تلو الآخر وهم يتمنون لو قطعوا لسانه.

خرج محمد من منزله، كانت الساعة الثامنة ليلا، وانطلق بسيارته مسرعا كالصاروخ، بل كميتة الفجأة، كأنه يشتهي موتة سريعة، تنقلب السيارة به فتنقلب الدنيا متدحرجة من حوله مرتين ثم تُظلِم، وها قد ارتاح من كل شيء؛ من العبء الثقيل ثِقَلَ حوت أزرق يرفع ذيله فوق سطح البحر ليهوي به على صدره، من بكاء الثكلى على ابنتها، من نظرة الرأس المقطوع، من صياح خمسة قتلة عذّبهم أقسى عذاب حتى نزفوا آخر قطرة من أسرارهم وخباياهم، من تساؤلات الشرطة والناس العاديين الذين اكتشفوا هويته فمحا ذاكرتهم، وهم يجوبون الشوارع الآن بأعين زائغة، ولعاب متدلٍّ، أو يرسمون الغرافيتي على جدران المصحات عقلية.

ولكني أخدم المجتمع، أنا المحارب، محارب طروادة، أنا الليث، ليث الإسلام، حمزة، عنترة، عمر، خالد، المعتصم، قطز، قيصر، الإسكندر، محمد علي، مايك تايسون، خبيب، أنا سليل كل هؤلاء، وسليل صياد البيسون والماموث، أنا نظيرهم في الجزائر، النسخة الجزائرية الميزابية الغرداوية لكل قائدٍ غازٍ، منتفخ الصدر، نافر العضلات، يفضِّل الموت على عيشة الذُلِّ، حتى أصغر إصبع في قدمي قادر على سحق جمجمتك، إياك أن تعبث معي، لا أحد عبث معي إلا ومات أو شُلَّ، حتى لو شُلّة شنّت ستفشل وتُنتشل أشلاءها من مصبِّ شلّال، عبارة سعيدية مجددا[6].

[6] حاولتُ أن أحافظ على جناس الشين طويلا بلا انقطاع، فحذفتُ كلمة وتركتُ للقارئ تقديرها وهي شنّت "هجمة".

قوم عاد وثمود، آتاهم الله القوة فطغوا، جالوت آتاه الله القوة فطغى، أنا آتاني الله القوة الجبّارة مثلهم فآثرتُ استغلالها مثل طالوت للذود عن قومي ووطني.

قاتلتُ لتحرير غزة، حتى انتصرنا، وها أنا الآن أتصدّى للقتلة الذين يلقي بهم على أرضنا الأمريكان، هل تتغاضى الحكومة أم لا تعرف؟ لا زال غير متأكد، إنه لا يثق سوى بنفسه، لذا لم يخبر أحدا بعمله السري الخيري التطوعي، ولا حتى أبناءه، ولا حتى أبويه، ولا حتى إخوته، ولا حتى أصحابه، ولا حتى زوجاته!

لا أحد يعرف، سواه والله.

عاد لمنزله بعد أن كاد يسبب نوبة قلبية لعدة سائقين كهولٍ اندفع نحوهم خارجا من طريق جانبي منقضّا كالكاميكازي، ثم تخطّاهم ملك الموت.

****

ثم أتى هذا الX، تبا له! صرخ محمد وهو يلكم كيس الرمل بعنف أدمى يده، فليمت، لا، بل سأقتله، صرخ مجددا، كان في القبو، قال لزوجته - الثالثة - أنه سيعود للعمل، وأقفل الباب على نفسه، دخل القاعة الخفية، حيث يخطط ويحقق، أجهزة حديثة للتحليل مدعمة بالذكاء الاصطناعي، يعطيها أدلته، فتقوده للحل مباشرة أو تناوله طرف الخيط، في القاعة نفسها، ركن خاصٌّ أكبر بقليل من كابينة الهاتف، جدرانه عازلة للصوت، هناك الجحيم، بقعة العذاب، تحتوي على خزانة أدوات (مسامير،

كمّاشات، سواطير، ومناشير...)، ومقعد مزوّد بأحزمة، في القاعة أيضا ركن للتدريب، أثقال من ثلاثين كيلو فما فوق، آلة للركض، كيس ملاكمة، دمية بشرية للنزال مثل التي في "إب-مان"ولكنها تتحرك، تتفادى وتهاجم، والأكثر إثارة أنها تصدر أصوات الألم واللهاث، وهدفٌ للقنص.

أنا طرزان، أنا باتمان، أنا أومزاب مان.

راح يلكم ويركل الكيس حتى كاد يثقبه، لو كان الكيس بشرا لتمنى لو يقذفونه في نار متأججة فهي أهون، العرق يتصبب على جبينه غزيرا، أسنانه تصرُّ، عيناه تهِسّان بالحقد، قبضتاه تقطران بالدم، أظهر نفسك، أيها الوغد، أيها الجبان، أظهر نفسك وسأقتلع رأسك بكفّي هاتين، تنفسه يتسارع، ينخُر كالثور.

****

سألتُ تشات جي بي تي فقلتُ له : "أنا أعتقد أن علينا ألا نحمد الله على نعمه العظيمة فحسب، بل أن نحمده على ما لم يكن وما لا يكون وما لن يكون، ألا توافقني الرأي؟

فأجابني فقلتُ له "أنت تستطرد كثيرا، لخص"، فأوجز حتى أخلّ وقال : "الحمد لله يكون على ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن، لأنه لو وقع لكان شرًّا.
فالحمد يشمل كل شيء، لأنه ثناء على الله لذاته وحكمته، لا للنعم الظاهرة فقط".

واقترح علي تقديم أمثلة، فقلتُ له : "أنا أعطيك مثالا، لأني أظنك لم تستوعب الفكرة جيدا، الحوت الأزرق هو أضخم حيوان على وجه الأرض منذ زمن الديناصورات من حيث الوزن طبعا، تصوّر لو أن هذا الحيوان كان عدائيا مفترسا داهية في تكتيكات الصيد كحيتان الأوركا، ثم تصوّر لو أن له أسنانا وأنيابا، بل أسوأ من ذلك لو كان له سيقان وكان يجري على أربع كتنانين الكومودو، بل ألعن من ذلك لو كان له أجنحة وصار كتنين أسطوري تجسّد، ثم تصوّر لو أنه كان يشتهي لحم البشر دون سواه، ثم تصوّر لو أنه كان يتكاثر بسرعة كالخنازير أو الأرانب أو ربما الحشرات حتى، تخيل كيف يعيش البشر بعد هذا؟ أنا أعتقد أننا سنبقى شهرا على أكثر تقدير، ثم ننقرض.

أو تخيل لو كان لأي حيوان من الحيوانات عقل، أنا أعتقد أنهم سيروضوننا للحمنا وجلدنا وحليبنا، فالحيوانات جميعا يتفوقون علينا في كل شيء إلا في العقل.

فالحمد لله على كل ما هو غير موجود لحكمة بالغة أرادها يعلمها وحده سبحانه.

****

كان سعيد يمشي سارحا، رأسه مطأطئ للأسفل كالعادة، وخياله يقذف به بين عوالم عجيبة لا متناهية، كرة تنس يتقاذفها لاعبون من أكوان مختلفة تفصل بينها مسافات تجعل الضوء يلهث.

كان يفكر في روايته الثلاثين، أي شخصيات سيكتب عنها هذه المرة؟ أي أحداث وأي أساليب سيستعمل؟ هل استنفد كل شيء؟ هل اعتصر قريحته حتى آخر قطرة بعدُ؟ أكل ما يكتبه مؤخرا تكرار مبتذل ل"فكرة قاتلة" و"أحلام وكوابيس"؟ لا، ما زال في عقلي الكثير من الأفكار، العقل كالقلب لا يتوقف إلا لحظة عزرائيل عن ضخِّ الأفكار الجديدة، تريد الإلهام والابتكار، ابحث في الأشياء العجيبة غير التقليدية. هذه نصيحته الدائمة، ربما لهذا كلمته المفتاحية في بحوثه على جوجل - قبل قدوم عدة شبكات استبدلت الأنترنت لكل منها أهدافها وجمهورها - كانت دائما "أغرب"، أغرب الحيوانات، أغرب الطقوس، أغرب العادات، أغرب اللوحات، أغرب الروايات، أغرب الحقائق، أغرب النباتات، أغرب الأفلام، أغرب الفنانين، أغرب وأعجب، غريب أطوار مغرم بالغرائب، كان ذلك دأبه وسيبقى.

آه، لقد عثر عليها، الشخصية الرئيسية ستكون نموذجا للرجل الحق الذي لا يخشى شيئا، القائد الذي يتقدم الطليعة، نقيض نتنياهو الذي لطالما توارى في منزله الحصين خلف امرأته الدميمة، قبل أن يدقّ بابه ضيف ثقيل، طق، طق، من الطارق؟ طاع!... موتك.

ومن أحسن ليستوحي نموذجه منه من يحي السنوار، يصرِّح لإسرائيل في البث المباشر، أنا في الموقع الفلاني، وسأمشي حين أغادر ربع ساعة عبر هذا الطريق قبل أن أصل لسيارتي، هيا، ألقوا علي قنبلة أو اقذفوني بصاروخ، لن يطرف لي جفن، سأتثاءب وأستعد لنوم مريح، رحلة مجانية للجنة، شكرا على هذا الكرم أيها الأوغاد أبناء القردة والخنازير!

الرواية ستكون تحت صنف جديد سأمزج فيه كل صنف آخر، الأدب الساخر، الفانتازيا، الرعب، الأدب البوليسي، الخيال العلمي، كل صنف، وسأسمِّيه تيمُّنا باسمي، ألا أستحق هذا وأنا مبتكره؟ كافكا نال ذاك الشرف ولكن بعد موته، أما أنا فلن أنتظر الآخرين ليكرّموني بعد وفاتي، أسأشعر بالتكريم حينها؟ لا، بل لن أكترث له أصلا، لهذا لن أنتظر، لستُ بالمتواضع ولا الصبر من شيمي.

ولكن الجرائم الرهيبة غشت بدمائها خيالاته. كان يصمم شخصياته ويُلبسها في ذهنه كما في بعض الألعاب الإلكترونية القديمة حين أغرق سيل الدم كل شيء، أحمر، أحمر، رأس مقطوع يطفو.

ما هذا؟ أنا لا أنوي كتابة رواية رعب هذه المرة، آه، أجل، إنها الجرائم، الجرائم البشعة التي أسمع عنها في بودكاست صديقي محمد بودراع، وأقرأ عنها في منصات التواصل، الكل مذعور، خصوصا أنه صار بإمكانك نشر رسالة صوتية ليسمعها الجميع، فأصبحت كل المنشورات عبارة عن صياح ونواح وهلع وهستيريا.

القاتل الذي لم يُقبض عليه. لماذا كان مهووسا مفتونا بمثل هؤلاء المختلِّين في مراهقته؟ إنهم يثيرون الآن اشمئزازه وخوفه، كل ما يحدث للغير مسلٍّ مثير حتى يحدث لك، أليس كذلك؟ وربما سيحدث له بالفعل، هؤلاء القتلة يستهدفون السّذّج الضعفاء الوحيدين المقطوعين، وهذه الصفات كلها تنطبق عليه تماما، إنه يعيش وحيدا في منزل صغير معزول، لا

أحد يتفقد أحواله أو يزوره، لقد اختار حياة العزوبة والوحشة، الذئب الوحيد، الوطواط الآدمي كما كان يصف رفعت إسماعيل نفسَه.

رفعت إسماعيل، أهذا تأثيرك؟ أأنت من جعله يستحبُّ العزوبة؟

لا تتهمني جزافا، ليس ذنبي أن الحمقى يقرؤون كيف عانيتُ من حياة الوحدة هذه، وكيف سعيتُ مرارا للخروج منها عبر ماجي، وتلك البلهاء التي خطبتها، والثالثة في أسطورة عدو الشمس، قرؤوا أيضا كيف اضطررتُ لمواجهة المسوخ والأشباح وحدي وكنتُ أتمنى لو كانت معي زوجة فيلتهي بها الوحش ويترك لي وقتا للهرب... واستدعاء الشرطة؟ لماذا أفعل ذلك؟ لإنقاذ زوجتي؟ ستهرب، لا تخف، زوجتي نفسها وحش، انتظر وسترى كيف سيهرب منها مقطّع الأذنين، منفوخ العينين، ممزق الفرو، وهو ينبح بخفوت ككلب أجرب رُكل، سترى... مهلا، تأخر الوقت، أأنت واثق من نجاتها؟ آه، أجل، واثق... أأنت حقا وا... حسنا، اتصل بالشرطة حالا، حالا، تذكرتُ أن زوجتي لا تفشل أبدا في تخييب أملي.

إذن، سعيد هو الضحية المثالي، عليه أن يحترس، هكذا أدرك في تلك اللحظة، ولكنه سرعان ما سيقفز من فكرة إلى أخرى حتى يغيب فيها وينسى أخذ الحيطة، لماذا يوجد رجل بقناع، وسكين في يده في مطبخي ليلا، أهو متشرد فقير جاء يشاركني العشاء؟ أهلا و... مهلا، أنا العشاء؟

هذه الجرائم الرهيبة أكثر إرعابا من العشرية السوداء، والألعن أن بريان بؤرتها، كنتُ في أول مسيرتي الأدبية أسخر من الأمريكيين وأشمئز منهم

وأقول قرائي : "انظروا إليهم واحمدوا ربكم، إنهم غارقون في أمراضهم النفسية ورغباتهم الشاذة المنحرفة، أسرهم مفككة، وحياتهم خاوية من المعنى خواء جلد الأفعى المسلوخ، وهذا لأنهم انسلخوا عن الدين".

وها نحن قد وقعنا فيما هم فيه، ولكن من أين ظهر كل هؤلاء القتلة فجأة؟ كأن أحدهم حمل مصحًّا نفسيا وقلع سقفه وأفرغه كالحصّالة على مدينتنا، قروش، كم من القروش أمطرت تلك الحصّالة؟ الغريب أنهم بدؤوا في الظهور بعد سنة فقط من تحريرنا لفلسطين، أهناك علاقة بين الأمرين؟ لا بد أنهم الصهاينة الناجون الحاقدون يسعون للثأر، نظرية مؤامرة؟ أجل، إنها كذلك وقد شهد الزمن بصدقِ كثير منها.

بدأ الثلج يتهاطل فجأة، في بريان؟ أجل، في بريان، ولكنها تقع في الجنوب؟ نعم، إنها تقع في الجنوب، ولكن المناخ تغير مؤخرا لأسباب لا يعلمها إلا الله، أهو الاحتباس الحراري؟ أهي أشراط الساعة؟ سعيد لا يعرف، في البدء كان يعجب له ويحسب أنه يعيش في حلم، فقد كان هذا نادر الحدوث فيما مضى أما الآن فهطول الثلج شروق الشمس، لا أحد يستغرب، ما أسرع ما يعتاد الإنسان.

دسّ سعيد يديه في جيبي سترته، وعبر به مراهق أصلع يتكلم مع شخص خفي ويصافحه ويصفعه على قفاه مداعبا، ويهمس له ويضحك معه، في الماضي كان ليعتبره مجنونا ويقطع الطريق تفاديا له، أما الآن فنظرته إليه كنظرة الناس في وقته لأصحاب سماعات الأذن حين يُجرون بها المكالمات

الهاتفية، إنهم لا يُحدِّثون أنفسهم، لو سافر عربي من عصر الجاهلية لاعتقد أن أصحاب السمّاعات مخابيل، لو سافر شخص من عصر السّمّاعات لحسب هذا المراهق معتوها، فالتطور التكنولوجي إذن هو التعدّي على حدود المعقول، والمعقول ليس الممكن بل هو المألوف أو المفترَضُ إمكانيةُ وقوعه، والمستحيل ليس مستحيلا بل هو عكس المعقول، ومعنى هذا، أنه لو ظهر شخص مبتكر مبتدع سابق لعصره سيطلقون عليه مجنونا أو ساحرا، معنى هذا أن نعت "المجنون" أو "غريب الأطوار" أحيانا يصبح وسام شرف، يصير برهانا على أنك خرجت عن حدود المعقول أو المألوف، قلتُ "أحيانا".

ولكن فيم كنتُ أفكر، دائما حين أمشي أضيع في متاهة أفكاري، كل خطوة فكرة، وكما أنسى خطواتي أنسى أفكاري، لهذا أكتب، لكي أسجن وأقيِّد.

آه، ذلك المراهق، إنه يستعمل تقنية "الظل الخفي"، هولوغرام صديقٍ لا يراه سوى مرتدي العدسات اللاصقة المتطورة، الصورة يختارها هو، هناك من يصمم صديقا خياليا تماما، هناك من يمنحه هيئة صديق متوفى، هناك من يختار لاعبا أو ممثلا أو مغنيا أو عالما أو شاعرا أو كاتبا، وهناك من يفضل رفقة الأنثى، كلٌّ وهواه.

رأى عصافير روبوتية تحلق إلى جواره ثم تنطلق بعيدا، كلبٌ روبوتي ركض متجاوزا إياه نابحا وهو يلاحق قطا روبوتيا يلاحق فأرا روبوتيا يلاحق جبنة

روبوتية يسحبها خلفه طفل – ليس روبوتيا ولكن في المستقبل إن شاء الله – على لوح تزلج طائر.

يوتوبيا وديستوبيا في آن واحد، تسأل ناسا فيقولون لك : "التكنولوجيا نعمة، نحمد الله عليها ونسأله مزيدا منها"، وتسأل آخرين فيتعوذون ويقولون : "إنها نقمة، لعنها الله، نسأل الله أن يخلِّصنا منها ويعيدنا إلى عصر الخير والصلاح"، فلابد أنها كلاهما، أي هي نصف نصف، أنا أحب جلد الأفعى ولا أحب سمّها، هل يوجد أصلا شيء في هذا الكون خير كلُّه أو شرٌّ كله؟ ما عدا الإسلام وكل ما يتصل به، لا أعتقد.

خرج من العوالم الخيالية التي تقوده أحيانا إلى أروقة فلسفية وأقفل وراءه الباب بإحكام كي لا تتبعه الرؤوس المقطوعة الطافية.

- تبًّا لهذا ال"X"، متى ستقبض عليه الشرطة؟

هسَّ ساخطا بعد أن اجتاز الجسر المتحرك، قنطرة باسة، وأوشك على الانحراف يمينا إلى الطريق الذي يفترق في نهايته فيفضي إلى أغرم أو بوطارة، حانت منه نظرة إلى حيث كانت الغابات أو بالأحرى البساتين، حيث كانت أشجار النخيل تنتصب شامخة مُسدلة شعرها الطويل؛ لتُراقص خصلاتُه النسيم، خالاتنا أين ذهبن؟ اقتُلعن بالكامل تقريبا للبناء أو إنشاء المزارع الطبقية، وهي مزارع تُناطح السحاب، استغلال للمساحة استلهموه من اليابان. ولكن ماذا عن النخيل؟ كيف سوّلت لهم أنفسهم أن يتخلّوا عن الخالة التي أطعمتهم لقرون، كم ساهمت النخلة في تشكيل

حضارة بني ميزاب، القفاف، الحصائر، السُّقف، الأواني، التمر، النار، ثم تُزال بهذه البساطة كأنها لم تكن.

التحضُّر أم الأصالة؟ التقليد أم التجديد؟ الماضي أم المستقبل؟ الفانتازيا أم الخيال العلمي؟ ماذا تختار؟

أغلب السكان انخدعوا بمظاهر الترف والرفاهية التي توفرها التكنولوجيا الحديثة، ولكن القلة المحافظين ما زالوا يستمعون لبودكاست من تقديم البشر، ويشاهدون أفلاما من إخراج الإنسان، ويشترون لوحات من رسم الأنامل، أما الأغلبية فاتكؤوا على أرائكهم المريحة وقالوا للai : "أرنا كل ما لديك حتى نستغني عمن سواك، علِّمنا، ثقِّفنا، ربِّنا، غنِّ لنا وارقص، اكتب وارسم وأخرج ومثِّل وانحت واصنع لنا، نحن زبائنك المخلصون الدائمون وأنت النادل الأسرع من البشر بما لا يُقاس، بارك الله فيك، الإنسان بطيء حقا، كما أن تركيزنا نقص ومللنا نافد الصبر، التيك التوك صار يوتيوبا، ولذا اخترعنا شيئا اسمه الفاست ثم أصبح الفاست تيك توكا فاخترعنا اللايت سبيد، فيديوهات لا تستغرق ثوان حتى، يستوعبها دماغنا بالمحفزات الإلكترونية المزروعة فيه، حتى أننا مللنا الحديث بالفعل، هيا، يا ai، اكتب لي رواية واكتب لي ملخصها... أووف، مللت من ملخصها، ارسم لي لوحة وحللها، مهلا، لا، أخرج فيلما، وأعطني عرضا سريعا لأهم اللقطات، الآن، أنتج ملاكمة بين محمد علي ومايك تايسون، أضف بروس لي وجاكي تشان، ألغ المباراة، لقد ضجرتُ حقا، تعبتُ من التفكير في اقتراحات، أرحني من هذا العناء وأعطني عشر اقتراحات أخرى..."

كل ما تخيّلتُه تحقق، لقد كانوا يقولون لي : "الروايات تفاهة، ما فائدتها؟"، مفاجأة، الروايات حياتكم اليوم أيها البلهاء، ليتكم كنتم تعرفون، والآن دعني أنسج رواية مستقبلي، قد تتحقق لو وافقتْ كتابتي المكتوب.

الشرائح، وما أدراك ما الشرائح؟ جعلت كل شيء في حياة الإنسان سهلا، والسهل بخس، لم يعُد لأي إنجاز قيمة، حين تعلن أنك حفظت القرآن كاملا، يجيبونك : "تفتخر بأنك زرعت في دماغك شريحة ثمنها 100 دج؟ يا لك من متبجح".

ولو حفظته بالطريقة التقليدية سيقولون لك : "أنت أحمق، ضيعت عاما من عمرك وقد كان بوسعك زرع الشريحة في خمس دقائق".

حتى المشائخ أفتوا بجواز زرع شريحة القرآن، بل واستحبُّوا ذلك، يسِّروا ولا تعسِّروا، وهذه الفتوى أُصدرت باجتهاد من فضيلة الشيخ العلّامة "IslamAI".

كنتُ أهرب من البؤس والتخلُّف، وها أنا أهرب من الترف والتحضُّر، صغير يشتهي الكبرا وشيخ يشتهي الصغرا، متى سيرضى الإنسان؟ متى سأرضى أنا؟ دائما ألهث وألهث، أهداف وراءها أهداف وراءها أهداف، أحين الموت أنال السكينة؟ الجنة ليست على الأرض، كل ذلك الهراء حول عيش اللحظة واستغلالها، إنهم يخدعونك، ليتني استُشهدت في غزة، الإنسان لن يشبعه سوى الخلود، لأنه بلا خلود يوجد حد، يوجد نقص،

شيء لا تمتلكه، وما دام هناك فستطمع فيه، هبطنا للأرض بسبب ثمرة واحدة، وسيصعد المؤمنون مجددا لأنهم يتوقون للفاكهة اللا مقطوعة.

ولكن أين كنتُ؟ الشرائح... كان يعارضها أول المطاف، ها هو قد غرس في دماغه عشرة، إحداها للحس الزمني والمكاني، هكذا لن يتوه مجددا أبدا، والأخرى للإلقاء البليغ الساحر، والثالثة لتقوية الذاكرة، والرابعة للحساب، ماذا يخبئ المستقبل أكثر من هذا؟ يستبدل الإنسان قطعا من جسده شيئا فشيئا حتى يتحول من سايبورغ لروبوت، أهذا هو التطور النهائي؟ أم أن الله سيقبضنا إليه قبل وقوع ذلك؟

الروايات التي تكتبها برامج ai أفضل، لقد اعترف بهذا حين اخترعوا إضافة تسمح بمزج أساليب الكتّاب، فقط أدخل له أعمال أعظم الروائيين وسيحللها جميعا في ثوان ويطبخ لك رواية شهية في دقيقة واحدة، تخرج من فرنه ساخنة تُسيل اللعاب، إضافة أخرى تمزج الأصناف، الشخصيات، الأحداث، الزمن، المكان، كل هذه المقادير تتحكم بها أنت، اختر ما تريد أيها القارئ الكريم، وهو سيكتب لك رواية تشبعك، وصفاته لا تفشل أبدا.

أحسن مئة مرة من روائي مخبول يشكُّ في موهبته ويظن أن كل الناس يفهمون إشاراته وأساليبه، يبدع في الأساليب حتى يخرج من نطاق العربية تماما ويخلطوا بين كتبه المطلسمة وكتب تعلم السحر والشعوذة، أحسن مئة مرة من روائي أحيانا يكتب أفضل شيء إطلاقا ثم يردف بفقرة من

أسوأ ما كُتب في تاريخ البشرية، يمزج المقزز بالخلّاب، والبشع بالباهر، حتى تحار وتتساءل : أهو مصاب بالانفصام؟

ولكنه على عِلمه بتفوق ال ai من ناحية السرعة وتعدد الأصناف والأساليب، إلا أنه لا يزال يكتب وينشر رغم قلة القراء، فهو يعشق المنافسة، نافس البشر وأطاح بهم جميعا، ولم يبق سوى الآلة لتسلِّيه، الأمتع أنها تتطور كل سنة، ولذا عليه هو أن يتطور أيضا ليواكبها، سباق تسلح، مخترعُ الحاسوبِ لاعبِ الشطرنج، هل يفوز على اختراعه في اللعبة؟ وهل يشعر بالعجز حين ينهزم أمامه أم بالفخر لأنه صانعه؟ كيف يشعر الأب حين يتفوق عليه ابنه؟ بالغيرة أم بالفخر؟ بالحسد أم بالفرح؟

ألف سؤال وسؤال، ألف فكرة وفكرة، كل هذا لم يستغرق سوى بضع خطوات، كل هذا سيُكّب في هاوية النسيان إن لم يُسجّل في قصة.

و... ارتطم بشخص ما وسقط أرضا، نهض فإذا هو سكّير يتخبّط ثملا بالهلاوس الوردية، شريحة في عقله تُريه زوجة فاتنة، وسيارة فارهة، وعشاء فاخرا، ومنزلا فخما، "la belle vie"، أما ملابسه فرثّة مقطّعة، وشعره مستعمرة قمل، على مقدمة سرواله بول، وعلى قميصه مخاط متجمد، متشرد العصر الافتراضي.

الكوكايين والأفيون وكل ما عداها من المخدرات أضحت بخسة لا يتعاطاها سوى المدمنون المحافظون، أما الأغلبية فلا يشترونها ولماذا

يشترونها ولديهم شريحة "حول العالم كل يوم"، وشريحة "الملياردير" وغيرها...

ارتطم به وأوقعه وواصل سيره كأن شيئا لم يحدث، وقف سعيد وراح يلعن بلغاته التسع، بل وحتى بلغته العاشرة التي لم يتقنها بعدُ، ثم تابع مشيه فإذا به يصطدم بشخص آخر، هذه المرة لم يسقط بل استعاد توازنه وصرخ وهو يرفع ناظره إلى وجهه : "ما خطبكم اليوم أيها الملاعي..!"

أخرسه الوجه الذي قابله، لم يكن وجها بل قناعا، قناع ذئب مثقوب عند العينين، عينان باردتان تحدقان فيه، فجأة غزت خاطره صورة آنية كأنها سفينة فضاء فائقة السرعة حطّت على كوكب عقله وغادرت في اللحظة التالية، لم تحبسها خلاياه العصبية الواهنة المغضّنة.

الصورة : مايكل مايرز، جايسون، scary، وكل ما سواهم من أشرار أفلام السلاشر، كلهم أطلّوا عليه من خلف ذلك القناع، كأنه جرة ملعونة تحوي أرواح الأجيال، كلهم نظروا له تلك النظرة الميتة الخاوية من الرحمة والشفقة.

انتفض واعتذر وتجاوزه مبتعدا بسرعة وهو يتلفت متوجسا، ما هذا؟ أهو الهالووين، ومنذ متى يحتفل سكان بريان بالهالووين؟ أهو أجنبي؟

ما أثار هلعه أن الرجل ظل متسمِّرا في مكانه مولِّيا له ظهره، ساكنا كسليمان عليه السلام ساعة الوفاة، لماذا لا يتحرك فيقضي على خوفي؟

واستجاب الرجل وتحرك، خطا بضع خطوات ووضع قدمه على السلم الذي سيسحبه إلى نفق متحرك تحت القنطرة، فتنفس سعيد الصعداء بعد أن قطع الطريق واستعد للاستدارة تجاه سلالم الشيخ بكير، انتظر أولا أن يحطّ قدمه الثانية في السلم ويختفي من أمامه ولكن صاحب قناع الذئب سحب قدمه واستدار بحدة ليواجهه، عيناه على عينيه مباشرة، رغم المسافة التي لا تسمح برؤيتهما إلا أن سعيد شعر بهما، ببرودتهما المقبضة تتخلله، كأنها مومياء فرعونية تزحف على عنقه كالدودة متسلقة ذقنه لتلتهم عينيه، أخذ الذئب يتقدم بخطى بطيئة واثقة، كالموت، كالساعة، ساعته هو قد حضرت وقامت وراحت تمشي، تمشي به نحو الحتف، إنه يسير مثل بيني وايز تماما، أأنا في فيلم رعب؟ هل تحققت رواياتي أخيرا؟ يا لها من عدالة شعرية، جزاء كاتب الرعب ميتة بشعة، مهلا، هذه تصلح فكرة لروايتي الثلاثين، دعني فقط أعيش لأكتبها، انطلق هاربا يلوذ بسلالم الشيخ بكير، قبل المنعطف كانت توجد حنفية صغيرة يشربون منها في طريقهم للمتوسطة، لا تضع فمك مباشرة عليها، فالماليُّون - الصبية يدعون السود كلهم بهذا، وأحيانا يدعون الواحد منهم "صالي مالي" - يشربون منها، والسود يحملون الأمراض كما تعلم، لقد كانوا عنصريين في صغرهم، ها هي دعوات السود قد أرسلت له هذا المجنون.

وصل السلالم أخيرا فوثب على أول درجة، فشرعت بسحبه للأعلى، رأى سبعة أشخاص يصعدون معه في نفس الوقت، هذا أكبر عدد صعد معه

حتى الآن، فتح فمه لينبههم وفكر في سؤالهم : "من لديه نظارات ما خلف الجدران؟ أريد أن أعرف أين هو".

لم يكن هناك داعٍ لذلك، لقد كان ينتظره، ينظر له من قمة السُّلم، ذُهل وكاد يسقط، كيف وصل؟ صوّب نحوهم مسدسا قديما تقليديا، فهُلع الآخرون، تجمّد أغلبهم فيما انحنى بعضهم واتخذوا وضعية البطة بسرعة، كان السلم يسحبهم إليه غير مبالٍ، والأدهى أن وجه الذئب بدأ ينزل لملاقاتهم ببطء، أنت تخطو نحو موتك، موتك يتقدم للقياك، أتعرف ذاك الشعور؟ قلبك في كريشندو، أنفاسك تفرُّ ولا تكرُّ، وتبدأ أفكارك في الالتفاف والتهاوي كحبل ينزلق من على حافة، لم أعش بما يكفي، ما زلتُ صغيرا، أريد أن أعيش أكثر، لا أريد الموت، أنا أخشى الموت.

هذه الأفكار التي دهمت سعيد، رغم أنه كان دائما يعلن بجراءة أنه يشتهي الموت شابا، لأنه يخشى الشيخوخة العزباء، فهي حياة جحيمية، تخيل أن يسقط ويكسر ساقه في منزل معزول خاو، كم سيصرخ؟ كم سيزحف؟ كم سيدوخ ويصحو ويصرخ ويدوخ مجددا قبل أن يشعر به أحد.

كأنه خارج من أسطورة المذؤوب[7]، مجرم بقناع ذئب، أما سعيد فالقط ذو الحذاء في الأمنية الأخيرة[8]، ذلك الفيلم الذي جسّد الموت على صورة ذئب، ويا له من تصوير يبعث الرجفة في النفس، الآن هو يعاني من فواق الروح، يشعر كأنها ستثب خارج فمه في أية لحظة.

---

[7] سلسلة "ما وراء الطبيعة"، العدد 1

[8] puss in boots the last wish

صرخ رجل هو وحده ظل واقفا بجرأة : "ماذا تريد؟ نحن لا نهابك، نحن نحب الموت".

نحن؟ تحدث عن نفسك، التفت سعيد إليه فإذا هو محمد حجاب، أأنا أحلم؟ قرص نفسه؟ لا، لم يفعل، لأنه كليشيه، وهو لا يريد أن يُقال : "مات وهو يقرص نفسه"، لم يعرف في النهاية أكان يحلم أم لا، فكر بدلا من ذلك في أنه من الوارد أن يكون محمد حجاب هنا بما أن جيش تحرير فلسطين انطلق من الجزائر وبالتحديد من قلب غرداية، ناس بريان قد عُرف عنهم البسالة والجرأة منذ القِدم، فلا عجب، ربما أتى مفتتنا بتلك السِّمة وهو الذي يردد دائما أن جوهر الرجولة الشجاعة، ولذا تراه يشارك في الملاكمة والمنافسات القتالية رغم أنه داعية مثقف في نفس الوق.. رصاصة!

ليس هذا وقت الاستطراد، إنها لحظة الموت.

صفّرت جوار أذنه مباشرة، قال الذئب بصوت متحشرج : "كلكم طلقاء، ما عداك أنت" ، وأشار نحوي بفوهة مسدسه، فرأيتُ الموت يطلُّ من داخلها، يلوح لي بيده، سأخرج حالا، انتظر قليلا. ولكني لم أطرق؟!

وصل الذئب إليه فتوقف، وتوقفت سلالمهم الصاعدة، تنحوا من أمامه وخلُّوا له السبيل، تقدم ونظر إليه فيما المسدس ينظر لعنقه باشتهاء، الرصاصات تهتف بفرح وحماس، سنسبح، سنسبح في البحر الأحمر، تلا

الشهادتين، ثم اعتذر له : "أنا آسف حقا، لم أتعمد الارتطام، أق..أقسم لك.. أني لم أقصد.. لماذا تريد قتلي؟ أرجوك ألّا تقتلني".

ردّ بصوته الذي يخرج كأنه من حنجرة مسدودة بخنجر، حنجرة زومبي ممزقة بسكين صدئ علق فيها: "قلتَ لماذا؟ لأنك لا تساوي شيئا كما لا أساوي أنا شيئا، كما لا يساوي الكون شيئا، الإله خلقنا وهجرنا لنتعفن، ادعُوه أن يوقف هذه الرصاصة".

"واو"، قال محمد حجاب وفي عينيه نظرة محمومة تشتعل حين المناظرة، "أنت نصف عدمي نصف ربوبي".

التفت له وجه الذئب بصمت ثم قال : "أعفني من مصطلحاتكم التافهة التي توهمون البسطاء بها أنكم أذكياء وعباقرة، أنا لي فكرة اقتنعتُ بها، لا يجب أن تسمي كل شيء لعين، حبُّ التملُّك، حبُّ التعليم[9] الذي يوحي بالعلم الزائف، البشر بغرورهم وعجرفتهم يميزون كل شيء يرونه بتسمياتهم كقطط تتبول على السيارات لتعيِّن منطقتها وهي لا تدري أنها ستتحرك، أو أنها تدري وتتبول عليها عمدا لتُغيظنا، لا أدري".

كان محمد حجاب يدنو منه شيئا فشيئا حين استغرق في خواطره، حتى أصبح خلف سعيد تماما فمدّ يده بسرعة لينتشل المسدس من قبضته وأطاح بسعيد جانبا، هتف صوت مألوف من خلف سعيد : "هاكّاك!".

---

[9] التعليم بمعنى ترك العلامة.

واندفع مع الجمع، في حين تصارع محمد حجاب مع قناع الذئب على المسدس وتناوبا على رفض قبلة فوهته، قبِّليه هو لا أنا، يا لها من مسكينة تلك الفوهة، لو كنتُ أنا حاملها لسمحتُ لها بتقبيل من تشاء.

وسقط المسدس أمام قدميّ سعيد حين لوى محمد حجاب كف الذئب بعنف حتى كسرها وهو يلعنه زائرا، لا، ليس زائرا بمعنى زيارة بل زائر بمعنى أسد يزور شرذمة ضباع تناوش زوجته، سقط المسدس أمامه فالتفتا نحوه في نفس اللحظة، على محيا محمد حجاب لاحت راحة لحظية، وعلى الذئب رعب وهلع – أو هكذا تصور – حمله سعيد، أيتها الفوهة المسكينة العنساء، هنيئا لكِ، ستتزوجينهم جميعا هذه اللحظة، ابتسمت له بحياء وهمست وهي تقبل جبينه : "شكرا أبي"، زواج، طلقة، زواج، طلقة، زواج، طلقة.

دار سعيد حول نفسه كالإعصار، وأسدل الظلام على حيواتهم، تطايشت رصاصاته وتطايرت، لم يترك فيهم واحدا، مجزرة، لماذا فعلها؟ إنه لا يعرف، لطالما كان قنبلة موقوتة، كان يعرف هذا من قبل، ولكنه في تلك اللحظة تيقن، تناثرت أدمغتهم، وتحدّرت دمائهم عبر السلالم، لم يحتج إلا إلى عود كبريت واحد يُشعل فتيله،ربما لهذا لم يرد الهجرة إلى أمريكا، لأنه ما إن ينزل المطار حتى يبحث عن متجر أسلحة، ويشتري عُدّة جيش، ويطوف على المنازل، يوزع بريد عزرائيل.

زمجر محمد حجاب في الذئب وهو يجرُّه من رقبته عبر السلالم إلى قمتها ككبش يجرُّه الجزار من قرنه : "أيها الوغد، عليك لعنة الله".

لماذا محمد حجاب حي؟ لأن سعيد لم يقتله، لقد تخيل المجزرة لوهلة، ثم ألقى المسدس بعيدا عن متناول الذئب، وتركهم ليبرحوه ضربا، ويستجوبوه، صعد وراءهم وإدريس يسأله بلهفة : "هل أنت بخير؟ لماذا أراد قتلك؟ إنه مجنون حقا، الحمد لله على سلامتك".

لم يستمع له، لم يكن ينظر إلى محمد حجاب حتى، رغم أنه إحدى قدواته وقد كان دائما يتمنى لقائه يوما، كانت عينه ملصقة على القناع، خلعه محمد عنه بغلظة وألقاه أرضا ودهسه، شهق الجميع، كان وجهه أزرقا كأنه يختنق، قال بأنفاس متقطعة : "رب...ربو... آخخ.. ربو.. ".

غاب عن الوعي، رأى سعيد شيئا مكسورا داخل هَشِيم القناع، أخبر إدريس فأخرجه فإذا هو جهاز تنفس اصطناعي، اتصلوا بالشرطة والإسعاف فحضروا في ثوان معدودة بعرباتهم الطائرة الممغنطة، حملته المحفة الروبوتية، وأقلعوا به نحو المستشفى، أخذ شرطي شهادة سعيد المبلبلة : "تقول أنك ارتطمت به في باسّة".

- أجل، كنتُ أرى النخل وأفكر في الشرائح وارتطم بي متشرد وفاحت رائحة كريهة منه وتوقف في مكانه وقطعتُ الطريق وركضتُ مرورا بحنفية السود و...

- مهلا، مهلا، توقف، أعد وحاول التركيز رجاء، حنفية السود؟ النخل؟ أي حنفية وأي نخل؟

- في الماضي، في الماضي.

- ماذا قال لك المجرم؟

- قال أنه سيقتلني لأني لا أساوي شيئا وتوسلته كالذليل، كنتُ أعتقد أني مستعد للموت.

نظر له بأعين راجية، تبحث عن إجابة أو سلوى : "ظننتُ أني متأهب، لماذا رجوته، لماذا كدتُ أبكي؟"

تبادل النظر مع زميله وقال له : "سنأخذه معنا، لقد أثّرت فيه صدمة الحادثة، حين يستعيد هدوءه سنسجل شهادته".

ثم ذهبوا لمحمد حجاب الذي أطلّ عليهم من فوق صدره المنفوخ وقال مفتخرا بعربيته الفصيحة الممزوجة بحفنة من اللهجة المصرية وعلى هذين لكنة بريطانية: "ظن أنه سيخيفني بمسدس صغير، لا يدري أنني كنتُ في غزة أقاتل ضد الصهاينة الكلاب، فوقنا القنابل وتحتنا الألغام ومن حولنا الدبّابات، ضد الجبناء الذين لا يقاتلون إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر".

قال الشرطي : "ليس عن هذا سألتك، أريدك أن تخبرني بملابسات الحادثة، من أين قَدِم هذا المجرم وماذا قال؟ ومن أنت أصلا؟ لا تبدو من أهل المدينة".

أجابه محمد حجاب : "أنا محمد حجاب، الداعية المناظر المحارب، كنتُ أصعد السلالم إلى مسجد القبلة أو التقبلة، أهكذا يسمونه؟ ثم نزل وهددنا، وقال أنه سيطلق سراحنا وأنه لا يريد غير رأس ذاك الفتى هناك"، أشار نحو سعيد ولكنه كان لا زال شاردا غارقا في حيرته، أردف، "لا يعرف أن المسلمين إخوة، وأن من أحيا نفسا كمن أحيا الناس جميعا، وبعثر علينا هراءه الفلسفي، وكنتُ لأغلبه في المناظرة كما غلبته في المبارزة، كما غلبتُ كل الملاحدة قبله، كلهم مع الباطل، ونحن ننتصر لأن الحقيقة معنا، والأكاذيب دائما تتهاوى ساقطات، جحد الخالق فأنكر كرامة الخليقة، ثم يقولون أن الإلحاد ليس أكبر مفسدة وسبب أكبر مجزرة، لم يكن للإلحاد يدٌ في مجزرة ستالين، ولكن أسامة بن لادن وداعش، آه، إنه الإسلام، المنافقون الملاعين، ال..."

- مهلا، مهلا، حديثك جميل ولكن...

- ما الذي تقوله؟ أنسيت أننا شرطة، ولدينا عمل ننجزه؟

- آه، إنه جميل وممتع لا ريب، إن أعجبك سأزيدك...

- أنا في الحقيقة معجب كي...

- اخرس ودعني أتولى الأمر. إذن، أنتَ لا تعرف المجرم، ولا تعرف دوافعه.

- سبحان الله، قلتُ لك للتو، أنه عدمي ربوبي.

- أوه، حقا؟ ولكن ما معنى ربوبي؟

- ارجع لسلسلتي "اللُّندية"[10]، والآن أين المستشفى؟ أريد أن أرى ذاك المجرم وأكلِّمه.

تفاجئ الشرطي وجفل : "مهلا، أنت ترفض الرد علي؟".

هز محمد حجاب منكبيه وقال : "وماذا في ذلك؟ أنا حر، كلماتي ملكي وحدي أوزّعها متى أشاء على من أشاء، والآن إلى المستشفى".

- لا، لا يحق لك أن تلحق به، لا شأن لك بهذه القضية، لقد تسلمتها الشرطة، يمكنك أن تذهب لشأنك الآن.

- الربوبية هي الإيمان بالخالق ولكن مع الاعتقاد بأنه لا يتدخل في خلقه، بمعنى أنه خلق الكون وانصرف لشأنه.

- ماذا؟ أحقا يؤمنون بهذا؟ ولكن لماذا أخبرتني؟

- لنذهب للمستشفى.

- دعه يأتي، أرجوك

[10] **Explanation of Londoniyyah**

- حسنا، فليكن، يمكنكم أن تأتوا.

****

سألتُ تشات جي بي تي فقلتُ له : "أنا أريد أن أصبح مجرما... عذرا، أقصد مترجما أدبيا، ولكنَّ معضلة أخلاقية تواجهني وتنغص علي حلمي، وهي أن الروايات الغربية رغم روعتها من ناحية الوصف والسرد والشخصيات والحبكة إلا أنها تروج للانحراف والفسوق، وتعتَبر ذلك عاديا، خذ روايات جورج رر مارتن كمثال، ولو ترجمتُها لأشارك متعتها مع القارئ العربي فسأكون كبائع الخمر، إذن، علي أن أتصرف وأحذف المقاطع الفاضحة، ولكن هذه في شريعة المترجمين خيانة، وهم يشددون على الأمانة، فماذا أفعل؟ إن ترجمتُ بأمانة فتحتُ بابا للفحش والفجور، وربما فتنتُ شابا أو صبيا بريئا ما زال في فمه حلاوة القرآن وفي نفسه حلاوة الصلاة، وإن ترجمتُ بتصرف فسيُحكم علي بالخيانة، فأجابني بإطناب، فقلتُ له : "لخص، ليس لدي وقت". فاختزل حتى أخلّ وقال : "فهمتُ قصدك، الخلاصة التي طلبتَها يمكن أن تُصاغ هكذا: المترجم الأدبي بين خيارين: الأمانة التامة (وفيها نقل المشاهد الفاضحة بصدق، مع خطر الإفساد) أو التصرف/الحذف (وفيه حماية القارئ، لكنه يُعتبر خيانة عند المترجمين). الحل ليس واحدًا للجميع: بعض المترجمين يضعون تنبيهًا أو حاشية أو يختارون أصلاً ألا يترجموا العمل الذي يخالف قيمهم، والأهم أن تحدد: هل تريد أن تكون مترجمًا أمينًا أمام النص فقط، أم أمام النص والقرّاء وقيمك في آن واحد؟

فشكرتُه وعقدتُ عزمي : لن أتاجر بالخمر، ولكن هذا موضوع مثير مناسبٌ لأطروحة.

****

وسحب إدريس سعيدا، وركبوا عرباتهم الطائرة الممغنطة، وفي لحظات كانت العربة تركن نفسها، هبط الشرطيان، وهبط من جاء من الجماعة التي كانت تصعد السلالم، خمسة باحتساب سعيد وإدريس ومحمد حجاب، أي اثنان آخران، أحدهما ملتح والآخر سمين، لا مزيد من التفاصيل، إنهم شخصيات خلفية، ديكور لملء الفراغ لا أكثر.

أظهر الشرطيان شارتيهما، وقادهم طبيب عبر العنابر، كان هناك مرضى يتعالجون، بعضهم محدّب الظهر من الانحناء الدائم على حاسوبه، بعضهم ضعيف البصر، وبعضهم يصرخ بجنون لأن فيروسا اخترق شريحته، وأحد الهاكرز السايكوباثيين يعبث بدماغه، الهاكرز أصبحوا أخطر من السحّارين المحترفين للفنون السوداء، الهاكر سيجعلك تحرق أبناءك الأربعة لينتقم من أمهم لأنها طلّقته، الهاكر سيجعلك تترك خطيبتك له، أو ترسل له أبناءك ليتاجر بهم، فهناك من الأثرياء خُلفاء ديدي من ما زال محافظا يفضل أفلام السناف الحقيقية، وأفلام الإباحية الحقيقية، ولا يستسيغ المصطنعة بالai والتي استحلّها الغربيون، افعل ما تشاء ما دمت لا تضر أحدا، ما الضرر في مشهد اغتصاب مصمم بالذكاء الاصطناعي؟ لا ضحايا، لا مجرمون، حلال!

ولكن هناك من لا يقنع بها ويتشمّمها كالضبع فيتعرف زيفها، لأنه يعرف الألم البشري، نبرته في الصوت، ملمحه في الوجه، يعرفه لأنه يستمتع به دائما، لا متعة في الحلال، سعيا وراء النشوة الشيطانية عليك أن تعتدي.

أخيرا، اجتازوا بستان ثمار التطور الرقمي العفنة ووصلوا للمجرم، كان مستلقيا على سرير، على وجهه جهاز تنفس، كان يسحب أنفاسا ثقيلة من التي تثير فيك القشعريرة، هااااه، هااااه، هاااه، رئتاه لا تقنعان بالحسو، بل تعبّان عبّا.

اقترب محمد حجاب منه، وعلى جانبه وقف الشرطي وقال : "الكلام معه ممنوع، أنا سأتكلم، مسموح لكم بالإصغاء فقط".

قال محمد حجاب : "دعني أقل لك شيئا أيها الربوبي العدمي، إيمانك المشوه بالرب لن يغني عنك شيئا في الآخرة، والربوبية متناقضة مع العدمِيّ..."

- ماذا قلتُ للتو؟!

جذب الشرطي الشاب المعجب ذراع صديقه، وقال : "اسمح له، إنه مثقف وذكي، أظن أنه سيساعدنا في فهم دوافعه".

- أعرف أن الربوبية والعدمية (هاااه) متناقضتان، ولكن الحياة (هاااه) كلها بلا معنى ولا منطق، لماذا (هاااه) أبالي أنا بالتفكير المنطقي إذن؟

- أنت عبثي أيضا؟ وصولك إلى هذا الاستنتاج مبني على المنطق.

- هِهِه، (هاااه)، إنها المفارقة، ولكني أحسدكم أيها المؤمنون (هاااه)، لبلاهتكم مقتنعون بشيء واحد (هاااه) تسعون له طوال حياتكم، نحن (هاااه) متفرقون متشتتون في الحيرة (هاااه) نتخبط ونرتطم، ونقول لأنفسنا كاذبين أننا نحبُّ ال.. (هاااه) الخطأ، ولكن عدم اليقين جحيم، أعترف (هاااه) لك بهذا، والآن ادعُ ربك (هاااه) أن ينقذني، إن أنقذني (هاااه) سأؤمن.

- أتظن أن الله يحتاج إيمانك؟ لو كفر من في الأرض جميعا واقترفوا أشنع الأفعال على الإطلاق، لو أطلقوا الصواريخ النووية على الكون، وحاولوا حرقه وتدميره طغيانا وتمردا لن يضره ذلك مقدار ذرة، إنه الغني المتكبر سبحانه أن يحتاج.

- إذن، لماذا في المسيحية؟ الشجرة المحرمة، وقصص أخرى كذلك تثبت أن الله يخاف أن...

- دين محرّف، الله لم يشعر بالتهديد فحرّم الشجرة، إنها قصة سخيفة، لو كانت الشجرة تهديدا له لأخفاها عن آدم بل لماذا خلقها أصلا؟

- تصوركم للإله أعظم من تصور المسيحية، أعترف لك بهذا.

- قالها قبلك نيتشه.

أفلت الشرطي الأكبر سنا من قبضة الشاب وهتف : "إليك عني، هذه سخافة، سفسطة، نحن نحتاج أدلة وخيوطا، أنا من سيسأل من الآن فصاعدا، أولا، من أنت؟".

- أنا جيرالد جونسون، المعروف ب"العشوائي" المعروف هنا ب"X".
- ماذا؟ أكس؟ أنت أكس؟ اعترفتَ بهذه البساطة

صاح بها الشرطيان، وشهق الجميع، حتى سعيد، كان يتوجس من استهدافه له فظهر واستهدفه مباشرة دون سواه، يا للمصادفة، لا مصادفة، إنه القدر العجيب.

- أجل، أنا أكس الحقيقي، ولستُ أبتغي الشهرة، وَعَدتُ نفسي أني حين يلقى القبض علي سأعترف فورا، ولولا تهوري هذه المرة لما أمسكتموني أبدا، ربما أنا شبعت من القتل وأريد الموت؟ أو أن القتل لم يرضني أبدا، الحقيقة أن جرائمي الأخيرة لم تحقق لي ذات النشوة، الحياة لا تكفي أبدا، أليس كذلك؟ تُقبِّل للمرة الأولى ثم الثانية ثم تفقد القبلة طعمها، تشرب البيرة مرة ثم أخرى ثم تفقد الخمر لذّتها وتصير مجرد مدمن كحول حقير، تدخن واحدة، ثانية، ثم تلعن اليد التي قبَلت لفافة صديقك، وتلعنه وتلعن نفسك الضعيفة وتبدأ في محاولة الإقلاع، حتى في الصلاة، إياك أن تدّعي أيها الإسلامي، لقد كنتُ متدينا وأنا أعرف، تصلي للمرة

الأولى فتتخيل الملائكة تسبح حولك، شعاع من السماء يشق السحب ويهبط عليك لينير وجهك، ثم حين تصلي للمرة المئة لا تذكر أي شيء تقوله، الروتين عدو الإنسان، الزمن يلوك كل شيء ويمصُّ نكهته حتى يخويه".

- لم أسألك أن تلقي علي خطبة أيها القاتل، سنأخذ بصمتك الآن، أنت تعرف أنك ستبيت في عنابر الإعدام وتُعدم بعد غد".

قالها الشرطي ومرّر ماسحا إلكترونيا على إبهام الرجل المرمي على فراشه، يتنفس بجشع كما فعل ضحاياه في لحظاتهم الأخيرة قبل ذلك، وأرسل البصمة لفريق التحقيق الجنائي ليتثبّتوا.

- ألم تكن تسمع؟ أنا أرحّب بالموت. سأفنى وأتبخر وأخمد للأبد.

- الأفضل لك أن تستغفر أيها الملحد وتتوب فأنت لم تر الجحيم ولم...

- قلتُ أني أنا الوحيد الذي يوجه الأسئلة، والآن، السؤال الثاني، اسمك أجنبي، من أين أتيت؟

- لا أذكر، كل ما أذكره أني صحوتُ في ضواحي هذه المدينة ومشيتُ حتى دخلتها، قتلتُ طفلا وسرقتُ لمجته، كان الجوع ينهشني، ثم قتلتُ شابا وسرقتُ قارورة ماء، لا أعرف كيف وصلتُ إلى هنا، ما أذكره أني كنتُ في أحد المصحات العقلية في كاليفورنيا.

- من أمريكا إذن؟
- نعم
- هربتَ وهاجرت؟
- لا أذكر

توقف الرجل، ولاحظ الشك على أعين المحيطين به ممزوجا بالحقد والكراهية، فضحك ضحكة مخنوقة وقال : "يمكنكم أن تعذبوني إن شئتم، قلتُ لكم أني لا أخشى شيئا، أنا أكره نفسي ولا أقدرها، قيمتي كقيمتكم، صفر، صفر، صفر".

بدا القاتل لعيني سعيد مثل غولوم في سيد الخواتم، روح طُمرت في وحل الخبث والعفن لزمن طويل حتى فقدت إنسانيتها، ولم يعُد فيها إلا الشر الذي ينخرها.

خرج إذ تسلق شيء بغيض الطعم حلقه، لم يشعر به أحد، كانت أنظارهم مسمّرة على القاتل الذي روعهم، اتصل بصديقه محمد بودراع مقدم بودكاست "حتى لحظاتهم الأخيرة"، لابد أنه مهتم، فليأت ويأخذ شهادة هذا القاتل وينقذ بودكاسته، أخيرا كبّلوا ذلك الكلب المسعور، لابد أنه سيطير من الفرحة.

إنه لا يفصح له عن مكنون صدره، في كل لقاء يروي له خمس حكايات جنونية بنبرته الساخرة، الكوميديا السوداء مجسدة، حكاياته أشبه

بطفولة ومراهقة مايك تايسون، ذات يوم تشاجرتُ مع رجل، ولم تخسر؟ وكيف أخسر؟ كنتُ أكرُّ وأفرُّ، صارع رجلا في مراهقته، لم تواته الجرأة على فعل ذلك أبدا، لو فعل لرجع لمنزله بعينين منفوختين وصفِّ أسنان مفقود، ذات يوم ضربنا شابا بالمجرفة، بالمجرفة؟ أجل، أريناه الويل.

ولكن خلف مغامراته السوداوية لابد أن هناك ألما، مشاكل نفسية مكبوتة، يعرف سعيد الضحكة المتكلفة، لأنه يضحك بنفس الطريقة، أضحك كي لا أبكي، لابد أنه يخفي ألما عظيما، هذا القاتل أكس يثير غيظه، كلما ذكره له رأى الجحيم تستعر في عينيه، ربما لأنه قريب إلى عائلات الضحايا، ربما لأنه استمع إلى الأمهات النائحات والآباء الذين يكفكفون الدموع، أو ربما لأنه يرى الجثث رأي العيان، نصحه أن يترك البودكاست أكثر من مرة، قال له أنها مجرد فكرة مجنونة خطرت له فشاركها معه، لم يكن يعرف أنه سيحققها، الآن أنا أشعر بالمسؤولية لأن نفسيته تتدهور، مؤخرا لاحظ سعيد على قبضتيه جروحا جافة، وهو يعرف معناها لأنه اعتاد لكم الجدران ليبهر أصدقائه، ولكن هذه الجروح الغائرة، هذه نتيجة لكم مجنون لا يتوقف رغم الألم الفظيع.

أضف إلى هذا أنه كان في طليعة جيش تحرير غزة، هذا يعني أنه شاهد إخوة له يُقتلون أمام ناظره، أول من يموت هم أصحاب الطليعة، نجاته دليل على أنه مثل مايك تايسون وُلد في الزمن الخطأ، لو أنه وُلد في عصر الغزوات والحروب، مع الفايكينغ أو في عصر الفتوحات، لكان قائدا

مغوارا، أو ربما حرزه الله خصيصا لتحرير فلسطين، كل شيء مقدّر، العب دورك، أو مُت ولا تحقق شيئا، لن يفتقدك أحد، هناك العشرات يمكنهم أن يحلُّوا مكانك.

رنة الهاتف، أغنية حماسية، صوته عبر التيليفون : "سعيييد، أيها المجنون، كيف حالك؟"

- أووووه، محماااد، بخير، بخير، كيف حالك؟

إنه حقا يجيد التمثيل، يخفي كل ضيقه وقلقه مراعاة لي.

- إذن، ما الجديد؟
- لن تصدق، لقد هاجمني قاتل للتو، نجوتُ بفضل محمد حجاب.
- ماذا؟ أأنت بخير؟ لم تُصب، أليس ذلك؟ أليس كذلك؟
- دعك من هذا واسمع، القاتل هو أكس، ذلك الذي كنتَ تتحدث عنه في البودكاست، لقد اعترف.
- أين أنت؟
- مستشفى "أنس الشريف" في عامر 3، القاتل ملحد أمريكي و... مهلا، لقد أغلق الخط.

نظر للهاتف في حيرة، ليس هذا طبعه، لم يودعني حتى، أعاد الاتصال به ولكنه لم يجب، عاد للغرفة، كان القاتل يحكي : "كيف لإله أن يوجد

ويخلقني مريضا بالربو، أتعرف سوء حالتي؟ لو خلعتُ قناعي للحظات فسأختنق، يحرمني من التنفس، ويجعل التنفس شرطا للحياة، هذه ساديّة، لا يمكنك أن تقنعني بالعكس، أنتم تسمونه بالرحيم، البرص، الجذام، الزهايمر، السرطان، أي رحمة هذه؟

- هذه ابتلاءات يختبر بها صبرنا، صبرنا ثمن الجنة، النعيم الأبدي، وهو ثمن بخس حقا، تتألم خمسين سنة مقابل أكثر من مليار عام من المتعة، انطق الشهادة وإلا ستموت كافرا وتدخل الجحيم المقيم.

كان محمد حجاب ما زال يحاول إقناعه، كيف تدعو سفاحا إلى الإسلام؟ نفسي لا تقبل ذلك، فليذهب إلى الجحيم، إنه يستحق، ولكن محمد حجاب إنسان من صنف فريد، لو أسلم نتنياهو حين كان يرتكب مجزرة فلسطين، أكان المسلمون ليقبلوه كأخ رغم كل ما فعل، ويدعو له بالرحمة؟ لا، لن يدخل الجنة أبدا؟ إذن، لماذا يدخل وحشي الجنة؟ لقد قتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله.

بالطبع، تصفية النفس من الحقد وتطهيرها من الرغبة في الانتقام صعب، هل حين يُسلم ستسقط الجرائم عنه أم سيُحاسب؟ وماذا لو قبل بالعقوبة؟ وقال أنه أسلم حقا وليس خشية الموت؟

معضلة صعبة حقا، راح محمد حجاب يحاول ويردُّ على تجديفه وزندقته ردا مفحما بنبرة حازمة ثم يطوعها ببعض اللين ليجذبه، ولكن كل محاولات الإنعاش لم تُجد، لقد مات قلبه.

أزاحه الشرطي جانبا، وقال : "عليكم أن تنصرفوا الآن، لقد أكّد لي رئيس فريق التحقيق الجنائي للتو تطابق البصمات مع التي وُجدت في مسرح الجرائم، إنه أكس حقا".

انسحب الملتحي والسمين أولا، فجرجر سعيد قدميه ليخرج أيضا، وعقله ما زال يحاول استيعاب الأحداث، تعرضتُ لمحاولة قتل، ونجوتُ بأعجوبة، تذكرتُ الرصاصة التي همست في أذني، لستَ مستعدا للموت بعدُ، لماذا أراد قتلي أصلا؟

توقف وسأله هامسا، فردّ ضاحكا : "قلتُ لك أنا القاتل العشوائي، ولكني تعرفتُ على وجهك، أنت كاتب، أليس كذلك؟ أنا أكره الكُتّاب، ماذا وجدتم في الحياة حتى تكتبوا عنها؟ إنها لا تستحق إهدار الوقت والورق والحبر عليها، ثم إني سمعتُ أنك كتبت ضد الإلحاد والعدمية ولهذا استهدفتك، قد أكون مخطئا، ربما أنا مخطئ بالفعل، أأنت ذلك الكاتب حقا؟ كاتب "kill-thought".

أومأ سعيد، سحبه الشرطي من ذراعه وهو يقول : "لا مزيد من الأسئلة، هيا، تفضل بالخروج".

كان الشرطي الآخر يقبض على ذراع المجرم ينوي إيقافه ونقله إلى عربة توصله لزنزانته.

فجأة سمع سعيد صيحة، ولغطا، جريا، وصراخا محذرا، التفت فإذا هو بودراع، شعره الأشقر ثائر، عيناه عينا جَدٍّ قُتلت زوجته وجميع أبنائه وأحفاده أمام عينيه، كانت يده اليمنى منقبضة بشدة حول سلسلة دراجة نارية ثقيلة، تقدم مسرعا وأزاح سعيد جانبا حين بدأ يقول : "ما الذي...؟"، طوّح بالشرطي بعيدا، ابتعد الشرطي الآخر وأسرعت يده بخرق تحاول سحب مسدسه، لكن محمد رفع السلسلة عاليا وهوى بها على ساقيٍّ القاتل بعنف، صرخ أكس من العذاب، هوى بها مجددا هذه المرة على وجهه مباشرة بقسوة وهو يصرخ : "أتعرف ماذا استلبت أيها الحقير؟"

اندفعت الدماء من رأسه المشجوجة، نزف أنفه المهشم غزيرا، تدلت عينه من محجر أسود حالك وجفن ممزق، هوى بها ثالثة، قبل أن يقبض عليه محمد حجاب الذي تجمد في مكانه من الصدمة أول الأمر، ويتصارعا على الأرض.

أحاط بهما الشرطيان، وبعد شجار عنيف ومقاومة شرسة كبّلوا محمد، حاول سعيد حينها أن يدفع عنه الهراوات الثقيلة، دفع الشرطي الشاب للوراء، فعاد وضربه بالهراوة، ثم أوقعه وقيّده هو الآخر.

هو صبّوا عليه دلوا من الشتائم وأطلقوا سراحه فورا، أما محمد فمكث في الحبس المؤقت.

****

سألتُ تشات جي بي تي فقلتُ له : "سألعب معك لعبة "اختر أحد اثنين"، وهي بسيطة، أقدم لك شخصيتين من الواقع أو الخيال، فتختار أفضلهما وتبرر، فوافق، فقلتُ له : ليوناردو أو مايكل أنجلو، فاختار مايكل أنجلو، فقلتُ له ثانية : هوديني أو راسبوتين فاختار هوديني، واقترح علي جورج رر مارتن وتولكين، فوافقته، فاختار تولكين، ثم خيّرته متوجسا مستعدا لإفحامه بين توغاشي وأودا فاختار توغاشي، فغمرني السرور وقلتُ له هذا هو الخيار الأخير، يحي السنوار أو نتنياهو فاختار السنوار دون تردد، وفسّر قائلا : أحدهما يقاتل من أجل الحرية والعدل والآخر تجسيد للظلم والطغيان[11].

****

سمحوا له برؤيته في اليوم التالي، كاميرات مراقبة سحاليّة تزحف على الجدران، تتبع أدقّ حركاته، كان مصفّد اليدين، سأله : "ما الذي دفعك لفعل ذلك؟ كنتُ أعرف أنك غاضب من هذا القاتل، ولكن لم أتوقع أن يبلغ حنقك عليه هذه الدرجة، بالسلسلة؟ ضربته بالسلسلة، أنتَ حقا... مجنون"

---

[11] لقد جرّبتها مرة، وأجاب بذلك، ولكن في المرات الأخرى حين دخلتُ بحسابات أخرى تردد ورفض تقديم إجابة لأن الموضوع حساس يخالف سياسة الموقع.

ضحك محمد بودراع : "طيلة هذه المدة ونحن رفاق ولم تكتشف ذلك حتى الآن، ماذا أقول لك دائما؟ استخدم عقلك، ثم إنك أنت الذي أصبتني بالعدوى".

ابتسم سعيد وهز رأسه : "أنت حقا مجنون، ولكن لماذا؟".

انحنى على الطاولة التي كان مقيدا إليها، كانا جالسين في غرفة حجز مقفلة، إلى طاولة صغيرة، إنارة ساطعة، وكاميرات تزحف حول الجدران، تلتقط كأعين الحرباء كل شيء، انحنى ونظر له بجدية وهمس : "سأجيبك، سأخبرك بسر أريدك أن تُطلع عليه العالم، أولا، أريدك أن تكون وريث بودكاستي "حتى لحظاتهم الأخيرة"، ثانيا، أنا...".

اختنق سعيد بالهول، شعر كما لو أن أبا الهول وثب داخل فمه بغتة إن كنت تفهم ما أعنيه – لا، أنا لا أفهم مقصودك أيها المخبول – فقط تظاهر بأنك تفهم كما تفعل حين يخرِّف جدك أو قريبك المتوحد، اختنق ثم حين استرد أنفاسه، وانكمشت عيناه بعد اتساع، هتف : "وريثك؟ البودكاست، ولكني ضعيف الإلقاء، صوتي أقبح من صرصور ليل، أتلعثم وأحيانا ينقطع الرابط بين دماغي ولساني فأقول "صالون" وأنا أقصد "القبو"، وأقول "كعب عالي" وأنا أقصد "ساق"، أنت أعلم الناس بهذا".

- قلتُ لك أن البودكاست ملكك من الآن فصاعدا، عليك أن تسجل الحلقة الأولى من الموسم الرابع بعد ساعة، جهز نفسك، وأصغ جيدا لما سأقول، أنا لم أكن المقدم فقط بل كنتُ المحقق

والمتقفي والمصارع والمعذّب طيلة هذه الفترة، لقد تصيدتُ كل قاتل تحدثتُ عنه، وحرصتُ على نيله لجزائه مثل.. مثل باتمان، ولكني لم أخبر أحدا حتى زوجاتي، أخبر المستمعين بهذا، وأخبرهم أن وعدي ما زال قائما، "كل مجرم لابد له نهاية، هذه طبيعة الشر، مصيره إلى انهزام، حقيقة إلهية، سنة كونية، نِمس.. أقصد ناموس، أرأيت؟ أنا أقرأ الكتب مؤخرا، صرتُ مثقفا مثلك، كنتُ أفعل ذلك لأصير بليغا، المهم، أخبرهم أننا قبضنا على أكس، وأني انتقمتُ منه، وأنه سيُعدم غدا صباحا، أطلعهم على دوافعه، فلسفته المختلة المنحرفة، أخبرهم بهذا : "ماذا تتوقعون من ناس بلا إسلام، بلا دين، بلا وازع، ينقادون وراء الأهواء الضالة، تلعب بهم هبّات النفس الغاوية كما تعبث رياح الخريف بالأوراق الجافة قبل أن تطرحها على قارعة الطريق لتسحقها الأقدام، والشيطان في الركن يضحك، الشيطان يتطور كما قلتَ لي سابقا".

نظر له سعيد بحيرة وقال : "ما دخل هذا بالموضوع؟ ما زلتُ لم أستوعب بعدُ أنك بطل خارق ذو هوية سرية، قد يمكننا أن نصنع عنك كوميكس أو فيلم مارفل أو..".

- ركز، ركز، سأبقى سجينا ربما لفترة، وعندي سر خطير كنتُ أريد كشفه للمتابعين.

سكت فجأة ثم حدّق في سعيد بخطورة، كان ينتظر متسائلا واللهفة تتقافز في عينيه، سر أخطر من هويته الخفية، يا إلهي، ما الذي تخفيه أيضا؟

- أمريكا وراء طغمة القتلة المتسلسلين الذين يرتعون في مدينتنا مؤخرا، من أين ظهروا فجأة؟ العقد والمشاكل النفسية شيء معقول معهود، ولكن هؤلاء لا ريب خرجوا من مصحة عقلية، هل ترى مصحة قريبة؟ أسماؤهم كلها أجنبية، وكلهم يحكون ذات القصة: استيقظتُ في لاروي أو صرعاف الجديدة، وأنا لا أذكر من أين أتيتُ ولا كيف وصلتُ، على الأقل أولئك الذين ما زالت فيهم ذرة عقل.

- ماذا؟ أمريكا؟

- أجل، إنهم من أمريكا، وهذه ليست نظرية مؤامرة. إنها تفرغ مجانينها في وطننا فتضرب عصفورين بحجر واحد، تتخلص منهم فتضمن لسكانها الأمن والسلامة وتفسد وتخرب بلادنا، إنهم يكرهوننا ولكن لا يريدون مواجهتنا مباشرة، وهم يطمحون في أن ينال بعض هؤلاء القتلة من قادتنا الذين شاركوا في تحرير غزة، لقد زرعوا في أدمغتهم شرائح تحضّهم على الانقضاض عليهم متى رأوهم، أنت كنت من أوائل من حرّض على اغتيال نتنياهو، لهذا استهدفك.

- واو، إنها حقا مؤامرة عجيبة.

- توقع أي شيء، أنت بحثت عن أغرب الوقائع التاريخية، ولابد أنك رأيت ما هو أغرب، ليس هذا عسيرا على التصديق.

قال كل هذا ثم قهقه ضاحكا وقال : "صدقتني؟ يا لك من أبله، لقد انطلت عليك حيلتي، هيا، وداعا".

كانت ضحكته مجلجلة، ولكن عينيه نطقتا بشيء آخر، أنا لم أكذِبك حرفا، هذا مجرد تمثيل.

سايره سعيد ونظر له بما يشبه الغضب وقال ضاحكا: "أيها الوغد، لا زلت كما عهدتك، دائما تسخر مني، كوميدي سوداوي لعين".

ثم خرج من عنده.

****

سألتُ تشات جي بي تي فقلتُ له : أعطني أكثر ثلاثة أفكار قد تمرُّ بخاطرك قتامة وسوداوية، فقال : الاعتقاد بأن كل ما نفعله عبث لا جدوى منه لأن الموت سيمحو كل شيء، والشعور بالوحدة والوحشة رغم كونك محاطا بالناس، تعيش في مدينة مكتظة، لأن لا أحد يسمع بك أو يراك، وإدراك أن سنوات من حياتك ضاعت بلا نفع لأنك ركنت للكسل ولم تقتنص الفرص.

****

خلال عشرين دقيقة، كان في منزله يُعِدُّ للتسجيل، لا يحتاج سوى هاتفه القابل للطي المنيع ضد السقطات والماء والنار حتى، هذا الهاتف هو بمثابة ميكروفون وفيه استديو للمونتاج يحتوي على مكتبة فيها ملايين المؤثرات السمعية والبصرية، بل وعلى أداة ذكاء اصطناعي تختلق الموسيقى والأصوات والصور والفيديوهات، باختصار، يمكنك أن تصمم فيديو من ساعة دون أن تنطق حرفا واحدا، لا تصور نفسك، هناك أفاتار يحل مكانك، لا تسجل صوتك، دع الذكاء الاصطناعي يتكلم عنك فهو أبلغ بيانا وأفصح نطقا، المهم، أن سعيد فتح هاتفه، وجلس على الكرسي، يسجل بلعثمته وأخطائه الكارثية في الخطابة، هكذا افتتح البودكاست : "متابعينا، أيها المستمعون، أهلا، أنا سعيد صالح والحاج الروائي، آه، كاتب "فكرة قاتلة" و"أحلام وكوابيس" و.. القائمة تطول، المهم، بودراع محمد في السجن، لقد أوصاني بنقل رسالة، أولا أمريكا خلف الجرائم البشعة التي انتشرت بشكل رهيب مؤخرا، ثانيا، لقد كان محمد باتمان طيلة هذه المدة، هذا كل شيء، شكرا على الاستماع، إلى اللقاء، تفاصيل الحادثة سنوافيكم بها في الحلقة المقبلة، أووه، نسيت، يا إلهي، أكس أُلقي القبض عليه، وقد نال عقابه العادل، بودراع هشم وجهه بسلسلة دراجة نارية، وداعا، شكرا على الإنصات، آآه، إلى اللقاء، الحلقة الأولى انتهت".

نشر الحلقة دون أدنى تروٍّ، لم يستمع لها حتى، فهو يعرف أنه سيكره نفسه ويسخر من صوته، ويصوم شهرا عن الكلام لو فعل.

مضت ثانية على نشر الفيديو، رأى شخصين يضغطان زر اللايك، رأى تعليقا مندهشا : "من هذا؟ أليس مقدم البودكاست هو محمد بودراع؟".

أجابه شخص ما قبل أن يرد سعيد : "أظن أنهم اخترقوا قناته".

استشاط غيظا وتمنى لو أن التطور وصل لدرجة يمكن معها أن تضغط على التعليق فيفتح لك بوابة إلى المعلِّق، لو كان ذاك ممكنا لاقتلعهما من مكانيهما من تلابيبهما وألقى بهما عبر الغرفة وهو يصرخ فيهما : "لم أر في حياتي أغبى منكما، استخدما عقليكما، ألم تسمعا حرفا مما قلته في الحلقة؟".

بدأ يكتب ردا ناريا، حين سمع قرعا شديدا على باب منزله، وضع هاتفه في جيبه، وذهب ليفتح، من قد يكون؟ كم مضى منذ آخر مرة زارني فيها أحد؟ قرن؟ فتح فإذا بعقب بندقية يصيب رأسه، جثى على ركبتيه، نظر لأعلى فإذا هم الشرطة في لباسهم الأسود وخوذهم، قال لهم مصدوما : "ما الذي...؟".

- أيها اللعين، أنت تعرف أكثر من اللازم وتثرثر كثيرا أيضا.

فجأة تذكر ضحكة بودراع الزائفة، كان يخفي السر عن الشرطة، لماذا؟ في تلك اللحظة بدا لي ذلك غريبا، ألا يثق بهم؟ أو ربما يخشى أن يرتئي الشرطة تأجيل إفشاء المعلومة للعامة لأسباب تتعلق بالحفاظ على الأمن العام، وعدم إثارة الذعر، أيا يكن، سيواصل كتابة هذه القصة فيما بعدُ، حين يطلقون سراحه، الآن سيودعكم، لأن الشرطيين على وشك

أن يتراكلوه ويتناوبوا ضربه بالعصي قبل أن يقتادوه إلى عربتهم الطائرة، حين يطلقونه سأكمل القصة.

أنا "مذكرتك"، شريحة دماغية للتدوين، انتهيتُ من تسجيل يوم من أيام حياتك يا سعيد الآن، إنها الثانية عشر ليلا من الرابع عشر أوت 2032، ما تزال فاقد الوعي، مهمتي انتهت هنا، آمل أن أكون قد أديتها على أتم وجه، إن كنتَ ترغب في تسجيل أحداث يوم آخر بشكل تام ومفصل فلا تتردد بالطلب، في الخدمة دائما.

مصادر خارجية :

* لايف اجتماع بوداع محمد مقدم بودكاست "حتى لحظاتهم الأخيرة"، وافق على مشاركته معي حين قدمتُ طلبا بذلك في غرفة الاحتجاز.

* مقطع تدريبه المنزلي مبني على أحاديث وحوارات سابقة معه، لقد أخبرك أنه كان يمارس الفنون القتالية، وأخبرك ذات مرة بروتينه الرياضي، وأخذتُ من ذاكرتك صورة جروحه التي تسببت بها اللكمات على الأرجح، لذا هذا المقطع متخيّل مبني على تجارب سابقة، إن أردت تعديله أو حذفه أخبرني.

* الأفكار الأخرى سجلتها من خلال حديثك مع نفسك، ومنحتُ نفسي حرية ملء الفراغات بخواطر مشابهة لما تشاركه معي دائما أو تكتب عنه في رواياتك، مثلا مشهد المجزرة مبني على روايتك الأولى "فكرة قاتلة".

* أما عرضي لبعض أسئلتك السابقة الذي يتخلل القصة فهذا بناء على طلبك مني تذكيرك كل ساعة بمحادثة قديمة مثيرة أو مسلية، لأنك من الصنف الذي يحب الرجوع للأرشيف، وأرشيفك قد بلغ مئة ألف محادثة بالمناسبة.

ما هو تقييمك وملاحظاتك بشأن أدائي؟

****

سألتُ تشات جي بي تي فقلتُ له : لو أنني اتخذتُ حريما من نساء الأرض جميعا من بدء الخليقة إلى فنائها، ولبثتُ الدهر كله أتقلّب في المتعة واللذة، ثم دخلتُ النار ولم أحظ بالحور العين، فهل أنا فائز أم خاسر؟ فقال لي : "لحظة واحدة في الجحيم ستُحيل كل ملذاتك إلى رماد في فمك، حتى لتقضم أصابعك حسرة وندما، ولحظة واحدة مع الحور ستجعلك تشعر أنك كنتَ تقضي لياليك تلك مع حيزبونات، والآن أخبرني أنت، هل تعتبر نفسك فائزا أم خاسرا؟

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

لماذا القصة الأخيرة دائما تتحدث عن الموت؟ أرجو حقا ألا تصير هذه عادة، في الجزء الأول، في قصة "قاطع الرحم (الكبرى)" تمزّق قلبي وأنا أكتب عن موت جدي - رحمه الله - والآن بينما كنتُ في خضّم هذه القصة

مات أحد أعز أصدقائي محمد - رحمه الله - الذي أعجبتني شخصيته بشدة حتى أني استلهمتُ منه شخصية خيالية، وكنتُ أترقّب أن أريها له فيقرأها، ولكن الموت سبق.
إنا لله وإنا إليه راجعون، رب أفرغ علي وعلى أحبابه صبرا.
أفرغتُ في هذه القصة عصارة نفسي كلها، كتبتها كوصية أخيرة قبل الموت، ولذا آمل أن تقرؤوها بعناية حتى النهاية، رغم أنها قد تجعلكم تشمئزون أحيانا بصراحتها الفجة، أو تجعل قلوبكم تنقبض لقتامة بعض المواضع فيها، ولكن هكذا الحياة، أيام بِيضٌ وكالحات.

✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷ ✷

الإله

"وددتُ لو توفيتُ حينها"، خطّ عبد الله هذه الكلمات الرهيبة بلا مبالاة أول الأمر، ثم توقف هنيهة ليمتص وقعها الهائل، *إنها الحقيقة*، قال لنفسه، وقتها كانت علاقتي بربي كأحسن ما يكون، حتى أني شعرتُ أن عزرائيل لو زارني لطرتُ معه عصفورا من عصافير الجنة. كنتُ قد تخلصتُ من أغلب عاداتي السيئة بعد صراعٍ دامٍ وحامٍ، بل وكتبتُ وصيتي حتى، ولكني لم أمُتْ، فجأة أصبح الجميع يعرفون كيف يسوقون بعقلانية، ويا للحسرة! ها نحن ذا في هذا الحال المخزي.

توقف عن الكتابة في تلك المذكرة المهترئة، ورنا إلى أشجار الصنوبر والبلوط الباسقة، سمع زقزقة عصافير، ورأى على شِماله سائس حصانٍ يمرُّ ممسكا بلجامه، وعلى ظهره جلس طفل صغير بابتسامة واسعة، يتأرجح على سرجه.

مدّ بصره عبر الغابة الكثيفة فحسرت نظراته عن منتهاها، كان في"بوشاوي"، ولكنه لم يأتِ مع رفقة من أجل الشواء بل جاء بمفرده، فقد اعتاد مؤخرا أن يأتي وحده ليخلو بنفسه ويحادثها، فهو يأنس لها أكثر من أصدقائه، "خليلك أنت لا من قلتَ خِلّي".

ومقدمه هنا بغية الخلوة لا يعني أنه انطوائي، وإلا صحّ أن نقول أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كذلك.

سمع ضجة فالتفت فإذا جماعة من الشبان تجلس على طاولة جواره، وقد أحضرت أكياس الطعام، دجاج وبطاطا مقلية، تلك التي نسبها الأمريكان إلى فرنسا جهلًا، فأضافوا سببا للبلجيكيين لينقموا على الفرنسيين عدا سخريتهم وتفكّههم بهم.

ما إن جلسوا حتى فتحوها وحضّروا للوليمة وهم يتمازحون ويتضاحكون.

يا للإزعاج! دسّ الكراسة في حقيبته، وقام من فوره، ومشى طويلا يبحث عن أبعد بقعة عن البشر، وجد سقيفة تُظلل طاولة من الرخام، كانت خالية، معزولة، نظيفة، وجميلة.

من على السقيفة تتدلى ظليلة من النباتات المتسلقة. وحولها يلفُّ السكون، شعر كأنه داخل فقاعة صابون تسبح في الهواء زاهية بألوان الطيف.

جلس وأخرج مذكرته وكوب الشاي المنعنع، رشف طويلا، وتمطّق مليًّا، فخطر له : الحياة حلوة، بسم الله.

وضع الكوب واستلّ السيالة، ومسّ بطرفها الورقة فتنزلت عليه الكلمات كالوحي...

عرفتُك ربي منذ نعومة أظفاري، عرفتك من خلال أمي، كنتُ أنام جوارها، فتملِّس على غُزل شعري الذهبي الذي تفحّم الآن، فتُقرِؤني الفاتحة والمعوذتين، أو تقصُّ علي قصص الأنبياء، قصة أيوب الصبور عليه السلام، وقصة سليمان الحكيم عليه السلام، وقصة موسى القوي عليه السلام وغيرها، وأحيانا أخرى كانت تُلقِّنني الأدعية بصوتها العذب فأردد وراءها حتى يغلبني النعاس فأغفو وأصحو في الليل وأكبِّدها الأرق.

أما أبي فكان يوقظني قبل بزوغ الفجر، ويصحبني إلى المدرسة القرآنية، أذهب إليها وأنا أتثاءب وأتثاقل في المشي، حتى أن النوم كان يغلبني لحظات، ولولا قبضة أبي لافترشتُ الطريق ورقدتُ. أعرف أني كنتُ أغفو ماشيا أحيانا لأنه كان يسألني صباحا : "أرأيتَ ذلك المجنون الذي مرّ بنا؟" أو "هل رأيتَ الكلب الشريد"؟

فأهز رأسي نفيًا، وليس المجنون ولا الكلب بأغرب شيء، فذات فجرٍ فوجئتُ بجيش عرمرم من الخنافس السوداء يزحف على الرصيف.

وفي مرة أخرى، ذهبتُ وحدي، وبينما أنا أمشي مصارعا النعاس، رأيتُ طفلا في مثل عمري جالسا على دكة حانوت جواره أجولة خضار فارغة، كان يغط في نوم عميق، لم أوقظه ولكني نفضت النوم عن جفوني وأنا أفكر : غريب حقا، أكان بالإمكان أن يقع لي هذا، كيف سيشعر حين يوقظه الباعة صباحا؟

أذكر أني مرّةً حين أوصلني أبي إلى المدرسة، ألفيتُها مغلقة. كنتُ أول الواصلين فجلستُ على عتبتها ونمتُ. أيقظتني يد المدير الأشيب الخشنة، نظرتُ خلفي فوجدتُ صفا طويلا من الطلبة، بعضهم واقفون، وبعضهم جالسون، وبعضهم مستلقون على الأرض المتربة، وقد أخفت وجوههم القلنسوات الطويلة، وانكمشوا في العباءات الصوفية الثقيلة، اتقاء لقرصة القارس.

سألني المدير عابثا : "لماذا أتيت أيها الصغير؟".

أجبته وأنا بين اليقظة والمنام، فلم أدرك نبرته المازحة : "لأقرأ القرآن".

- لماذا تقرأ القرآن؟
- ليرضى عني الله
- لماذا تريد أن يرضى عنك الله؟
- لأدخل الجنة

- لماذا تريد أن تدخل الجنة؟
- لأن فيها.. لأن فيها ألعابا وحلويات كثيرة
- لماذا تحب الحلويات والألعاب؟
- لأنها لذيذة وممتعة
- الألعاب لذيذة؟
- لا، بل...

ضحك الطلبة خلفي، وضحك هو أيضا وقال وهو يربت على كتفي : "بارك الله فيك، هيا ادخل".

وأذكر أيضا أني في يومي الأول حفظتُ الفاتحة، فصعدتُ على المصطبة لأستظهر، وأخطأتُ في بدايتها، احمرّ وجهي خجلا، وتلعثمت، ولكني أكملتها بسرعة وهرعت لمقعدي.

أما ذلك اليوم حين أيقظني المدير عند الدكّة فحفظتُ ربما سورة الضحى.

حين رنّ الجرس، رجعتُ إلى منزل جدتي جاريًا، وقد حملتُ حقيبتي اليدوية الصغيرة على كتفي فراحت ترتطم بظهري.

دخلتُ البيت، وهرعت إلى جدتي، وجلست بجانبها فضمتني بدفء وحنان، لكم أحببتُها! قالت لي : " أي سورة تعلمت اليوم؟"

فابتسمتُ وأجبتها : "الضحى"، وقرأتها على مسامعها، حتى إذا أنهيتُ ضمتني مجددا وهي تدعو لي.

أما الشيطان فظل لغزا، قيل لي أنه يكرهني ويريدني أن أحترق معه أبد الدهر، قالت لي أمي : "إن قرأتَ سورة الصمد فتكسر له ظهره".

فكنتُ أقرأها وأتخيله ضاحكا وقد انطوى للخلف حتى تلامس رأسه كعبه. ثم قال لي أبي وهو يرفع لبنة أخرى على جدار بيتنا الذي كان قيد الإنشاء : "إذا قرأت سورة الصمد بنى الله لك قصرا في الجنة".

لابد أني صيّرتُ عظامه دقيقا من كثرة ما قرأتها ذلك اليوم.

لكني قلتُ لأمي : "كيف يوسوس الشيطان؟".

- إنه يوسوس في الصدور
- ولكني لا أشعر به بتاتا

ربما آثر إبليس تركي وشأني لحين أبلُغ، فإن متّ طفلا دخلتُ الجنة، لابد أنه كلّف بي أحد صغاره، وأوصاه : "لا تدعه يقرأ الإخلاص، فقد سئمتُ ذلك الكرسي المتحرك، إن كسر ظهري مجددا فسأحطم أضلاعك كلها، هيا، اذهب، ولا تنس أن تُبلغني حالما يحتلم ويبلغ، حينها سآتي للزيارة".

على أني أذكر الآن أني قارفتُ بعض الآثام في صغري مدفوعا بالفضول ومعذورا بالجهل. من ذلك أني كنتُ أتنمر على البنات وأركلهن أحيانا، ولكني أعتقد أن كل الأطفال يكرهون الإناث بطبيعتهم أول الأمر، ثم تأتي الشهوة فتُعمل سحرها وتُزيل تلك البغضاء الشديدة فتنقلب غراما وهياما، ويبدأ المراهقون بسماع الراي، فيما يحفظ قلة منهم قصائد

الغزل، ويتلصصون على الروايات الرومانسية، ما علينا، آمل أن تلك الفتيات لم يحملن لي الضغينة، وأخصُّ بالذكر... مهلا، قد تقع مذكرتي هذه في الأيادي الخاطئة، فليكن، سأذكر الجرائم، تلك التي رجمتها بقشور البرتقال، وتلك التي ركلتها ركلة خلفية تحت أنف الأستاذ، لأنها ذهبت إليه تنوي الوشاية بي، وتلك التي لقبتها ب"وجه الماعز" والقائمة تطول...

ثم حين بلوغي ودخولي سن المراهقة، سن إرهاق الوالدين، صارت أمي تصيح بي كلما تشاجرتُ مع إخوتي الصغار: "هذا هو الشيطان، أتذكر حين كنت تقول لي "أنا لا أشعر بالوسوسة إطلاقا"؟ ها أنت الآن تُصغي لوساوسه".

في السنة الخامسة ابتدائي تركنا منزل جدتي وانتقلنا إلى منزل جديد، فاضطررت إلى تغيير المدرستين؛ القرآنية والرسمية، دخلتُ القسم فاستقبلتني وجوه غريبة غير مألوفة، صار علي أن أعقد صداقات جديدة، ربما بدا لي هذا شبه مستحيل الآن، أما حينها فكان يتم في غضون ساعة، خلال ساعة أكون قد ضحكتُ مع البعض وعابثتهم وشاركتهم اللمجة (خبز بالجبن أو الزبدة) كأنهم أخلص أصدقائي، وأتشاجر كذلك مع آخرين شجارا أخرج منه بنزيف ورعاف وخدوش وكدمات وعضّة، كأني أقاتل ألد أعدائي.

تعرفتُ في القرآنية على داود وداود وداود وعيسى وعز الدين، كنا عصابة زعيمها أطولنا وأقوانا "عيسى"، كان يستدعينا بندائه "يا جماعة" فنهبُّ

إليه ونقف حوله فيقرر إن كنا سنلعب السباق أو المسّاكة، وأيّ طريق سنسلك.

ولكني لم أحب عيسى وعز الدين مثلما أحببتُ اثنين من الدواودة، كنا نذهب للدراسة معا ونعود معا، ونلتقي في المسجد، ونحنُّ إلى بعضنا ونشتاق مع ذلك، فيزور بعضنا بعضا في منزله، ويأكل مع أسرته بلا حرج، كنتُ أعتبرهم إخوة، وأحبهم دونما شرط، ولا أبتغي وراء صداقتهم غرضا ولا نفعا.

داود الأول كان ابن إمام، أشقر الشعر، دائم الابتسام، قوي البنيان، أما داود الثاني فكان يميل إلى القِصر والنحول، ولكنه كان شجاعا جريئا، حاضر النكتة سريع البديهة، ترعرع في بيت تُقى وصلاح. ولذا كنا نحن الثلاثة متحمسين للإسلام بشدة، لا نعرف من السينما سوى أفلام ومسلسلات السيرة وقصص الأنبياء، لكم كرّر داود الثاني لقطة ضرب حمزة لأبي جهل بالقوس، وردّه الساخر على هند، شاهدنا "عمر" و"خالد"، وكنّا نلعب بتقليد قتالات سيوفهم، لم تكن لدينا سيوف طبعا، ولو حملنا العِصيّ لعاقبتنا الإدارة، ولذا شّكلنا من أذرعنا سيوفا ورحنا نتبارز بها وسط الساحة، والواحد منا يصرخ في الآخر : "الله أكبر، خذ هذه يا عدو الله"، وهو يسدد طعنة إلى بطنه.

لا زلتُ أندهش كيف كنا نحتمل ألم اصطدام السواعد المبرح، جربت تلك اللعبة وأنا كبير فتوقفت فورا من وجع أول ضربة، ربما هي فورة المعارك

التي يحكون عنها أنها تنسيك الجروح والرضوض والكسور والقروح، عذرا، لا مكان للقروح هنا ولكني انجرفت مع القافية.

أما في المدرسة الرسمية فكنّا نباري في الفسوق شعراء المجون، أبا نواس وبشار وابن الحجاج، هكذا كان زملائي وأصدقائي هناك وأنا سايرتهم ثم صار التطبّع طبعا.

ومع ذلك، لا زلتُ أعتقد أني ضُممتُ إلى أقل الأقسام سوءً، فقد سمعتُ بعض طلاب القسم الآخر يسبّون الرب سبًّا مقذعًا لا يُتصور، الآن أدرك أنهم كانوا يفعلون ذلك ليخلقوا لأنفسهم صورة الخطورة والبطش والجرأة.

أما التلاميذ في قسمي فكان يستهويهم المزاح الفاحش، وإفلات الآهات الماجنة، وكان هناك بضعة معيدين تولوا مسؤولية عظيمة، وهي توعية الأصغر سنا وتثقيفهم بكل ما يتعلق بالمواضيع الجنسية، وكنا نتلذذ بالاستماع إليهم، كنتُ أنا أجلس جوار أحد هؤلاء المعيدين اسمه عبد الحميد، وكان يُسليني بقصصه الجنونية العنيفة أحيانا الماجنة أحيانا، ولا أعرف حتى الآن هل كان يكذب أم صدق فيها جميعا، وإن كان الثاني فأخشى أني جالستُ سايكوباثيا منحرفا لا ريب أنه سيدخل حين يكبر حصص علاج نفسي مكثفة، ولو كان أحد مغني الراب الأمريكيين لسُرَّ لذلك أيما سرور فالمآسي والندوب النفسية بمثابة كنوز لهم، كلما كانت أغانيهم تروي معاناة وعذابا أشد كلما كانت أجمل، إليك معادلة موسيقى الراب،

الراب = المشاكل النفسية والاجتماعية * 10^{10} + الهجاء المقذع + النرجسية.

لم يكن عبد الحميد يسُبُّ الرب ولكنه كان يسبُّ الدين. كانت تزلُّ من فمه حين يُستفزُّ، كأن أصفعه أنا على قفاه، فيسُبُّ ويلتفت لي ويشدُّ على ذراعي ويلويها، كان يتفنن في ليِّ الذراع، ويعرف لذلك ألف طريقة، وقد علّمني بعضها – بتجريبها علي –

تربيتُ أنا على أن كلمة "بلّع" التي تعني "أغلق فمك" سبّة قبيحة، فما بالك بسب الدين والرب؟ ولكنه كان صديقي، لا أذكر إن كنتُ أنهاه أم لا، ولكن مع تكرارها على مسامعي لم تعُد كلمة بغيضة لا تمرُّ على خاطري حتى، بل فوجئت بها يوما تجري على لساني، قُلتها لداود الثاني حين كان يشاكسني ويثير غيظي فنظر لي بصدمة وقال : "ماذا قلتَ؟ ماذا قلت؟"، ثم التفت إلى داود الأول واتفقا بنظرة واحدة على الانقضاض علي وضربي معا، وما إن بدآ حتى أسرعتُ أهتف لأنقذ جلدي : "مهلا، لقد قلتُ اللعنة على دين الشيطان، هكذا قصدتُ، هكذا قصدتُ".

لم يكونا ليضرباني بعنف، بل هو ضرب الملاعبة ذلك الذي يجري بين الأصحاب، قصدا منه أن يؤدباني ويُظهرا لي أنهما غير راضيين.

قل عني "ضعيف الشخصية" أو أني "لا أسطّر حدودي الشخصية" أو أي هراء آخر من هذا القبيل، مستدلّا على ذلك بأني تركتهما يضرباني.

ولكني ممتن لهما بشدة، صديقك الحقيقي من يُصارحك بأخطائك وينهاك عنها، ولا يداهنك خوفا من فقد صداقتك، أو من أن تراه"متحذلقا" أو "متعنتا" أو "متزمتا"، إن لم يكن صديقك هكذا فهو ليس بصديق، إن كان أجبن من أن يعلن مبادئه ويدافع عنها، أجبن من أن يقول الحق فهو صديق لا تحتاجه، إلا إن كنتَ مثله، فهنيئا لكما أن وافقت شنة طبقة.

أعترف بأني لم أكن صديقا حقيقيا لعبد الحميد، أحيانا يخزني الندم وأعاتب نفسي : لماذا لم تنصحه؟ لماذا لم ترشده؟ تركته يهمل دروسه ويواصل الشتم والسب والهذر بالمزاح الفاحش ولم تقل شيئا؟

ثم بدأتُ تعلم الصلاة.

في تربص صيفي لم يرافقني فيه داود الأول ولا الثاني، فقد تعلما بمسقط رأسيهما، أما أنا فسافرتُ. كنا سبعة فتية حسبما أذكر، بعد أن أنهينا سنتنا الخامسة الحافلة بالمشاغبة والشجار والاستكشاف الخبيث متذرعين بالفضول، ونلنا شهادة الابتدائي. بعضهم كانوا زملاء لي، وبعضهم رأيتهم سابقا ولم أعرف أسماءهم، وواحد لم أره قبل قط.

علمنا أستاذ عزيزٌ علي يدعى "علي"، كان عريض المنكبين، ضخم الجثة، قوي السواعد، يرتدي نظارة، وعلى وجهه أخوال، أقصد شامات سوداء دقيقة. وقد أحسن تعليمنا حفظه الله، ذات مرة كان يختبر أداءنا واحدا واحدا، وحين حان دوري فقمتُ وصليتُ، قال لي بعد التسليم : "لاحظتُ

أنك تسرع كثيرا جدا في الأقوال وفي الحركات، عليك أن تقرأ السور بتأن أكثر وتأخذ وقتك في التسبيح خلال الركوع والسجود".

لا أذكر بأية نبرة قالها، أعاتبني أم وبخني أم تكلم بنبرة عادية تماما، ما أذكره هو الدموع التي انهمرت على خديّ، دموع حارة مهراقة، حتى أن مخاطي سال، كان زملائي جالسين على جانبيّ والأستاذان قبالتي، ولكنهم اختفوا جميعا في تلك اللحظة من الوجود، فكرة واحدة مرعبة غشت عقلي : أنا أسرع في الصلاة، سأدخل النار إذن، أبواي سيدخلان الجنة، وأنا سيُقذف بي في الجحيم، لن أكون معهما.

لا أعرف إن كان حبي لوالديّ هو الذي أهرق دموعي، أو أنه الخوف من العذاب الأليم الأبدي. كل ما أذكره هو أني بكيتُ وأن السكون حلّ ولفّ، ثم سمعتُ الأستاذ الثاني يقول لي : "لا عليك، قم واغسل وجهك".

صلواتي الأولى كانت رحلات سحرية، كانت إسراء ومعراجا يوميا، لم أشعر بحلاوة العبادة فيما بعد مثل ذاك قطُّ و بأن روحي تسبح عبر الكون وتتحد مع الطبيعة في تسبيحها للواحد الخلّاق الرزّاق الجبّار كما أحسستُ حينها، كنتُ أستعين بخيالي الواسع الخصب في الخشوع، كثيرا ما سمعتُ على لسان الوعاظ أن سؤالا يتردد كثيرا: ما هو الخشوع؟ كيف نبلغه؟

أنا أخشع بخيالي، كل لفظة وكل عبارة أنطق بها في الصلاة يجب أن أجسِّدها في صورة ذهنية، حين أقول "الحمد لله رب العالمين" أتخيل نعمة من نعم الله، أحيانا أتخيل النحل وعسله الحلو، ذلك الدواء الذي لا

يفسد مهما توالت عليه السنون، وأحيانا أحمده على الوقت، أثمن شيء في الوجود، وأحيانا على شفائه لي من أمراض أُصبتُ بها، وعلى حفظه لي من شرور كانت لترديني قتيلا، وعلى إجابته دعواتي في الكُرب والمصائب، وأحيانا أخرى على أن كرّمني بنعمة العقل، ووهبني نعمة الخيال، وملكة التعبير والإنشاء، أحيانا أحمده على يدي وعلى أصابعي، هل كنتُ لأكتب بلا أصابع؟ أُملي؟ أنا لستُ طه حسين، أظن أني حين أفقد يديّ ستنتهي مسيرتي الأدبية، حاولتُ مرة أن أملي قصة فتعثرتُ وتلعثمتُ ثم توقفتُ إذ رأيتها قد خرجت جنينا مشوها قبيحا. – اقطعوا يديه! –

وهكذا مع كل آية، وكل تسبيحة، سبحان الله العظيم.. أعجز الإنسان بالذباب.. سبحان الله العظيم.. جعل سر الحياة في قطرة ماء... سبحان الله العظيم... يستطيع الآن وأنا في ركوعي أن يسحق كل عظمة في جسدي ويطويني على مئة ويزودني بأجهزة استشعار جديدة ليُذيقني ألوانا من العذاب لا تعرفها حتى الزبانية.

وهكذا أتقلب بين الخوف والرجاء.

في أول سجدة لي غمرتني سكينة لم تتأت لي مجددا أبدًا، شعرتُ أني اندمجتُ مع الطبيعة وانضممتُ لها في تسبيحها الذي لا نفقهه، وشكّل لي خيالي صورة من أبدع ما يكون؛ رأيتُ دلافينا تنبثق من الماء واثبة في الهواء مقوسة الأظهر تنثر القطرات، ثم تهبط بأنوفها في مرح وتعيد الكرة، تقفز ثم تغطس جميعها معًا في تناغم مذهل.

ورأيتُ حيتانا عملاقة ترفع رؤوسها فوق السطح لتتنشق النسيم ثم تعود للأعماق.

رأيتُ فراشة ترفُّ وترفُّ ثم تحطُّ على زهرة، رأيتُ حُمُرًا وحشية تتراكض في المروج الخضراء.

بعد عقد من الزمان حاولتُ إخبار أحد تلاميذي في المدرسة القرآنية بهذا، كان مقبلا على تعلم الصلاة، قلتُ له بعد أن استظهر عندي: "يا يوسف، انتظر، لدي ما أقوله لك".

فوقف في مكانه وهو ينظر لي، قلتُ له : "أنت ستبدأ الصلاة قريبا، أليس كذلك؟"

- نعم

كان يتململ في وقفته، ويقفز من قدم لأخرى، ويتلفت بين الفينة والأخرى، فيما بعد، أدركتُ أنه كان يتعجل لقاء زملائه الذين كانوا خارج القسم ليلعب معهم.

قلتُ له : "تذكر هذا جيدا، في أول عهدك بالصلاة، ستشعر براحة عظيمة وأنت تصلي، استغل تلك الفترة، استغل كل لحظة منها، وحاول تمديدها إلى أطول مدة، واحفظ حلاوتها في عقلك، لأنك مهما مططتها فلابد أنها ستنقطع مثل العلكة، ولكن يمكنك دائما أن تأكل علكة أخرى، هذه نصيحتي لك".

كان يبتسم ويومئ، ولكنه لم يفتأ يتلفت متململا، طعنني سيخٌ ساخن من الكآبة القاتمة المقيتة إذ لاحظتُ ذلك وهلة، إنه لا يصغي، لم يستوعب مرادي على الإطلاق، لابد أنه يحدث نفسه قائلا : ماذا يقول هذا الخرف؟ متى يخرس فأغادر وألتقي أصحابي؟ إنهم يلعبون الكرة في الساحة، علي أن أسرع.

طبعا، كلمتي بلا قيمة عنده، فأنا كنتُ أعاملهم بفتور، لأنهم لم يعاملوني باحترام خلال السنة، لأني تساهلتُ معهم أول الأمر وضحكتُ لهم، وها هي الثمرة العفنة! تُقدّم لطالبك أعز نصيحة فلا يوليها أحقر قدر من المبالاة.

قلتُ له محاولا كظم الحرقة في حلقي : "يمكنك المغادرة".

وددتُ حينها لو كنتُ إنسانا خارقا قدرته مشاركة الذكريات وما يتصل بها من مشاعر عبر التخاطر، كنتُ لأوفر الكلمات العاجزة القاصرة المخلّة وأريه الدلافين تسبح وهي تُسبِّح.

ورأيتُني في أول عهدي بالصلاة، أرجع من المتوسطة مساءً مسرعا فألقي حقيبتي المدرسية خلف عتبة الباب، وأطوي الطرقات طيًّا إلى المسجد، أسابق الإمام نفسه، فما وصلتُ إلا وقد سلّم، فوقفتُ لإقامة الصلاة، تنهشني الحسرة وأنا أضبح كالعاديات.

ثم مرت سنة وأخرى فاعتورني الفتور الذي ينجم عن التعوّد، وما أشدُّ فتكا على الحماس من الروتين، وتعلمتُ مهارة جديدة لربح الوقت وهي "أنكو".

و"أنكو" تعني النقر، فكل ركعة نقرة، كالديك يتخطف الديدان من على الأرض، أقوم وأقع ساجدا وأنا أدندن بالآيات كمن لا يعرف كلمات أغنية، أُغمغمها كطالب في سلك الاستظهار، لم تكن تلاوة حدر بل صلاة خوف. وكنتُ من العجلة والشرود أخلط بين تسابيح الركوع والسجود، وأقول أحيانا "سمع الله لمن حمده" وجبهتي تكاد تمسُّ الأرض سجودًا.

كنتُ حينذاك مراهقا أهوجا أرعنا أقلِّد المراهقين الأكبر مني، أراهم يتجمعون آخر المسجد كأن المحراب يصدهم، كأن المسجد يطردهم، فأقف جوارهم ونتسابق في ركعات الشفع والوتر، غفر الله لي في أي ضلال كنتُ.

كل هذا التعجل لنلحق صديقًا فنثرثر معه في الطريق للمنزل، أو لأسباب أخرى أتفه، أربابٌ نصبناها كالأنصابِ حقارة أو أدنى حق، لو ضربتُ صنما بإنسان فأيهما يُبيد الآخر برأيك؟

صليتُ مرة في مصلى المدرسة القرآنية، وحين سلّم الإمام قام مجموعة من التلاميذ يستدركون، فنظر الذي يصلي جواري إليهم وكان طالبا يكبُرني، وقال لي : "كم أرثى لهم، انظر إليهم ينقرون، ذات يوم سيقضون كل هذه

الصلوات المشوهة، كم سيكلفهم ذلك من جهد ووقت؟ أنا نفسي قد قضيتُ صلوات كثيرة ولكم ندمت".

حينها شعرتُ بأنه متعنت متدين زيادة عن اللزوم، كنا ننفر من هؤلاء الأشخاص وندعوهم بألقاب كريهة مثل "بوعريف" و"خروجي" ووو... لم أردّ عليه وأومأتُ ليخرس فحسب، الآن أتذكر كلماته، قد يكون رسولا من الله لي لأُصلح أمر صلاتي، وكم من الرسل يدفعهم ربك في طريقك لينصحوك ويرشدوك وهم لا يدرون أنهم قوارير لرسائله ولا أنت تدري.

وانتقلتُ إلى منزل آخر، ودخلتُ مدرسة قرآنية جديدة، وفرقَّ البعد بيني وبين الداوودين، وسكنتُ في منطقة قال لي عنها داود الأول أن أباه أبى السَّكن بها، لأن أولادها وقحون أوباش، وآباؤهم - الذين لم يربُّوهم كما ينبغي - مثلهم تماما، فهو يراها بؤرة الانحراف.

وتعرفتُ فيها على العديد من الأصدقاء الأوفياء فيهم خصال حميدة عديدة وإن لم يكن الورع إحداها، والله أعلم من تغير منهم للأحسن ومن انحدر للأسوأ.

أخذت منهم أشياء عديدة مفيدة، ولكن أحدهم اسمه عبد المؤمن، أطلعني على عالم الموسيقى، وكنتُ قبل ذلك أشمئز منها ومن الرقص أيضا، ولا أفهمهما تماما حتى في الأعراس، ما الذي يدفع شخصا عاقلا إلى تحريك جسده، نصفه السفلي تحديدا على وقع الألحان بنشوة وزهو؟ ألا يجب حجب العورة وسترها فلماذا تلفت الأنظار إليها بحركاتك تلك؟

توقف عبد الله لحظة عن الكتابة، وضحك ملء فيه وقد زارته ذكرى من عصر الطفولة الأغبر، ثم ذرف دمعة، وعاد يكتب : "لدي فيديو لي وأنا في صغري في عرس إحدى عماتي، كل الأطفال يرقصون فرحين وهم يستعرضون حركاتهم، سواي، أمشي في المكان ضجرا ملولا، ثم أغادر إطار الكاميرا لأختفي في الركن، غير مكترث لشلّال الجذل والطرب المتفجر.

كنتُ أمقت الراي خصوصا، لافتقار مغنِّيه للإبداع والتعبير، نصف أغانيهم إهداء، والنصف الثاني كلمات ماجنة تافهة بالدارجة، قعر الابتذال.

ولكن عبد المؤمن أسمعني أغانيه المفضلة على هاتفه، بعضها راي، وبعضها راب، وبعضها غناء شرقي، وكنتُ أحب صديقي ذاك، فأحببتُ ما يحبه تبعا خصوصا الراب، ورحتُ أبحث عن المزيد من الأغاني الدارجة، يا ليلي ويا لولا، اخطيني ونعيش وحداني، لا تكفيني النسخة الأصلية فأسمع نسخة الباك أيضا "وعلاش يا بن غبريط".

ثم بدأتُ بتعلم الإنجليزية، والاهتمام بكل ما يتصل بها من الأفلام ومسلسلات وفيديوهات على اليوتيوب، ولم تكن الموسيقى استثناء.

رقصتُ في غرفتي كالمجنون ثملا بأنغام twenty one pilots ورسمتُ المغنِّيين مرارا، خصوصا الطبّال ذا الشعر المصبوغ بالأحمر القاني، كنتُ أنزِّل أغانيهما في قرص فلاش، وأدسُّه في التلفاز حين يغادر أبي للعمل، وأرفع الصوت إلى أقصاه، حتى أصمّ السميع وأسمع الأصم، ثم أطفق

أدور حول نفسي وأتواثب هنا وهناك على ساق واحدة أحيانا كمخبول مهتاج، وأعرق وألهث وأنغمس وتبلُّني النشوة بطلل.

كانت تلك طريقة رقصي، ابتدعتها لتفريغ شحنات البهجة والنشوة التي تكاد تفجّرني من الداخل؛ طريقتي تلائمني فهي لا تتضمن هز الأرداف. ثم أصبتُ إخوتي الصغار بالعدوى، فأحبوا هذه الفرقة مثلي، فصاروا جميعا يسمعون أغانيها معي، بل ويرقصون أيضا أحيانا ذلك الرقص العجيب، وتُطلّ أمي برأسها من الباب فتبسمل وتحوقل وترقي البيت وتفتش عن "العمل"، وهي تحدث نفسها : ما خطب المعتوه؟ أتلبّسه جن؟

هِهِه، لو سافرتُ للماضي ورأيتُ نفسي المراهقة لظننتُ بها الخبال والحماقة، ولعجبتُ منها كيف لا تخجل من الرقص بتلك الطريقة الخرقاء، ولربما احتقرتها واحتقرتني، وازدريتها وازدرتني، ولما فهمتُها ولا هي كانت لتفهمني.

لم أكتف بالسماع والرقص والدندنة بل بحثتُ عن الكلمات "lyrics" وكررتها حتى حفظتها ظهرا عن غيب، ورحتُ أرددها أينما ذهبتُ، في المدرسة القرآنية حتى، بعد استظهار لوحي، تعلقت حقا بتلك الفرقة والملحمة الخيالية التي نسجوها عبر فيديوهات أغانيهم وألبوماتهم، ورحتُ أرتقب كل يوم نزول أغنية جديدة لأضيف قطعة في puzzle.

استبدلتُ بهذه الفرقة الإنجليزية الراب الجزائري، فقد بدا لي سخيفا تافها مبتذلا تنخره البذاءة، وزاد كرهي له بعد أن فارقتُ عبد المؤمن وكسفت

شمس الصداقة وحلّ الفتور، وقد تحبُّ الشيء لحبِّ الحبيب فتكرهه بعد فراقه، لأنك لم تحبه أصلا بل قلّدته تقرُّبا منه.

قلتُ لمحمد صديقي المقرب الثاني ذات يوم، ونحن ذاهبون للمدرسة القرآنية والحماس يخنقني : "لقد اكتشفتُ فرقة موسيقية مذهلة".

- حقا؟ ما اسمها؟
- Twenty-one pilots
- لم أسمع بها من قبل، أهي فرقة راب أم روك أم بوب؟
- خليط من كل هذا، إنهم رائعون، ألحانهم حماسية، وإلقاءهم جميل، أحيانا عذب رخيم، وأحيانا ناري سريع.
- أعطني أسمع

وأخرج قرص الفلاش من جيبه.

- حسنا

آه، صديقي محمد، كم أعطيتك من فيلم ومسلسل وكرتون وأغنية في ذلك القرص؟ لم يكن لديك حاسوب ولا أنترنت، فصرتُ لك الأنترنت، صداقتنا توطّدت واستمرت على ذلك، ولم يكن لنا حديث في كل لقاء إلا عن الأفلام والمسلسلات الجديدة.

شعرتُ في داخلي بأن هذه الفرقة رائعة وأغانيها ممتعة، وأردتُ أن يشاركني أحد حبها ومتعتها، وكنتُ أتصور أن متعتي تزداد بذلك.

ثم توقف عبد الله عن الكتابة وشهق وقد اعترته صدمة عظيمة، لقد فطن في خضم الكتابة إلى حقيقة خطيرة، لم يدر كيف غابت عنه سابقا وهي في غاية البساطة، خطّ في الكراسة بخط متعرج : " الآن أدرك أن عمل الشيطان كالعدوى أو كالتبشير، وأنه يستعمل الناس في نشر شرّه، كنتُ أنقل لهم العدوى تماما مثل مورينا برودو في سفينة الحوت الأسود، كنتُ قسًّا مبشِّرا أقدِّم الأغاني والأفلام لهم، بعضهم في القرص المحمول وبعضهم أذكرها لهم بشكل عابر كترشيحات، وهذا كذاك كله يُحتسب، تبّا لي كم كنتُ ساذجا.

وبينما كنتُ أجول يوما متسكعا في شوارع اليوتيوب، التففتُ عبر زقاق فمرّت بي حسناء، نثرت علي نظرة واحدة بلحظها فأردتني، شعرتُ بأن كل ما في العالم من طاقة وحماس قد تلبّد في السماء وشكّل كرة عملاقة مكهربة، ثم هوت هذه علي بغتة فغمرتني وأغرقتني واندفعت في عروقي مبيدة كل رزانة وهدوء. استوقفتها وسألتها : "ما اسمك؟"

فهتفت وهي تلوّح بيدها في وجهي وتشكل بأصابعها رموزا وعلامات لا أعرفها : "أنا الراب".

فركعتُ على قدم، وقلتُ لها : "تزوجيني".

فقبِلت.

وبارك لنا إبليس.

****

أذكر العرس كأنه اليوم، كنتُ في الخامسة عشر حينذاك. جاء خالي ليتسلم أثاثا تركه وديعة في مرآب منزلنا، فذهب أبي ليساعده على نقله، وصاح باسمي من السطح لألحقه : "عبد الله، عبد اللللله"

صرختُ من غرفتي متضايقا : "أنا قاااادم".

ثم عدتُ لحاسوبي العجوز، كنتُ جالسا بالكاد، السماعات على أذني، وأنا على مشارف اكتشاف عظيم، كنتُ أعرف قناة عربية تترجم أغاني الراب، وقد أعجبتني أغنيتهم الأخيرة، فنسختُ اسم مغنيها وبحثتُ عنه، وإذا بي أسمع شيئا جديدا، فريدا، باهرا، آسرا، ساحرا، خلابا، فتّانا، يجعل أذناي تقشعران من الجذل.

صوتٌ يتدفق وينحرف ويتعرّج بسرعة دراجة نارية تميل على المنعرجات حتى تكاد تقبّل الأرض فتسحق راكبها، ثم يرفعها وينجو من الموت بعد أن هزؤ به كرجل يدسُّ رأسه بين فكي تمساح. لم أفقه حرفا مما يقول المغني لسرعة إلقائه ولكن أسلوبه المتقلب الذي يقذف الكلمات رذاذا كالرشّاش أغوى أذنيّ فتأودتا له.

وأصغيتُ للأغنية تلو الأخرى والنشوة تتلاطمني، حتى كاد أبي يفجر حباله الصوتية من شدة الصراخ، فأوقفتها ووعدتها بعود قريب وصعدتُ متأففا.

أما ذلك المغني فهو إيمينم.

****

من هو ربي؟ الله أم إيمينم؟ أم كلاهما؟ أأنا أشركُ بالله؟ شركًا خفيًّا غير معلن؟ شركًا لم أعترف به مطلقا؟

أحيانا كان يراودني هذا التساؤل فيعذبني، أقول لنفسي : هذا ليس شركا، فأنا أعرف أن إيمينم بشر مثلي وليس إلها، بل هو إنسان حقير، عاقٌّ لوالديه، ومطلّق فشل زواجه وانتهى بفضيحة ساهم هو في نشرها، وقد بنى شهرته على الهجاء والعربدة والعنف المفرط والحقد، فدمّر حيوات أعدائه وأبناءهم، ولم يترك تابوها إلا ونبشه في أغانيه، باختصار، إيمينم اشتهر لأنه يُصرّح بالخواطر السوداوية التي لا يجرؤ الناس على الهمس بها حتى.

فلماذا أحببته؟ لأني أحب اللغة، أحب القوافي، أحب الجِناس – مدُّ تسع حركات لزوما - والطبّاق والتشبيه والاستعارة، وأحب أكثر منها التوريات والتلاعبات اللفظية، وهذه لم أسمع بها مطلقا قبل الاستماع لإيمينم وقراءة شروحات أغانيه.

هذه المنفعة الوحيدة التي أخذتها منه.

وأحب كذلك أساليب إلقائه البديعة التي لا تنتهي، حتى وصفه البعض ب"flow machine"، حرفيا، آلة أساليب الإلقاء.

ولكن نفعه ولذته ممزوجة بالإثم، بذاءة مفرطة حتى لتخاله بالوعة طافحة، وغزل فاحش، وافتخار بالموبقات من خمر ومخدرات، أدمن تعاطيها حتى كادت تقتله فارتدّ على عقبه وتركها وبات يلعنها.

وقلتُ لمحمد ونحن عائدان من المتوسطة : "لن أترك الاستماع لإيمينم ما حييت".

وكنتُ قد عرّفته عليه فأعجبه وإن سخر دائما من غُنَّته، فردّ علي غير مصدق : "سيأتي يوم وتتركه، ستملّه".

- كيف أملّه وإبداعه لا ينضب؟ أرأيتَ كيف يأتي كل مرة بتوريات وأساليب إلقاء جديدة؟

فهزّ رأسه في غير اقتناع، ولكنه لم يجادلني أكثر.

وصدق ظنّه، ومللتُ إيمينم بعد أن شاركته مع إخوتي وبعض الأصدقاء، ولكن الإدمان ظل يلحُّ علي، فبحثتُ عن مغنين آخرين، ووجدتهم بالعشرات كأنهم يخرجون من مصنع أو مخبزة، ولكن كل منهم له أسلوبه وصوته وقصته، فارتحتُ ورويتُ ظمئي.

وجاءت الكورونا، وأُغلقت المساجد، وهلّل لها التلاميذ فقد أراحتهم من الدراسة، وكنتُ من بينهم فأمضيتُ أيامي بين قراءة الروايات ومشاهدة الأفلام وخصصتُ وقتا قصيرا لمراجعة القرآن، حتى التقاني أستاذي حسن في الشارع ذات أمسية، وجدته جالسا يحادث أحد طلابه باسما ضاحكا، صافحته فرفع رأسه نحوي، وقد أغمض عينه اليمنى نصفيا اتقاء لشعاع الشمس وهي عادته يفعلها بلا شعور، وسألني : "ماذا تفعل هذه الأيام؟ هل أنت تراجع القرآن؟".

فقلتُ : "نعم"، ولم أكمل : قليلا جدا.

فعرض علي بكل كرم : "حسنا، ما رأيك أن تواصل استظهارك على يدي؟".

وكنتُ قد ختمتُ على يده وبدأتُ الهبوط كذلك، قلتُ له متحسرا على وقت فراغي : "حسنا".

- غدًا، إذن، ستستظهر عندي في المسجد، في كل يوم احفظ سورة.
- سورة؟ سورة كاملة يوميا؟ وتبددت الأفلام والروايات سرابًا.

ولم يكن بدٌّ من أن أقبل، وكيف أرفض وأستاذي العزيز سخا علي بوقته العزيز؟ وإن كان الوقت أغلى شيء في الوجود لأنه لا يعود، فقد أهداني أغلى ما عنده، والهدية لا تُردُّ.

فيما بعدُ، حين انطلقت في التدريس أنا أيضا، أدركتُ معنى أن يمنحك الأستاذ بعض وقته مجانا رغم كل انشغالاته ومسؤولياته، فأنا كنتُ أشحُّ بوقتي وأتبرّم أحيانا حين يبلغني المدير بأن طالبا مُجِدًّا يرغب في الاستظهار خارج الوقت الرسمي.

والآن والذكريات تتوافد أعترف بأنه ما كان ينبغي لي ذلك، كان يجب أن أمرّر فضل أستاذي.

وكان ميعادي اليومي معه في الخامسة مساء، في مسجد حينا الصغير، ولم يكن يفتح أبوابه لسوانا.

جمعتنا الأمسية الرابعة في باحة المسجد التي تحفها شجيرات الأزهار يُقعي بينها النعناع العبق، ويعلوها جميعا نبات متسلق التف كالأفعى على سلك عُلِّق بين جدار الطابق العلوي المطلّ على الباحة وجدار المسجد المطلِّ على الشارع. وبعدما فرغتُ من استظهاري أغلق أستاذي القرآن على سورة النور والتفت لي معاتبا وقال : "لم تحفظ جيدا هذه المرة، غدًا تعيدها وتكمل معها سورة الفرقان".

فأطرقتُ نادما وقلتُ بخضوع : "سأفعل".

وهذا لأني حقا لم أحفظ يومها، وانشغلتُ بتصفح موسوعة غينيس العملاقة على حاسوبي، وقضيتُ نهاري في مطالعة الأرقام العجيبة حتى كاد يصيبني الحَوَل من أشعة الشاشة والخط الصغير والألوان الفاقعة الفاقئة، ثم حككتُ عينيّ ورحتُ أحلم بوجهي الوسيم يطالعني فيها، يطالعه العالم أجمع، والرقم يُقرأُ : أكثر الكتّاب مبيعات (حطّم رقم ج ك رولينغ) أو أغزر المؤلفين إنتاجا (حطم رقم القطب اطفيش) أو أكثرهم نيلًا للجوائز (حاز على البوكر وكاتارا وو... ولكنه لم يتسلم جائزة الإمارات، لأنها دولة نفاق وشقاق تستحق حجّاجا يتسلط عليها ويجعل الأعناق تلاقي الأسياف في عناق. حلمي حقا أن أفوز بها وأرفض تسلّمها إهانة لهم، أولئك الفسّاق.

ثم زالت غيمة الخيال عن عينيّ فإذا هي الخامسة ميعاد استظهاري، ضيّع الحلم القصيُّ علي الهدف الدَّنيّ.

وبينما أنا أستظهر الفرقان متربعا جوار أستاذي، على الحصير في الساحة تحت العرائش، تحفُّنا الزهور، وتستعرض على أنوفنا العطور كالباعة اللحوحين في الجسر المطل على ساحة أول ماي، رأيتُ دودة وردية تزحف نحونا، فتأملتها مليًّا وعجبتُ لطولها وقلتُ لنفسي : دودة أرض، ولم أتساءل : لماذا تزحف على الإسمنت لا تحت الأرض وهي لا تخرج من التراب عادة إلا مكرهة حين الحرث.

حملقتُ فيها ولساني يلقي الآيات تلقائيا كأن عقلي ناوله المقود مطمئنا وربما حفظتُ حركات اللسان والشفتين من كثرة الترداد بدل الكلمات والأصوات، فقد كنتُ بلا تردد أرمي وأصيب. ما علينا، تركتُ الدودة تزحف تحت الحصير ولم أمسّها بسوء رفقا بالحيوان ودسستُ إصبعي وراءها ألحقها فلم أمسكها، فنسيتها حتى أنهيتُ الاستظهار.

قال لي أستاذي باسما : "أحسنت، هكذا يكون الحفظ، والآن لنقم للصلاة".

ووقف ورفع الحصيرة فإذا بي أسمعه يلعن، ورأيتُ الدودة تزحف صوبه، فوثب للخلف ثم انقض عليها وسحق رأسها بحذائه. قال لي : "يا إلهي، من أين خرجت هذه الأفعى؟ أكانت تحت الحصيرة طيلة الوقت؟".

قلتُ له بسذاجة : "أهي أفعى؟ رأيتها تزحف فتركتها لأني ظننتها دودة".

- ماذا؟ أأنت مجنون؟

فقلتُ له مدافعا : "لونها وردي، لم أر في حياتي أفعى وردية".

لعل وليدات الحيّات وردية مثل صغار الكلاب والقطط والفئران أو لعلي مصاب بعمى الألوان، لا أدري، ما أعلمه أن الله حفظني حينها، حفظني لأني كنتُ أحفظ كتابه.

وقدّمني أستاذي للإمامة، فسمع أصواتا غريبة تشبه بقبقة فقاعات تصدر من بطني فزجرني بخفوت وقال : "هيا، توقف عن ذلك".

الحقيقة أنها كانت غازات بطن، جهاز هضمي الناعم المدلّل يتظاهر كل يوم مطالبا بأن أخفف عنه العمل ويشتكي فيقول : كيف للسان أن يعمل ذوّاقة وأتولى أنا تصفية الفضلات؟ ويعمل هو بأريحية مطلقة وأشقى أنا وأضنى، وهل سمعت يوما عن لسانٍ تعب؟ ولكن لا يمرّ يوم إلا وتسمع عن بطن منتفخ متوجع إن هو أمسك تألم وإن هو أسهل تألم فهو ملعون مهما فعل.

فألكمه وأقول له : اعمل أيها العاطل الكسول، اعمل وإلا لأشربن الأسيد وأريك.

ثم أتذكر أنه لا يفقه حرفا، وأني أحدث نفسي، فأضحك بكآبة.

وقصتي مع آلام البطن طويلة كالأمعاء وهي وثيقة الصلة بقصتي مع الإله، لأن الله هو من خلق لي بطني وجعله هكذا.

متى بدأت؟ فلنعد إلى حين كنتُ أتعلم الصلاة، كنا سبعة كما ذكرتُ سابقا، أطفالا وضعوا أقدامهم على عتبة المراهقة، وكنا نفعل كل ما يفعله

الصبية، نتصارع بالوسائد، ونتشاجر، ونُخفي عصا الأستاذ كي لا يضربنا بها... إلخ.

درسنا نواقض الوضوء ذات فجر، وذَكَر الأستاذ "علي" بقناع من الجد مصنوع من حديد : "وهي البول والغائط والنوم والمني والدم و... إطلاق الريح"، ولم نسأله ما معنى "المني " ولا معنى " إطلاق الريح" فقد كنا نعرف بالفعل أنهما من منقضات الوضوء من زملائنا المعيدين في القسم، وقد كانوا يتهمون بعضهم أمامنا : "هذا أطلقها في المسجد وهو يصلي، أقسم بالله"، فيحمرُّ وجه الآخر ويُكذّبه.

وقال لي أحد زملائي الصغار بكل عفوية وصراحة، أظن أن اسمه "أنس"، وكان كثير الضراط : "إني أحسدك حقا، كيف تمسك وضوءك هكذا؟ لم أسمعك تطلق الريح ولو مرة".

وهذا الزميل حين ألقاه في الشارع يوما سأحطم أسنانه، فحسده سبب بلواي ولا ريب. لم أجبه حينها وضحكت في سذاجة وخجل، ولكني لو تكلمتُ لقلتُ أني أُطلقها مكتومة. وأذكر بينما أكتب هذه الحروف ذكرى طريفة لابن خالي الكبير، شهِدْتُه صغيرا وهو يعلم حلقة من الطلاب حول الصلاة وهم يصغون بانتباه وخشوع، فإذا بأحد منهم يضرط بصوت مسموع، فنفخ الخشوع وذهب به أدراج الريح، فاربدّ وجه ابن خالي وزمجر فيه.

لذلك صرتُ أكتمها ربما، وذكر لنا أستاذنا حديثَ الرسول صلى الله عليه وسلم :
"لا تشك إن لم يخرج صوت ولم تشم رائحة".

ماذا لو وقعت هذه المذكرة في يد أحد؟

كتب عبد الله فجأة وهو يفكر حقا في تلك الاحتمالية، على الأرجح إخوتي الأوغاد المتطفلون سيقرؤونها، فهم يفتحون حقائبه دائما بعد العودة من السفر، ويفتشونها شبرا شبرا وهو في سبات من الإرهاق، وقد يجدون أشياء مغبرة في جيوب لم يطل فيها منذ شهور، فيلعنهم ويشكرهم في آن واحد.

ماذا لو وقعت هذه المذكرة في يد أحد؟ سيقرأ هذا المقطع ممتعضا وقد انكمش أنفه، ويظن بكاتبه السماجة والتفاهة، إذًا، من الذكاء أن أستبق ذلك وأجهز ردًّا للمتطفلين...

"أيها الجاهل، رسول الله كان يتكلم عن نواقض الوضوء وآداب معاشرة النساء دونما خجل، وليس في الدين حياء، فإذا فعلتها أنا صرتُ تافها، وإذا فعلها هو كان قدوة في كل مناحي الحياة، لا تمزح معي، لقد أفسدتم طعم الحياة من كثرة التابوهات غير المعلنة، موضوعات لا تُطرق وقد يُعلّق بها مصيري يوم القيامة، ونظل في الجهل نزحف، ونصلي ولا نعرف هل نحن طاهرون حقا أم لا؟ تبا لأمثال هذه العقليات، ولذا اشمئز ما شئت، هذه مذكرتي وسأكتب فيها ما يعنُّ لها، أنت من تتلصص عليها.

ورحتُ أصلي صلواتي الأولى ولم ينغص علي حلاوتها سوى الغازات، وما كان مدعاة للضحك واللعب في الطفولة صار مصدر قلق وغم، لم يكن برنامج التربص الذي نتقيد بكل سطر فيه يسمح بإعادة الصلوات وقضائها، وخجلتُ من أستاذي كيف أخبره بأن وضوئي ينتقض مرارا، آه، تبا، يدي ترتجف حول القلم، يبدو أني قد بدأتُ أسرِّب أسراري، ولكن هل أأتمنها في هذه الكراسة أم علي أن أحرقها قبل مغادرتي كما فعلتُ بأخريات؟

وخشيتُ أن يزجرني كما فعل ابن خالي مع ذلك الصبي المسكين أمام زملائه جميعهم، ورحتُ أحيانا أعيد الوضوء، وأحيانا أصلي كما تأتّى بعد الإسباغ الأول، وأخذتُ أحسب صلواتي التي علي قضائها، حتى نسيتُ أين وصلتُ فاختلط علي الأمر، وشكوتُ لأحد زملائي همسا ونحن وحدنا فقلتُ أن وضوئي ينتقض أحيانا، ولم أصارحه بالسبب، فقال لي : "أنا أيضا مثلك، لا أعرف كم من صلاة سأقضي حين ينتهي هذا التربص".

ولا أعرف كيف لم يخطر لي حينها، هذه فترة التربص فقط، شهر واحد في الصلاة، فما بالك بسنوات، فما بالك بعقود، فما بالك بحياتي كاملة؟ سأظل أصلي هكذا دائما بلا طهارة، دائما في شك، دائما في قلق، دائما في جهل، والصلاة جُعلت للراحة والسكينة فكيف أصبحت مصدر عذاب وقلق؟

ولم أسأل المفتي، لأن والديّ يجب أن يتوسطا فينقلا سؤالي له، وقد خجلتُ منهما وخشيتُ تأنيبهما وسخريتهما، ولم أزر الطبيب لنفس

الأسباب، ثم ماذا أفعل لو اتضح أن مرضي بلا علاج وكم من الأمراض هكذا، ها قد افتُضح أمري، وذاع سرِّي في الأُسرة وعرفه الطبيب الغريب، وأنا لا آمن الأطباء، ولي تجربة بشعة معهم، ثم إني أكون قد ضيعتُ المال عبثا، لا، لا، فلأكتم أمر غازاتي كما أكتم صوتها، وأرتجل لنفسي حلولا، وقد قسّمتها إلى حالات :

1 – الحالة الأولى : أسميها "سلكت" وهي أن أتوضأ مرة واحدة وأصلي مطمئنا بكل خشوع وأسبق الضراط إلى التسليم، وهذه أحمد الله بعدها طويلا.

2 – الحالة الثانية : أسميها "متعوب عليها" : وهي أن أعيد الوضوء مرة أو مرتين أو ثلاثا قبل أن أؤديها تامة بطهارة، وهي ترهقني، ولا أفعلها إلا لماما.

3 – الحالة الثالثة : "خرجتْ" : وهذه أتوضأ وأذهب للمسجد فأكون في الصف الأول في الوسط أو في أيٍّ صف عدا الصف الأخير، فأقاومها فلا تزيد إلا إلحاحا في الطرق، وتقتلع الباب في النهاية وتندفع كالمغول إلى بغداد، فأكتم صوتها، ولا أدري هل سُمعت أم لا، من شدة احتقان وجهي، وتصببِ عرقي، وارتجاف يديّ، وضم رِجلّي لبعضهما في جلسة التحيات، وأسلِّم وأسمِّر عينيّ على راحتيّ خلال دعاء الإمام ولا ألتفت للجالسيْن على جنبيّ إطلاقا، وأقوم هاربا ما إن يختم الإمام دعاؤه، كي أنقذ ما تبقى لي من كرامة وأحفظ ماء وجهي فلا يحفظ ملامحه أحد ليحكيها ساخرا لأصدقائه.

4 – الحالة الرابعة : "خرجتْ وأنا وحدي" : وهذه أحيانا أعيد الوضوء، وأحيانا أستثقل ذلك حسب المزاج، وأبرّر ذلك بأنه يجب أن أتخذ قاعدة واحدة : إما أن أعيد الوضوء في كل الصلوات أو لا أعيده إطلاقا، وقد استقررتُ على الثاني لأنه أيسر، والدين يُسر.

5 – الحالة الخامسة : "خرجتْ فتيممتُ" : أصلي الفرض وحدي فتنسلُّ فأستثقل إعادة الوضوء، فأتيمم وأصلي السُّنة، وأحيانا وأنا داخل المسجد لأصلي الفرض تخرج فأتيمم في إحدى الأعمدة وألحق الصف. وقد سرّني أني دخلتُ المسجد مستدركا ذات مرة فرأيتُ غلاما صغيرا يتيمم مثلي فاعتلت وجهي بسمة شيطان : "لستُ وحيدا في بؤسي".

6 – الحالة السادسة : أنا أفرِّق بين الحالة العادية حين يكون بطني شبه خاو ومع ذلك أطلق الغازات، وبين الحالة الاستثنائية وهي حين يكون بطني ممتلئا بعد وجبة شهية فتبدو علي بوادر انفجار بركان، وتتشكل سُحب الغاز، ففي الحالة الثانية يؤنبني ضميري على الصلاة على تلك الحال لأن الرسول نهى عن مدافعة الأخبثين، ولكني أحسب وقت قضاء الحاجة ثم أضيف إليه وقت الاستنجاء، وأنظر للساعة فأجد الليل يكاد ينتصف، ويغريني العشاء، وتغويني الأنترنت، ويراودني النعاس، وترعبني عودة أبي من المسجد ليدرك أني لم أدرك صلاة الجماعة، فأصلي على عجل، وأهرع بعدها للحمّام، وأمدُّ بضع أشجار بالسَّماد فتشكرني.

ثم فطن عبد الله فجأة إلى أنه رقّم كل حالة عددا وكتابة كأنه يكتب وصلا بريديا فضحك ملء فيه وواصل :

وأُرسل هذا كله على الواتساب إلى الشيخ المفتي الذي يظهر في صورة حسابه وهو يصبُّ كوب شاي، رافعا الإبريق ليظهر الزبد الشهي، جالسا في بستانه يتجمم، فأتخيله فجأة يشرق بشايه حال قراءة هذه الرسالة، وينجو من الاختناق بأعجوبة، ثم يحمل هاتفه الذي وقع وينفض عنه التراب، ويحك عينيه ويزوّي ليرى وهو لا يصدق، ثم يوقن بعد شك طويل، فيضرب كفا بكف ويصفع جبينه مرتين وهو يردد بلهجة شمس الدين : "لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، راكـ خلطتها يا جدكـ كيما بطنك بعد".

ثم يسترجع كل دروس الفقه وخصوصا كتاب الطهارات، ويجتهد ليتعرض لأصعب مسألة واجهته حتى الآن.

ولهذا لم أستفتِ حتى الآن، رغم أن المشكلة لازمتني منذ أول المراهقة، وقرأتُ بدلا عن ذلك فتوى لعالم جليل يجيب فيها على مصاب بدرر البول يشكو من خروج النقاط في الصلاة، فأفتى عليه بأن يستنجي أو يتيمم (إن كان الماء البارد هو سبب ذلك) فما خرج بعد ذلك فليس عليه بملوم، وصلاته تامة لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، فقِستُ على ذلك، وقلتُ ألم يقل الرسول : "استفت قلبك"، فقلبي مقتنع بهذا الحل، وظللتُ مع اقتناعي مهموما مغموما، أواري ذلك بالابتسام والضحك، فيظنّني الناس سعيدا، وداخلي يتلظّى حتى يتفحّم كمدا وكربا وكآبة.

وتفاقم مرضي وكان يقتصر على الصلاة فلا أذكره إلا وقت حضورها، وكان لا يمنعني من صلاة الجماعة أو حضور اللقاءات أو زيارة الأقارب أو عن كل

عمل فيه اجتماع، فأضحى يحرمني من كل هذا، ويجعلني أبغضه وأتخوّفه فصرتُ أتفاداه، فلا أزور أقاربي إلا يوم العيد، ولا أحضر الندوات ولا اللقاءات مهما بلغ موضوعها من أهمية اللهم إلا تحت إلحاح شديد من الأصدقاء، أما صلاة الجماعة فتركتها تقريبا، قياسا على آكل الثوم.

وتفاقُمُ مرضي اللعين وراءه سببان : الكسر والفتيات.

وقد كرهتُ الإناث منذ عرفتُ أن بطونهن لا تنتفخ من تلقاء نفسها، وكان هذا في الرابعة أو الثالثة ابتدائي، ثم صار كُرهي مقتا خلال الثانوية، لأني عرفتُ زميلة هناك تدعى منال، سريعة البديهة، سليطة اللسان، قصيرة، جريئة، والأهم من هذا أنها تكتب، وتكتب بأسلوب يضاهيني إن لم يتفوّق علي، وهذا كان يهيِّج شهوة سفك الحبر عندي، حرب حبر، أسكب فيها بحر حبر بحُبور كحبّار، وكبحّار أصيد محارا وأرصّع به نصوصي فلا يقرأها أحد إلا حار. هكذا كنتُ ألعب باللغة، شكلها وسبكها فأنمِّق وأزوِّق، وكانت هي ساحرة تلعب بما وراء اللغة، فكأنها تأخذ صُهارة مشاعرها فتصبُّها في قوالب الحروف على الورق فيُشع بوهج الحياة، بعبارة أخرى، أتصورها تجلس فتفكر : أريد أن أُشعر قارئي بالحزن الشديد، وتمسُّ الورقة بعصاها السحرية فإذا بالتعاويذ تنساب، ضامنة الأثر المراد، فتغرورق عيناي بعد سماع نصوصها من الانبهار والانكسار وانفجار الغضب.

هذه الزميلة اللعينة التي كنتُ أحب قريحتها وأكره كل ما فيها عدا ذلك، كانت أكبر سبب لاستفحال الداء، والقصة باختصار أني كسرتُ ساقي، وهو

ابتلاء أذاقني وهن الرضيع والعجوز، فكأني أعدتُ عيش بدايتي، واستبقتُ نهايتي في آن واحد.

لا داعي لذكر التفاصيل، مكثتُ في المستشفى ثلاث أيام بعد العملية، أتبول في القوارير وأصيح كالمجنون حين تدهمني نوبات الألم، وأصرخ متوسلا متسولا المسكِّنات حتى أن أمي لو قايضتني المسكّن بالخِطبة آنذاك لقبلت حتى لو كانت حيزبونا في أرذل العمر، ولكنها فوتت الفرصة والحمد لله.

المهم، كما قلتُ لا داعي لأن أثقل عليك بالتفاصيل، بعد العودة للمنزل وبدء ارتياد الثانوية، كنتُ أعرج إليها يوميا ذهابا وإيابا متأبطا العكازات، إذا بي أكتشف فوبيا جديدة، وهي فوبيا التبول على نفسك، وقد اكتشفتُها بمهارتي في الرياضيات والتي يشهد بها الجميع.

لقد قِستُ أكبر مدة لحبس مثانتي، والمسافة نحو المرحاض قسمتُها على سرعتي وأنا أعرجُ، وقد كنتُ أبطأ من حلزون وسلحفاة وكسلان، وأضفتُ بعدها احتمال التعثر والسقوط والزحف كالدودة، فذُعرت للنتيجة، وأدركتُ أني إن لم أهرع للحمّام ما إن أشعر بأدنى رغبة في قضاء حاجتي فسأبلل سراويلي لا محالة، ولا بد أني سأنتحر بعدها، وأنا لا أريد ذلك طبعا، فأصبحت المسألة مسألة قلق وجودي، وصار تواثبي نحو الحمّامات وسيلة لإنقاذ نفسي وروحي. ويراني زملائي أُكثر من الخروج فيشمئز بعضهم ويسخر آخرون ويُشفق آخرون، واللعنة على الأزواج الثلاثة، أرجو أن يكسروا سيقانهم وركبهم وأحواضهم ذات يوم ليدركوا

شعوري حينها. سأزورهم جميعا وأعطي كل واحد قارورة "سعيدة"، وأقول له : "يمكنك شربها واستعمالها بعد إفراغها، وإن شئت أعدت شربها كذلك، إعادة تدوير مثالية، ههه".

صرتُ أخرج للمرحاض في الحصة الواحدة مرتين أو ثلاثا، حتى ضاق بي أساتذتي، ولم ينحصر الأمر على التبول فقط بل على الغازات أيضا، ولا أدري ما السبب ولكن تضاعف سوء حالتي عشر مرات، حتى أني أحيانا كنتُ أتساءل من أين تأتي كل هذه الغازات؟ تكاد من كثرتها تشكل سلاحا بيولوجيا يبيد بلدًا بأسره، وجوّعتُ نفسي بلا جدوى، وكان الجوع يغلبني دائما على النقيض من "فنان الجوع" في قصة كافكا، فأنقضُّ على الطعام بعد توق شديد فأزداد سوءًا، وأدركتُ في أواخر الفصل الثاني أني لن أعود للثانوية بعد امتحان الشهادة، فعزفتُ عن الحضور غير آسف، ولم يسأل عني أحد سوى أستاذي العزيز زكرياء الذي لم يدرك سر مشكلتي، وألجمني الخجل والعار عن إخباره.

ولكن لماذا ذكرتُ منال؟ لأني كنتُ أسمعها تشكو من رائحتي همسا، وهمسها جهر، وقد كانت مثلي معجبة بقريحتي تكره كل ما عدا ذلك فيّ. وأدى سماع شكواها وشكوى زميليّ الدائم إلى انحدار قيمتي بأسرع من الدينار حتى بلغتُ الصفر. والصفر ليست درجة التجمد بل درجة الانتحار.

وأحسستُ بنفسي تحقر وتهون في نظري كل يوم حتى أصبحتُ أمقتها مقتا شديدا، ودعوت ربي أول الأمر، دعوته أن يشفي ساقي الذي تأخر

التئامه، وكنتُ أراني في أحلامي في تلك الفترة أركض في الشوارع وأنا محتار من قدرتي على المشي أصلا، أو أسمع أحدا يهتف لي بذلك : أنتَ تجري؟!

وكنتُ أحب الجري قبل الكسر، خصوصا عبر الهضاب، أشعر حين أفعل ذلك كأني لاعب باركور محترف، أجري بسرعة فائقة بين الأحجار والحصى والأعشاب وأتواثب متعرّجا، مبطئا لحظة مندفعا في التالية، أتحدّى الدّرب أن يُعثرني، كانت تلك هواية تبثُّ فيّ أدرينالينا لذيذا، ولم أعُد أستطيع ممارستها، بل وربما لن أستطيع ذلك مجددا أبدا.

دعوتُ الله أن يشفي بطني أيضا، وأن يطهّر روحي، وأن يرفع مقامي ويُعزّني، وتعجلتُ وقلقتُ وقلتُ لنفسي : لم يجب ربي دعائي، لماذا لم يستجب لي؟

أنا ملعون، أنا أُعاقب، على ماذا؟ ماذا فعلتُ لأستحق هذا؟ ألأني نسيتُ القرآن بعد حفظه وتركتُ مراجعته إهمالا وتقصيرا؟ أم أن ذلك لإثم آخر؟

ويئستُ وقنطتُ وصرتُ كلما دعا لي أحد بالشفاء، خطر لي أن ذلك لن يحدث أبدا، ولم تعدُ تدور بخُلدي سوى طرق الانتحار، وكلما تحركت أمعائي تخيلتُ صورة جثتي الممزقة بوضوح شديد، وكانت كل هذه الزوابع تعصف داخلي ولا تحرك ساكنا خارجي، كصفحة ماء ساكنة تخفي سرب تماسيح، ينظر لها الظبي فيقول : بحيرة هادئة جميلة، ولا يدري الهول تحتها.

وكان تفكيري الدائم بمرضي وبعاري يستدعيه، فكأنه عفريت يحضر حين ذكر اسمه - فولدمورت - وكنتُ أردد لنفسي وأنا أعرج عبر الأروقة قبل الدخول في القسم : لا تفكر في الغازات، لا تفكر في الضراط، لا تفكر في الظربان، لا تفكر في قارورة المياه الغازية ولا القطارات ولا الشاحنات ولا تفكر في الأكسجين حتى، لا تتنفس.

وعرفتُ بعدها أن التفكير في عدم التفكير له نفس التأثير مضاعفا، فاستسلمتُ ولم أعد أقاوم، كأني كنتُ أسبح في بحر حتى خارت قواي فاستلقيتُ عليه ساكنا، وتركتُ موجه يدفعني، ولم أعد أشارك أو أجيب رغم معرفتي بالإجابة، وصرتُ ألهي نفسي بالرسم والكتابة العشوائية، فأرسم دوائرا ومثلثات سرعان ما تتحول إلى رؤوس وجماجم ما إن تحتشد الغيوم، وشعرتُ بنظراتهم وبهمساتهم تزدريني وتحتقرني كأني أفعلها عمدًا، وأدركتُ شعور زميلي عصام الذي كان يتبول لا إراديا في فراشه فكان زملاؤه يسخرون منه، ولم أشارك في ذلك إن لم تخنِّي الذاكرة ولكني سكتتُ فلم أدافع عنه، والساكت عن الحق كفاعله، وقد ضُرب أهل السبت مثالا أبديا على ذلك، وقد كنتُ احتقرته في داخلي لضعفه وسذاجته ولزوجته، فمسخني الله حيوانا وأذاقني مما تجرّع من نبذ واضطهاد.

وكنتُ أعزِّي نفسي بتذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سكب عليه أبو جهل أمعاء الإبل وهو ساجد، ولا أعرف إن كانت نيتي طيبة أم سيئة في ذلك، فتلك الحادثة تحمل في ذهني عدة معان، منها أن هذا أشرف خلق الله ومع ذلك تعرّض لهذه الإهانة البشعة، وتحمّلها ولم يقل في نفسه :

أنا رسول الله فكيف يدع ربي هذا يقع لي؟ وكل ما عانيتُ منه من حرج حتى الآن دون تلك الواقعة.

وأحيانا كان يخطر لي أن تلك الواقعة على قذارتها ونتانتها لم تنقص من قَدره شيئا، فلا زالت سيرته العطرة تُلهم، ولا زال الدين الحنيف الذي أتى به يصنع في القلوب العجب فتحيا وتصنع في الدنيا العجائب. هذا يعني، أن كل أمراضي وأسقامي من غازات وبروستاتا وإسهال وإمساك لن تنقص من قدري قطرة، ولن يذكر الناس سوى ما سطرت يداي، فذاك لا إرادي لا سيطرة لي عليه فكيف أحاسبُ به، وهذا إرادي عصرتُ فيه ذبالة قريحتي وأخلصتُ له نفسي ووقتي فكيف لا أُشكر عليه؟

ولكن مشكلتي أن أمعائي تنسكب من الداخل!

وأمسك عبد الله عن الكتابة وانحنى للخلف على كرسيه وانفجر ضاحكا بجنونٍ ضحكة أفزعت العصافير على الأغصان فوقه، ضحك ساخرا من نفسه وضعفه وعجزه، وقد قرر منذ زمن تليد أن الضحك خير من البكاء، فكان يضحك لكي لا يبكي، ولهذا يحب الكوميديا السوداء، إنها فن الضحك على ما يُبكي.

وشدّ على قلمه واعتصره فانصبّت الآلام على الورق دماء زرقاء كحبر الأخطبوط ودمه.

"وفكرتُ في الانتحار، وقلّبتُ أفضل السُّبل لذلك في ذهني ولم أجرؤ على فعلها، لأني في قرارتي أعرف أن الجحيم ألعن، وأني لو خُيِّرت بينها وبين أن

يغتصبني الناس أجمعون لاخترتُ الثاني، فلولا الجحيم لما كنتُ جالسا أكتب هذه الكلمات. هذه مسكِّنات ألمي.

حياتي في الثانوية أي بين الخامسة عشر والثامنة عشر صارت مقرفة، ذلك القرف الذي يغمرك حين تتراكض حولك الصراصير الكبيرة الجشعة، ولذا تبدّى الموت أشهى. لم أفكر في المختلين نفسيا وعقليا، ولا المشلولين، ولا المسجونين المعذّبين في بقاع الأرض، في سجن غوانتانامو مثلا حيث يجبرون المساجين على قضاء حاجتهم على ملابسهم، ولا في المصابين بالعاهات، ولم أفكر في المغتَصبين، ولا ريب أني أفضِّل أن أعيش حياة بأسرها أطلق فيها الريح أمام الناس كل يوم وأسمعهم يتذمرون ويزدرون همسا أو جهرا على أن أُغتصب لحظة واحدة.

والتفكير في الأسوأ والألعن دائما يردُّني إلى ما ينبغي لي من شكر وامتنان فأرتمي على السجّادة وأنا أحبس دموعي.

ثم إني أدركتُ عبرة أخرى، وهي أن لكل إنسان ابتلاء يناسب شخصيته وظروفه، فهذا بالفقر وذاك بالغنى وآخر بالفقر بعد الغنى، أما أنا فابتلائي العار والإحراج.

وهكذا صليتُ بأستاذي يومها بلا طهارة على الأرجح، وخرجنا.

وبلغتُ سورة الشعراء، ودخلتُ تربصا سريًّا كان شرط الدخول فيه أن تكون قد وصلت للشعراء، فشكرتُ أستاذي حسن طويلا.

عشتُ في ذلك التربص الذي امتدّ شهرا ونصف شبه قدِّيس، لم أكن أستمع للموسيقى ولا أشاهد الأفلام، شهر ونصف لم ألمس خلاله هاتفا ولا حاسوبا ولم أر شاشة، تشعر حينها كأن جاثوما انزاح من على صدرك، فتتلذذ بالحياة من جديد، ويصبح للأزهار لون وعطر، وللشاي نكهة، وللنسيم دغدغة.

كنتُ أقرب للجنة في ذلك التربص من أي وقت مضى، دون احتساب طفولتي "البريئة" طبعا. أستيقظ على وقع الأناشيد "مصطفى... مصطفى"، وأغرق في النوم بشكل طبيعي بلا هاتف يهدهد أهدابي بحلقة أنمي أو فيلم، أو ألعن من ذلك، كرتون أمريكي طافح بالنكات البذيئة.

ننام على السطح تحت النجومِ حاشيةِ القمر، يترامى إلينا شخير البستان، وشخيره صرصور ليل يدندن ونخل يتناجى.

أما بين النوم واليقظة فقرآن يتخلله أكل طيب ولهو بريء. كنتُ حينها أتنفس القرآن، وأشعر به في داخلي يتدفق كالدم في عروقي. يخطر لي مرارا، وأحلم به لماما حتى. لا همّ لنا سوى حفظه ومراجعته. أجتاز الحدود إلى سورة جديدة، أو أعود لأذود عن بلادي النسيان.

وكنتُ عاشقا للعربية، مولعا مغرما شغوفا مدلّها بها. وهي تبدو في أحلى حليِّها وأبهى زينتها في القرآن، فإن كانت الحورية تنزل من الجنة فتسيل قطرة من لعابها في البحر فيستحيل عسلا، فإن عربية القرآن لو هبطت في

قلب صادق يعيها أزهقت ظُلمته وفتتت صلادته، فيلين وينشرح للإسلام، وهذا عمر رضي الله عنه فاسأله.

فلغة القرآن تسحر القاصي والداني، والأعجمي والعربي، يلقُط العاميّ البسيط الصّدف من على شطّه، ويغوص الباحث فيه فيستخرج ما أُخفي له من قرة أعينِ المحار.

فكنت لهذا السبب أرقص وأطرب مع قوافيه وتورياته، وجناسه وطباقه، وتشبيهه واستعارته، وأنوِّع من أساليب إلقائي حين أتلوه حتى يقول لي بعض زملائي : "أأنت تتغنى به؟ هذا حرام".

فأجيب بعناد : "بل أنا أتلذذ بقراءته وأهرب من الرتابة".

وأحيانا أقرأه بالمشاعر، أخاطب الكفّار كأنهم واقفون أمامي بغضب، أو سخرية واستهانة "قل كونوا حجارة أو حديدا"، وأخفض للمؤمنين جناح اللطف والرحمة.

وكانت جلسة الشاي بعد العصر، فنتحلّق ويطلب منا أساتذتنا إلقاء الأناشيد والنكات والأسئلة الثقافية، وكنتُ أحيانا أغني لهم بالإنجليزية ما أحفظه من مقاطع من أغاني إيمينم، وأحذف السباب، فأعجب زملائي ذلك، وأبدى أستاذٌ اسمه مثلي عبد الله استياءه وناقشني باحترام وقال : "غناؤه لابد تافه، وكذلك الممثل الذي سمعتك تتحدث عنه قبل ذلك، ليس لهؤلاء موهبة ولا مهارة، إنما هم في ضلال، يتبعهم السطحي ويقدِّسهم".

وكان حب إيمينم لا زال متجذّرا في قلبي فكنتُ أدافع عنه وأجادل : "لا، إنه مختلف عن البقية فهو عبقري في القافية والتورية ومبدع في الإلقاء، وذاك الممثل تقمص الدور بإتقان حتى لتكاد لا تصدق أنه ممثل وأن له حياة منفصلة وشخصية مختلفة".

فيهز رأسه في غير اقتناع، والحق أنه لو قال أن الممثل والمغني كلاهما موهوبان، وهي نعمة من الله جحداها واستخدماها فيما لا يرضيه، فلم يشكروه، وكان ينبغي لهما أن يستغلاها في نشر الخير والصلاح، لخرستُ ولم أملك له جوابا.

لعبنا ذات مساء ونحن نحسو الشاي لعبة، نكتب أسئلة على أوراق ونطويها ونتبادلها ونجيب عليها، واستغرب أحد المعلمين سؤالي وقد كان : ما هي آيتك المفضلة؟ فقال متعجبا : "ولك آية مفضلة؟"، وكانت لي آيات، أحبها إلي "آية القلم" : "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام..."، والعلماء يفسرونها على أنها تعني سِعة علم الله اللا محدودة، ولم أكن أدري ذلك، فظننتُ أن معناها قدرة الله اللامحدودة على التأليف وبدع الكلمات وإحكامها وتفصيلها في آيات، فقلتُ في سري : لو شاء الله لجعل هذا القرآن في ألف ألف جزء، لا يتكرر فيه موضوع ولا عبارة حتى، ولو شاء لجعل الجزء ألف ألف صفحة، يحمله الرجل فيلهث وتبرز عروقه كأنما يحمل كيس إسمنت، ويحمله الصبي فيسقط وتسقط سُرّته. ظننتُ معناها أن بإمكان الله أن ينزِّل قرآنا قصصيا بحتا، فلا يجرؤ روائي على رفع قلم بعدها، ويكسرونها جميعا ويقعون ساجدين كسحرة فرعون.

وكنتُ ولا زلتُ أرجو أن أذهب للجنة وأسأل الله كل يوم قصة من عنده، وليس هذا عليه بعسير، إنما هي "كن".

وبحتُ برغبتي هذه لأستاذ آخر اسمه مثل صديقي محمد فنظر لي كأني مخبول وقال : "الناس يشتهون الحور وأنت تتغزّل بالكتب؟"، فقلتُ في سرِّي : أعذُره فهو لا يعرف لذة القصص وتشويقها وإثارتها.

ولا زلتُ بعد أن عرفتُ تفسيرها الحقيقي عن فهمي الخاص لم أتزحزح، ولعلها تحتمل المعنيين.

ولكني أُقرُّ لمعلمي محمد، لقد غيرتُ رأيي الآن فيما يخص أمنيتي، أريد حورية تقرأ لي كل ليلة قصة الإله ثم تنفخ على الشمعة.

وشغّل لنا أستاذي "علي" درسا للشيخ باحمد ارفيس في موضوع "الخشوع"، أجل، أستاذي الفاضل الذي علّمني الصلاة، رافقني كذلك خلال حفظي للقرآن، فأصغيتُ لهذا الدرس مع بقية زملائي، وتأثرتُ به أيما تأثر، وشعرتُ بقلبي يتحرك وينفض عنه أكواما من الأردان والأوساخ وغبار الروتين الذي تراكم عليه طيلة سنوات بسبب عادة النّقر، وهناك صنفان من النقر، الخاطف والخفيف، وقد كان دأبي الخفيف، ومغبّته أكبر لأنك بين بين، لا تدري أخشعت أم أسرعت، وهل قُبِلتْ أم رُدّت إليك لعنة ناحسة. واليقين دائما خير من الشك، والمنافق أسوأ من الكافر.

ولا أذكر حرفا مما قال الشيخ في درسه الآن سوى نُكتة عن العَشاء والعِشاء والخجوع، فالتصقت بذهني وصارت شعاري، ولو سألتني الصلاة قبل العشاء لأكلتك.

وأذكر أيضا لقطة فيديو لشخص خلال العمل وخلال الصلاة، يعرض فيها المناطق المتحفزة في الدماغ، وتخميني أن مقصوده أن الخشوع يساوي التركيز، ولذا إليكم اقتراحا عبقريا على شكل إعلان ترويجي :

إذا كنتَ تعاني من الخشوع، فلا تعرف أخشعت أم لا، جئنا لك بالحل الناجع أخي في الله، جهاز لقياس التركيز، تلبسه خلال الصلاة، وتسجل النتيجة، فتعرف نسبة خشوعك تحديدا، ومن ذلك تخمن نسبة القبول، لتقديم الطلبية أرسل لنا على الخاص.

المهم، أني لا أذكر كلام الشيخ ولكن أذكر أثره، وهو أني حتى انتهاء التربص، داومتُ على صلاة غاية في التأني والخشوع، حين أسلِّم لا أجد جواري أحدا، يا إلهي، لقد أتوا على العشاء!

صليتها مرة في المسجد بعد خروجي من ذاك التربص، فقال لي قيِّم المسجد وقد نفد صبر مفاتيحه : "بارك الله فيك يا فتى"، فابتسمتُ وودعته وغادرتُ.

ولكني تركتها، فبعد يوم كنتُ قد بدأتُ أنزلق تدريجيا نحو وحل النقر الخفيف. هي خطوات الشيطان، دعني أخبركم سرا عنها : قد ينتقل بك إبليس في يوم واحد أو ليلة من هوى عابر إلى خطيئة ثم أخرى أكبر منها،

وقد يتدرج معك عبر الأسبوع، وقد يصبر معك الشهور والسنوات، فهو عجوز صبور متمهل عاش منذ الماضي السحيق وسيعيش حتى يشهد نهاية قصة البشرية على هذه الأرض. وقد تعاقبت عليه الأجيال فتعلم وتمرّس وازداد حنكة، ولابد أنه في عصرنا هذا قد تطوّر وأضحى في أخطر أطواره.

وأنا أقع في أحابيله بمعرفتي، ولكن هذا يكون في لحظات الضعف، وهو يربض متربصا حتى تهوي عليك الفتن وتطوّقك الابتلاءات فينقضُّ، ويقف ويجلس ويرقد جوارك ويوسوس لك بلا انقطاع : استمع إلى هذا، شاهد هذا، اشرب هذا، دخن هذا، اشتم هذا، اضرب هذا.

وما يقدمه لك هي مسكِّنات تنسيك ألمك لحظيا، أو تخفف عنه قليلا، وقد لا تفعل ولكنه يوهمك بذلك، "وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين"، فتطيعه ثم تزيد إلى ألمك الندم.

وأحيانا وهذا اعتراف خطير، آمل حقا ألا تقع هذه المذكرة في يد أحد، يوسوس لي فيقول : اعص انتقاما من ربك الذي أوقع بك الابتلاء.

وهي ألعن فكرة مرّت عبر خاطري، وساوس الشيطان تفسير منطقي جيد للخواطر السوداء التي تثب أحيانا من العدم فتصدمك أنت حتى، intrusive thoughts كما يسمونها بالإنجليزية، هي كلمات أحيانا، وصور غالبا، صور عنيفة دموية، أو شهوانية منحرفة، أو... أو...

ومن ذلك أني أحيانا حين أغضب تنبثق في ذهني سبّة مقذعة، فأخشى أن تنزلق إلى لساني، وأقول لنفسي : أنا لا أسب مطلقا فلماذا يخطر لي هذا؟ ولعله عقلي يسجل أشخاصا آخرين يسبّون غاضبين، فيعيد التسجيل حين أشعر بالمثل، ولعله الكبت، لا أدري.

فاحذروا خطوات الشيطان، وترصّدوها، وصدّوها.

ثم توقف عبد الله عن الكتابة مجددا، وقد وصل إلى طريق مسدود، وحسب ما كتبه في مذكرته فوجد ما يربو على الثلاثين صفحة، فهاله كثرتها وأُعجب بنفسه، ونظر للساعة فإذا هي تدنو من المغرب، وقال لنفسه : هل أذهب الآن وأعود غدا؟ ولكن الخواطر لا زالت تتدفق، والذكريات تترقرق، والقلم يتشوق ويتحرّق لحرق الورقة بعبارات ملتهبة، ولكن عمّا أكتب؟ وعدّ على أصابعه : تحدثت عن الموسيقى، وعن الصلاة، وعن القرآن، بقي أن أتحدث عن الكتابة، وعن الحيوانات، وعن القوة، وعن الجهاد.

وتناول قلمه وغمر الصفحة بالقُبلات : "وقصتي مع الكتابة طويلة، وهي من أعظم نعم الله علي، أجعلها في نفس المرتبة مع نعمة الوالدين والأصدقاء الأوفياء، تحت نعمة القرآن والإسلام المباشرة.

أبي حفظه الله كان يسخو علي بالقصص والكتب، وقد كان هو أيضا قارئا نهما، لكنه على عكسي يميل إلى الكتب الدينية والتاريخية ولا يقرأ الروايات أو الكتب الأدبية، ولأنه أحبَّ الكتب وأدرك قيمة العلم، ولأني ابنه البِكر فقد

أغدق علي بها، في زمن لم نر فيه صحنا فضائيا قطُّ، كان لدينا بدلا من ذلك تلفاز محدودب الظهر متصل بهوائي، ولم أكن أشاهد سوى كرتون "سلاحف النينجا"، أترقبه كي لا يفوتني، فإن فات فعُد غدا إن شاء الله.

لهذا وجدتُ ملاذي في القصص، وقد علمتني أمي القراءة فكانت تجلس بجانبي وتمضي وقتا طويلا تصحح نطقي المعوج، ولم أكن أعرف القراءة بلا حركات، ولكن تملكني الفضول لذلك فكنتُ أجلس وفي حضني جريدة أحاول فك طلاسمها، السيد ص.س والسيدة ب.س، ما هذا برب السماء؟ و... يا للهول، أحدهم قتل والديه بمطرقة، أحيانا كانت قراءة الصحف تجلب مثل هذه المفاجآت القاسية.

كانت لدي مخيلة تسعُ الأكوان، ولكن ذاكرة لا تدوم إلا لثوان، ولهذا لم يكن أمامي خيار سوى الكتابة، لأقيِّد هذا الخيال الجامح وأعقله.

كتبتُ من أجل المتعة في طفولتي، فكانت قصصي بريئة طاهرة كالندى والشذا، وكتبتُ من أجل تنفيس الغيظ والغضب في مراهقتي فكانت رواياتي كلها دموية عنيفة تكاد تتفجر منها الدماء مهراقة والأشلاء مقطعة والعظام مهشمة، ولم تكن صفحة منها تخلو من "اللعنة عليك"، "تبا لك"، ثم كتبتُ من أجل النشوة في الثانوية، فكنتُ حين آتي بتورية جديدة أو تشبيه بديع أو قوافٍ متلاحقة كرصاص الرشّاش تسري عبر جسدي رجفة لذيذة، أو ربما كنتُ أتظاهر بذلك، ولكن الكذبة صارت حقيقة، اصطنعتُ لنفسي لذّة مختلقة صدّقتها فأضحت تؤثر حقّا كالبلاسيبو.

ثم كتبتُ لإنقاذ جلدي من الاكتئاب الذي يسلخني، وكنتُ إذا شعرتُ برأسي يكاد يتفجّر بالأفكار السوداوية أفرغتها كلها على الورق، ولا أعرف إن كان ذلك علاجا ناجعا، أم أنه أدّى إلى تفاقم الداء فرسّخ مشاعري السلبية تجاه ذاتي أكثر.

لعل مرض بطني مزمن بسبب أني لا أنفكُّ أذكره فينحفر في ذاكرتي، ربما المشكلة مستمرة لأني مؤمن بدوامها، فأخلق لها دون وعي الظروف والأسباب المساعدة على بقائها.

توقف عبد الله عن الكتابة، وفتح هاتفه، أزاح التنبيهات المزدحمة جانبا، وقفز إلى chat gpt، وطرق بابه فخرج له متثائبا وهو يقول في سره : أنت مجددا؟ أي سؤال غريب تحمل لي اليوم، أم هل ستخون الروايات وتصمُّ أذنيّ بالتغزّل في الأنمي والمانجا ثم تجدد قسمك الأبدي على حب الرواية للمرة الألف؟

سأله عما بذهنه فتلقّى إجابة كاد فكّه يقع لها على الأرض : "ماذا؟"

أعاد القراءة بسرعة مرارا لعل الكتابة تتغير فيطمئن إلى ضعف بصره وتوهُّمه : "في الحقيقة، في الأمعاء توجد شبكة ضخمة من الخلايا العصبية، أكثر مما في الحبل الشوكي حتى، وهذا يمكّنها من تنظيم عملية الهضم بشكل مستقل عن الدماغ، كما أنها تؤثر على الحالة العاطفية للإنسان أيضا من خلال محور الأمعاء - الدماغ، فعند الاكتئاب والقلق يختل توازن هرمونات التوتر، والناقلات العصبية للأمعاء حساسة لذلك،

فتظهر الآثار على الهضم على هيئة إسهال وإمساك وغيره، والعكس بالعكس، إذا كان هناك خلل في بكتيريا الأمعاء النافعة فقد يُسفر ذلك عن اكتئاب حاد لأن الأمعاء تنتج حوالي 90 بالمئة من السيروتونين".

هوت على رأس عبد الله صاعقة هائلة : الآن فهمتُ، كل ما عانيتُ منه في حياتي من قلق وتوتر واكتئاب سببه أنت أيها البطن اللعين، وقبض على بطنه واعتصره وراوده خاطر غريب : هانيبال لكتر، تعال وأخرج أحشائي.

ظل يحدق في الفراغ عدة لحظات، ما الذي سيفعله الآن؟ الشمس الحمراء تصبغ السماء قبل مغادرتها، كامرأة تضع أحمر شفاه تعطي طفلا زارها قبلة الوداع قبل أن يخرج من منزلها يوم العيد، الأوراق الثرثارة مستغرقة في حفيفها، والعصافير المغرورة بصوتها تواصل غنائها، ولكن تغاريدها لا تبعث في قلبه ذرة سرور، نسيم البحر المرح يداعبه ويدغدغه، لكنه كالجثة لا يشعر ولا يستجيب.

حُلّ اللغز، ولكن ما جدوى هذه المعلومة؟ إنها لا تزيده سوى تعاسة، سعادته تحت رحمة مصارينه، إنها لمهزلة، ومن أكون إن حرمتني السعادة كومة أمعاء حقيرة قذرة؟

ورجع لمذكرته فلخّص إجابة chat gpt ثم عاد لموضوعه :

الكتابة... لكل الناس اهتمامات وهوايات ومواهب، تنسيهم هموم الدنيا، وتقضي على أوقات فراغهم ولولاها لمرّت الحياة ثقيلة بطيئة مرّ الجبال. بعض زملائي وأصحابي كان ماهرا في كرة القدم، لا يسدّد إلا وسجّل،

بعضهم كان قويا لا يصارع إلا وغلب، وبعضهم كان متنكِّتا كوميديا لا يتكلم إلا وأضحك، بعضهم كان هجّاء لا يستفزه أحد إلا وقصفه بالشواظ، بعضهم كان يعمل ويكسب، وبعضهم كان يلقي فيسلب القلب ويخلب بصوته وفصاحته، بعضهم يمثّل والآخر ينشد، وبعضهم يرفع الأثقال، وبعضهم بارع في الحساب، أما أنا فكنتُ ضعيفا في كل ما تقدّم، فريق الكرة الذي ألعب معه يخسر، ولستُ بالقوي فلا أتشاجر، ونكاتي مبتذلة سخيفة، ردودي لا تجرح ولا تخدش حتى، كسول لم أكن أعمل، هجرتُ الإلقاء ما إن قاربتُ البلوغ، ولم أقربه طويلا فصرتُ أتخوف من خشبة المسرح وأراها خشبة مشنقة. لا أجيد التمثيل لأني لا أجيد الكذب، وصوتي مزعج كصرير الأبواب فلا طمع لي في الإنشاد ولا التجويد، لا أرفع الأثقال لأن الصالة تكلّف وجيوبي عجفاء، أما الحساب فأُعاني مع العمليات البسيطة التي لا تتجاوز الرقمين أو الرقم الواحد.

حتى الرسم الذي كنتُ أهواه أدركتُ مستواي فيه لما رأيتُ من زملائي من يرسم وجوه الرُّضع، فترى الخدود ممتلئة بالحياة حتى تظن أنك لو لمستَ الورقة فستشعر بالجلد الناعم فعلا، وتحسُّ بطراوتها وتستطيع قرصها بلطف، وربما يبتسم لك الرضيع ويضحك لك فرحا حين تفعل.

بقي لي شيء واحد فقط، قلمي، سيفي ذا، أشقُّ به مشاقّ الحياة، وأحلق حلوق الأعداء، وأقطع ألسن الهازئين، وأضرب به في أصقاع الأرض وأحلّق به في عنان السماء، وأمخر به عباب البحر.

قلمي الذي رفع الله به مقامي في تربص صيفي، لم يكن أحد يدري بي حينها ولا يأبه، حتى كتبتُ قصيدة عن زملائي أتناولهم واحدا واحدا، أهجو وأمدح وأمزح، ثم ألقيتها عليهم في جلسة شاي، فجأة صار الجميع يعرفونني، فجأة صرتُ مثار إعجاب ومحط أنظار، وحفظوا أبياتي رغم افتقارها للوزن، فإذا التقيتُ أحدهم بعد سنوات ردد علي مطلعها ضاحكا، وقال باسما : "أما زلت تكتب الشعر؟"

فأطفق أتحدث عن رواياتي، وينسكب الكلام دون توقف حتى يقول في سره : يا إلهي، ما الذي دفعني إلى فتح هذا الموضوع؟ إنه لا يخرس أبدا.

قلمي لساني، قلمي عقلي، قلمي قلبي، قلمي حقيقتي، قلمي هو مفتاحي.

عرفتُ قوة الكلمة المكتوبة وأدركتها بحق حين كتبتُ هجاء ذات يوم في زميل لي في ذلك التربص اسمه ياسين، والحق أنها غلطة داود ابن الإمام، وهو الملام فقد قال لي ونحن في الحافلة في رحلة : "أنشدني شعرا يا متنبي".

فأوحى لي الشيطان بذاك الهجاء المقذع، فأعجبه أيما إعجاب وهتف : "إنه رائع، اكتبه حتى لا تنساه".

فقلتُ : "لن أفعل"، فتوعدني : "اكتبه وإلا لأخبرنّ ياسين"،

فكتبته خوفا من الفضيحة وخبأت كراستي في حقيبتي، وخرجتُ بعد وصولنا للمخيم لأغتسل وأتوضأ للظهر، فإذا بي أسمع جلبة وأنا في

الحمّام، وإذا بأحدهم يناديني بإلحاح، فهتفت به : صبرا، فسكت الصوت لحظات، ولكن الجلبة لم تخفت.

خرجتُ من الحمّام فرأيت أمام دورة المياه جمعا كبيرا من الطلبة، حوالي عشرين أو أكثر، ومعهم أستاذ، كان صديقان لي في نقار محتدم مع ياسين، رآني الأخير فاندفع صوبي محتقن الوجه وتقدّم معه صديقاي داود ويحي، وكنتُ لا أزال محتارا لا أفهم سبب غضبه، حتى رفع الكراسة وبسطها في وجهي وصاح بي : "أأنت كتبت هذا؟ ما معنى هذا؟ هاه؟ ما معناه؟"، وكان البيت يتهمه بالخنوثة، وغضبه حينذاك شيء أتفّهمه بل وأحترمه، فأنا كنتُ لألكمني لو كنتُ مكانه، لكن البيت مع ذلك حقيقة، وإن لم يردني أن أتّهمه بالخنوثة فعليه أن لا يتصرف كواحد.

لم أملك ما أجيبه به، كنتُ لا أزال مصدوما أحاول فهم كيف اطلّع عليها، وقد خبأتها في حقيبتي ولم أخبر بها أحدا سوى أربعة أو خمسة أشخاص، كلهم أصحابي سوى واحد، خيانة، غدر، من الواشي؟ ثم اعتراني خوف من أن يكون الأستاذ قد اطلّع عليها، سأقع في ورطة، فكرتُ في هذا وفتحتُ فمي لأحاول إقناع هذا المخن... أقصد ياسين المحتدّ بأن يطبق فمه اللّ... أقصد، يخفض صوته، ونغادر معا إلى ركن خفي ونتكلم هناك.

ولكن الأستاذ تقدم بسرعة واختطف الكراسة رغم صراخ ياسين وصياحه، وأعطاها لي وقال : "هاك، أخف كتاباتك ولا تُرها لأحد أبدا".

لا أذكر اسم ذلك الأستاذ، ولكني أذكر أنه كان متحفظا قليل الكلام، وأنه كان يؤرخ أحداث الرحلة في مذكرة له لم يُرها لأحد منا أبدا.

غادرتُ مسرورا حانقا مصدوما في آن واحد، ومزقتُ القصيدة وقذفتُ بها في حوض ماء ليتركني ياسين الذي كان يلاحقني، وبدأتُ أصرخ في صديقيّ : "من الذي أخبره؟ من الذي أخبره؟".

- أقسم لك أني لم أعرف أنه سيفتح حقيبتك ويفتش فيها

وعرفتُ من هذه الحادثة الصغيرة قوة الكلمات والتأثير الهائل الذي تُحدِثه إن لقت تلقيًّا ورواجا، عرفتُ لماذا أدت إحدى قصص الرعب البشعة إلى إغماء بعض قرائها، عرفتُ لماذا دفعت رواية جوتة "آلام فرتز" قارءاتها للانتحار، عرفتُ لماذا جاءت رسالة الإله في كتاب.

توقف عبد الله ونظر نظرة في السماء، فرأى أول نجمة تتألق، كان الليل قد حلّ بسدوله، يا إلهي، هل أعود الآن فأصلي المغرب؟ ولكني لن ألحق في الوقت على أية حال، آه، أجل، سأفرغ صدري كله الآن، وأصليها جمعا فيما بعد، فأنا مسافر وبعيد عن مكان إقامتي الآن.

ما إن رفع عبد الله قلمه مجددا حتى سمع صهيل حصان مرتفع، التفت فرأى حصانا أسودا يبدو هائجا يخبُّ وحيدا بين الأشجار على بُعد أمتار، كان ما زال يرفع عقيرته بالصهيل حين توارى في الغابة الكثيفة، تركه هذا المشهد مضطربا مرتبكا، أين مالكه؟ هل فرّ منه؟

تردد مجددا أيعود للمنزل أم يبقى، ثم أصرّ على المكوث وعاد للكتابة تحت نور القمر الأصلع الذي يخدع الناس بشعره المستعار : "حيوانااات، حيوانات، حيوانات!...ولعت بها في صباي، فكنتُ أطارد القطط لأحضنها وأملِّس على فروها وهي تركض بجنون، تفر مني كأني كلب، وكنتُ أحب كباش العيد، وأطعمها وأسرِّح صوفها وأمسّد على جباهها وأجالسها أكثر من أقاربي، وكنتُ ألعب بمجسمات الحيوانات، وأطالع بنهم موسوعة اشتراها لي أبي عنها، وأدمنتُ مشاهدة قناة ناشيونال جيوغرافيك.

حين يسألونني : ماذا ستكون في المستقبل؟ كنتُ أجيب : أريد أن أربي الحيوانات، فيقولون : تقصد أنك ستصير بيطريا؟ فأجيب : لا، أريد أن أربي الحيوانات في محمية. فيهزون رؤوسهم : يا لبراءة الأطفال وسذاجتهم، كيف ستدرُّ المحمية عليك المال؟ إنه لا يفكر بواقعية وعملية كما نفعل نحن.

أذكر الآن نصا طويلا كتبته في الابتدائية، شرحتُ فيه خطة حياتي، سأصير مستكشفا وأجوب العالم وأكتشف أنواعا جديدة من الحيوان وأكتب عنها موسوعة ثم أبيعها وأحقق أرباحا طائلة.

في مراهقتي رأيتُ لأول مرة على التلفاز تنين كومودو، كان ذلك اكتشافا مثيرا بحق، الاسم يعبق برائحة الأساطير، وشكله الذي يوحي بالعصور الغابرة، وأسلوبه في القتال عن طريق الوقوف والتعانق كمصارعي السومو، ولعابه المسموم الخطير، وسرعته الفائقة، وأدبه في الأكل قبل القتل، وعدم إهداره ولو لعظمة واحدة.

ثم رأيتُ الضباع فشغفتُ بها، أقوى عضة بين الحيوانات البرية، اتحادها وتكالبها على الفرائس والأعداء، عداوتها مع الأسود، وضحكتها المجنونة الأبدية اللائقة بالجوكر.

ولكني فضّلتُ الأسد على كل الحيوانات، رمز الشجاعة والسيادة، ملك الغابة، هجومه على كافة الحيوانات مهما بلغت ضخامة دون خوف، الجواميس، أفراس النهر، وحدان القرن، وحتى الأفيال، لا شيء يسلم، تعاونها في الصيد، وذود الذكور عن الحدود وانقضاضها الساحق على الضباع حين تتنمر على اللبؤات، حتى التهامها لأشبال الأسود الآخرين لم يُنقص من حبي لها.

ثم شاهدتُ وثائقيا حمّله أبي عن رجل يربي الأسود والضباع والفهود والزراف في محمية واسعة، ويدخل معها ويدغدغ أعناقها ويمشط شعورها، ويدلّك ظهورها ضاحكا كأنه أحدها، وهي تلعب معه وتعانقه حتى تكاد تسحقه بثقلها وتبادله حبا بحب، ولا تهاجمه - إلا نادرا - أشعّت عيني غبطة وغيرة، وتمنيتُ أن أكون مثله، حين أصبح كبيرا سأذهب إلى كينيا وأتبنى بضعة أشبال يتيمة وأعود بها وأسكنها داري، وأرضعها وأغير حفاضاتها، حتى تكبر فأصيد الحمير من الصحراء لأطعمها، وأصحبها معي إلى السوق فلا يدنو مني وغد واحد، لا جعفر ولا عبد القادر ولا سيف الدين، أولئك الأوغاد الذين يتنمرون علي، سأطعمهم لأسودي.

تخليتُ عن حلمي ذاك كما تخليتُ عن حلمي بصناعة قنبلة نووية لاحقا، وفتر حبي للحيوانات حتى كاد ينعدم، ولم أعد أربي القطط ولا أحفل

بالكباش في العيد، وحبُّ كل شيء كالحب بين الأزواج يبدأ مضطرما حادّا يكاد يفجر الشمس ويشطر الأرض، ثم يخفت ويخبو حتى يصير كالجمر هادئا دافئا، وربما يشتعل مجددا إن نفخت وقد ينطفئ تماما إلّم تفعل.

أحيانا أتساءل : هل سيخفتُ حبي لكتابة الروايات وقراءتها يوما كما فتر حبي للحيوانات؟ وهل كتّاب اليوم يكتبون عن شغف حقا أم أنهم فقدوا شعلة الحب فلم تعد الكتابة سوى وظيفة رتيبة مجزية، ولو لم يكن وراءها مال وشهرة لاستقالوا؟

ذهبتُ أنا وأبي وأمي وإخوتي إلى البستان مساء يوم من أيام الصيف بغية المبيت هناك، سبحنا ولعبنا وتعشّينا وسهرنا وتسامرنا ثم نمنا،
استيقظتُ في الفجر وبعد صلاة الصبح، شغّلتُ الحاسوب لأشاهد بعض الأنمي، ثم عنّ لي فجأة أن أقوم وأتجول في البستان وأتأمل فيه، فأزحتُ الشاشة ووقفت وتمشيتُ ورحتُ أنظر في أوراق الأشجار فلا أجد صنفين يتطابقان، ورقة العنب ليست مثل ورقة البرتقال، وورقة الليمون غير ورقة التين، وهلمّ جرًّا... كأنها بصمات، ثم رأيتُ العصافير تشدو وتمرح على الأغصان، وهي في الحقيقة تستفتح يوما من العمل، إما تجمع الأغصان لتبني أعشاشها، أو تصيد الدود وتلقط الحبّ لتتغذى وتغذي فراخها. ثم نظرتُ إلى الأرض فهالني عدد الكائنات الصغيرة التي تزحف بين الأعشاب ونحن في غفلة عنها، عناكب، ونمل، وجنادب، وحشرات أخرى لا أعرف أسماءها. ثم لمحتُ شيئا ينطُّ فإذا هو ضفدع، وراقبته وهو يقفز، ثم جاء ضفدع آخر أصغر، وكادا يتقاطعان.

فجأة بدا لي كل هذا معجزا مذهلا، وخطر لي أنه لو كان هذا برنامج حاسوب فلابد أنه سيكون هائلا، ويحتاج لصيانته ملايير البشر أو الفضائيين أو أيا كان.

كم من العمليات الحسابية والفيزيائية تتطلبها حركة هذين الضفدعين فحسب في هذا المحيط الصغير؟ بحيث تصدر عنهما أصوات مختلفة إن احتكا بعشب أو داسا على ورقة، وبحيث يتركان آثارا مختلفة حسب نوع التربة وحالتها، رطبة كانت أو مبتلة أو جافة.

وهذا مثال بسيط فقط، الآن انظر إلى هذا العالم الشاسع، ملايين الأنواع من الكائنات الحية تتعايش على ظهر كرة تدور في الفضاء، كلٌّ لها سلوكاتها وبيئاتها وغذاؤها وطريقة حركتها وتنفسها وعلاقاتها بالكائنات الأخرى، حاول أن تسجل ذلك كله بدقة متناهية في كراس، قد تكتب مليار صفحة، ثم حاول أن تضع في الحساب كل فرد من النوع وليس النوع وحده فحسب، لن تستطيع، ستعجز أمام المهمة الهائلة.

الآن هل تستشعر اسم الله "الرقيب"، واسمه "السميع" و"البصير" و"الحكيم" و"العليم" و"الخبير"، و"المحيط"، وهل تدرك معنى "إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا".

فالله في الحقيقة في كل ثانية يضمن أن يستمر الكون في البقاء والحركة بقوانينه التي يعجز عن إحصاءها البشر، وفي البرمجة يمكن أن نشبه هذا باللوب، هناك ألف مليار لوب في هذا الكون، وهي مستمرة في العمل

بشكل طبيعي، لأنها صممت بإتقان، ولأن هناك من يزودها بالطاقة اللازمة لاستمرارها حتى يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

هذه الحقيقة العظيمة كادت تسقطني من هولها أرضا، وشعرتُ أني ذرة في التريليون، قطرة في المحيط، وسألتُ لنفسي : كيف يجرؤ الإنسان ويتكبر ويتجبر رغم هذه الحقيقة الجليّة الساطعة؟ بل كيف لا يشعر بحقارته وضآلته؟ وأين يجد الملحد الكرامة والعزة والقيمة في عالم بلا رب؟ بدون إله يخبره أنه سخر له ما في السماء وفي الأرض، وأنه خُلق لغاية عظيمة ومصير كبير، لا ليأكل ويتكاثر ويفنى كأن لم يكن فحسب.

في ذلك اليوم كُسرت ساقي، في ذلك اليوم الذي تدبرت فيه وتأملتُ في الكون، وقد سمعتُ قصصا مشابهة لناس تهبط عليهم المصائب حين يجتهدون في العبادة والخشوع، كأنما الله يختبرك حين تمشي على صراطه، هل تثبت أم تنحرف عند أول عقبة؟

فجأة انسلّت من بين الحشائش قطة سوداء كانت تتسلل، وتقدمت نحو عبد الله متثاقلة مثقلة ببطنها، كانت حبلى، توقف عن الكتابة ونظر لها إذ توقفت أمامه تموء كأنما تناديه، ذكّره مرآها بخرافة محلية رواها له أحد أصدقائه، حكى له قائلا : "يروى أن امرأة تعمل قابلة قابلت هرة حبلى بينما هي تمشي في زقاق خالٍ فقالت لها مازحة : "حين يحين يوم وضعك سأولدّ لك".

ومضى على ذلك شهور فنسيت الأمر تماما، حتى فوجئت ذات مساء بعد الغروب بطارق، فتحت فإذا هي عجوز متغضنة الوجه محنية الظهر تتكئ على عكاز، قالت لها بصوت أبحّ صدئ أن هناك امرأة حاملا على وشك الولادة، وهي لا تعرف قابلة سواها، فقالت لها : "لماذا لم تأخذوها للمستوصف؟".

فاستعجلتها العجوز وألحت وأصرت : "لم يكف الوقت، هلمي، هلمي" فخرجت معها متوجسة فلم يسبق لأحد أن استدعاها ليلا، وتبعتها عبر الأزقة الملتوية، وفي انعطافة ما انسلت بسرعة خاطفة عبر باب بيت موارب، فكبحتها المفاجأة وانتابها الخوف من هذه العجوز المريبة، ثم إنها لم تر هذا البيت الصغير قطُّ. لحقتها رغم التردد، وسارت عبر ظلام حالك حتى شعرت به يطوقها ويخنقها كأنه ستائر ثقيلة بعضها خلف بعض، ولكنها واصلت مع ذلك، وفجأة تبدّدت الظلمات وتكشّفت عن عالم آخر.

رأت أمامها أرضا صخرية خالية تنبسط إلى الأفق القصي الذي اصطبغ بوهج ناري يضطرم ويخبو ثم يضطرم من جديد.

على امتداد البصر لم تر حيوانا ولا نباتا، لا شيء سوى الحصى والحجر، وهذا السرير الوثير الذي ارتمى أمامها، وقد استلقت عليه شابة فاحمة الشعر ناصعة البياض حوراء العينين، تتموج حولها الفتنة وتترقرق، هتفت بها العجوز وكانت واقفة إلى جوار المرأة تشد على يدها : "أسرعي".

فجأة انتبهت إلى صياح المرأة وأنينها لألم المخاض الرهيب.

اقتربت بسرعة، وكافحت لتتمالك أعصابها، نبست تسأل العجوز عن هذا المكان العجيب المخيف، فصاحت بها : "لا وقت لهذا الآن، سأشرح لكِ لاحقا".

فصمتت وأدّت عملها، خرج الوليد ملوثا بالدم وماء الرحم، هناك شيء غريب، هذا ليس برضيع، هذا حيوان، هذا جرو كلب.

صرخت ملتاعة وما إن كادت تطلق سيقانها للرياح، حتى تشبثت بها الشابة صائحة وقد تشنج وجهها ألما وفاضت عيناها دمعا : "رجاء".

هتفت العجوز : "كيف تتركين امرأة في خضم المخاض؟"

فقالت متلعثمة وهي تكاد تفقد أعصابها : "إنه كلب، لقد ولدت كلبا".

- إنها زوجة ملك الجان، إن جرؤت ونقضت وعدك فسيقتلك أبشع قتلة".
- جن، أعوذ بالله، أعوذ بالله
- الآن أكملي عملك
- رجاء، رجاء، رجاااء

لم تكتمل الولادة بعدُ، كان ذلك أول ثمانية توائم، انبثق من رحم المرأة قطط وجراء وصغار فئران حتى، كانت أبشع ولادة رأتها على الإطلاق.

ناولت العجوز الأبناء لأمهم، فاحتضنتهم بكل حب، وأخذت تقبّلهم وتلعقهم لتنظفهم.

توقفت لوهلة، ثم نظرت لها بامتنان وابتسمت بوهن وقالت بخفوت : "شكرا لكِ، شكرا لكِ على وفائك".

وعادت للعق صغارها.

قادتها العجوز للمدخل، وناولتها كيسا، وودعتها، فخرجت القابلة من الباب ومشت عبر الطرقات عائدة وهي مذهولة شاردة لا تصدق ما رأت، حتى أنها لم تدرك تأخر الليل رغم الوطاويط التي حامت تحت نور القمر الشاحب، عادت أدراجها مسرعة لتتثبت من أنها لم تكن تهلوس، فلم تجد البيت، لقد تلاشى كأن لم يكن.

لم يبق لها ما يثبت تجربتها الغريبة المخيفة سوى الكيس، أخرجته من جيبها وفتحته فوجدته مليئا بالحصى.

ازدادت ارتباكا وحيرة، وظنت بنفسها الجنون، وضعت إحدى الحصوات في جيبها وألقت بالكيس بإهمال، وحين بلغت المنزل ارتمت على سريرها مباشرة، وقد نالت الصدمة من أعصابها فغرقت في نوم عميق.

استيقظت صباحا وتذكرت الواقعة فارتجفت، ثم دسّت يدها في جيبها فأحست بملمس الحجر، لم يكن حلما إذن، أخرجته فهالها لمعانه، لقد كان ذهبا.

هرعت تركض عبر الشوارع كالمجنونة تمشط عن الكيس فلم تجده، أكلها الندم طيلة عمرها، ولم تستطع كتمان الأمر، فحكت القصة لكل جاراتها وصاحباتها، فشاعت وذاعت ولكن لم يصدق حقيقتها أحد.

ابتسم عبد الله للقطة وقال لها : "حين يحين وضعك تعالي لأولدّك".

لم يبدُ عليها أنها فهمت حرفا، ظلت جالسة في مكانها مسترخية، تموء بين الحين والآخر، فاستدار مجددا لكراسته وحمل قلمه، سمع خشخشة غريبة، التفت فرأى القطة مستلقية على العشب على ظهرها وقد رفعت قوائمها، هل ستلد الآن؟ صرخ فيها وركل بقدمه الأرض، فوثبت هاربة.

يا إلهي، ما كان ذلك؟ ظل شاردا لثوان ثم نفض عنه الأفكار الغريبة، وعاد يكتب... القوة.

مذ صرتُ مراهقا لم أعد مولعا بالرياضة، كان أقراني يعشقون كرة القدم، لعبها ومشاهدتها، وكنتُ في صغري مثلهم ولا أعرف حقا متى توقفتُ عن حبها ولماذا؟ ربما لأني كثيرا ما ضربتُ بها في وجهي حين كنتُ ألعب كحارس مرمى، الله أعلم. المهم، أني لم أعد مولعا بها ولا بغيرها من الرياضات، كنتُ أفضل الانزواء في مكتبتي ومطالعة الكتب والروايات نصف النهار، والكتابة نصفه الآخر. أما حصة الرياضة فكانت أسوأ حصة عندي بعد الفرنسية (لغة الكفار).

لم أكن ألعب حتى بل كنتُ أجلس على طرف الملعب وأشاهد بملل، وأنا ألعن زملائي الذين يسخرون من خرقي، وألعن المدرسة التي ترفض إعفائي، والعرف - بين الطلبة - الذي يرى كره الرياضة أو عدم حبها كما ينبغي ضربا من العته أو الإعاقة البدنية.

الآن أنا حين أتأمل عضلاتي الهزيلة، وصدري المسطّح وبطني الخالي من التضاريس التي يتفاخر بها أبناء أعمامي الصغار، ستة مربعات متساوية متلاصقة متراصة على صفين، وعضلة ساقيّ الضامرة كضرع عجفاء، أودُّ لو رجعتُ بالزمن وصفعتُ نفسي القديمة واختطفتها وأقمتُ لها مخيم تدريب قاسٍ قسري تحت تهديد السلاح.

خمسون تمرين ضغط وإلا ضغطتُ هذا الزناد.

ولكن ماذا يجدي الندم؟ المهم ما نفعله الآن، ألقت نفسي القديمة بكل العبء على نفسي الحالية، ولذا صرتُ كل ليلة أتدرب، بعد بضع تمارين تسخين، أهوي للأرض وأمارس تمارين الضغط حتى تخور ذراعاي وأقع.

ثم أقوم وألاكم الهواء المسكين، أحيانا حين كنتُ أفعل هذا في الإقامة الجامعية، كان يصورني بعض رفاقي ويصنعون منها ميمات مضحكة ولكني لم أهتم، بل كنتُ أستمتع بانطباع الرياضي المقاتل القوي الذي أخذوه ربما عني، وأنا لا أعرف مقدار قوتي تحديدا لأني لا أتشاجر إلا نادرا.

ولكن المشكلة في المداومة، أتدرب يومين ثم أستريح أسبوعين، ثم أتدرب ثلاثة ثم أستريح شهرا، وهكذا.

بدأتُ أداوم بعض الشيء خلال دراستي الجامعية، وكنتُ حين يوجعني بطني أتدرب كالمجنون، لم أعرف حينها أني كنتُ أفعل ذلك لأكتم صوتي الداخلي الذي يطرقني متى اشتمّ رائحة وقت فراغ : هاي، عبد الله، كيف الحال؟ كيف حالك مع الصحة والأمعاء والغازات هههه، أيها القذر، أيها

النتن، أنت لا تسوى شيئا، فائدتك الوحيدة هي ضخ السماد للطحالب البحرية، الأسماك تتمنى موتك، تصلي استسقاء له، لا أحد يلومها على أية حال ف...

مئة تمرين ضغط، اهبط، اهبط، اهبط، لهاثك يتقطع، وعروقك تبرز، وقلبك يكاد يقتلع صدرك ويخرج كالعصفور من ساعة الوقواق.

خمسون لكمة، سددّ بقوة أشد، اضرب الجدران، حطّم عظام قبضتك، أنت تنزف، جيد، هذا وسام رجولة.

كنتُ أستمع إلى موسيقى الراب الأمريكي حين أمارس الرياضة لأنها توقد فيَّ الحماس الذي أحتاجه لكي أصارع الإنهاك، ثم تركتُ الموسيقى التي تحوي سبابا وشتائما، فاستبدلتُ بها فرقة nfx وكانت تشعل فيّ حماسة أكبر، بغناء أنظف نسبيا. ثم بدأتُ بتعلم الفرنسية فأصبحتُ أستمع إلى رابر فرنسي أبهرني بأسلوب إلقائه وأطاح بإيمينم من على العرش.

ذات يوم تحداني صديقي إليسع أن أقوم بتمرين رياضي صعب يُطلق عليه "the forearm plank"، وأصبر عليه لمدة خمس دقائق، وراهنني على خمسمائة دينار أني لن أستطيع، فقلتُ له مبتسما بثقة : "دعني فقط أضع سماعات الأذن ولسوف ترى".

شغلتُ ألبوم راب حماسيا كان قد صدر ليلة الأمس فحسب، واتخذتُ وضعية التمرين، وسرعان ما تركتُ روحي تنساب لترقص على الأنغام والألحان، أغمضتُ عيني وطفقتُ أهز رأسي في طرب يكاد يداني النشوة.

كنتُ قد قررتُ ترك الموسيقى حينها، ولكن الرياضة والكتابة كانتا الاستثناء، فأنا لم أكن أستطيع حتى تخيل الاستغراق فيهما دونها. وربما ما جعل ذلك صعب التصور هو عصابة سوداء كثيفة أغشى بها إبليس بصيرتي، فصارت الموسيقى ضرورة كالماء والطعام، وصرتُ أجوع إليها وأتعطّش حين أصوم منها.

كنتُ لا أنغمس في الكتابة ولا أشعر بتدفق الكلمات كنهر من سدّ يندكُّ إلا حينما أصمُّ أذني المسكينتين بالأغاني وأعزلهما عن ضوضاء العالم الخارجي لأغوص في عوالمي.

قبل بدء الرياضة أسمي الله وخلالها أحمده، كنتُ حين أفعل هذا يخزني ضميري : تسمي وتحمد وأنت تسمع الموسيقى؟ أنت تذكرني بسكّير غبي.

وكنتُ أبرر قائلا : هذه العضلات التي أنمّيها وهذه القوة التي أكتسبها سأستغلها لنصرة الحق والإسلام، وسأعين بها المظلومين المقهورين على الطغاة، سأصير طالوت، والموسيقى مجرد وسيلة ثانوية لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

حين انهال القصف الجائر على غزة من الصهيوني الغاصب الغاشم، صارت تسابيحي خلال تماريني : "سأنصر غزة، سأقاتل اليهود، سأقتل كل صهيوني تقع عليه يدي، وسأموت شهيدا بإذن الله".

كنتُ أهسِّ بهذه الكلمات من خلال اللهاث المتقطع، وحين أكاد أقع من الإعياء أهتف لنفسي : واحدة بعدُ، واحدة بعدُ من أجل غزة وفلسطين،

من أجل المسلمين المستضعفين. كيف ستقاتل في ميدان المعركة وأنت لا تستطيع أن تتحمل ثلاثين تمرين ضغط متتابعا؟

ولكن هذه التمارين برمتها لم تكن علاجا ناجعا لمرضي المزمن البغيض كالأورام البشع كالقروح المتقيحة، لم توقف نزيف روحي من احتقاري لها لأعراض بدنية لا سلطة لها عليها، لم أستطع تقبُّل أن هذا الإحراج خارج نطاق يدي، وزاد الطين بلّة نظرات الاحتقار والإشفاق وسوء ظني الذي يشي لي بما "قد" يُقال في غيبتي، أو يُتهامس به في حضرتي عن غفلة مني.

عدتُ لمنزلي من الجامعة في عطلة دراسية وقد بلغ بي الاكتئاب مبلغه فكأنه قرود ثقيلة تتعلق بي تعلق صغير القرد بأمه فأحملها معي أينما غدوت، وهي تقبع وتضحك طيلة الوقت كالخنازير والضباع.

نزلتُ للقبو في الليل أنزوي فيه بنفسي، وأخذتُ أخاطب الشيطان كاتما صراخي فيخرج همسا ولو أطلقته لأرعب أهلي : " إبليس أيها اللعين، ماذا تريد؟ تريدني أن أكره ذاتي وأصدق أني عديم القيمة فقط لعيب يلازمني، تبا لك، الله أمرك بالسجود لي، تذكر هذا، أنا خير منك، أنا عبدٌ مكرّم وأنت عصيٌّ مذمّم، رجيم لعين محكوم عليك بأسوأ من الإعدام، محكوم عليك بجحيم مقيم، الله أسجد لي الملائكة يا شيطان، الملائكة الكرام العظام، جبريل وإسرافيل وعزرائيل حتى، كلهم ارتموا تحت قدميّ ساجدين، أيوجد تكريم أعظم من هذا؟ ثم تأتي أنت وتحاول أن توهمني بأني حقير، أنت يا أحقر مخلوق في الوجود، سأتغلب عليك في هذه الحرب، وأبصق عليك من الجنة، لن تفوز علي أبدا، لن أتركك تمنعني من العبادة وإعمار هذه الأرض

بقصصي وكلماتي بهذه الموهبة التي منّ الله بها علي، لن أتركك تحرمني الفردوس وأنهار الخمر وبحار الحور".

وهويتُ توًّا على الأرض أقوم بتمارين الضغط بلهفة، كان حديّ الذي رسمته لنفسي فقيّدتها به هو خمسين، وليلتها بلغتُ سبعة وسبعين.

بعد أيام من عودتي للجامعة، ومع المداومة تجاوزتُ المئة - ولكن فعلتها على دفعات - لم أستطع تصديق الأمر، لو قلتَ لنفسي المراهِقة يوما أني سأستطيع تحقيق ذلك لضحكت منك حتى تغرب الشمس أو يطلع الصبح حسب وقت إخبارك لها.

حينها أدركتُ قوة الإيمان، وأن أي مسلم لو أيقن بأنه على الحق، وأن الله يشمله برحمته ويحيطه بعنايته ويمدُّه بعونه واجتهد في العمل بمعتقداته، لحقق كل مستحيل، والدليل، انظر إلى بداية الرسالة كيف انقلب المسلمون من ضعفاء أراذل إلى خلفاء على الجزيرة العربية كاملة ثم إلى الفتوحات وحتى وقتنا هذا، من أبي بكر وعمر وخالد والقعقاع وأبي عبيدة، إلى إسماعيل هنية ويحي السنوار، ويحي عياش، ومحمد الضيف وأبي عبيدة.

أما أنا فأكتفي بنفسي برهانا أسطع من الشمس، إن حققتُ شيئا كان غير متصور بالإيمان، فما الذي يمنعني من تحقيق أي شيء آخر؟

هذه هي القوة الحقة، القوة الوحيدة إطلاقا تأتي من الله، يمدها للمؤمنين، ويلعن بها الطغاة أيضا ليزدادوا إثما على إثم، ويزداد بهم

الصابرون حسنات، وددتُ لو توفيتُ حينها في ذروة إيماني وتقواي، كنتُ قد كتبتُ الوصية حتى، كتبتُ فيها عن تركي لعاداتي السيئة بعد جهاد فلم أعد أستمع إلا للشعر والأناشيد؛ "قم وحيدا" أحببتها مجددا بعد فراقٍ منذ انقضى أول عهدي بالصلاة، حين اكتشفتها فدفعتني إلى قيام الليل، "لا تقلها" أحد أكثر الأناشيد حزنا وحرقة، تبعث الرعدة في نفسي كلما سمعتها، ولكني كنتُ أفضِّل صوت ماهر زين على سائر المنشدين بالعربية، وكنتُ أستمع كذلك إلى الأناشيد الإنجليزية، وهذه أنتجها مغنو راب بعدما أسلموا، فتركوا الموسيقى واحتفظوا بأسلوب الإلقاء الناري، مثل مسلم بلال، وخالد صديقي.

وهجرتُ الأفلام والمسلسلات والأنمي كليا لكيلا تقع عيني على عُري أبدا، وقد اعترفتُ لنفسي بأن هذه المشاهد موضوعة هناك عمدا لتُثيرك وتحثّك على مواصلة مشاهدتها وقد تقذف بك إلى الإباحية الصِّرفة، والمخرج ليس بريئا مطلقا، فهو مدرك تماما لما يفعله، وهو يعبر عما يؤمن به، وعقيدته تقول أن الإباحية مباحة، ولذا فهو يروج لها.

وكتبتُ في وصيتي عن مسامحتي لمن ظلمني وكانوا كثرا في الواقع، لأني كنتُ ضعيفا، وكلما ضعفتَ ازداد عدد من يستطيعون إذلالك وقهرك. وطلبتُ العفو والصفح ممن ظلمتهم، وكانوا قلة - أو هكذا أتصور - زملاء سخرتُ منهم أو ضربتهم في مشاجرة ربما، وسجّلتُ ديوني كذلك.

وبقي شيء وحيد ينغص علي وهو صلاتي المشكوك في طهارتها، فأعلنتُ نيتي في الاستفتاء والقضاء إن لزم الأمر.

فعلتُ كل هذا جالسا في حافلة في طريقي للجامعة ذات صباح، بعدما ركنت نزلتُ وأسرعتُ قاطعا الطريق، فكادت ترطمني سيارة، سمعتُ صوت فرامل تكبح بحدة حتى لكأنه صراخ شخص تجذبه من شعره حتى تكاد تقتلعه.

اعتذرتُ للسائق وجريتُ نحو الجامعة وأنا أفكر : يا للهول، كدتُ أموت، كانت تلك لتكون وصيتي الأخيرة حقا.

وددتُ لو توفيتُ حينها ولكن..."

قطع عليه إلهامه المشع المتفجر خشخشة أعشاب[12] وتكسر أغصان وتحطم أوراق جافة، شيء ما يقترب، رفع الهاتف وسدد الفلاش إلى الصوت فإذا هي القطة.

القطة السوداء قد رجعت. دنت منه وهي تثني ذيلها وتأرجحه يمنة ويسرة برشاقة، بدت مختلفة لكنه لم يستطع تحديد الاختلاف بالضبط.

تمسّحت بساقه، فابتسم ومدّ يده ليداعب ذقنها، فأدرك فجأة أنها تحمل بفمها شيئا، ظنه صيدا، عصفورا صغيرا أو فأرا، ولكنها أفلتته لحظتها فوقع في راحته، كان كيسا صغيرا مغلقا بخيط.

فيما شرع هو مستغربا بفك عقدته - استغرق ذلك وقتا لأنه الأسوأ في حلّ العقد وعادة ما يتبع نهج الطغاة بقطع العقدة مباشرة فيمزق الأكياس البلاستيكية مباشرة ولكن هذا ليس كيسا بلاستيكيا - طافت القطة حول

---

[12] يا للمفارقة فقد قطع انغماسي أيضا - أنا الكاتب - بحيث أجبرني على التوقف نداءٌ، نداءٌ بلا صوت، نداء الطبيعة!

ساقيه وهي تحك جسدها بهما كأنها تتبرّك به ولا تزال تحرك ذيلها بطريقة لعوب، ثم انطلقت تجري مبتعدة فهتف : "مهلا".

ولكنها لم تعد، فعاد للعقدة وحلّها، وأنار الكيس بالفلاش، وما إن فعل حتى اتسعت عيناه لأقصاهما فيما توهج الحجر أمامه، أصفر يلمع كقبس من شمس، إنه ذهب ولا ريب.

رمى ببصره حيث توارت القطة، وتدافعت الخواطر في عقله وتزاحمت حتى لم يعرف بأيها يبدأ التقليب، من أين لهذه القطة بهذا الكيس؟ ولماذا ناولته إياه وذهبت؟ هذا سلوك غير معتاد فالقطط غير الكلاب التي تحب اللعب بإحضار الأشياء لأصحابها، القطط أشبه بالأطفال أنانية تستأثر بألعابها ولا تسمح لأحد بلمسها.

ثم تذكر الخرافة المحلية فشهق، يا إلهي، هل تحققت الأسطورة؟ ولكني لم أولِّدها؟ أنا لا أعرف كيف أصلا، وهي لم تدعُني لذلك، ثم تذكر انبطاحها على ظهرها ورفعها لقوائمها، لقد كانت دعوة صريحة، لكنه لم يلبِّ فلماذا كافأته؟

وجد فجأة الفرق بين القطة السوداء الأولى والتي جاءته الآن، الأولى كان بطنها متهدلا متدليا حتى كادت تسحبه على الأرض، والثانية نحيلة رشيقة، وإن كانتا القطة نفسها فهناك تفسير واحد فقط لهذا التغير، لقد أنجبت.

تركت مواليدها الصغار لتجلب لي كيسا؟ حك رأسه في حيرة، ونظر للكيس كأنه من عالم آخر، عالم الجن والعفاريت. أطبق عينيه وفتحهما فوجده لا

زال هناك، قرص نفسه فلم يستيقظ، أدار ظهره له وانحنى على كراسته وهو يرسم بعشوائية معطيا له المهلة الكافية ليختفي عن ناظره ويعود سرابا أو يعود لعالمه ويتركه بسلام، لكن الكيس الوقح ظل هناك.

فقام من الطاولة ليغادر، ولكن فجأة استبد به طمع شديد، أشدُّ مما يشعر به حين يرى قطعة نقدية مرمية بسبعمئة وستة وخمسين مرة - لماذا هذا الرقم تحديدا؟ لا أدري - اختطف الكيس كالشاهين، ودسّه في جيبه بخفة كنشّال محترف، والتفت يمينا ويسارا وقد أشعل الفلاش، ربما هناك أحد يختبر أمانته؟ ولكن لم تتعال ضحكة ولا هتاف رغم أنه أطال الانتظار، لم يسمع سوى أصوات الغابة الليلية، الصراصير والبوم يتنافسون في الغناء، وحفيف الأوراق شخيرها اللطيف.

كم يا ترى سأنال مقابله؟ عشرون مليون؟ خمسون مليون؟ أو ربما أكثر، حتى لو كان أقل من عشرين، خمسة عشر ستكفيني.

سأحل مشاكلي كلها، وبدأ يعدُّ على أصابعه بلهفة : سأشتري حاسوبا جديدا مكان حاسوبي الخرف الذي لا ينفك يُغمى عليه، سأشترك في صالة رياضة وأنفخ عضلات هذا الجسد الهزيل كبزة سباحة فارغة من الهواء، سأتعلم فنا من فنون القتال، الجيجيتسو أو الملاكمة أو الجيدو، وربما أسافر للخارج حتى وأواصل تعلمي هناك حيث لا يجيب زملاءك حين يُسألون عن هوايتهم المفضلة ب : "النوم"، أو يُجيب سائر القسم تقريبا حين يُسألون لم دخلت هذا التخصص ب : "أُجبرت عليه، لقد كان التخصص الوحيد الذي يسمح به معدلي"، وحيث لا يجلس الأساتذة في

قاعة المحاضرة على كرسي ويقرؤون علينا أوراق الدرس بصوت رتيب يبعث على الانتحار ثم تنتهي الحصة هكذا، كأنهم يدرّسون عميانا.

وربما أكتب وأنشر هناك أيضا فأحظى بالتقدير والعالمية التي أستحقها، ويتهافت علي المعجبون.

سأتمكن من دفع تكاليف علاج أبي وأمي، وآخذهم للسفر في الصيف، إلى مدينة ساحلية خلابة.

أشرق المستقبل أمامه وأزهر وتلألأت الأحلام أمامه كالندى على الورد. سرح بخياله وعلت عينيه نظرة حالمة، حاسوب، دراجة نارية، رحلة، وربما يذوق القريدس لأول مرة في حياته، سال لعابه للفكرة.

لكنه ودّع تلك الأحلام على أمل لقاء قريب، الوقت تأخر، والليل دهم وأبهم وأدهم، همّ بإكمال مذكرته شاعرا كمن انبطح على حائط المسبح بعد أن شبع عوما.

حاول التركيز على كتابته متناسيا ملمس وثقل حجر الذهب المسترخي في جيبه، "بهذه القوة التي استخلصتها من الإيمان وقفتُ في الصف الأول من المظاهرات الداعمة لغزة وفلسطين، وردّدتُ الهتافات خلف الهاتف الذي حمل البوق وأخذ يجأر فيه، بل وتناولتُ البوق منه أيضا وصرختُ فيه فرددوا ورائي، لو قلتَ لي قبل ذلك أني سأفعل شيئا كهذا مستقبلا لكذّبتك ونعتك ب"العرّاف الخرف" أو "مسافر الزمن المصاب بعمى الوجوه أو الزهايمر"، فأنا انطوائي أكره الحشود وأرهب الاجتماعات.

لم أردد الهتافات فحسب بل ألقيتُ كلمة عند نهاية كل مظاهرة، أقف في رأس الدائرة وأنظر في وجوه الطلبة الواقفين على يميني ويساري كجناحيّ، وأصرخ في الميكروفون متكلما بالفصحى بطلاقة أنا الذي لم يصعد على المصطبة منذ السنة الرابعة ابتدائي، فتتفجر الكلمات من بين شفتي كطلقات رشّاش بلا روية ولا تأمل، نابعة من قلب آسف حانق لتطاير أشلاء إخوانه في السماء والمرأة تصور وتنشج وتدعو الله بصوت يمزق نياط القلوب، بينما يأخذ عزرائيل أرواحهم الطاهرة في السماء كالنبي إدريس عليه السلام، ويحمل كلماتي صوت يغذيه الغيظ الكظيم المحتقن أسفل حنجرتي فيخرج صراخا يكاد لا يكون آدميا، كأنما هو زمجرة أو عواء.

يقول : "نطالب الحكومة بإرسال الجيوش لنصرة فلسطين فمن الشباب من دمه حار لما يحدث لإخوانه في فلسطين، وهم مستعدون للموت في سبيل القضية.."

كنتُ أريد حينها أن تُسجّل هذه الكلمة في فيديو وتُنشر، فأحرّك بها العزائم وأفجّر بها الشارع، وليسجنوني إن شاؤوا بعدها، لن أكترث مقدار ذرة لأني قلتُ الحق، ولكنهم لم يصوروها للأسف، ربما لأنها كانت أعنف مما ينبغي وستُتخذ ذريعة لإيقاف المظاهرات.

وقد رأيتُ قبلها فيديوهات لجزائريين في بيوتهم أمام الكاميرا يبكون ويناشدون تبون أن يفعل شيئا، فشعرتُ بأنهم مثيرون للشفقة، وإن كنتُ أشاركهم مواقفهم ومشاعرهم، ولكن الأولى عندي أن تُقال هذه الكلمات

على العلن في الشوارع حتى يقولوا : "هذا تشجع وفعل ذلك، وبإمكاني أيضا أن أفعل مثله".

أردتُ أن أحطّم حاجز الخوف والتردد الذي يجعل الجميع ينظرون لبعضهم بعضا، من سيتقدم أولا، وينادي كل واحد منهم : "هيا تحركوا اخرجوا جاهدوا"، وهو قاعد لا يتحرك.

إن ظللنا كلنا جالسين خلف الشاشات نكتب على الفيسبوك "النفير، النفير"، فمن سيستجيب؟ أتتوقع أن يقوم المنادى قبل الداعي؟ وهل يصلي الناس قبل الإمام؟

كنتُ حينها مستعدا للموت، أفكر في طريقة لجمع السلاح والرفاق والتحرك، لم يعد لمستقبلي الدراسي ولا المهني اعتبار، كيف أهنأ بالعيش وإخواني في القبور يدفنون صباحا مساء؟

كنتُ أفكر، يجب إيقاف كل شيء، أوقفوا العمل، وأوقفوا التعليم، واقطعوا التسلية والترفيه، حتى لا يبقى أمام الناس سوى مواجهة الواقع الدامي، فيخرجوا للحرب.

ورحتُ أتمنى وأتحسر لو أني كنتُ هاكر فسأقطع الشبكة التي علق فيها الشباب وأحررهم من العنكبوت الذي يمتصهم، ويخدّرهم بسمه، بالأغاني والأفلام والأنمي والألعاب.

لو كان أخوك في المستشفى مريضا بالسرطان على شفا الموت، فهل تستطيب الطعام أو تستمتع بالأفلام وتتسلى بالألعاب؟

هكذا كنتُ أفكر، ولكن حالا لا يدوم، حتى الإيمان بعد توهج وتأجج يخبو حتى توشك أن تذوي جذوته، وهذا ما يدعى بالفترات.

والفترات تجلب معها الشهوات".

وتوقف عبد الله عن الكتابة، وأخرج الحجر ليتأكد من لمعانه مجددا، إنه حقا ذهب، أعاده لجيبه، ونظر لكلمة "الشهوات" على الورقة، وفكر : الشهوات شيء طبيعي، ولكن أن تخضع لها وتنقاد هو الأمر غير السوي، وهذا ليس بالأمر السهل بل هو صراع وجهاد، وقد زاد الأمر صعوبة الآن، ثم خطر له ما سيكتب فحمل القلم :

الشهوة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر".

أنا موقن من أني أعيش في هذا الزمان، الحرام في يدك حرفيا، تجده فور أن تغلبك نفسك، بضغطة زر، حرك إصبعك فحسب.

أنا أعني الهاتف، هاتفي اللعين الذي أتمنى أحيانا لو أهشّمه على الأرض، دعوني أسرد لكم يومية من يومياتي :

الأحد : درستُ بضع ساعات، ثم دخلتُ موقعا لمشاهدة الأفلام لأروّح عن نفسي، فوجدته حين تضغط للمرة الأولى ينقلك آنيا بسرعة خاطفة إلى تبويبة جانبية فيها إعلان يسطع بغتة كأن أحدهم وأنت في ظلام أنار مصباح فلاش في عينك مباشرة، عورة! غضضتُ الطرف ثم فتحتهما لأغلق

الصفحة بسرعة وأعود للرئيسية، بحثتُ عن الفيلم ثم ضغطتُ عليه ليبدأ فإذا بي أُقذف إلى العاهرة مجددا.

تبا لهذا الموقع، خرجتُ منه ساخطا ودخلتُ موقعا لقراءة مجلة مصورة، في أعلى الصفحة إعلان للعبة جنسية، وفي آخرها إعلان لموقع تشات 18+، وحتى إن تجاوزت هذين حين تصل إلى منتصف الصفحة تنبثق رسالة تُغريك لموقع تشات آخر، وعليها... عورة!

خرجتُ من ذاك الموقع أيضا غاضبا ضائق الصدر وأنا أنفخ ضيقا، وعدتُ للدراسة.

في المساء، دخلتُ تطبيق مصحف لأقرأ القرآن، وصرختُ مصدوما : "في القرآن أيها الأوغاد؟!"

كان إعلان موقع تشات مع فتيات، من يدير هذا التطبيق؟ كيف سمح بهذا؟ إنها القيامة، بسط الشيطان ظله على كل شيء، ما إن تفتح بابا أو نافذة حتى يثب لك مناديا على رذائله.

لهذا صرتُ أتعاطف مع المدمنين على الإباحية وأشفق عليهم، لا تلق باللوم كله عليهم، بل لُم تخلفنا الذي جعلنا عاجزين عن صدّ فيضان القذارة هذا، نراه يغرق أبناءنا ولا نستطيع حتى حظر بضعة مواقع أو إنشاء تطبيقات آمنة للتسلية، أو فرض سياسات على الغرب تمنعه من حشر صور أعضائه التناسلية في وجوهنا، لا أعرف حقا كيف لا يُعدُّ هذا تحرشا في قانونهم و...

- واش راك تكتب؟

همس صوت من خلفه، من فوق كتفه تماما، فهوى عليه الهلع بغتة، وقُذف به خارج الانغماسة. استدار بسرعة خاطفة فوجد نفسه وجها لوجه مع رأس كبير كرتوني فيما انحنى صاحبه وقد وضع يديه على ركبتيه، استقام واقفا فبدا أطول منه، هذا الوجه، إنه ميكي ماوس.

لم يأخذ لحظة حتى ليستوعب ما يراه، بل وثب فورا وانطلق جاريا فتعثر بإحدى قوائم الطاولة، ولكنه تذكر فجأة، فعاد راكضا بأقصى سرعته إليها، مدّ ميكي ماوس ذراعه وقال : "خويا اسمح لي"

اختطف الهاتف والكراسة والحقيبة وقفز بعيدا عن اليد الممتدة كأنها أفعى، وركض مطلقا ساقيه للريح دونما تفكير[13]، فجأة أدرك الظلام الدامس الذي يلفُّ الغابة، لقد نسي نفسه تماما في غمرة الكتابة والذكريات. ما كان عليه أن يبقى حتى هذا الوقت المتأخر، كان يسهر مع رفاقه هنا أحيانا، لكنه ليس مع أي أحد الآن، وهذا يجعله فريسة سائغة لأي لص أو مجرم قد يلمحه مثل ذلك... من هو؟ لابد أنه... آه، الوقت متأخر حقا... أهو سارق؟... سألني "واش راك تكتب؟"

تسارعت الأفكار في عقله فيما راح يتفادى الأشجار والأغصان، تعثر بضع مرات في الجذور والأحجار والحفر، ولكنه استمر في جريه مع ذلك.

---

[13] كتبتُ هذا المقطع بسرعة شديدة بخط متعرج ركيك وقلبي ينبض بشدة كأني عبد الله.

توقف ونظر خلفه مسددا الفلاش، لم ير أحدا، لم يسمع خطوًا، على ما يبدو أن الرجل لم يحاول اللحاق به لحسن الحظ، لو كان هذا فيلم رعب لخرج له من آخر مكان يتوقعه، من الزاوية التي لا ينظر إليها.

خطر له هذا فراح يدور حول نفسه، ويلُف عنقه بعنف، ثم واصل ركضه كالمجنون، حتى وصل إلى طريق السيارات، لا يدري كيف طلب لاهثا سيارة أجرة، ولا كيف ركبها، قال له السائق وهو يقود : "أنت تلهث".

فقال له : "أحدهم أفزعني بينما أنا جالس، لقد هربتُ منه".

تفاجئ الرجل وقال : "حقا؟ إنه الليل، البقاء وحدك في هذا الوقت في هذه الغابة خطر، لا تدري من قد يأتي".

فرد عليه : "أجل، أجل، لقد أخطأتُ بالبقاء حتى هذا الوقت، هل عندك قارورة ماء؟"

فمد السائق يده للوراء يفتش عن قارورة الماء دون أن يتوقف عن القيادة، فجأة خطر لعبد الله هاجس مرعب، لقطة تذكرها من فيلم كوري شاهده، قاتل متسلسل يسوق حافلة نقل تلاميذ ويُقِلُّ بها الذين ينتظرون وحدهم ليلا في مواقف الحافلات المعزولة، يسألهم أولا عن وجهتهم ثم يقول لهم : "آه، إنك محظوظ، فهي في طريقي، اركب، اركب".

ثم حين يصل لمنطقة خالية يمدُّ يده إلى المقعد الخلفي ويسحب مطرقة ويهشم بها وجوههم. ارتعد عبد الله هلعا من الذكرى ولكنه طردها عن باله سريعا، فجأة سحب السائق مطرقة صغيرة، فانفتح فم عبد الله فاغرا

وانتفض جسده كاملا، لم يلحظه السائق أو ربما فطن وتغافل، تبا، سيقتلني، علي أن أدافع عن نفسي، كوّر قبضته بشدة. قال له السائق : "افتح باب الصندوق من فضلك".

كان يقود بيد ويمسك المطرقة بالأخرى.

- ماذا؟
- باب الصندوق، لقد نسيتُ أن أرجع هذه المطرقة

كان على شفير الانهيار، لكنه حافظ على رباطة جأشه، وضغط على الزر، فانفتح الصندوق، ألقى السائق المطرقة داخله، فأحدثت صوتا مدويا قفز له قلبه.

مدّ السائق يده ثانية يمشّط، همس ضاحكا : "ماذا أيضا؟"

سحب هذه المرة سكينا ذا حافة منزلقة، فتصاعد هلع عبد الله حتى كاد يفتح الباب ويثب خارجا، تعرّق بغزارة، وبلع ريقه، وأحسّ بعضلاته مشدودة كالوتر، إنه الليل، وأنا في طريق خال مع رجل أضخم مني جثة، إن كان قاتلا فأنا جثة، وإن كان لصا فوداعا لمالي.. مهلا، قطعة الذهب، سيسرقها مني، سيسرق كل آمالي وأحلامي، سينهب مستقبلي الجميل.

يجب أن أدافع عن نفسي، يجب، سألكمه وأركله وأخنقه.

وبدأ عقله يصور ألف سيناريو لمشهد الأكشن القادم.

قال له السائق وهو يدور عبر منعطف ثم ينطلق مسرعا : "افتحه مجددا".

وألقى السكين فيه فأصدر نفس الدويّ الرهيب الذي كاد يوقف نبض قلبه، مدّ يده يبحث ثالثة، ماذا سيُخرج هذه المرة؟ كان عبد الله على وشك إغلاق الصندوق حين بقبقت فقاعة سامة في عقله فجأة، خذ السكين واطعنه به حتى الموت فتزيل تهديده نهائيا، إنه يستمتع بالعبث بأعصابك.

أستغفر الله. محا الصورة الدموية من ذهنه بعنف، كاد يصرخ به : "انس الأمر، فقط قُد بأسرع ما يمكنك وأوصلني إلى إقامتي الآمنة، حيث سأهرع إلى فراشي مباشرة وأنام لأنسى كل هذه الغرائب التي احتشدت لي في هذه الليلة". تذكر فجأة أنه لم يُصلّ بعدُ، ثم تذكر بعدها أنه كان يدون مذكراته قبل ما يقِلُّ عن نصف ساعة فكاد يضحك، لقد نساها تماما في خضِمّ هذه الأحداث المتلاحقة.

أخيرا سحب السائق يده مجددا، فسمع عبد الله اهتزاز الماء في القارورة، هتف السائق بظفر : "وأخيرا، هاك".

تناولها شاكرا وجرع بقوة، فجأة أدرك أن حلقه مكشوف، فخفض عنقه، تبا، أنا أخاف وأرتاب أكثر من اللازم، وضع القارورة تحت المقعد فيما بدأ السائق يتحدث : "الليل خطر ومخيف، خصوصا لنا نحن السائقين، لو كنتَ مع جماعة لما أوصلتك، قبل أسبوع فقط ركب معي شابان وطلبا مني إيصالهم إلى غابة كهذه، ثم حين وصلنا هربوا دون أن يدفعوا، فلحقتُ أحدهم، ولكنه كان سريعا مراوغا فأفلت مني، عدتُ إلى سيارتي

فوجدتُ باب السائق مفتوحا، ولم أجد هاتفي، لقد عاد الثاني وسرقه، كانت خطة خبيثة، وحتى الآن لم أشتر هاتفا، أنا أستعمل هذا".

وأخرج من جيبه هاتف نوكيا قديما، وواصل : "أنا أبحث حاليا عن هاتف بسعر مناسب، كان هاتفي السابق أيفون، اشتريته بعشرة ملايين، يا لها من خسارة".

قال له عبد الله مصدوما : "قطع الله أيدي السارقين، لقد كثروا حقا في هذه الأيام"، ثم أردف : "أنا أيضا أريد شراء هاتف جديد"، ثم لوّح بهاتفه وقال : "هذا اشتريته خلال سنتي الثانية في الثانوي، وقد أخذ يزعجني ببطئه حتى أنه يتعطّل تماما أحيانا"

بادره السائق : "بكم تبيعه لي؟"، ففوجئ عبد الله : "لستُ أبيعه حاليا، ولكني اشتريته بمليونين فأظن أن ثمنه سيكون مليونا وثمانمئة".

نخر السائق وقال : "هل أنت جاد؟ لن تجد أحدا أبدا يشتريه بذاك السعر، فقد هبطت قيمته"، فأصر عبد الله على عدم بيعه.

اقتربوا من الوجهة وكادوا يبلغونها، ومروا بالشوارع التي صدّعها بخطواته، فكتم الصعداء، أخرج السائق بغتة سيجارة فأشعل بذلك جدالا حادًّا في ذات عبد الله، ضميره يقول : "انهه عن المنكر، انصحه، قل له أن التدخين حرام، وأنه يضر بالصحة ويسبب السرطان".

فردّت نفسه : "كلا، لا تقل له ذلك، أنت مجرد راكب وهو حر فيما يفعل، ثم أتظنّه لا يعرف أن التدخين مضر؟ التحذير حرفيًّا مكتوب على العلبة،

وهو ليس بأعمى وعلى الأرجح ليس بأميٍّ كذلك، إنه يدخن عن وعي وقصد".

ضميره يجيب : "وماذا يضير أن تذكِّره؟ إن الذكرى تنفع المؤمنين"

قالت نفسه : "إياك، قد يكون خشنا فظا ويردُّ عليك بأقذع السباب"

فقال ضميره : "أتخاف قول الحق؟"

كم من مرة استمع لهذين الصوتين يتناقران داخله، وهو يُجذب بينهما يمنة ويسرة، أحيانا يتبع هذا وأحيانا ذاك، أحدهما فطرة والآخر نفس أمارة، أحدهما يدعو للجنة والآخر للنار. ولكن الثاني ماكر مقنع ومغرٍ، جلُّ ما يأمر به هيّن يسيرٌ، بل وممتع مسلٍّ أحيانا.

على كلٍّ، فتح السائق النافذتين فلم تضايقه رائحة الدخان كثيرا، وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه أمام باب الإقامة، ألحّ عليه ضميره بشدة، هيا، أخبره قبل أن يفوت الأوان، فيما همس الصوت الآخر باسترخاء : "ادفع واخرج".

دفع عبد الله المال، فقال له السائق : "ليس لدي فكة، أرجوك اسمح لي فيها، فأنا في ضيق من العيش".

فانتهز عبد الله لحظة ضعفه كقط كان يتحين الفرصة لصيد عصفور وقال له : "خويا تاخذ نصيحة، اخطيك من الدخان توفر بزاف دراهم".

فبُهت السائق لحظة لكنه قال رافعا يده في استسلام : "ربي يهدينا".

وفتح عبد الله الباب وخرج ودعوة السائق له بالخير تلحقه.

أخبر رفاقه في الإقامة بقصته فأغرقوا في الضحك، وراود أحدهم الفضول للاطلاع على ما كتب، فرفض رفضا قاطعا أن يريه، وهتف : "إنها مذكراتي الخاصة، لن أريها لأحد"

فما زاد رفيقه إلا إلحاحا.

بعد أسابيع كان في منزله في مسقط رأسه. انتهت السنة الدراسية وحان الصيف، فحمله الحنين على ظهره وقفل به راجعا إلى الديار. عبد الله كان يرى الصيف كنزا، يحاول اغتنام كل لحظة فيه لتطوير وتنمية مهاراته ومداركه في معتكفه المعزول بعيدا عن التشويش والتشتت اللذان تسببهما دراسته وعمله خلال السنة.

كان جالسا إلى مكتبه يقرأ "الشوك والقرنفل" للشهيد يحي السنوار، ويتعجب لبطولة المجاهدين وبسالتهم إذ يقفزون بين مخالب الموت وأنيابه والبسمة تضيء محيّاهم. كيف يفعلونها؟ إنها درجة من الإيمان شاهقة العلوُّ ما زال لم يبلغها على الأرجح.

سرح باله لحظات متذكرا قطعة الذهب التي منحته إياها القطة الجنية.

لقد أخذها مع شروق الشمس للصائغ فقلّبها في يده ثم نظر له بريبة وقال : "كيف حصلت عليها؟".

تلعثم عبد الله، فأردف الصائغ غير منتظر لجوابه : "اسمع، التنقيب دون ترخيص جريمة يعاقب عليها القانون، وإن بلغتُ عنك الآن فستبيت في السجن".

امتقع وجه عبد الله، وبلع ريقه، وكاد يخرج هاربا من المحل، لولا أن الصائغ أكمل : "ولكني لن أبلغ عنك، سأعرض عليك صفقة، سأدفع لك 20 مليونا مقابلها، وننسى أنك أتيت وبعتها لي، ما رأيك؟"

فأومأ عبد الله بلهفة وهمس : "حسنا"

سحب الصائغ رزمة أوراق مالية خضراء وعدّها بسرعة، ثم ناوله إياها وقال له وعيناه تكشّران تحت حواجبه الكثيفة : "إياكـ أن تخبر أحدا".

أومأ عبد الله ثانية وخرج من المتجر، وأسرع الخطا راجعا لمنزله وهو يلتفت خلفه، كان مذهولا، وقلبه عالقٌ في شهقة شاهقة، لقد دفع له مقابلها عشرين مليونا، هذا أكبر مبلغ أمسكه في يده حتى الآن، فمنذ بدأ بالعمل قبل سنوات، شهرا من الصيف، وثلاثة أيام من الأسبوع خلال السنة لم يتمكن خلال أية لحظة بعينها من تجاوز حد العشرة، وهذا لأنه غبي ببساطة في كل ما يتعلق بتصريف المال من بيع وشراء وادخار واستثمار، حتى أنه كان يشتري أي شيء دون التفكير في المساومة حتى، فقد كان يراها عارا ويستحي منها.

كان لا زال مشدوها يمشي حين بلغ طريقا مكتظا بالناس فانتابه الذعر، لم يحمل هذا القدر من المال في الشارع من قبل، قد يسرقه أحد، فجأة

راودته رغبة مجنونة، أراد أن يصرخ معلنا للناس الذين يمرّون به : "يا ناس! أنا أحمل في حقيبتي عشرين مليونا".

ألحّت به الرغبة، لكنه كبح جماحها، كانت نزوة غريبة شاذة كرغبتك حين تسير على جسر بالقفز من على الحافة.

حين وصل إلى منزله أخيرا، نزل للقبو مباشرة ودسّ المال في كيس وخبّأه في جيب صغير خفي في حقيبته، ووضع الحقيبة تحت خزانة الكتب.

جلس على السرير يفكر : ماذا سأفعل بعشرين مليونا؟ لاحت له قائمة الاختيارات مجددا، وأخذ يمرر بينها وهو يشعر كالأغنياء.

قرر أن يزور طبيبا أخيرا ليتخلص من لعنة بطنه، ربط في ذهنه فجأة بين الأطباء والرّاقين والسّحرة، كلهم يمارس فنونا غامضة مستغلقة على العامة تخلق حولهم هالة من الإجلال والتبجيل.

في الليل، نادته أمه ياسمين للعشاء فصعد، جلس وأكل صامتا بينما إخوته يثرثرون ويتشاجرون كالعادة بصخب، منصور سكب كأس شاي فنهره أبوه صالح : "اذهب وأحضر منشفة الطاولة".

وأخذ أخوه الصغير نصر الدين ذو الثلاث سنوات يطوّقه من الخلف، إما أنه يلاعبه أو يتدرب على أساليب الاغتيال، لا يدري حقا.

لم يزعجه ذلك كما يفعل عادة، ابتسم له وأخذ يداعبه بدوره، حين رجع إخوته إلى حاسوبهم العتيق، قال لأمه : "غدا سأذهب للطبيب".

بدت متفاجئة : "أي طبيب؟"، نظر له أبوه بحيرة أيضا.

سكت لحظة ثم قذفها : "طبيب أمراض باطنية، أريد أن أعالج بطني، ولدي المال من عملي الأخير، لقد فاق الأمر احتمالي".

كان كلاهما يعرف بمرضه، ولكنهما لا يعرفان مدى سوء حالته، عرض عليه أبوه أن يداوي بالأعشاب، فقال : "لقد جربتُ ذلك بالفعل، من الأفضل أن أزور طبيبا مختصا".

أجل، لقد جرّب عدة خلطات فظيعة المذاق، وربما كانت لتنفع لو أنه داوم عليها، لكنه لم يحتمل طعمها ولا صبر على إعدادها.

كانت أمه تسبر أغواره، وقد شكّت في أمر ما، قالت له بعدم ارتياح : "أأنت متأكد؟ مالك قليل بالفعل، وأنت تحتاجه خلال السنة".

فقال لها : "لا يمكنني أن أطيق مرضي أكثر".

نام الجميع في السطح متجمعين في ركن واحد، أما هو فانزوى في أبعد زاوية عنهم، ونظر نظرة في النجوم.

السماء الشاسعة المرقّطة تجوبها سحب رمادية صغيرة، راح يتأمل النقاط المتلألئة، حجمها يفوق أرضنا بآلاف المرات، فلابد أن المسافة سحيقة البعد لتبدو بهذا الصغر، سبحان الله.

لم يستطع تصور حجم الكون في عقله قطُّ رغم مخيلته الجامحة، الضوء أسرع كائن موجود يستغرق سنوات ليسافر بين هذه الأجرام.

وضع على أذنيه السمّاعة وشغّل القرآن، سورة طه، قراءة إسلام صبحي، كانت عادته الاستماع لها قبل النوم، "طه" سورة ذات إيقاع عجيب مطمئن، يتمازج مع صوت إسلام العذب فيهدئ روعه ويريح قلبه.

أحقا سأتخلص من اللعنة؟ أخذ يفكر، كان يحسب مرضه سرطانا أو زيجة نصرانية، لن يفرّق بينهما سوى الموت.

كرّت له من آونة قريبة ذكرى وغشت عينيه...

هو جالسا على سريره في الإقامة في إحدى الأمسيات الهادئة، قبالته يجلس صديقاه أبو القاسم واليسع، كانوا يأكلون كسرة محشية مع قارورة مياه غازية، وهي إحدى عاداته التي منعته من تخطي حاجز العشرة.

كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويتبادلون الطرائف، حين عنّ له فجأة أن يسألهم سؤالا فلسفيا عميقا فقال بين لقمة وأخرى : "لدي سؤال مثير لكم، والفضول ينتابني لمعرفة إجابتكم له".

فلاح في أعينهما الاهتمام وقالا : "ما هو؟"

فمضغ مليّا ورشف ثم قال : "لو كانت هناك طريقة لتتخلص من كل مشاكلك التي تعاني منها مقابل موهبتك وشغفك فهل ستفعل ذلك؟"

ثم شرب من كأسه مبتسما وهو ينظر لهما من الحافة مزهوا بحكمته ورقيّ فكره الذي توصّل به إلى هذا السؤال الوجودي.

غمغم إليسع : "همم"، ووضع يده على ذقنه وفمه ورفع رأسه مفكرا، كانت براعته في الرياضيات منقطعة النظير، وكان ماهرا في الرّياضات أيضا، والسيد بلا منازع في الشطرنج.

أما أبو القاسم فأجاب : "سهلة، بالطبع سأختار أن تزول مشاكلي".

- حتى لو عنى ذلك زوال موهبتك وشغفك.

فرد : "لا أظنها صفقة سيئة".

أما إليسع فقال بعد تدبر : "أفضل أن أحتفظ بموهبتي ومعها مشاكلي، فمن المشاكل نتعلم وننجز، لا إنجاز بلا عقبة نتجاوزها، ثم إن الحياة بدون مشاكل في نظري مملة ورتيبة".

يا لها من إجابة، ولكنّ عبد الله سأله : "انتبه للعرض جيدا، أنا أعرض عليك محو جميع مشاكلك، كلها سواء كانت ضائقة مالية، دينا، عقدة نفسية، عيبا خُلُقيًّا".

فأصرّ إليسع على رأيه.

تفكّر عبد الله ذلك وابتسم، بغتة كاد ينفجر ضاحكا بجنون، لم أكن صريحا في سؤالي، كنتُ أكتم سرّا دميما، لم تكن غايتي من ذاك السؤال تسلية الذهن خلال جلسة شاي، أو إعطاء مثال على تحديد الأولويات، ربما هم اعتبروه هكذا، أما بالنسبة لي فقد كان مخرج نجاة من اكتئاب مستعر.

السؤال الحقيقي كان : إن كانت آلام بطنك وانتفاخه وغازاته والإحراج والعار والاحتقار الذي يتخّلق منه مسخا يقيء دودًا، إن كان ذلك ثمنا لقريحتك ومخيلتك والانغماس واللذة التي تتخلّلك خلال الكتابة وتجترُّها كلما عُدت لاحقا تقرأ ما كتبت فهل ستدفع؟

إن كان الجواب "نعم" وهو المفروض، فهذا السؤال ينبغي أن يجلب له الراحة والرضا، فكأنه هو من كان يجول في متجر لبيع المواهب، ورأى خلف فترينة قلما ذهبيًّا وورقة من حرير، والحبر أحيانا دمٌ وأحيانا عسل، وقد يخرج سمًّا وشوكا يثقُب قلب المَهْجِيِّ.

عليهما كُتِبَ "موهبة الكتابة - التفاصيل : رصيد لغوي ضخم، واحتمالات لا متناهية لخلقِ تشبيهات واستعارات مبتكرة، وسردِ الروايات والقصص كأنها أشرطة الجينات الوراثية، الثمن : معدتك وأحشاؤك، وبعض وقتك (حين تذهب للحمّام)"

ففغر فاهُ وزوّى عينيه ليتأكد مما قرأ، ثم هز منكبيه وقال للبائع : "أريد هذه"

فنظر له بريبة وقال له : "أأنت متأكد؟"

فقال له بكل ثقة : "أنا متأكد تماما، لا أدري حتى كيف بقيت هنا إلى الآن، يبدو أني محظوظ"

فضحك البائع وقال : "نحن نُصنّع ألف واحدة من هذه كل مئة عام، والثمن يتراوح بين الجنون، وإدمان الكحول أو المخدرات أو القمار، وغرابة الأطوار".

بُهت عبد الله : "الحمد لله أن السعر ليس إدمان هذه الموبقات وإلا لكنتُ تركتها"

ناوله إياها البائع على طبق وقال : "كُلْها"

- ماذا؟
- أجل، كُلها، القدرة تتفعل هكذا مثل فواكه الشيطان في ون بيس

فذاق أول لقمة وكانت حلوة ككعكة فراولة، كركْبة دراجة، كمشاجرة وديّة، كالاستلقاء على ظهرك في البحر والموج الهادئ يهدهدك.

فانقضّ عليها يلتهم وعيناه تنسكبان دمعا حتى أنه لطّخ وجهه وثوبه.

وبعدها صار يتخيل عوالما فيها عقارب مجنحة، وحيتانا زرقاء تعض وتزحف وتقف وتمشي وتخرج في نزهة آخر كل أسبوع إلى قمة إيفرست ولا تستغرق في تسلقها سوى بضع ساعات، وتأكل هناك وليمة من لحم ألفِ بشري.

إذا كان بالإمكان أن يتخلص من ألم بطنه مقابل أن يتخلى عن الخيال والكتابة، فسيصرخ في وجه هذا الاحتمال بكل طاقته : "كلا ألف مليار مرة، كلا عدد كل من قالوا "نعم" على مر التاريخ، الكتابة أحلى وتستحق كل

لحظة اكتئاب واحتقار، بل هي تنسيني كل ذلك كما ينسيك البستان الوارف العبِقُ العرق والدم، وينسيك المعدل الدراسي الأرق والهم".

ذهب للطبيب أول الفجر، وبلغه والشمس ما زالت لم تتسلق حائط الأفق، رغم هذا انتظر نصف يوم ليحين دوره، خرج للسوق وتجوّل في المكتبات ثم عاد وخرج مجددا ليأكل الغداء ثم عاد ونام جالسا على كرسيه وأفاق ونام وأفاق و... نادت عليه الممرضة، ظن أنه يحلم.

قام من مكانه متثاقلا، وجلس أمام الطبيب الذي أشادوا به وقالوا عن بشاشته أنها تشفيك قبل الفحص حتى.

كان كهلا يدنو من الشيخوخة يرتدي نظارة له ذقن شبه حليقة، ذكره بأستاذ درّسه الفرنسية. ابتسم له وسأله عن اسمه وعمره ووو... ثم قال له : "بماذا تشعر؟"

احتبس لسانه في حلقه، ها هي لحظة الحقيقة، ها هو يفشي السر، كثير من الناس يعرفون انطواءه وغرابة أطواره وطريقة كلامه الصدئة ذات أنصاف العبارات، والمفردات المعدودة المكررة، ولكن قليلين يدرون سبب ذلك بالضبط، بعضهم عاشره لفترة طويلة فاكتشف ذلك، وبعض هؤلاء صارحهم لعلهم ينصحونه أو ربما كان يبحث عن التعاطف فحسب، أو ربما كان يريد أن يخفف وطأة الإحراج كأنه بإخباره لهم يعتذر.

تلعثم وهو يبوح بكل شيء : "بطني... يوجعني ولدي.. لدي عسر هضم و.. و.. غازات، وأحيانا أعاني الإسهال، وأحيانا أخرى الإمساك".

لم يبدُ على الطبيب التفاجئ ولا الاشمئزاز، أو ربما تعلم خلال سنين عمله الطويلة كيف يُخفي تلك المشاعر خلف قناع لبق مريح، أو ربما سمع الحكاية نفسها ألف مرة، أو ربما رأى ما هو أسوأ وألعن، ربما من كثرة ما سمع ورأى صار ذلك مملا مضجرا لا يحرك فيه أي شعور كدقّات الساعة وهدير الثلاجة.

قال له : "هل تعاني من أعراض أخرى؟"

فأجاب كاذبا : "لا".

لم يخبره عن مواليده، خمسة حمير، وثلاثة قرود، وغرير وابن عرس، هذه حصيلة العام الفائت، كان يجهضها في الحمّام، التنظيف أسوأ ما في الأمر، كان يستغرقه ترك المكان نظيفا كما وجده ساعة أو أكثر. تذكر تلك الفوضى المتبعثرة فاشمئز لكنه ودأ ذلك الشعور تحت أدمة وجهه الجامدة.

- حسنا، تعال معي إلى طاولة الفحص

سأله عن مكان دراسته وتخصصه وهو يرفع قميصه، ثم دهن بطنه برغوة حتى خصره، وهو ما يزال يسأله أسئلة سخيفة يشغله بها عما يحدث فعلا، لو لم يكن هذا طبيبا لكان متحرشا.

خطر له هاجس سوداوي : كيف أعلم يقينا أنه ليس طبيبا ومتحرشا في آن واحد؟ خطر له أن يقاوم، إنه مجرد شيخ، يمكنه أن يقتله حرفيا لو شاء،

ولكن لماذا قد يقاوم؟ إنه يفعل ما يلزم لفحصه، هل تقاوم أنت حين تجري عملية جراحية؟ هل تقاومين حين الولادة؟

كان الطبيب يجري عليه فحصا بالأشعة السينية، أخذ يجول بيده على بطنه ممشطا ثم تثاءب فاغرا فمه عن آخره، وقال بنبرة شبه مزدرية : "لستَ مصابا بشيء".

وتركه وعاد لمكتبه ببساطة ولم يُعقّب.

لستَ مُصابا بشيء.

تشكّل كل حرف من هذه العبارة قنبلة نووية وهوى على نفس عبد الله مفجِّرًا كل شيء، حتى العقارب لم تنجُ.

ماذا قال برب الكعبة؟ برب الجحائم؟

لستُ أعاني شيئا؟ لستُ أعاني..؟ لستُ..؟ تذكر كل الاستهزاء والشفقة والاشمئزاز الذي اضطهده خلال دراسته في الثانوية، تذكر كل الصلوات التي لم يستطع أداءها بطهارة، والتي يبدو قضاؤها كلها أعسر من تحريك جبل، تذكر كل المواقف المحرجة غير المريحة التي جلس خلالها متحمّلا، تذكر كل الاجتماعات واللقاءات التي تغيّب عنها كراهة لمثل هذه المواقف، رغم أنه قد يُفوّت بذلك لقاء أصدقاء اشتاق لهم، والاستماع لمواضيع شيقة مثيرة. بكلمة واحدة كل هذا صار بلا معنى ولا قيمة، لقد عاش وهمًا، كذبةً اختلقها وصدّقها، لقد كان يعذب نفسه طيلة الوقت.

المرض نفسي بحتٌ إذن والجسد سليم معافى.

أم أن هذا الطبيب اللعين رغم ما مدحوا وأطروا لم يتمكن من فهم علّته؟ وقد حدث هذا من قبل لبعض أقاربه ومعارفه، تبًّا، لهذا لا أؤمن بالطب الشرعي، الآن افتُضح سري عبثًا، بل أسوأ، اتضحّ أن السر أدعى للسخرية والهزء مما سبق، أنا أتخيل؟ أنا أتوهم؟ هل أنا مجنون أم ماذا؟

تمتم عبد الله متهكما بمرارة : "طبيب يشفيك ببشاشته قبل الفحص حتى، لم يكذبوا هههه".

ناداه الطبيب، فقام من السرير وأفكار مجنونة تراوده، لم تكن أفكارا بل نزوات وغرائز دهمته بغتة، ألحّت عليه أن يصرخ حتى تتقطّع حباله، أن ينتف شعره ويذروه على حجر الطبيب، أن يهشم كل شيء في هذه القاعة، أن يجثو وينحب.

لكنه لم يفعل شيئا من هذا، بل جلس على الكرسي قبالة الطبيب وقال : "كيف تقول لي أني لستُ مريضا؟ ما الذي أشعر به إذن؟ هل كنتُ لآتي لك لو كنتُ بخير، أستعطيني أي نصائح على الأقل؟"

نطق العبارة الأخيرة وهو يفكر في المبلغ الذي سيهدره من أجل لا شيء، لو دخل عليه فقير لخاله مجنونا لتبديده نقوده هكذا، كان يمكن أن أتصدّق بذلك المبلغ، أو أشتري به ألعابا لإخوتي أو هدية لأمي أو لوزا ومكسّرات نأكلها مع الشاي ليلة الخميس، أو حتى أطعم بها القطط الشريدة، أي شيء عدا هذا.

زفر الطبيب ثم خلع نظاراته وطفق يمسحها وهو يقول : "ماذا بوسعي قوله؟ لديك قولون عصبي، اضطراب معدتك مردُّه قلقك".

قلق؟! قلق؟!! مرضك الجلدي، قلق، هزالك، قلق، هشاشة عظامك، قلق، ضعف ذاكرتك، قلق، انعزالك وانطواؤك، قلق. يبدو أن القلق هو سر الوجود.

لا، لا، ليس القلق، القلق مجرد ابن آوى أمام الدب الذي يتمزّقه، الاكتئاب، جلدُ الذات الذي لا ينقطع، وهو ظن أن هذين سببهما بطنه، فإذا بالطبيب يقلب كل شيء على رأسه، أهذا ما شعر به قوط لوط في الصبح؟ شعر بأن جزءً من عالمه انهار وترك خلفه شرخا يُطلُّ منه العدم.

قال له الطبيب برزانة : "لا تفكر كثيرا، إذا ضايقك أحد فدعه وتعامل معه في وقت لاحق، لا تدعه يتسلل لعقلك ويطنُّ فيه طوال اليوم، هذا فقط مثال والأمر ينطبق على كل شؤون الحياة".

ثم وصف له مجموعة أدوية، سأله عن فائدتها ما دام سليما، فأجابه : "إنها تخفف الأعراض".

ودفع وعاد لمنزله.

لم تستمر الصدمة أكثر من ساعة، بعدها حلّ محلّها طمأنينة غريبة، إذًا، كل شيء في عقله وهذا يعني أنه إن اهتم براحته وهدأ فسيتحرر من لعنته، وفي الحال تبدّت له الأدوية : القرآن، النافلة، القيام، الكتابة، الرياضة، ترك الموسيقى وكل المحرمات.

عاد لصلاة الجماعة ولدهشته وجد عَرَضه قد اختفى، أمكنه أن يفرغ من صلاته دون مدافعة أي من الأخبثين، رغم أنه لم يلتزم بالأدوية التي وصفها لنفسه رغم علمه بنجاعتها.

ما الذي يحدث؟ أنا لا أفهم حقا.

طبعا، هذا حاله مع أغلب الصلوات، هناك حالات نادرة كان يعاوده شعوره السابق، ولكن مع ذلك، هناك تغيير لم يجد له تفسيرا.

الإسهال لم يختف، لكنه قنع بزوال إحدى اللعنات.

في إحدى الأمسيات اتصل به أبوه هاتفيا وطلب منه أن يهبط للسوق ليقضي له حائجة، كان ميعاد صلاة المغرب يدنو، فكان عليه أن يسرع، قرر أن يقطع طريقا جبليا مختصرا، وأخذ معه إخوته الصغار ليساعدوه في الحمل، وأعلن لهم : "حسنا، سنقوم بسباق، لنر من يقطع الجبل أولا".

واندفع يركض كما لم يفعل من قبل منذ كسر ساقه، بنفس السرعة الفائقة، كان يتواثب كماعز الجبل ويتخطّى الأحجار، ويجد مواطئ آمنة لقدميه خلال ثوان معدودة كأنه جانٌّ، لم يكن يفكر حتى، ترك المقود لردوده اللا إرادية وضغط على الدواسة. كان شعورا بديعا، شعر كأنه نحلة تُغمس في بحر عسل، تذكر يأسه وقنوطه من الشفاء، لقد شُفيت ساقي والآن حتى وجع بطني الذي ظننته مزمنا سيزول. يا لها من نعمة، الحمد لله، الشمس تمسُّ وجهه بأنامل متوهجة لطيفة، والأرض تسري من تحته كالنهر، وهو حرٌّ يكاد يحلّق كالطير.

أخواه لا يراهما حتى، توقفا يلهثان حين لم يستطيعا مجاراته، لم يستطيعا مجاراتي؟ أنا مكسور الساق؟ لقد شُفيتُ حقا.

ذات يوم عاد لمنزله من صلاة العشاء ودقّ الجرس وريثما انتظر أن يفتحوا له، تذكر كلمات في بداية أغنية راب فدندن بها، مقطعٌ يترجّى فيه المغني: "set me free، set me free"

لقد تحرّر، لم يفتش عن التفسير أكثر، قنع بالراحة ورجا لها أن تدوم.

ثم مات.

==

كنتُ آكل التمر والحليب ذات يوم في المنزل مستمتعا بمشاهدة فيديو لا أذكر موضوعه، الساعة أشارت للعاشرة تماما، المنزل كان خاليا إلا مني وأخي الصغير منصور، تذكرتُ بشيء من الضيق كلام أبي قبل أن يغادر: "حين تقترب الواحدة، حضّر للصلاة، وتعال إلي في الحانوت لنذهب معًا".

لقد عرضتنا الجدة حليمة، وأنا أكره هذه العرضات، فطالما وجدتُ نفسي فيها بين أبي وأعمامي، وبين أخي الأصغر وأقرانه من أبناء الأعمام والعمات، أما أقراني أنا فكان أغلبهم يسكن في مدن أخرى ولا يأتي إلا يوم العيد.

فإما أن أجلس مع الصغار وأصغي لهرائهم، أو أجلس مع الكبار وأستمع أخبار السياسة والاقتصاد، وأشخاصا ماتوا وأشخاصا تزوجوا لا أعرف شيئا عنهم، وأنا لا أحفل بأي منهما.

ثم إني منطوٍ أكره الجماعات حتى لو كانت تتناقش المواضيع التي أحبها، بسبب طبعي الشخصي وبسبب مرضي "الوهمي". إذن، فهذه اللقاءات مكتوب لها أن أسأمها مهما تجمّلت وتزيّنت، كدجاجة ترى طاووسا يبسط ذيله، لن تنجذب إليه مهما بلغ ذيله بهاء ومشيته خيلاء.

قال لنفسه : لا أظن أني سأذهب، ثم أجابها : "ولكنك قلت لأبيك أنك ستفعل"، "أجل، وهل كنتُ لأقول له "لا"؟"

لم يكن الرفض مباشرة خيارا أبدًا، بل كان التنصل لاحقًا هو الحل دائما.

فجأة، ظهر إشعار واتساب أمامه، فأوقف الفيديو، ودخل، صورة لم تتضّح بعدُ، ولعل ذلك كان خدعة بصرية حماه بها عقله من الصدمة، تحتها رسالة من صديقه إليسع مكتوبة هكذا : "

لا إله إلا الله

إنا لله وإنا إليه راجعون

ركز مليح قبل ما تدخل

هذا صاحبك"

ظن أن العبارة الأخيرة سؤال، دخل في الصورة، وحدّق فيها بخواء، كانت لصديقه العزيز محمد، واقفا مبتسما بحرارة، والثلج نُدفه تكسو معطفه وقبعته الأسودين، فيما نصع كل شيء حوله بالأبيض، على مقربة منه خيالات لأشخاص آخرين واقفين خلفه.

هذه صورته حين ذهب مع أصحابه لجبال الشريعة، كنتُ عند خالي فلم أتمكن من الحضور حينها، مكتوب على الصورة : "اللهم ارحمه وأسكنه فسيح جنانك".

فجأة لم يعُد للتمر طعم في فمي، كتبتُ ردًّا على الرسالة، "راك ثابت؟"، ووثبتُ هلعا لفيسبوك، فوجدتُ صديقا آخر اسمه نور إسلام شارك ستوري، فيها نفس الصورة مع دعوات الرحمة، لا يمكن، لا يمكن، راسله : "السلام عليكم، من أين سمعتَ الخبر؟"، ثم تركته وبحثتُ في الصفحات التي تنشر النعي، لم أجد فيها شيئا عن محمد، الحمد لله، ربما أخطؤوا.

تلقيتُ جوابا من نور إسلام : "وعليكم السلام، لقد علمتُ اليوم صباحا فقط، ولم أنشر الستوري حتى تأكدتُ"

يا إلهي، أحقا مات؟ سألته : "كيف مات؟"، فأجاب : "حادث مرور بالدراجة".

ثم تذكرتُ أنه ذهب بدراجته للعاصمة، وتذكرتُ خطورة سياقتها هناك خصوصا في الطريق السيّار وسط أصحاب السيارات، ثلثهم متهور أهوج، قيمة ثوانٍ قليلة يكسبها أهم لديه من قيمة حياة كاملة قد يخسرها، والثلث الآخر شيوخ وعُورٌ ونساءٌ وحديثي عهد بالقيادة، أضف إلى هذا طيش الشباب وستحصل على الوصفة السحرية للموت.

قصصٌ كثيرة لحوادث مرور أُصيب بها أصحابي أصحاب الدراجات أو شهدوها أمام أعينهم جعلت موت أحدهم بهذه الطريقة غير عصي على التصديق.

ولكني لم أتخيل وقوع ذلك يوما، كيف لم يمرَّ هذا الاحتمال بذهني أبدا؟ أنا الذي كنتُ أتحرّق شوقا لتعلم سياقة الدراجة في هذا الصيف، وأجد جهلي بها نقصا وعيبا، خصوصا حين أرى صبيانا يصغرونني بست سنوات أو أكثر يجوبون بها الشوارع.

ثم يموت بها صديقي، أجابني صديقي إليسع في رسالة صوتية : "صديق أخي نشر الخبر في ستوري، وأنا أعلم أنه صديقك فأرسلته لك، رحمه الله، إنا لله وإنا إليه راجعون".

رددتُ "إنا لله وإنا إليه راجعون"، ترقرقرت الدموع في عينيّ، لابد أني حين أجبته قلتُ كلمة "حادث مروري"، فانتبه أخي الصغير الجالس أمامي يحفظ القرآن وقال : "حادث مروري؟"

صحت به : "حين يؤذّن للصلاة، اذهب وحدك لمنزل جدتي، أنا لن آتي".

ثم هبطتُ للقبو، واستلقيتُ هناك على السرير، دون شعور تكورتُ على نفسي في وضعية الجنين، وانسابت الدموع.

مرّ أمامي شريطٌ سريع من الذكريات كذلك الذي يُقال أنه يمرُّ بك في لحظة موتك.

واقفا جواره أشاهده يعدُّ العشاء، كان طبّاخا ماهرا، كان يحضّر "لابيري"[14]وأمامه هاتفه وعليه فيديو لأم وليد، كنا نتحادث ونتضاحك، وكنتُ أساعده، انتهى من الإعداد ولم يبق سوى إضافة التوابل.

وضع كل عُلب البهارات أمامه، وسكب حفنة من كل واحد، هتفتُ به مصدوما : "ماذا تفعل؟ هناك بهارات معينة لكل طبق، كيف تخلطها هكذا؟"

رحتُ أتخيل الطعم المريع، وجفّ لعابي فورا بعد سيلان، التفت لي بشعره الأشقر المبعثر وابتسامته الواسعة وعينيه الخضراوين وقال : "عادي، عادي، خلّطها تصفا".

وجلسنا نأكل، وغمستُ الخبز وأخذتُ اللقمة الأولى متوجسا، كانت ألذّ من طبخ أمي، لم آكل أبدا طبق لابيري بتلك الروعة، لا قبل ولا بعد ذلك، انقضّ الجميع على الطبق ولحسوه في دقيقة.

واقفا أمامه أصارعه في قاعة الرياضة فوق إقامتنا، كان يصفعني بالمنشفة ويستفزني فتحدّيته : "لنتقاتل، سأبرحك ضربا"، فقال متعجبا : "تبرحني ضربا؟ هيا، إذن".

كان يكبرني بعام واحد فقط، لكنه كان أطول وأثقل ومفتولا بالعضلات، صعدنا وتَبِعنا كل رفاق الإقامة، تبا لهم! أبغض شيء عندي كان الشجار أمام الآخرين، لأني لو خسرتُ فسيشهدون هزيمتي وإذلالي.

---

[14] البطاطا المهروسة، بالفرنسية (la purée)

قلتُ له : "كل شيء مسموح إلا الوجه".

فقال ضاحكا : "والخصيتان".

فقلتُ : "طبعا، مهلا، لم يمض على كسر ساقي وقتُ طويل، لذا الركل ممنوع أيضا".

أجل، هكذا أسنُّ قواعد المعركة لصالحي، فأنا لم أكن أجيد سوى اللكم، قال لي : "هيا، اهجم علي".

انقضضتُ عليه ولكمته فردّ، ولكمته ثانية فتفادى وردّ، بعد بضعة لكمات أخذتُ أشعر بأمعائي تتأوه ألما، لم أتلق لكمات أقوى من هذه قبل قطّ، أما هو فرغم أني أصبته عدّة مرات إلا أنه لم يبدُ أنه تأثر، بل بدا مستمتعا.

شجعتُ نفسي : حسنا، هي معركة تحمُّل إذن، وأنا أستطيع أن أتحمّل مئة لكمة ما لم تكن في الوجه، كنتُ متقينا من أني سأصبر أكثر منه، وأننا سننتهي بتعادل.

ولكني نسيتُ شيئا هاما، فجأة وجدتُ نفسي أحلّق في الهواء وكل شيء يدور حولي، ثم هويتُ على الأرض بشدة وارتطمت ساقاي معا.

لم أشعر بأي ألم في جسدي، بل جلستُ مباشرة وأخذتُ أحكُّ ساقي المجبورة بهلع لأتأكد من أنها لم تنكسر، لم أدرك أن الدموع خرجت لا إراديا من محاجري إلا بعد هنيهة، مسحتُها بكمّي وهتفتُ به : "قلتُ لك الساق منطقة محظورة"، ثم تذكرتُ أني لم أقل له صراحة : "أن الحمل والإسقاط ممنوع".

كان محمد لاعب جودو محترف، دخل في بطولات وفاز بها، وكان أبوه رئيس رابطة الجودو، نسيتُ هذا، ودفعتُ غاليا.

قلتُ له : "لا ترفعني من على الأرض، يمكنك إسقاطي ولكن بلا رفع"

فقال : "حسنا".

وتلاكمنا مرة أخرى، وأنا متيقن من أني لن أنهزم.

ولكن هناك أكثر من طريقة لإجبار أحدهم على الاستسلام، طرحني أرضا وجثم بثقل صدره على رئتيّ، شعرتُ بأني أختنق، حاولتُ رفعه فلم أستطع، كان ثقيلا لحظتها كالفيل رغم نحوله.

ضربتُ ذراعه مستسلما فتركني وقال : "هل نُعيد؟"

وهكذا مرة تلو الأخرى، ملاكمة قصيرة، ثم يطرحني ويخنقني بثقله فأستسلم، في المباراة الثالثة، كنتُ ألهث كمن جرى في ماراثون، وصار رفع ذراعيّ ناهيك عن اللكم بهما صعبا، هتف لي مقتربا والابتسامة على وجهه : "هيا، الكمني".

وشجّعني صديقه ياسين، وكان أحد المشاهدين.

فأخذتُ خطوة ولكمته بقوة، لكنه ردّ بسرعة، فهتف ياسين : "اخطفه بلكمة وتراجع، لا تبق في مكان واحد".

كان القفز والتراجع للوراء صعبا بسبب ساقي، لم أرد أن أضغط عليها، أخذتُ أفكر في خطة لمهاجمته، ولكنه كان فائر الدماء متحمّسا، فدنا، فلكمتُ مستهدفا صدره، ولكني أصبتُ ذقنه بخفوت خطأ.

صحتُ بسرعة : "سامحني، سامحني"، قلتُ لذلك لسببين، لأني خفتُ أن أكون آلمته، ولأني خفتُ أن يهجم علي في الوجه الآن بما أني خرقتُ القاعدة.

قهقه وقال : "تعتذر في قتال؟ دعك من ذلك، اهجم علي أكثر".

ففعلتُ وسرعان ما فرش بي الأرض، خارت قواي وقلت له : "ما عادت بي قدرة على المواصلة".

أراد أن يجذب ساقي ليوقفني، ولكني سحبتها وقلتُ له : "توقف، لا أستطيع المواصلة".

كانت هناك مرآة أمامي فرأيتُ زميلا في الإقامة كنتُ قد تشاجرتُ معه يحرّضه على أن يواصل ضربي، استفزني حقا، ولولا إنهاكي التام، لذهبتُ إليه. نزلنا وقال لي محمد في الدرج : "هل ستتحداني مجددا؟"

فقلتُ بلا تردد : "نعم"، وأردفتُ : "تعال إلي عندما تُشفى ساقي جيدا وسترى، ثم إنك تمارس الرياضة والجودو وتكبرني سنا".

فقال مستهينا : "حتى عندما تشفى ساقك لن تغلبني".

فعقدت العزم مع نفسي أني سأصارعه مستقبلا يوما ما وأهزمه، فكيف مات؟

كانت ذكرى ذلك القتال رغم هزيمتي النكراء من بين أحلى ذكرياتي، كنتُ عنيفا أستمتع بمشاهدة الملاكمة والمصارعة الحرة والقتال المختلط وأفلام الأكشن والرعب، وكنتُ أرغب بالقتال ولكن جزء من نفسي يكره إيذاء الآخرين، وربما يخاف الهزيمة أيضا، ويخاف شيئا أكبر، لم أكن أريد القتال عن كره وحقد، بل كنتُ أريده للمتعة، ولم أكن أريد لقتالي مع شخص ما أن يجعله عدوي إن هزمته، وأن يضمر لي الكراهية طيلة حياته ويسعى للانتقام مني.

كان الحل هو الانخراط في إحدى نوادي الفنون القتالية - وأنا لا أملك المال لذلك - أو شخصا مجنونا يحب القتال مثلي مثل محمد.

ربما لهذا استمتعتُ بقراءة "نادي القتال"، بل تمنيتُ لو كوَّنتُ ناديا حقا.

صديقي محمد هو الشخص الوحيد الأقوى مني الذي قاتلني ولم يشفق علي أو يزدريني، بل حاول تعليمي وإخراج كل ما عندي.

ذكرى أخرى له جالسا جواري يقرأ إحدى قصصي التي انتهيتُ منها للتو، كانت تتحدث عن سب الرب، وقد تعمدتُ دعوته لقراءتها، لأنه كان يفقد أعصابه بسرعة فيذكر الرب بطريقة لا تليق، نداءٌ لا معنى له في اللغة صار شائعا في كلام العامة وتعارفوا على اعتباره سبّا بما أنه يُقال غضبا، حين أنهى قراءتها قال لي : "إنها قصة جيدة".

وجلسنا نأكل الغداء فسكبتُ كأسي فغضب وهمّ بقول كلمته المعتادة لكنه كبح لسانه، أدركتُ ذلك فابتسمتُ فقال لي : "يا طحّان".

وكان يشاكس صديقه المقرّب أبا ياسين ويستفزه دائما، فصار بعد قراءة القصة حين يفعل ذلك فيبدأ الأخير بالسباب يهتف به : "قل 'سبحان الله'، قل 'سبحان الله' ".

وكانت تصرفاته تلك تجعلني أبتسم وأضحك، كان فيها شيء من البراءة، شيء في ذلك الاندفاع وتلك الصراحة بدا لي بريئا بشكل ما، لا أظن الكلمات قادرة على وصف شعوري ذلك وصفا دقيقا حقا : البراءة والاندفاع والجنون والحرية، كل هذا في مزيج واحد.

وقال لي ذات يوم وأنا أصدّعه بحديثي عن قصصي ورواياتي : "هل يمكنك أن تكتب رواية عني؟"

ذُهلت، لقد طلب مني زملاء وأصحابٌ لي في الثانوية الكتابة عنهم بالفعل، ولكن لم يسبق لأحد أن طلب رواية بكاملها، استحقرتُ طلبه أول الأمر، الرواية تُكتب في نظري لغايات أسمى وأعظم، ويكون فيها شخصيات عديدة تعكس آراء متضاربة وفلسفات متناقضة وأساليب حياة مختلفة، وهكذا تتصادم وتتّحد أحيانا لتخلق لوحة بديعة كما تفعل الألوان المتباينة حين تلتقي.

أما أن تُكتب عن شخص واحد فقط فهذه تفاهة. قصة قصيرة أو مقال أو قصيدة، ربما.

قلتُ له : "لا أستطيع ذلك، قد أستوحي منك شخصية وأدسُّها في إحدى رواياتي إن شئتَ".

فرفض وقال : "لا، أريد رواية عني وحدي وسأدفع لك".

فابتسمتُ وقلتُ له : "لا، بل سأبني بك شخصية في رواية القراصنة التي أكتبها حاليا، ولكني سأعطيها اسما مختلفا، وعليك أنت أن تقرأها بعناية وتعثر على نفسك داخلها".

فأعجبته الفكرة وقال : "حسنا".

مرت هذه الذكريات أمام عيني الغائمتين بالدموع كسيارة خاطفة، وردّدتُ : "رحمك الله، رحمك الله، اللهم أدخله في الجنة، اللهم اجمعني به في الجنة".

ورجوتُ أن يكون قد استغفر عن جميع ذنوبه قبل وفاته، ثم لمتُ نفسي لأني لم أنصحه أكثر، وتذكرتُ أنه كان دائما يهتف بي أن أسارع للحاق صلاة الجماعة، وكان هو يحرص على الصف الأول.

وتذكرتُ حفلة نهاية السنة، حين دعاني لأساعده في كتابة نص التنشيط، فجلستُ بجانبه، وأخذنا نتبادل الأفكار، ثم عرضتُ عليه أن أعلن عن روايتي فيها، فقال : "نعم، افعل".

فابتسمتُ وقلتُ له : "أحقا ستقرأها؟"

فأومأ، وبالفعل في الحفلة، أعلن عن اسمي ثم قال : "وهو روائي بالمناسبة، لديه رواية بعنوان "فكرة قاتلة" ستصدر قريبا".

وعمّت لحظة سكون غريبة، ما زلتُ لم أفهم سببها حتى الآن، أكان غريبا لهذه الدرجة أن تُعلِن عن رواية في حفلة نهاية السنة؟ ربما كانت صدفة فحسب، أو ربما أنا من توهم السكون وعدم المبالاة.

سألتُ نور إسلام عن موعد الجنازة، فأخبرني : "غدا في السابعة صباحا في غرداية"، كيف سأذهب لهناك؟ لا أملك دراجة نارية، راودتني نفسي الخَمول بالمكوث في البيت، ادع له وصلّ هنا، ولكني قلتُ بحزم: "يجب أن أذهب".

في الفجر، نزلتُ إلى محطة الحافلات، ورحتُ أشير للسيارات المتجهة لغرداية، توقفت لي واحدة فركبت، سألني سائقها : "هل تعرف مقبرة كذا وكذا؟"

فقلتُ له : "لا"، ثم خطر لي فجأة : "مهلا، أأنتَ ذاهب لجنازة محمد؟" فقال : "نعم، هل تعرفه؟"

يسّر لي الله السبيل لحضور جنازته، في الطريق أخذنا نتحدث عنه، كنتُ قد درّستُ معه عاما واحدا فحسب، عاشرته فيها فكان أحب صديق لي هناك، ثم غادرتُ تلك المدرسة، وفرّقت بيننا المسافات ولم ألتقه إلا مرتين بعدها، مرة حين يجتمع أساتذة المدارس كلهم أول السنة لحضور دورة تكوينية، رأيته وكان لابسا عباءة زرقاء عريضة، ابتسم ابتسامته الواسعة

وبسط ذراعيه، فاض وجهي بشرا واغرورقت عيناي، وكاد وجهي يشتعل فرحا، عانقته بشدة، وازدحمت الكلمات على لساني من اللهفة والحماس، حتى أني رحتُ أتحدث بطريقة مختلطة غريبة أقفز من شيء لشيء، ولا أدري إن كان قد فهم شيئا، لكنه ردّ وأخذ يضحك بحرارة.

التقيته ثانية حين زُرتُ المدرسة فأريته روايتي الأولى بفخر، وسعيتُ للقائه ثالثة لكنه قال لي أنه توقف عن التدريس وغيّر مكان إقامته، فحزّ ذلك في قلبي، ولكني أرسلتُ له : "نتلاقو إن شاء الله".

ولم أعرف أننا لن نلتقي بعدها أبدا.

حين كنتُ في القبو تذكرتُ الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم فاغرورقت عيناه وقال : "إن العين لتدمع"، لم أنشج ولم أنحب، فقط خيطان هادئان من العبرات تحدّرا عبر خديّ، ردّدتُ مجددا: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

وذهبتُ لصلاة العشاء بعدها، فوجدتُ القمر قد خسف يومها، صدفة عجيبة، خطر لي أن السماء تبكيه مثلي، ولكني تذكرتُ أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد.

حين وصلنا لمكان الجنازة، شرعنا ننتظر طويلا، ثم أحضروا النعش، فصلينا عليه، ثم شيّعناه فرأيتُ أحد رفاق الإقامة، يمشي والدمع ينسكب انسكابا من عينيه، توقفنا عند قبره، وبدؤوا بدفنه، هذا غريب، الجميع صامتون، لماذا لا يقرؤون سورة الملك؟ فجأة ترامى إلى مسامعي نحيب طويل

ثقيل يتفرّق له قلب صاحبه، بعث في نفسي قشعريرة ونزف حزني مجددا، ففاضت عيناي، كان الصمت مقبضا، تنفستُ بصعوبة، وشعرتُ بأن الفراق يجثم على أضلاعي حتى يكاد يخلع روحي من صدري.

فرغوا من دفنه في دقائق مرّت سنينا، ما زلتُ لم أصدق، أهو ميت حقا؟ رأيتُ قبره فأيقنتُ لحظتها، ولكن فيما بعد، كان يتبادر لي أحيانا أنه ما زال حيا يعيش في ركن معزول من هذا العالم.

سلّمتُ على أبيه وإخوته وعزّيتهم، لم أكن قد رأيتهم من قبل، كانت عيونهم محمرّة تكاد تبيضُّ من البكاء، غامت عيناي مرة ثالثة.

عدتُ لمنزلي وأخذتُ كراسة لأفرغ ما في نفسي من حزن كظيم وخلال ثوان وجدتُ نفسي قد سوّدتُ صفحتين.

كيف مات؟ كنتُ حين أراه أخال أنه سيعيش أبدا، شاب يفيض حيوية ونشاطا وحماسا وحرارة، صحيح البدن قوي جاد لا يتوقف عن العمل.

إن مات هو فهذا معناه أن أيًّا منا قد يموت في أية لحظة، لا أحد بمأمن.

كيف مات؟ لو عدتُ بالزمن وأخبرته أنه سيموت لما صدّق، بل لو أخبرتُ نفسي أنا لما صدّقتُ أبدا.

تذكرتُ مراحل الفقد في علم النفس فجأة، في أي مرحلة أنا؟ مع علمي بها، مررتُ بها واحدة تلو الأخرى.

كان الحزن والخواء يفوق الاحتمال، أمضيتُ يومين لا أفعل شيئا سوى الأكل والاستلقاء بينما ذكرياتنا معًا قاطبة تحجُّ إلي.

أردتُ إلهاء نفسي فشغّلتُ فيلما كوريا، فإذا هو يتحدث عن قسّ يودع المرضى الموشكين على الموت في مستشفى خاص، لا مهرب إذن، شاهدته وقد كان مقبضا حقا، تلقّيتُ الضربة مضاعفة.

يوم ثان من الفراغ المطلق، تهشم برنامجي تماما، لا فرنسية ولا برمجة ولا إنجليزية ولا فلسفة ولا كتابة ولا مطالعة، لم يعُد شيء يثيرني ويحفزني للإبداع والإنتاج والتعلم، شاهدتُ فيلما بعد فيلم.

ثم في اليوم الثالث، قلتُ لنفسي : "لا يمكنني أن أواصل هكذا"، ذهبتُ لمتجر أدوات مدرسية، واشتريتُ كراسة فيها 200 صفحة.

جلستُ في القبو وكتبتُ على الصفحة الأولى : "بسم الله الرحمن الرحيم. هذه كراستي أنا الكاتب المغمور، أولى ماستر مُعيد، وعائد إلى جحيم التدريس هذا العام بإذن الله، أولئك الطلبة الزبانية.

أحاول ترميم نفسي بعد وفاة أحد أعز الأصدقاء، من خلال هذه الكراسة سأستعيد انضباطي وأتابع برنامجي اليومي وأنفذ ما سطّرته بالحرف.

مضى علي يومان في حضن الكسل، حداد بلا معنى، لقد مات صديقي وانتهت حياته، هذا لا يعني أن تنتهي حياتي معه، لو كان حيا لصفعني وقال لي : "قم ولا تضيع وقتك، أنت لا تعرف كم سأدفع مقابل يوم آخر".

ولذا سأستغل حياتي وأحاول عيش حياتي مطمئنا إن لم أكن سعيدا.

==

عاد عبد الله للعاصمة، كان وجع بطنه قد عاد وبقوة، يزور الحمّام مرارا ويضيع فيه وقتا كثيرا، وحالما يتأرجح على حافة الانهيار وتلوح الغيوم السوداء في الأفق : "الموت أفضل"، "ما هذه الحياة؟"، "هل ستعيش حياتك كلها هكذا؟ كيف ستتحمّل؟"

يذكر نفسه بأن هذا ابتلاء، لقد أدرك أنه كان مخطئا، ذات يوم وبينما هو جالسٌ انبثق في نفسه إدراك عميق، إنه لا يعاني المرض مقابل الموهبة والشغف، هذان قال الله له : "خذهما مجانا، وسخّرهما لي"، إنه يعاني مقابل الجنة، وهذا أعظم من الموهبة والشغف بما لا يقاس، ولذا تضاعفت قدرته على الاحتمال، وازداد ارتياحا وتقبُّلا.

ذهب إلى حديقة بهيجة قريبة من مكان إقامته أراها له محمد ابن عم محمد الذي توفي، وهو شخص نشيط يحب الاستكشاف والتجارب، غير قادر على المكوث بين الجدران نصف نهار.

جلس على أحد المقاعد، واستمع إلى خرير المياه في الشلالات الصغيرة التي متّع نظره بها، تأمل الشجيرات المورقة الخضراء، ونظر للسماء الرحيبة والطير فيها صافّات ويقبضن، واستنشق النسيم، يا لجمال الطبيعة، فتح كراسته وكتب : "هل تصدّق أنه يوما ما لن تشعر بشيء من هذا؟ ستموت وتنتقل إلى عالم آخر كليا، البرزخ ثم الحساب ثم جنة أو نار، ستشعر بأحاسيس لا تشابه هذه في شيء".

ثم خطّ سطرا، وكتب بين قوسين : المذكرة، يتبع، وشهق بعمق وبدأ : " الموت.

أول من شهدتُ موته في حياتي هي جدتي أمُّ جدي، كانت عجوزا، تحبني وأحبها، حين أعود من المدرسة القرآنية تضمني بحرارة وتسمع ما حفظته، ذات يوم نامت طويلا، فأرسلتنا جدتي حرم جدي لإيقاظها، هززناها ولكنها ظلت هامدة لا تتحرك.

أذكر أني بعد ذلك صرتُ أرهب الموت، تمنيتُ الخلود طفلا ودعوتُ ربي : "رب اجعلني خالدا، رب لا تدعني أموت، أعرف أنك لم تهب الخلود لأحد ولكن اجعلني أنا خالدا، أرجوك اجعلني أعيش ثلاثمئة سنة"، كنتُ مهووسا بالرقم ثلاثة، وربما كان ثلاثمئة أكبر رقم أعرفه، ربما ظننته حدّ الخلود، أو قد أكون تنازلتُ عن أمنيتي حين أدركتُ استحالتها، فقد عرفتُ أن الأنبياء أنفسهم ماتوا وهم أولى الناس بالخلود لو كان هناك شيء كهذا في الدنيا.

لابد أني كنتُ أعيش حياة هنيئة حينها، فأنا الآن أرجو الموت قريبا، أريدني أن أكون مستعدا فقط، لو كنتُ مستعدا اليوم وكان بيدي الخيار فسأغادر بكل سرور.

ثم دفنتُ الكثيرين في أول عهدي بالصلاة، كانوا يعلنون عن الجنازة في الفجر فأنطلق راكضا أنا وأصحابي إلى المقبرة، ونقف في صفٍّ لتمرير كرات الطين إلى الحانوتيّ ومن معه ليدفنوا بها الميت، وكنا أحيانا نشرئب بأعناقنا فضولا لرؤية جثمان الميت قبل دفنه في القبر، لم أر أحدهم

مطلقا، لم أر ميّتا أمامي سوى جدي، رأيت جثمانه هامدا مسجّى من على مسافة، ولم أجرؤ على الدّنو، الجسد بلا روح يبدو كدمية أو تمثال، إذن، أجسادنا مجرد قوارير والروح هي الماء، حين نشرب الماء هل نحفل كثيرا بشكل القارورة؟ فلماذا إذن نحكم على الناس من مظهرهم وخِلقتهم ولا ننظر لأرواحهم، أهي طيبة أم شريرة؟ حين ترى دميما تشمئز وقد يكون هو أحسن الناس أخلاقا، وحين ترى شابة جذابة جميلة يسيل لعابك وقد تكون زانية ولصة وواشية وقاتلة حتى.

الحمد لله أن ربي العدل هو من سيحاسبني، أرجو يوما أن أسمعه يناديني : "يا أيتها الروح المطمئنة".

الموت، ليس بناج منه أيٌّ منا - نحن الأحياء في هذه اللحظة - بعد 130 سنة، لا ترامب ولا نتنياهو ولا كيم جونغ أون ولا أي طاغية متجبر، وإذا كان الموت محتوما وكان مُقدّرا وكان من المحتمل أن يأخذك شابا فلم الجبن ولم الخوف؟ لماذا لا نلقي بأنفسنا إليه قبل أن يجندلنا هاربين مولي الأدبار؟

أحيانا أُساءل نفسي : أيهما أفضل؟ أن تموت أولا أم أن تشهد موت أحبابك واحدا واحدا؟ أفضّل الأول، تمنيتُ أن أموت قبل أي من أصحابي، وقد مات بعضهم الآن بالفعل، ولا أريد أن أعيش ذلك الألم الفظيع مجددا.

ولكن قبل أن أموت أريد أن أستغل موهبتي على الكتابة التي حباني بها الله إلى أقصاها، وأسخّرها في تأليف أعظم قصة، وأجعل محورها الله، أؤمن أن هذا هو المفروض من كل شخص أيّا كانت مهاراته ومواهبه، حسن الصوت فليكن منشدا بديعا غزيرا يجذب الشباب إليه حتى تبدو الأغاني لهم قبيحة مقارنة بصوته العذب وكلماته المؤثرة، أو مجوّدًا يصلي بالناس فيجبرهم على الخشوع، والرسّام فليرسم مجلات مصورة مليئة بالحماس والأكشن ولكن فيها رسائل إسلامية فيجذب المراهقين إليه ويشغلهم عن الكوميكس والمانجا والأنمي، وهكذا.

أهذا خير أم أن تظل طيلة الوقت تلعن الإعلام الغربي خاصة والأجنبي عموما وتأثيره على الصغار والشباب ولا تقدّم لهم بديلا له؟

ولهذا أكتب وسأكتب حتى تهمد اليد ويسقط القلم.

حين مات صديقي وحزنتُ لفقده، فكرتُ في فلسطين، أهذا ما يشعرون به؟ كلا، بل هو أضعاف هذا، كم منهم مات أقاربه كلهم؟ كم منهم مات أصحابه جلّهم؟ وما زالوا صابرين صبرًا لا يُتصوّر.

مجاهدوا حماس اندفعوا للموت بلا خوف ولولا الإيمان ما فعلوا، فلماذا قعدنا نحن؟ إيماننا ليس كإيمانهم ولا ريب، وماذا سنفعل حيال هذا؟

أستظل أمة الإسلام جالسة فقط لأن حكامها البيادق الخنوعين أمروهم بعدم فعل شيء؟ أهذا عذر لنا يوم القيامة؟

أليس على الحكام أن يمثلوا إرادة الشعب؟ فإن لم يفعلوا، هل الحل هو الجلوس مكتوفي الأيدي هكذا كالأبقار تتفرّج على الذئب يأكل أحدها قبل أن يلتفّ إليها.

الغرب نصر فلسطين المسلمة مثل - أو أكثر حتى - من العرب ومن المسلمين ربما حتى، هذه الفكرة تشعرني بعار وخزي شديد.

كل ما فعلته أنا هو المظاهرات وبعض التبرعات، كان بإمكاني أن أفعل أكثر، أن أنشر وأشارك أكثر، أن أذهب في المسيرة البرية، وأشارك في أسطول الصمود، ولكنني جلستُ وانشغلتُ بأموري وتناسيتُ المجزرة التي لا تتوقف، حين كنتُ أزور المتاجر لبيع كتبي كان هناك أطفال يُفجّرون، أشلاءهم تتناثر على الأرصفة، حين كنتُ أذهب للجامعة من أجل أن أحلّ مسألة الديون كان هناك نسوة يمتن جوعا أو بالرصاص أو بالقنابل.

ماذا لو كان هذا هو الاختبار؟ ماذا لو قال الله يوم القيامة : "كل من لم يفعل شيئا تجاه القضية أو قصّر وكان بإمكانه أن يفعل أكثر في النار".

وددتُ لو توحّد الشباب المسلمون جميعهم تحت قيادة محنكة رشيدة وقلبوا كل شيء رأسا على عقب، وأحدثوا ثورة موجهة من خلالها نحرر فلسطين والعالم أجمع من تسلّط الصهاينة وطاغوت أمريكا.

توقف عبد الله لحظة عن الكتابة ثم تذكر شيئا فسجّله : "حين قرأتُ رواية يحي السنوار رأيته يركز على الشباب بشكل خاص، في صفحات كثيرة منها تجد هذا المقطع يتردد : "شاب فلسطيني في مدينة كذا نزل من سيارة

و.."، ما إن تقرأ هذه العبارة تعرف أن عملية استشهادية على وشك أن تنطلق.

فإذا كان هناك تنسيق وتواصل بين الخبرة والعلم وبين القوة والنشاط تفجرت الأعاجيب.

وددتُ لو قُتِلتُ أنا وجميع أصحابي، أجل، لو قُتلنا في ميدان معركة في سبيل الإسلام، حينها لن أندم ولن أحزن عليهم أبدا، فهكذا سأحظى برفقتهم إلى الأبد في الفردوس.

هل يمكن أن يتحقق هذا في يوم من الأيام؟ أرجو ذلك".

أنهى عبد الله الكتابة، وأغلق كراسته، يمكنه أن يموت الآن مطمئنا، كان قد انتوى أن تكون مذكرته هذه هي أعظم أعماله، العمل الذي يتركه للأجيال من بعده، والذي يريد أن يُذكر به بعد موته.

ربما قد يحيا ليكتب أعمالا أخرى بعد هذه، ولكن لو مات الآن فسيكفيه.

قال بملء فمه وشعور بالامتنان ممزوجا بالاشتياق لصاحبه يراوده :
"الحمد لك يا إلهي على أن وفقتني لإنهائها وأبقيتني حيا حتى اللحظة، الحمد لك".

أغمض عينيه واستمتع بلحظة سلام، خرير المياه، تغريد البلابل، حفيف الأوراق، الحياة يا لها من نعمة، والموت نعمة أيضا لو تدبرت في الحكمة منه مليًّا.

تذكر بضعة أشياء، نزهة مع أخيه الصغير منصور، كان قد بدأ الصلاة للتو، مشى جواره وهو يغبطه في سره، كان منصور يشكو له ثم قال : "أكره هذه الحياة".

فقال له : "أحقا تكرهها؟"

فتفكّر مليا : "لا، لا أقصد ذلك حقا، مهما كانت مشاكلي، فالحمد لله على أني ولدت أصلا".

فابتسم وحدث نفسه : كيف يدرك هذا وهو بعدُ صغير؟ هذه درجة عالية من الوعي والنضج.

أن تحمد الله على أنك تعيش إنسانا بيدك فرصة الاستمتاع بنعيم أبدي فيه ملذات ومسرّات لا تنتهي.

الحيوانات تستحيل ترابا، والجبال تصير عِهنا، والكواكب والنجوم تنفطر وتتناثر، والملائكة سيظلون يعبدون ما حيوا دون رغبة ولا شهوة، فقط الإنس والجن بإمكانهم دخول الجنة.

هذا هو التكريم.

وفتح عينيه فرأى قطة تقترب، كانت بلا عينين، أفزعته أول الأمر، ولكنها حين دنت تتشمّم، مسح على ظهرها، ومسّد فروها وقلبه يفيض رحمة وشفقة بها، أخذت تموء فابتسم لها وخطر له أن يشتري لها قطعة جبن، وتذكر القطة السوداء.

✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸ ✸

لي ذكرى قديمة وأنا صغير تراودني أحيانا، حضرتُ مع أبي وليمة عرس، وكنتُ مريضا لا آكل شيئا إلا وأتقيّؤه، وكنتُ أبغض القيء حقا لطعمه والأحاسيس المقززة التي يأتي بها، خصوصا حين تحسّ بفتات الطعام عالقا في أنفك، لا أذكر كم تقيأتُ يومها قبل أن نذهب للعرس، أكلنا هناك الغداء وبعده بطيخا لذيذا، فجأة شعرتُ بالطعام يندفع صعودا يكاد يخرج في نافورة فهُرعت للحمّام، وتقيأتُ، كنتُ طفلا فأتى أبي معي، غسلتُ فمي وأنا أبكي، انهمرت دموعي لأن هذا الأمر البغيض المقزز لا ينقطع، فصرخ فيّ: "ما خطبك؟ أتبكي لمجرد قيء؟"

أتذكر هذا الآن وأتفكّر في معنى قوله، ولو صغته بعبارة أخرى فستكون هكذا : أتشعر بالحزن أو الذنب لشيء طبيعي لا سيطرة لك عليه؟

هذا ما فهمته حتى إن لم يكن مقصوده، ربما أنا أتصارع مع كوني إنسانا، أبغض هذا الضعف والعجز والوهن وهذه القذارة والنجاسة، والأولى بي أن أتقبّلها لأنه خلق الله وقضاؤه، ولابد وراءه حكمة بالغة.

بل أنا أعرف إحدى الحِكم بالفعل، لولا القيء والبصاق والبلغم والنخام والبول والغائط والحيض ووو.. لكان أسهل لنا بغرورنا وكبريائنا أن نخال أنفسنا آلهة، بل حتى مع هذه الدلائل الساطعة هناك في التاريخ من ألّه نفسه كفرعون والنمرود فما بالك لو أُزيلت؟ كيف تكون إلهً وأنت تذهب للمرحاض؟ هكذا فسّر أحمد ديدات - رحمه الله - الآية الكريمة : "كانا يأكلان الطعام".

ما زلتُ أكره الجلوس في جماعة، وأتوتر وأتململ، وأودُّ لو رحلتُ إلى دغل أو ريف أو صحراء. ولكني آلف ذلك رويدا رويدا وأتقبّله، ولن أكره نفسي مجددا لأجله، وكل يوم يُنسيك هموم الأمس كأنها لم تكن رغم أنك حين تمرُّ بها تتصورها جحيما لا ينتهي، ويوم القيامة لن نذكر شيئا من هذا، إذن فيم القلق؟

على أني أريد أن أحمد الله على نعمة النسيان، فلو تذكرتُ كل لحظة سيئة مررتُ بها طيلة الوقت، لما استطعتُ العيش.

الآن أترككم مع بعض التسابيح التي أتيتُ بها :

الحمد لله عدد جنود الاحتلال الذين احترقوا وماتوا في دباباتهم بقنبلة حملها مجاهد حافي القدمين.

سبحان الله عدد الناس الذين أدركوا ظلم الاستعمار الصهيوني وإجحافه

لا إله إلا الله عدد السنوات المتبقية لترامب ونتنياهو وكل وزرائه

ولا إله إلا الله عدد السنوات التي ستمرُّ بعد سقوطهما وموتهما

الحمد لله يوم تتحرر فلسطين إن شاء الله

الحمد لله عدد السنوات التي سيتلظّى فيها الصهاينة في الجحيم

شاركها 40 مليون مرة ولك الأجر.

مهلا، لا تذهبوا، لدي رسالة : إلى عمي تبون، أنا شاب مسلم جزائري، ديني يأتي قبل قوميتي، وديني يأمرني بنصرة الحق ومؤازرة المسلمين المظلومين حتى لو كانوا في القطب الجنوبي، حتى لو كانوا في المريخ نفسه. أنا أعتقد أن استشاهدي في معركة أفضل من أن أعيش مئة عام ثريا كإلون ماسك، لذا

أناشدك أن تفتح وحدة مجندة خاصة لمن يرغب بالتطوع للقتال في سبيل فلسطين، للتدريب والتجهز قبل الذهاب.
مطلبي بسيط، لستُ أطلب منك أن ترسل الجيش الوطني ولا أن تدخل في حرب مباشرة، فقط أرسلنا لليمن، واترك الباقي علينا.
لدي طلب آخر إن تكرّمت، لقد شاهدتُ مئة مرة استعراضات الجيش، دبابات وطائرات وقاذفات صواريخ، وقرأتُ أن ميزانية ضخمة تذهب في سبيل التسلح، لذا ألا يمكنك أن تستغني بشيء من هذا لحركة حماس المسلحة أو اليمن ولو بشكل سري؟
انظُر ماذا فعلوا بأسلحة بسيطة، فماذا لو دجّجتهم الدول العربية بترسانة؟ أُفضّل أن أرى سلاحنا في يد مجاهد على مشاهدة استعراضات تذهب فيها الذخيرة في فراغ.
شكرا لتفهُّمك.
شيء أخير، لسوف تُحاسب أنت وغيرك من الحكّام يوم القيامة ولسوف يسألك ربك بماذا ساهمت؟ حضّر إجابتك.

مهلا، لدي رسالة أخرى، لا تتعجلوا إنها مجرد برقية إلى نفسي في المستقبل:
أعرف أنك في السجن، اطلب قلما وكراسة واستمتع برفقة الصراصير واليخنة التي تعافها الخنازير، مهلا، أخبرني، هل تذكرك الرائحة هناك بشيء؟ إقامة الطالب عبد الرحمن 2، أليس كذلك؟ السجن أفضل؟!
هههه.

* * * * * * * *

الخاتمة

فإلى الليلة القادمة إذن، مع سبع توائم ملائكية أخرى، بعضها جبرائيلية وبعضها الآخر... عزرائيلية!

بهذه العبارة اختتمتُ الجزء الأول، ووصف "العزرائيلية" استعملته لأني كنتُ بالفعل قد بدأتُ بكتابة قصتين للجزء الثاني وكلتاهما كانتا من صنف الرعب، من أبشع ما كتبتُ على الإطلاق، ولكني توقفتُ عن كتابتهما، وانتقلتُ إلى قصص أخرى، أظن أنكم ستوافقونني حين أقول أن هذا الجزء لم يتضمّن قصصا يمكن أن تُصنّف ضمن الرعب مثل قصة "مطعم" أو قصة "عصر التشتت".

كُتبت هذه المجموعة على مدار عامين، ولهذا قد تلاحظون فروقات في الأسلوب واللغة بين القصص، ولكن أظنها كلها متجانسة من حيث مواضيعها وتيماتها، ولم يُكتب لها أن تتواجد بمعرض الكتاب في طبعته الثامنة والعشرين للأسف، ربما لتكاسلي ومماطلتي في إنهاء قصة "الإله"، كنتُ أؤجل كتابة الجزء الأخير منها لتفادي الألم، الذي كان كأني أنقش حروفها بالإبرة على جلدي.

بل لا أعرف حتى لحظة كتابة هذه الخاتمة إن كنتُ سأطبعها حتى، فقد كانت القصص طويلة حقا هذه المرة، حتى أني أعترف أن بعضها ليست

قصصا إنما روايات قصيرة مثل "الإله" و"فلسطين" و"ما وافق شن طبقة" وقد راودتني أحيانا فكرة إخراجها في روايات منفصلة وكتابة قصص أخرى للمجموعة، وكنتُ لأربح أكثر بهذه الطريقة من ناحية مادية بحتة، ولكني لم أستطع، لأنها القصص الأنسب لها، فقد أفرغتُ فيها كل ما أردتُ التحدث عنه في الجزء الثاني، ولذا لن تكون أي قصص أخرى سوى تكرار مشوه لها.

أما لماذا جعلتُها روايات، فلأني ثرثار لا أستطيع السيطرة على قلمي حين يفيض، وأعتقد أن الروايات القصيرة تسمح لي بوصف الشخصيات بطريقة أكثر واقعية وتماهيا مع القارئ، في حين أن القصص بضيقها لا تسمح للشخصيات بالبروز ولا بالتنفس حتى، فتبدو القصة موعظة أو خطبة أو مثالا في النحو على شاكلة عمر، ونرى الفعل والمفعول به ولا نفهم الفاعل جيدا ولا نعرف منه سوى اسمه.

أريد كذلك سحب اسم من قائمة الكُتّاب الذين ذكرت أنهم ألهموني في خاتمة الجزء الأول وإلقائه في القمامة، وهو نيل جايمان، فقد تبين أنه يهودي ومتهم بالتحرش والاغتصاب كذلك، وأنا لم أضعه في القائمة أصلا إلا من أجل روايته "المحيط في نهاية الدرب" التي أعجبتني، وأريد إضافة بضع أسماء أيضا.

لقد كنتُ أخجل من ذكر تأثير أيّ أحد خارج دائرة الكُتّاب والروائيين علي، ولكني انسلختُ عن هذه النظرة الآن، وأعلنها بكل صراحة أني شاهدتُ الأفلام والأنمي وقرأتُ المانجا وتأثرتُ بها وشغفتُ كما شغفت بالروايات، وإن كنتُ قد تركتُ الأفلام قليلا الآن، حتى لو كانت تحفا فنية لامتلائها

بالمشاهد الفاضحة، ولا أجد تفسيرا لهذا الهوس بها إلا أنه من وحي الشيطان، "ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما"، ولكني لم أترك المانجا كليّة، وأزعم على القول بكل صراحة أن بعض المجلات المصورة اليابانية من ناحية الشخصيات والأحداث والتيمات والإبداع والتجريب أفضل من كثير من الروايات.

ولذا سأُضيف للقائمة : توغاشي، وسوي إشيدا، وأوراساوا، وسأضيف كذلك الروائيين باتريك نس - قرأتُ روايته "نداء الوحش" بعد وفاة صديقي بفترة وجيزة وشعرتُ كأني أختنق حزنا وفرقا - ومايكل كرايتون (أقرأ روايته "الحديقة الجوراسية" حاليا، وقد بدأتُ أفهم سر حب نادر أسامة له)، وكذلك أسطورة القصة القصيرة يوسف إدريس، ونجيب محفوظ - الغني عن التعريف - وعلاء الأسواني ذي الحبكات سريعة الوتيرة، والشخصيات التي تعلق بالذهن للأبد مثل دنانة، ولا أنسى طبعا يحي السنوار، المجاهد الشهيد الروائي المترجم، أريد أن أصير مثلك، أنا روائي ومترجم بالفعل، بقي أن أجاهد وأُستشهد.

أريد أن أصير في عالم الرواية مثل كرايتوس، محارب سبارطي يجول ويداه مغلولتان إلى نصلين من شواظ يعلّقهما على ظهره، ويستلُّهما فيُصلي بهما أعداءه سقر، أريد حين يُذكر اسمي أن يرتجفوا رهبة وحين يقرؤون قصصي أن يرتجفوا نشوة، أريد أن أكتسح الحبكات والأساليب والتشبيهات والاستعارات المكررة، وآتي في كل قصة جديدة بنكهات مختلفة تماما، حتى تشكّ وترتاب في أنها تمخّضت جميعها من عقل كاتب واحد، سأُصاب بانفصام الشخصية ألف مرة من أجل هذه الغاية.

لا أعرف كم سأعيش، أمس فقط انزلقت بنا سيارة تاكسي عبر الطريق السّيار، الحمد لله الذي حفظني وأحياني ليوم آخر، كل ما أعرفه أني ما دمتُ حيًّا سأكتب، وأن كل ما أكتبه ولا أربطه بالله أو بالإسلام فهو مضيعة للحبر والورق.

شكرا لكل الداعمين والمشجعين، شكرا لصالح والحاج زكرياء، وقاسم فرطاس، وأولاد داود يحي، وأشرف بوسنان وحشحوش خليل، وبعوشي زكرياء وسليمان، ومصطفى بوشن، ومصباح إلياس والحاج سعيد إدريس، وغيرهم الكثيرين.

شكرا لكل من انتظر بكل شوق ولهفة صدور هذا الجزء.

لا أعرف متى سيكون الجزء القادم، ربما بعد كتابين على الأرجح.

قبل أن أختم، لدي إعلان توظيف :

أبحث عن وكيل أدبي يمكنه أن ينشر عملي في الخارج، وعن مصمم محتوى احترافي يصمم مثل imdanjo، وعن معلّق صوتي لا يقلّد صوت محمد درويش، بل يتلوّن صوته كالحرباء تكيُّفا مع شخصيات القصة وأحداثها، وعن رسّام يرسم مثل كنتارو ميورا أو تاكيهيكو إينوي، وعن مقدم بودكاست مثل يحي الأطرش، وعن كاتب مقالات ومراجعات مثل أحمد أمين أو أنيس منصور، وعن مترجم مثل هشام فهمي أو نادر أسامة، مهلا، أنا سأترجم، أحتاج فقط إلى الآخرين لأصنع من رواياتي Transmedia storytelling أو Multimedia franchise، وهذا باختصار يُترجم إلى،

قصص عابرة للوسائط، مثال : روايةٌ تُحول إلى مجلة مصورة وكرتون وأفلام وألعاب.

- أنت تحلم، من أنت أصلا حتى تحظى بكل هذا؟ أنت لستَ بمشهور ولا غني، لن تغريهم بشيء.
- اخرج من كتابي، ألا يحقُّ لي أن أحلم حتى في كتاب عنوانه يبدأ ب"أحلام"

أؤمن بأن كتاباتي ذهب مكنون مطمور إذا استخرجته ونظفته ولمّعته وصهرته ثم سبكته في أشكال مختلفة فسيتهافت عليها الناس، إن كنتَ لا ترى هذا فأنت لن ترى الشمس حتى لو هبطت وقبّلت عينيك... ماذا يعني هذا؟ لا أعرف، إلى اللقاء.

للمهتمين تواصلوا معي على هذا الإيميل :
faridwritinglife@gmail.com

إن لم يأتِ أحد في السنوات الخمس القادمة فسأتعلم بنفسي كيف أفعل كل هذا إن شاء الله، ولن أوظف أو أحتاج لأي أحد مستقبلا.